الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء الرابع

(الأعراف – الأنفال – التوبة)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2023م / 1444هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعراف

هذا هو الاسم الذي عرفت به هذه السورة، من عهد النبي ﷺ. أخرج النسائي، من حديث أبي مليكة، عن عروة بن زيد ابن ثابت أنّه قال لمروان به الحكم: " ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين". قال مروان قلت: يا أبا عبد الله ما أطول الطوليين، قال: الأعراف". والمراد بالطوليين سورة الأعراف وسورة الأنعام، فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام، باعتبار عدد الآيات. ويفسّر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: " أنّ رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرّقها في ركعتين ".

ووجه تسميتها، أنّها ذكر فيها لفظ الأعراف بقوله تعالى { وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ } [46]. ولم يذكر في غيرها من سور القرآن، ولأنّها ذكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ، ولكنّه ذكر بلفظ (سور) في قوله {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد :13]

وربما تدعى بأسماء الحروف المقطعة التي في أولها،(ألف، لام، ميم، صاد). وكذلك سمّاها الشيخ ابن أبي زيد في الرسالة في باب سجود القرآن. ولم يعدّوا هذه السورة في السور ذات الأسماء المتعدّدة.

وهي مكيّة بلا خلاف. ثم قيل جميعها مكي، وهو ظاهر رواية مجاهد وعطاء الخراساني عن ابن عباس، وكذلك نقل عن ابن الزبير، وقيل نزل بعضها في المدينة، قال قتادة آية { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [163] نزلت بالمدينة. واحتمل أنها نزلت بمكة وأكمل منها بقيتها تانك الآيتان.

وعن جابر بن زيد أنّها نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن)، ولا أحسب أنّ سورة الأعراف قد نزلت في تلك المدة لأن السور الطوال يظهر أنّها لم تنزل في أول البعثة.

وهي من السبع الطوال التي جعلت في أول القرآن لطولها وهي (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة).

وهي معدودة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد عن ابن عباس.

وعدّ آي سورة الأعراف مائتان وست آيات في عد أهل المدينة والكوفة، ومائتان وخمس في عدّ أهل الشام والبصرة، قال في الإتقان قيل مائتان وسبع.

أغراضها

افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي ﷺ ليبلّغه، وكان افتتاحها كلاما جامعا وهو

مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد، فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان وأكملها شأن سور القرآن.

وتدور مقاصد هذه السورة على :

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله.

وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة.

ووصف ما حلّ بالمشركين والذين كذّبوا الرسل، من سوء العذاب في الدنيا، وما سيحل بهم في الآخرة.

تذكير النّاس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله.

وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان.

وتحذير النّاس من التلبّس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إيّاهم حرمان أنفسهم الطيّبات، ومن الوقوع فيما يزجّ بهم في العذاب في الآخرة.

ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين.

والتذكير بالبعث وتقريب دليله.

والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان.

والتذكير ببديع ما أوجده الله صلاحها وإحيائها.

والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإصلاح.

وأفاض في أحوال الرسل مع أقوامهم المشركين، وممّا لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله النّاس قبل أن ينزل بهم العذاب، وإعذارا لهم ان يقلعوا عن كفرهم وعنادهم، فإنّ العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطال القول في قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

وتخلّل قصّته بشارة الله ببعثة محمد ﷺ وصفة أمته وفضل دينه.

ثم تخلّص إلى موعظة المشركين كيف بدّلوا الحنيفيّة وتقلّدوا الشرك، وضرب لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى.

ووصف حال أهل الضلالة ووصف تكذيبهم بما جاء به الرّسول ووصف آلهتهم بما ينافي الإلهيّة وأن لله الصفات الحسنى صفات الكمال.

ثم أمر الله رسوله ﷺ والمسلمين بسعة الصدر والمداومة على الدعوة وحذّرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته.

{ ألمص }[1]

هذه الحروف الأربعة المقطّعة التي افتتحت بها هاته السورة، ينطق بأسمائها (ألف، لام، ميم، صاد)، لأن المقصود بها أسماء الحروف لا مسمّياتها وأشكالها. وتقدّم الكلام حولها في أوّل سورة البقرة.
كما ذكرنا هناك أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السور أعقبت بذكر القرآن أو الوحي أو في معنى ذلك، وذلك يرجّح أنّ المقصود من هذه الحروف التهجّي، إبلاغا في التّحدّي للعرب بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن، وتخفيفا للعبء عن النبي ﷺ. فتلك جملة مستقلة وهي هنا معدودة آية ولم تعد في بعض السور.

{ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }[2]

{ كِتَابٌ } مبتدأ، ووقع الابتداء بالنكرة إمّا لأنّها أريد بها النوع لا الفرد، وفائدة إرادة النوع الردّ على المشركين إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله، واستبعادهم ذلك، فذكّرهم الله بأنّه كتاب من نوع الكتب المنزّلة على الأنبياء، فكما نزلت صحف إبراهيم وكتاب موسى كذلك نزّل هذا القرآن، فيكون تنكير النوعية لدفع الابتعاد.
وإمّا لأن التنكير أريد به التعظيم والتعجيب ، أي هو كتاب عظيم تنويها بشأنه فصار التنكير في معنى التوصيف.
{ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } يجوز أن يكون المقصود من الإخبار تذكير المنكرين والمكابرين. فالخبر مستعمل في التعريض بتغليط المشركين والمكابرين والقاصدين إغاظة الرّسول ﷺ بالإعراض. ويجوز أن يكون المقصود من الخبر الامتنان والتذكير بالنعمة.
والمقصود: تسكين نفس النبي ﷺ، وإغاظة الكافرين، وتأنيس المؤمنين، أي: هو كتاب أنزل لفائدة، وقد حصلت الفائدة فلا يكن في صدرك حرج إن كذّبوا.
{ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ } الفاء اعتراضية إذ الجملة معترضة بين فعل {أُنْزِلَ} ومتعلّقه وهو {لِتُنْذِرَ بِهِ} ، فإنّ الاعتراض يكون مقترنا بالفاء كما يكون مقترنا بالواو.
الحرج، حقيقته المكان الضيّق من الغابات الكثيرة الأشجار، بحيث يعسر السلوك فيه، ويستعار لحالة النفس عند الحزن والغضب والأسف.
{ لِتُنْذِرَ بِهِ } متعلق بـ {أُنْزِلَ} على معنى المفعول لأجله، لأنّه الغرض الأهمّ لإبطال ما عليه المشركون من

الباطل.

{ **وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** } يجوز أن يكون معطوفا على {لِتُنْذِرَ بِهِ}. وصرّح بمتعلّق { وَذِكْرَى } دون متعلّق {لِتُنْذِرَ} تنويها بشأن المؤمنين وتعريضا بتحقير الكافرين تجاه ذكر المؤمنين.

{ **اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** }[3]

الخطاب موجّه للمشركين، ويندرج فيه المسلمون بالأولى، فبعد أن نوّه الله بالكتاب المنزّل إلى الرّسول ﷺ، وبيّن أنّ حكمة إنزاله للإنذار والذكرى، أمر النّاس أن يتّبعوا ما أنزل إليهم، فالمشركون أنزل إليهم الزجر عن الشرك والاحتجاج على ضلالهم، والمسلمون أنزل إليهم الأمر والنهي والتكليف. فكلٌّ مأمور باتّباع ما أنزل إليه. فوصف الربّ هنا دون اسم الجلالة، للتذكير بوجوب اتباع أمره، لأنّ وصف الربوبيّة يقتضي الامتثال لأوامره، ونهاهم عن اتباع أوليائهم الذين جعلوهم آلهة دونه.

الاتّباع، حقيقته المشي وراء ماش، فمعناه يقتضي ذاتين: تابعا ومتبوعا، يقال: اتّبع وتبع، ويستعار للعمل بأمر الآمر نحو {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه: 92، 93] وهو استعارة تمثيلية مبنية على تشبيه حالتين، ويستعار للاقتداء بسيرة أو قول نحو {وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [البقرة: 168] والمراد بما أنزل هو الكتاب.

{ **وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** } والمقصود من هذا النهي تأكيد مقتضى الأمر باتّباع ما أنزل إليهم اهتماما بهذا الجانب ممّا أنزل أليهم.

الأولياء، جمع وليّ، وهو الموالي، أي الملازم والمعاون، فيطلق على الناصر، والحليف، والصاحب صادق المودّة، واستعير هنا للمعبود وللإله، لأنّ العبادة أقوى أحوال الموالاة.

ويجوز أن يكون مستعملا في المعنى الذي استعمل فيه الاتّباع في قوله { اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ }، أي لا تمتثلوا للأولياء أو أمرهم أو لدعاة الأولياء وسدنتهم.

{ **مِنْ دُونِهِ** } استعارة للترك والإعراض. فإنّ المشركين وإن كانوا قد اعترفوا لله بالإلهيّة، واتبعوا أمره بزعمهم في كثير من أعمالهم؛ كالحجّ ومناسكه والحلف باسمه، فهم أيضا اتّبعوا الأصنام بعبادتها أو نسبة الدين إليها. فكلّ عمل تقرّبوا به إلى الأصنام، وكلّ عمل عملوه امتثالا لأمر ينسب إلى الأصنام، فهم عند عمله يكونون متّبعين اتباعا فيه إعراض عن الله وترك للتقرّب إليه.

{ **قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** } حال سببيّة كاشفة لصاحبها، وليست مقيّدة للنهي، لظهور أنّ المتّبعين أولياء من دون الله ليسوا إلا قليلي التذكّر.

وهذا نداء على إضاعتهم النظر والاستدلال في صفات الله وفي نقائص أوليائهم المزعومين..

{ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ [4] فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين } [5]

الخبر مستعمل في التهديد للمشركين الذين وجّه إليهم التعريض في الآية الأولى والذين قصدوا من العموم. وقد ثلّث هنا بتمحيض التوجيه إليهم.

وإنّما خصّ بالذكر إهلاك القرى، دون ذكر الأمم كما في قوله { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة: 5، 6]، لأنّ المواجهين بالتعريض هم أهل مكّة وهي أم القرى، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها. وتعليق فعل {أَهْلَكْنَا} بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشمول، فهو مغن عن أدوات الشمول، ونظيرها قوله تعالى {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} [يوسف: 82]، فكل هذا من الإيجاز البديع.

وأجري الضميران في قوله {أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا} على الإفراد والتأنيث مراعاة للفظ قرية، ليحصل التماثل بين لفظ المعاد ولفظ ضميره في كلام متّصل القرب، ثم أجريت ضمائر القرية على صيغة الجمع في قوله {أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ } لحصول الفصل بين الضمير ولفظ معاده بجملة فيها ضمير معاده غير لفظ القرية، وهو{بَأْسُنَا بَيَاتاً} وانتقل منه إلى ضمير القرية باعتبار أهلها.

الإهلاك، الإفناء والاستئصال. و هنا بمعنى إرادة الإهلاك.

{ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا } معطوفة على {أَهْلَكْنَاهَا} ، وأصل الفاء العاطفة أن تفيد ترتيب حصول معطوفها بعد حصول المعطوف عليه، ولمّا كان مجيء البأس حاصلا مع حصول الإهلاك أو قبله، إذ هو سبب الإهلاك، عسر على جمع من المفسرين معنى موقع الفاء هنا، حتّى قال الفرّاء: إنّ الفاء لا تفيد الترتيب مطلقا، وعنه أيضا إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت، مثل شتمني فأساء وأساء فشتمني. وعن بعضهم أنّ الكلام جرى على طريقة القلب، والأصل: جاءها بأسنا فأهلكناها. والذي فسّر به الجمهور: أنّ فعل {أَهْلَكْنَاهَا} مستعمل في معنى إرادة الفعل كقوله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [نحل:98] وقوله تعالى {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ} [المائدة: 6] الآية أي فإذا أردت القراءة، وإذا أردتم القيام إلى الصلاة.

والتعبير عن إرادة الفعل بذكر الصيغة التي تدلّ على وقوع الفعل يكون لإفادة عزم الفاعل على الفعل، عزما لا يتأخّر عنه العمل، والغرض من ذلك تهديد السامعين المعاندين وتحذيرهم من أن يحلّ غضب الله عليهم فيريد إهلاكهم.

البيات، مصدر بات، وهو هنا منصوب على الحال من البأس، أي جاءهم البأس مبيّتا لهم، أي جاءهم ليلا، ويطلق البيات على ضرب من الغارة تقع ليلا.

{ **أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** } أي في وقت القيلولة، وهي القائلة، وهي اسم للوقت المبتدئ من نصف النهار المنتهي بالعصر، وفعله: قال يقيل فهو قائل، والمقيل الراحة في ذلك الوقت.

{ **أو**} لتقسيم القرى المهلَكة، إلى مهلَكة في الليل، ومهلَكة في النهار، والمقصود من هذا التقسيم تهديد أهل مكّة حتّى يكونوا على وجل في كل وقت، لا يدرون متى يحلّ بهم العذاب، بحيث لا يأمنون في وقت ما.

وخصّ هذان الوقتان من بين أوقات الليل والنّهار، لأنّهما اللذان يطلب فيهما النّاس الراحة والدعة، فوقوع العذاب فيهما أشدّ على الناس، ولأنّ التذكير بالعذاب فيهما ينغّص على المكذّبين تخيّل نعيم الوقتين.

{ **فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ** } يصحّ أن تكون الفاء فيه للترتيب الذكري تبعا للفاء في قوله {فَجَاءَهَا بَأْسُنَا} لأنّه من بقية المذكور، ويصحّ أن يكون للترتيب المعنوي لأنّ دعواهم ترتبت على مجيء البأس.

والدعوى اسم بمعنى الدعاء كقوله {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} [يونس: 10] وهو كثير في القرآن. والدعاء هنا لرفع العذاب، أي الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب، وذلك أنّ شأن النّاس إذا حلّ بهم العذاب أن يجأروا إلى الله بالاستغاثة.

{ **إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين** } ومعنى الحصر أنّهم لم يستغيثوا الله ولا توجهوا إليه بالدعاء ولكنهم وضعوا الاعتراف بالظلم موضع الاستغاثة فلذلك استثناه الله من الدعوى.

واقتصارهم على ذلك القول، إمّا لأنّ ذلك القول مقدّمة التوبة لأنّ التوبة يتقدمها الاعتراف بالذنب، فهم اعترفوا على نيّة أن ينتقلوا من الاعتراف إلى طلب العفو، فعوجلوا بالعذاب، فكان اعترافهم آخر قولهم في الدنيا مقدّمة لشهادة ألسنتهم عليهم في الحشر، وإمّا لأنّ الله أجرى ذلك على ألسنتهم وصرفهم عن الدعاء إلى الله ليحرمهم موجبات تخفيف العذاب.

والمراد، اعترافهم بأنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد، وتكذيب الرسل، والإعراض عن الآيات، وصمّ الأذان عن الوعيد والوعظ، وذلك يجمعه الإشراك بالله، قال تعالى {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]، وذلك موضع الاعتبار للمخاطبين بقوله {وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} [الأعراف: 3] أي أنّ الله لم يظلمهم، فيكون الكلام إقرارا محضا، فصيغة الخبر مستعملة في إنشاء الإقرار.

وهذا القول يقولونه لغير مخاطب معين، كشأن الكلام الذي يجري على اللسان عند الشدائد، مثل لويل والثبور، فيكون الكلام مستعملا في معناه المجازي، أو يقوله بعضهم لبعض، بينهم، على معنى التوبيخ، والتوقيف على الخطا، وإنشاء الندامة، فيكون مستعملا في المعنى المجازي الصريح، والمعنى الكنائي.

{ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** [6] **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** } [7]

انتقال من الخبر عن حالتهم الدنيوية إلى الخبر عن أحوالهم في الآخرة، وأكّد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك.

وسؤال الذين أرسل إليهم سؤال عن بلوغ الرسالة. وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر. وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرسالة، سؤال إرهاب لأممهم، لأنّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنّهم مسوقون إلى العذاب، و تقدّم ذلك في قوله {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ} [النساء: 41].

{ **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ** } الفاء للتفريع والترتيب على قوله {فَلَنَسْأَلَنَّ} ، أي لنسألنّهم ثم نخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم، أي فلنقصنّ عليهم تفاصيل أحوالهم. وبـ {علم} التنكير للتعظيم.

القصّ، الإخبار، يقال: قصّ عليه، بمعنى أخبره، وتقدّم في قوله تعالى {يَقُصُّ الْحَقَّ}[الأنعام :57]

{ **وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** } معطوفة على {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ} ، وهي في موقع التذييل.

والغائب ضد الحاضر، وهو هنا كناية عن الجاهل، أي، وما كنّا جاهلين بشيء من أحوالهم.

{ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** [8] **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** }[9]

عطفت على جملة {فَلَنَقُصَّنَّ}، لما تضمّنته المعطوف عليها من العلم بحسنات النّاس وسيّئاتهم، فلا جرم أشعرت بأنّ مظهر ذلك العلم وأثره هو الثواب والعقاب، وتفاوت درجات العاملين ودركاتهم تفاوتا لا يظلم العامل فيه مثقال ذرة.

الوزن، حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين أو كليهما في تعادلهما أو تفاوتهما في المقدار، والأجسام التي تجعل لتعيين المقادير تسمى موازين، وأحدها ميزان، وتسمّى أوزانا وأحدها وزن، ويطلق الوزن على معرفة مقدار حال في فضل ونحوه قال تعالى {فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً} [الكهف: 105] وفي حديث أبي هريرة، في الصحيحين: " إنّه ليؤتى بالعظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ". ويستعار استعارة تمثيلية للتدبير في أحوال، كقول الراعي:

وزنت أميّة أمرها فدعت له ... من لم يكن غمرا ولا مجهولا

فالوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقادير ما تستحقّه الأعمال من الثواب والعقاب تعيينا لا إجحاف فيه، كتعيين الميزان على حسب ما عيّن الله من ثواب أو عقاب على الأعمال، وذلك مما يعلمه الله تعالى، ككون العمل الصالح لله وكونه رياء، وككون الجهاد لإعلاء كلمة الله، أو كونه لمجرّد الطمع في الغنيمة، فيكون الجزاء على قدر العمل.

{ **الْحَقُّ** } بمعنى العدل، أي الجزاء عادل غير جائر، لأنّه من أنواع القضاء والحكم.

{ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } ، فهو تفصيل للوزن ببيان أثره على قدر الموزون. وثقل الميزان في المعنى الحقيقي رجحان الميزان بالشيء الموزون، وهو هنا مستعار لاعتبار الأعمال الصالحة غالبة ووافرة، أي من ثقلت موزاينه الصالحات، وإنّما لم يذكر ما ثقلت به الموازين لأنّه معلوم من اعتبار الوزن، لأنّ متعارف النّاس أنّهم يزنون الأشياء المرغوب في شرائها المتنافس في ضبط مقاديرها والتي يتغابن النّاس فيها.

والثقل مع تلك الاستعارة هو أيضا ترشيح لاستعارة الوزن للجزاء، ثم الخفّة مستعارة لعدم الأعمال الصالحة أخذا بغاية الخفّة على وزان عكس الثقل.

الفلاح، حصول الخير وإدراك المطلوب، و تقدّم في قوله تعالى {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة :5]

{ **هُمُ** } ضمير الفصل لقصد الانحصار أي هم الذين انحصر فيهم تحقّق المفلحين.

{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** } الخسران، حقيقته ضد الربح، ويستعار لفقدان نفع ما يرجى منه النفع.

فنفوس المشركين قد سوّلت لهم أعمالا كانت سبب خفّة موازين أعمالهم.

{ **بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** } باء السببيّة، وما مصدريّة، أي بكونهم ظلموا بآياتنا في الدنيا، فصيغة المضارع في قوله {يَظْلِمُونَ} لحكاية حالهم في تجدّد الظلم فيما مضى.

والظلم هنا ضدّ العدل، أي يظلمون الآيات فلا ينصفونها حقّها من الصدق. وإنّما جعل تكذيبهم ظلما لأنّه تكذيب ما قامت الأدلة على صدقه، فتكذيبه ظلم للأدلة بدحضها وعدم إعمالها.

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ }[10]

فهذا تذكير لهم بأنّ الله هو وليّ الخلق، لأنّه خالقهم على وجه الأرض، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم، وتوبيخ على قلّة شكرها، كما دلّ عليه تذييل الجملة بقوله { قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ }، فإنّ النفوس التي لا يزجرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة.

وتأكيد الخبر بلام القسم وقد، المفيد للتحقيق، لتنزيلهم منزلة من ينكر مضمون الخبر، لأنّهم لمّا عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أنّ الله هو الذي مكّنهم من الأرض.

التمكين، جعل الشيء في مكان، وهو يطلق على الإقدار على التصرّف، على سبيل الكناية، وقد تقدّم عند قوله تعالى {مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ} [الأنعام :6]. أي جعلنا لكم قدرة، أي أقدرناكم على أمور الأرض وخولناكم التصرّف في مخلوقاتها، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهّلته لسيادة هذا العالم. وليس المراد من التمكين هنا القوّة والحكم، ولا معناه الحقيقي، وهو جعل المكان في

الأرض.

معايش، جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحيّ من الطعام والشراب، مشتقّة من العيش وهو الحياة، سمّي به الشيء الذي به العيش، تسمية للشيء باسم سببه على طريقة المجاز الذي غلب حتى صار مساويا للحقيقة.

{ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** } الخطاب للمشركين خاصة، لأنّهم الذين قلّ شكرهم لله تعالى إذ اتخذوا معه آلهة. ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم كما تقدم آنفا في أول السورة، ويجوز أن يكون على حقيقته، أي إنّ شكركم الله قليل، لأنّهم لمّا عرفوا أنّه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره والإقبال على عبادة الأصنام وما يتبعها.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [11] قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [12] قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين } [13]

تذكير بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية، لأنّ الوجود أشرف من العدم، بقطع النظر عما قد يعرض للموجود من الأكدار والمتاعب، وبنعمة تفضيله على النوع بأن أمر الملائكة بالسجود لأصله، وأدمج في هذا الامتنان تنبيه وإيقاظ إلى عداوة الشيطان لنوع الإنسان من القدم، ليكون ذلك تمهيدا للتحذير من وسوسه وتضليله، وإغراء بالإقلاع عمّا أوقع فيه النّاس من الشرك والضلالة، وهو غرض السورة، فلذلك كان هذا بمنزلة الاستدلال وُسِّط في خلال الموعظة. والخطاب للنّاس كلّهم، والمقصود منه المشركون.

الخلق، الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وصف الله به.

التّصوير، جعل الشيء صورة، والصورة الشكل الذي يشكّل به الجسم كما يشكّل الطين بصورة نوع من الأنواع.

{ **ثمّ** } الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق، لأنّ التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانيّة المتقنة حسنا وشرفا، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارنا للخلق كما في خلق آدم، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنّة من عظام ولحم وعصب وعروق ومشاعر.

وأمّا تعلّق فعليّ الخلق والتصوير بضمير المخاطبين فمراد منه أصل نوعهم الأوّل وهو آدم بقرينة تعقيبه بقوله {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ}، فنزل خلق أصل نوعهم منزلة خلق أفراد النوع الذين منهم المخاطبون لأنّ المقصود التذكير بنعمة الإيجاد ليشكروا موجدهم.

{ **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** } على أنّ المخلوق والمصوّر هو آدم، ومعنى الكلام خلقنا أصلكم وصوّرناه فبرز موجودا معيّنا مسمّى بآدم، فإنّ التّسمية طريق لتعين المسمّى، ثم أظهرنا فضله وبديع صنعنا فيه فقلنا للملائكة اسجدوا له فوقع إيجاز بديع في نسج الكلام.

{ **ثُمَّ** } عاطفة الجملة على الجملة، فهي مفيدة للتراخي الرتبي لا للتراخي الزماني وذلك أن مضمون الجملة المعطوفة هنا أرقى رتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها.

وتقدم تفسيره، وبيان ما تقدّم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، من ظهور فضل ما علّمه الله من الأسماء ما لم يعلّمه الملائكة، عند قوله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ} [البقرة :34]

{ **الْمَلائِكَةِ** } التعريف للجنس فلا يلزم أن يكون الأمر عاما لجميع الملائكة، بل يجوز أن يكون المأمورون هم الملائكة الذين كانوا في المكان الذي خلق فيه آدم، ونقل ذلك عن ابن عباس. ويحتمل الاستغراق لجميع الملائكة. وطريق أمرهم جميعا وسجودهم جميعا لآدم لا يعلمه إلّا الله.

واعلم أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم لا يقتضي أن يكون آدم قد خلق في العالم الذي فيه الملائكة بل ذلك محتمل، ويحتمل أن الله لمّا خلق آدم حشر الملائكة، وأطلعهم على هذا الخلق العجيب. فإنّ الملائكة ينتقلون من مكان إلى مكان. فالآية ليست نصّا في أنّ آدم خلق في السماوات، ولا أنّه في الجنّة التي هي دار الثواب والعقاب، وإن كان ظاهرها يقتضي ذلك، وبهذا الظاهر أخذ جمهور أهل السنّة، وتقدّم ذلك في سورة البقرة.

{ **إِلاَّ إِبْلِيسَ** } استثناء إبليس من الساجدين يدلّ على أنّه كان في عداد الملائكة، لأنّه كان مختلطا بهم. وقال السكّاكي في المفتاح: عدّ إبليس من الملائكة بحكم التغليب.

{ **لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** } حال من (إبليس)، وهي حال تأكيد، إشارة إلى أنّه انتفى عنه السجود انتفاء شديدا لأنّ قولك: لم يكن فلان من المهتدين، يفيد من النفي أشدّ مما يفيده قولك: لم يكن مهتديا.

وفي الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى خلق في نفس إبليس جبلّة تدفعه إلى العصيان عندما لا يوافق الأمر هواه، وجعل له هوى ورأيا، فكانت جبلّته مخالفة لجبلّة الملائكة. وإنّما استمر في عداد الملائكة لأنذه لم يحدث من الأمر ما يخالف هواه، فلمّا حدث الأمر بالسجود ظهر خلق العصيان الكامن فيه.

{ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** } ابتداء المحاورة، لأنّ ترك إبليس السجود لآدم بمنزلة جواب عن قول الله {اسْجُدُوا لِآدَمَ}، وضمير {قَالَ} عائد إلى معلوم من المقام أي قال الله تعالى، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: قلنا، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتا، نكتته تحويل مقام الكلام، إذ كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمرتهم فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة.

{ **مَا** } للاستفهام، وهو استفهام ظاهره حقيقي، ومشوب بتوبيخ، والمقصود إظهار مقصد إبليس للملائكة.

{ **مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** } معناه صدّك وكفّك عن السجود، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما منعك أن تسجد لأنّه

إنّما كف عن السجود لا عن نفي السجود فقد قال تعالى في الآية الأخرى {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [صّ: 75]، فلذلك كان ذكر (**لا**) هنا على خلاف مقتضى الظاهر، فقيل هي مزيدة للتأكيد، ولا تفيد نفيا، لأنّ الحرف المزيد للتأكيد لا يفيد معنى غير التأكيد. و(لا) من جملة الحروف التي يؤكّد بها الكلام كما في قوله تعالى { لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:1]، وقوله { لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الحديد: 29]، أي ليعلم أهل الكتاب علما محققا. وهذا تأويل الكسائي، والفراء، والزجاج، والزمخشري، وفي توجيه معنى التأكيد إلى الفعل مع كون السجود غير واقع فلا ينبغي تأكيده خفاءٌ، لأنّ التوكيد تحقيق حصول الفعل المؤكد، فلا ينبغي التعويل على هذا التأويل.

وقيل (لا) نافية، ووجودها يؤذن بفعل مقدّر دلّ عليه {مَنَعَكَ} لأنّ المانع من شيء يدعو لضدّه، فكأنه قيل: ما منعك أن تسجد فدعاك إلى أن لا تسجد، فإمّا أن يكون {مَنَعَكَ} مستعملا في معنى دعاك، على سبيل المجاز، و(لا) هي قرينة المجاز، وهذا تأويل السكّاكي في المفتاح في فصل المجاز اللغوي، وقريب منه لعبد الجبّار فيما نقله الفخر عنه، وهو أحسن تأويلا. وإمّا أن يكون قد أريد الفعلان، فذكر أحدهما وحذف الآخر، وأشير إلى المحذوف بمتعلّقه الصالح له فيكون من إيجاز الحذف، وهو اختيار الطبري ومن تبعه.

وانظر ما قلته عند قوله تعالى {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ} [طه:92، 93]

{ **إِذْ أَمَرْتُكَ** } يقتضي أنّ أمر الملائكة شامل له، إمّا لأنّه صنف من الملائكة، فخلق الله إبليس أصلا للجنّ ليجعل منه صنفا متميّزا عن بقية الملائكة بقبوله للمعصية، وهذا هو ظاهر القرآن، وإليه ذهب كثير من الفقهاء، وقد قال الله تعالى {إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [الكهف: 50] .

وإمّا لأنّ الجنّ نوع آخر من المجرّدات، وإبليس أصل ذلك النوع، جعله الله في عداد الملائكة، فكان أمرهم شاملا له بناء على أنّ الملائكة خلقوا من النور وأنّ الجنّ خلقوا من النّار. وفي صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: " خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار "، وإلى هذا ذهب المعتزلة وبعض الأشاعرة، وقد يكون المراد من النّار نورا مخلوطا بالمادة، ويكون المراد بالنّور نورا مجردا، فيكون الجنّ نوعا من جنس الملائكة أحطّ، كما كان الإنسان نوعا من جنس الحيوان أرقى.

{ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** } مسوق مساق التعليل للامتناع من السجود، بأنّه رأى نفسه خيرا من آدم، فلم يمتثل، وهذا معصية صريحة.

{ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ** } عطف البيان من المبين. وحصل لإبليس العلم بكونه مخلوقا من نار، بإخبار من الملائكة الذين شهدوا خلقه، أو بإخبار من الله تعالى. وهذا ثابت، قال تعالى { وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} [الرحمن: 15] وإبليس من جنس الجنّ، قال تعالى {فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف :50].

واستند في تفضيل نفسه إلى فضيلة العنصر الذي خلق منه على العنصر الذي خلق منه آدم.
النار، أفضل من التراب لقوّة تأثيرها وتسلّطها على الأجسام التي تلاقيها، ولأنّها تضيء، ولأنّها زكيّة لا تلصق بها الأقذار، والتراب لا يشاركها في ذلك وقد اشتركا في أنّ كليهما تتكون منه الأجسام الحيّة كلّها.
وأما النور الذي خلق منه الملك فهو أخلص من الشعاع الذي يبين من النّار مجردا عن ما في النّار من الأخلاط الجثمانية.
الطين، التراب المختلط بالماء، والماء عنصر آخر تتوقف عليه الحياة الحيوانيّة مع النّار والتراب.
وظاهر القرآن في آيات هذه القصّة كلّها أنّ شرف النّار على التراب مقرّر، وأن إبليس أُوخذ بعصيان أمر الله عصيانا باتا، والله تعالى لمّا أمر الملائكة بالسجود لآدم قد علم استحقاق آدم ذلك بما أودع الله فيه من القوّة التي قد تبلغ به إلى مبلغ الملائكة في الزكاء والتقديس. فأمّا إبليس فغرّه زكاء عنصره، وذلك ليس كافيا في التفضيل وحده، ما لم يكن كيانه من ذلك العنصر مهيئا إيّاه لبلوغ الكمالات، لأن العبرة بكيفية التركيب واعتبار خصائص المادة المركّب منها بعد التركيب، بحسب مقصد الخالق عند التركيب، ولا عبرة بحالة المادة المجرّدة. فالله تعالى ركّب إبليس من عنصر النّار على هيئة تجعله يستخدم آثار القوّة العنصريّة في الفساد والاندفاع إليه بالطبع دون نظر، بحسب خصائص المادة المركّب هو منها. وركّب آدم من عنصر التراب على هيئة تجعله يستخدم آثار القوة العنصرية في الخير والصلاح والاندفاع إلى ازدياد الكمال بمحض الاختيار والنظر، بحسب ما تسمح به خصائص المادة المركّب هو منها، وكل ذلك منوط بحكمة الخالق للتركيب. وركّب الملائكة من عنصر النّور تجعلهم يستخدمون قواهم العنصرية في الخيرات المحضة، والاندفاع إلى ذلك بالطبع دون اختيار ولا نظر، بحسب خصائص عنصرهم.
ولذلك كان بلوغ الإنسان إلى الفضائل الملكية أعلى وأعجب، وكان مبلغه إلى الرذائل الشيطانية أحط وأسهل. ومن أجل ذلك خوطب بالتكليف. ولأجل هذا المعنى أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أصل النوع البشري لأنّه سجود اعتراف لله تعالى بمظهر قدرته العظيمة، وأمر إبليس بالسجود له كذلك.
فأمّا الملائكة فامتثلوا أمر الله ولم يعلموا حكمته، وانتظروا البيان، كما حكى عنهم بقوله { قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:32] فجاءهم البيان مجملا بقوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30]، ثمّ مفصلا بقصة قوله { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - إلى قوله - وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة :33]
{ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا** } عاقبه الله على عصيانه بإخراجه من المكان الذي كان فيه في اعتلاء وهو السماء. وأحلّ الملائكة فيه. وجعله مكانا مقدّسا فاضلا على الأرض. فإنّ ذلك كلّه بجعل آلهي بإفاضة الأنوار وملازمة الملائكة.

الهبوط، إمّا حقيقة إن كان المكان عاليا، وإمّا استعارة للبعد عن المكان المشرّف. بتشبيه البعد عنه بالنزول من مكان مرتفع وقد تقدّم ذلك في سورة البقرة.

{ **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** } الفاء للسببيّة والتفريع تعليلا للأمر بالهبوط، وهو عقوبة خاصة، عقوبةَ إبعاد عن المكان المقدّس، لأنّه قد صار خلقه غير ملائم لما جعل الله ذلك المكان له، وقد قال مالك رحمه الله: " لا تحدثوا بدعة في بلدنا ". وهذه الآية أصل في ثبوت الحقّ لأهل المحلّة أن يخرجوا من محلّتهم من يُخشى من سيرته فشو الفساد بينهم.

{مَا يَكُونُ لَكَ} صيغة نفي أشد من النفي بـ (ليس لك) كما تقدّم عند قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ} [آل عمران :79].

{ **فَاخْرُجْ** } تأكيد لجملة { فَاهْبِطْ } بمرادفها، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية لزيادة تأكيد تسبّب الكبر في إخراجه من الجنّة.

{ **إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** } يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا، إذا كان المراد من الخبر الإخبار عن تكوين الصغار فيه، بجعل الله تعالى إيّاه صاغرا حقيرا حيثما حلّ. ويجوز أن تكون واقعة موقع التعليل للإخراج على طريقة استعمال (إنّ) في مثل هذا المقام استعمال (فاء) التعليل، فهذا إذا كان المراد من الخبر إظهار ما فيه من الصغار والحقارة التي غفل عنها فذهبت به الغفلة عنها إلى التكبّر.

الصاغر، المتّصف بالصغار وهو الذلّ والحقارة، وإنّما يكون له الصغار عند الله لأنّ جبلته صارت على غير ما يرضي الله، وهو صغار الغواية.

{ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [14] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ } [15]

لما كوّن الله فيه الصغار والحقارة بعد عزّة الملكيّة وشرفها انقلبت مرامي همّته إلى التعلّق بالسفاسف، فسأل النظرة بطول الحياة إلى يوم البعث، إذ كان يعلم قبل ذلك أنّه من الحوادث الباقية لأنّه من أهل العالم الباقي، فلما أهبط إلى العالم الأرضي ظنّ أنّه صائر إلى العدم، فلذلك سأل النظرة إبقاء لما كان له من قبل.

{ **إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** } أي أنك من المخلوقات الباقية. أي أنّ الله خلق خلقا وقدّر بقاءهم إلى يوم البعث.

فجواب الله تعالى لإبليس إخبار عن أمر تحقّق، وليس إجابة لطِلْبة إبليس، لأنّه أهون على الله من أن يجيب له طلبا، وهذه هي النكتة في العدول عن أن يكون الجواب: أنظرتك أو أجبت لك، ممّا يدلّ على تكرمة باستجابة طلبه، ولكنّه أعلمه أنّ ما سأله أمر حاصل.

{ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [16] ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [17]

خلق الله في نفس إبليس مقدرة على إغواء النّاس بقوله {إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}، وجعله باقيا متصرّفا بقواه الشرّيرة إلى يوم البعث، بجبلّة قَلَبه الله إليها قلْبا وهو من المسخ النفساني، وإنّه فاعل ذلك لا محالة، مع علمه بأنّ ما يصدر عنه هو ضلال وفساد، فصدور ذلك منه كصدور النهش من الحية.

وهذا الكلام يدلّ على أنّ إبليس علم أن الله خلق البشر للصلاح والنفع، وأنّه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سمّيت أعمال الخير، في حكاية كلام إبليس، صراطا مستقيما، وإضافة إلى ضمير الجلالة، لأنّ الله دعا إليه وارد من النّاس سلوكه.

وبهذا الاعتبار كان إبليس عدوّا لبني آدم، لأنّه يطلب منهم ما لم يخلقوا لأجله، وما هو مناف للفطرة التي فطر الله عليها البشر، فالعداوة متأصّلة وجبلّيّة بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان السالمة من التغيير، وذلك ما أفصح عنه الجعل الإلهي المشار إليه بقوله {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: 36]، وبه سيتّضح كيف انقلبت العداوة ولاية بين الشياطين وبين البشر الذين استحبّوا الضلال والكفر على الإيمان والصلاح.

{ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ } التدرّج في الإخبار إلى خبر أهم، لأنّ الجملة الأولى أفادت الترصّد للبشر بالإغواء، والجملة المعطوفة أفادت التهجّم عليهم بشتّى الوسائل.

وكما ضُرب المثل لهيئة الحرص على الإغواء بالقعود على الطريق، كذلك مُثّلت هيئة التوسّل إلى الإغواء بكل وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو إذ يأتيه من كل جهة حتى يصادف الجهة التي يتمكّن فيها من أخذه، فالكلام تمثيل، وليس للشيطان مسلك للإنسان إلّا من نفسه وعقله بإلقاء الوسوسة في نفسه، وليست الجهات الأربع المذكورة في الآية بحقيقة، ولكنّها مجاز تمثيلي بما هو متعارف في محاولة النّاس ومخاتلتهم، ولذلك لم يذكر في الآية الإتيان من فوقهم ومن تحتهم، إذ ليس ذلك من شأن النّاس في المخاتلة والمهاجمة.

{ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } زيادة في بيان قوّة إضلاله بحيث لا يفلت من الوقوع في حبائله إلّا القليل من النّاس. وكنّى بنفي الشكر عن الكفر إذ لا واسطة بينهما كما قال تعالى {وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152]

{ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ }[18]

أعاد الله أمره بالخروج من السماء تأكيدا للأمرين الأول والثاني {اهْبِطْ مِنْهَا} وقوله {فَاخْرُجْ} [13]

مذموم، اسم مفعول من ذَأَمه (مهموزا)، إذا عابه وذمّه ذأما، وقد تسهّل همزة ذأم فتصير ألفا فيقال ذام ولا تسهل في بقية تصاريفه.

مدحور، مفعول من دَحَرَه إذا أبعده وأقصاه، أي: أُخرُج خروجَ مذموم مطرود، فالذمّ لما اتصف به من الرذائل، والطرد لتنزيه عالم القدس عن مخالطته.
والتقدير: أقسم من تبعك منهم لأملأن جهنم منهم ومنك.
{ **أَجْمَعِينَ** } التأكيد للتنصيص على العموم لئلا يحمل على التغليب، وذلك أنّ الكلام جرى على أمّة بعنوان كونهم أتباعا لواحد، والعرب قد تجري العموم في مثل هذا على المجموع دون الجميع، كما يقولون: قتلت تميم فلانا، وإنما قتله بعضهم.

{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }[19]

هذا من عطف المتكلّم بعض كلامه على بعض، إذا كان لبعض كلامه اتصال وتناسب مع بعضه الآخر، ولم يكن أحد الكلامين موجّها إلى الذي وجه إليه الكلام الآخر، مع اتحاد مقام الكلام، كما يفعل المتكلم مع متعدّدين في مجلس واحد فيقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصّه.
إن كان آدم خلق في الجنّة، فكان مستقرا بها من قبل، فالأمر {اسْكُنْ} إنّما هو أمر تقرير، أي أبق في الجنّة، وإن كان قد خلق خارج الجنّة فالأمر للإذن تكريما له، وأيّا ما كان ففي هذا الأمر، بمسمع من إبليس، مقمعة له. فقد دلّ موقع هذا الكلام، في هذه السورة، على معنى عظيم من قمع إبليس، زائد على ما في آية سورة البقرة، وإن كانتا متماثلتين في اللفظ، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع وهذا من بدائع إعجاز القرآن. ووجه إيثار هذه الآية بهذه الخصوصية، أنّ هذا الكلام مسوق إلى المشركين الذين اتخذوا الشيطان وليّا من دون الله، فأمّا ما في سورة البقرة فإنّه لموعظة بني إسرائيل، وهم ممّن يحذر الشيطان ولا يتّبع خطواته.
{ **وَيَا آدَمُ** } النداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملأ. والإتيان بالضمير المنفصل بعد الأمر(**أنت**)، لقصد زيادة التنكيل بإبليس لأنّ ذكر ضميره في مقام العطف يذكّر غيره بأنه ليس مثله، إذ الضمير وإن كان من قبيل اللقب وليس له مفهوم مخالفة، فإنّه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضمير بالقرينة على طريقة التعريض. وهذه نكتة فاتني العلم بها في آية سورة البقرة فضمّها إليها أيضا.
{ **فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا** } أذن الله لآدم بأن يتمتّع بثمار الجنّة عقب أمره بالسكنى فيها. وتلك منّة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام.
{ **وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** } أشدّ في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها، لأنّ النهي عن قربانها سدّ لذريعة الأكل منها وقد تقدّم نظيره في سورة البقرة.

والنهي عن قربان شجرة خاصة من شجر الجنّة، يحتمل أن يكون نهي ابتلاء، جعل الله شجرة مستثناة من شجر الجنّة من الإذن بالأكل منها، تهيئة للتكليف بمقاومة الشهوة لامتثال النهي، لتتكوّن مختلف القوى العقليّة في عقل النوع بتأسيسها في أصل النوع، فتنتقل بعده إلى نسله. وذلك من اللطف الإلهي في تكوين النوع ومن مظاهر حقيقة الربوبيّة والمربوبيّة.

والقول أنّ ذلك لخصوصية في طبع تلك الشجرة أن تثير في النفس علم الخير والشر، كما جاء في التوراة أنّ الله نهاه عن أكل شجرة معرفة الخير والشر، فهو عندي بعيد.

والإشارة إلى شجرة مشاهدة، وقد رويت روايات ضعيفة في تعيين نوعها وذلك مما تقدّم في سورة البقرة.

{ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** } والمراد بـ {الظَّالِمِينَ}، الذين يحقّ عليهم وصف الظلم، إمّا لظلمهم أنفسهم وإلقائها في العواقب السيّئة، وإمّا لاعتدائهم على حقّ غيرهم، فإنّ العصيان ظلم لحقّ الربّ الواجب طاعته.

{ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** [20] **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** } [21]

والوسوسة الكلام الخفي الذي لا يسمعه إلا المداني للمتكلّم. وسمّي إلقاء الشيطان وسوسة، لأنّه ألقى إليهما تسويلا خفيّا من كلام كلّمهما به أو انفعال في أنفسهما.

ثم درج اصطلاح القرآن وكلام الرّسول ﷺ على تسمية إلقاء الشيطان في نفوس النّاس خواطر فاسدة، وسوسة تقريبا لمعنى ذلك الإلقاء للإفهام كما في قوله {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} [الناس:4]، وهذا التّفصيل لإلقاء الشيطان كيده انفردت به هذه الآية عن آية سورة البقرة، لأنّ هذه خطاب شامل للمشركين وهم أخلياء عن العلم بذلك فناسب تفظيع أعمال الشيطان بمسمع منهم.

{ **لِيُبْدِيَ** } اللام، لام العاقبة إذا كان الشيطان لا يعلم أن العصيان يفضي بهما إلى حدوث خاطر الشر في النفوس وظهور السوآت. ويجوز أن تكون لام العلّة الباعثة، إذا كان الشيطان يعلم ذلك بالإلهام أو بالنظر.

والحاصل أنّه أراد الإضرار، لأنّه قد استقر في طبعه عداوة البشر، {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً} [فاطر: 6].

الإبداء، ضد الإخفاء، فالإبداء كشف الشّيء وإظهاره، ويطلق مجازا على معرفة الشّيء بعد جهله يقال: بدا لي أن أفعل كذا. وأسند إبداء السوآت إلى الشيطان لأنّه المتسبّب فيه على طريقة المجاز العقلي.

السوآت، جمع سوأة وهي اسم لما يسوء ويتعيّر به من النقائص، ومن سبّ العرب قولهم: سوأةً لك، ومن تلهّفهم: يا سوْأتَا. ويكنّى بالسوأة عن العورة.

والسوآت هنا يجوز أن تكون جمع السوأة للخصلة الذميمة، فتكون صيغة الجمع على حقيقتها. ويجوز أن تكون جمع السوأة، المكنّى بها عن العورة، وقد روي تفسيرها بذلك عن ابن عباس، كقوله تعالى {قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ} [الأعراف: 26]، وعلى هذا فصيغة الجمع مستعملة في الاثنين للتخفيف، كقوله تعالى {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحريم: 4].

{ **وُورِيَ عَنْهُمَا** } حجب عنهما وأخفي، مشتقا من المواراة وهي التغطية والإخفاء، وتطلق المواراة مجازا على صرف المرء عن علم شيء بالكتمان أو التلبيس.

{ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا** } العطف على {فَوَسْوَسَ} يدل على أن الشيطان وسوس لهما وسوسة غير قوله {مَا نَهَاكُمَا} ثمّ ثنّى وسوسته بأن قال ما نهاكما، ولو كانت جملة {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا} إلى آخرها بيانا لجملة {فَوَسْوَسَ} لكانت جملة {وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا} بدون عاطف، لأنّ البيان لا يعطف على المبين. وفي هذا العطف إشعار بأنّ آدم وزوجه تردّدا في الأخذ بوسوسة الشيطان فأخذ الشيطان يراودهما.

{ **عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** } الإشارة إلى الشجرة التي نهاه الله عنها.

{ **إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ** } استثناء من علل. أي ما نهاكما لعلّة وغرض إلّا لغرض أن تكونا ملكين، وكانا يشاهدان تفضيل الملائكة عند الله تعالى وزلفاهم وسعة مقدرتهم، فأطمعهما إبليس أن يصيرا من الملائكة إذا أكلا من الشجرة، وقيل المراد التشبيه البليغ، أي إلّا أن تكونا في القرب والزلفى كالملكين، وقد مثّل لهما بما يعرفان من كمال الملائكة.

{ **أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** } فمعنى الكلام، أن الآكل من هذه الشجرة يكون ملكا وخالدا، ولم يكن آدم قد علم حينئذ أنّ الخلود متعذّر، وأنّ الموت والحشر والبعث مكتوب على النّاس، فإن ذلك يُتلقى من الوحي كما في قوله تعالى لهما في الآية الأخرى {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة: 36].

{ **وَقَاسَمَهُمَا** } أي حلف لهما بما يوهم صدقه، والمقاسمة مفاعلة من أقسم إذا حلف، حذفت منه الهمزة عند صوغ المفاعلة، والمفاعلة هنا للمبالغة في الفعل. وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكّدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردّد في صدقه.

{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ }[22]

{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة }

{ **فَدَلاَّهُمَا** } أقدمهما ففعلا فعلا يطمعان به في نفع، فخابا فيه، وأصل دلّى، تمثيل حال من يطلب شيئا من مظنّته فلا يجده، بحال من يدلي دلوه أو رجليه في البئر ليستقي من مائها فلا يجد فيها ماء فيقال دلّى فلان.

يقال دلّى كما يقال أدلى.

{ **بِغُرُورٍ** } الباء للملابسة أي دلاهما ملابسا للغرور أي لاستيلاء الغرور عليه.

وقيل الغرور اعتقاد الشيء نافعا بحسب ظاهر حاله ولا نفع فيه عند تجربته، وعلى هذا القياس يقال دلّاه بغرور إذا أوقعه في الطمع فيما لا نفع فيه.

{ **فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا** } ترتيب على دلّاهما بغرور، والتقدير: فأكلا منها.

الذوق، إدراك طعم المأكول أو المشروب باللسان، وهو يحصل عند ابتداء الأكل أو الشرب، ودلت هذه الآية على أنّ بدو سوآتهما حصل عند أوّل إدراك طعم الشجرة، دلالة على سرعة ترتّب الأمر المحذور عند أوّل المخالفة، فزادت هذه الآية على آية البقرة. أي أن الله جعل الأمرين مقترنين في الوقت، ولكن هذا التقارن هو لكون الأمرين مسبّبين عن سبب واحد، وهو خاطر السوء الذي نفثه الشيطان فيهما. وهذه أوّل وسوسة صدرت عن الشيطان، وأوّل تضليل منه للإنسان.

وهذا التطوّر، الذي أشارت إليه الآية، قد جعله الله تطوّرا فطريا في ذريّة آدم، فالطفل في أوّل عمره يكون بريئا من خواطر السوء فلا يستاء من تلقاء نفسه إلا إذا لحق به مؤلم خارجي، ثم إذا ترعرع أخذت خواطر السوء تنتابه في باطن نفسه فيفرضها ويولّها. وينفعل بها أو يفعل بما تشير به عليه.

{ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة** } حكاية لابتداء عمل الإنسان لستر نقائصه، وتحيّله على تجنّب ما يكرهه، وعلى تحسين حاله بحسب ما يخيّل إليه خياله، وهذا أوّل مظهر من مظاهر الحضارة أنشأه الله في عقلي أصلي البشر، فإنّهما لما شعرا بسوآتهما بكلا المعنيين، عرفا بعض جزئياتها، وهي العورة وحدث في نفوسهما الشعور بقبح بروزها، فشرعا يخفيانها عن أنظارهما استبشاعا وكراهيّة، وإذ قد شعرا بذلك بالإلهام الفطري، حيث لا ملقّن يلقنهما ذلك، ولا تعليم يعلمهما، تقرّر في نفوس النّاس أن كشف العورة قبيح في الفطرة، وأنّ سترها متعيّن، وهذا من حكم القوّة الواهمة الذي قارن البشر في نشأته، فدلّ على أنّه وهم فطري متأصّل، فلذلك جاء دين الفطرة بتقرير ستر العورة، مشايعة لما استقر في نفوس البشر، وقد جعل الله للقوّة الواهمة سلطانا على نفوس البشر في عصور طويلة، لأنّ في اتباعها عونا على تهذيب طباعه، ونزع الجلافة الحيوانية من النوع، لأنّ القوّة الواهمة لا توجد في الحيوان، ثم أخذت الشرائع، ووصايا الحكماء، وآداب المربّين، تزيل من عقول البشر متابعة الأوهام تدريجا مع الزمان، ولا يبقون منها إلّا ما لا بدّ منه لاستبقاء الفضيلة في العادة بين البشر، حتّى جاء الإسلام، وهو الشريعة الخاتمة، فكان نوط الأحكام في دين الإسلام بالأمور الوهميّة ملغى في غالب الأحكام، كما فصّلته في كتاب مقاصد الشريعة وكتاب أصول نظام الاجتماع في الإسلام.

الخصف، حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقة أخرى لتشتدّ، ويستعمل مجازا مرسلا في مطلق التقوية للخرقة

والثوب، ومنه ثوب خصيف و مخصوف، أي غليظ النسج لا يشفّ عمّا تحته، فمعنى يخصفان يضعان على عوراتهما الورق بعضه على بعض.

{ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ [22] قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [23]

عطف على جواب { **لمّا** }، فهو ممّا حصل عند ذوق الشجرة، وقد رتّب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشجرة على حسب ترتيب حصولها في الوجود، فإنّهما بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان، وأعقب ذلك نداء الله إياهما. وهذا أصل في ترتيب الجمل في صناعة الإنشاء، إلّا إذا اقتضى المقام العدول عن ذلك، ونظير هذا الترتيب ما في قوله تعالى {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} [هود:77]. وقد بيّنته في كتاب (أصول الإنشاء والخطابة) ولم أعلم أني سبقت إلى الاهتداء إليه. وقد تأخّر نداء الربّ إيّاهما إلى أن بدت لهما سوآتهما وتحيلا لستر عوراتهما، ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أنّ الخير في طاعة الله، وأنّ في عصيانه ضرّا.

{ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا** }، النداء حقيقته ارتفاع الصوت وهو مشتقّ من الندى (بفتح النون والقصر) وهو بعد الصوت. وهو مجاز مشهور في الكلام الذي يراد به طلب إقبال أحد إليك، وله حروف معروفة في العربية.

وهو هنا مستعمل في المعنى المشهور، وهو طلب الإقبال، على أن الإقبال مجازي لا محالة، فيكون كقوله تعالى {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ} [الانبياء: 89] وهو كثير في الكلام.

ويجوز أن يكون مستعملا في الكلام بصوت مرتفع، ورفع الصوت يكون لأغراض، ومحمله هنا على أنّه صوت غضب وتوبيخ.

وظاهر إسناد النداء إلى الله أنّ الله ناداهما بكلام بدون واسطة ملك مرسل، مثل الكلام الذي كلم الله به موسى، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض، فلا ينافي ما ورد من أنّ موسى هو أوّل نبيء كلّمه الله تعالى بلا واسطة، ويجوز أن يكون نداء آدم بواسطة أحد الملائكة.

{ **أَلَمْ أَنْهَكُمَا** } في موضع البيان لجملة {نَادَاهُمَا} ، ولهذا فصلت الجملة عن التي قبلها. والاستفهام للتقرير والتّوبيخ، ولذلك اعترفا بأنّهما ظلما أنفسهما.

{ **وَأَقُلْ لَكُمَا** } عطف على {أَنْهَكُمَا} للمبالغة في التوبيخ، لأنّ النهي كان مشفوعا بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة، فهما قد أضاعا وصيّتين.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** } والمقصود من حكاية هذا القول هنا، تذكير الأمّة بعداوة الشيطان لأصل نوع البشر، فيعلموا أنّها عداوة بين النوعين، فيحذروا من كلّ ما هو منسوب إلى الشيطان ومعدود من وسوسته، فإنّه لما جبل على الخبث والخزي كان يدعو إلى ذلك بطبعه، وكذلك لا يهنأ له بال ما دام عدوّه ومحسوده في حالة حسنة.

المُبين، أصله المُظهر، أي للعداوة بحيث لا تخفى على من يتتبّع آثار وسوسته وتغريره، وما عامل به آدم من حين خلقه إلى حين غروره به، ففي ذلك كلّه إبانة عن عداوته، ووجه تلك العداوة أنّ طبعه ينافي ما في الإنسان من الكمال الفطري المؤيّد بالتوفيق والإرشاد الإلهي، فلا يحبّ أن يكون الإنسان إلّا في حالة الضلال والفساد.

ويجوز أن يكون المُبين مستعملا مجازا في القويّ الشديد، لأنّ شأن الوصف الشديد أن يظهر للعيان.

{ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } اعترافا بالعصيان، وبأنّهما علما أنّ ضرّ المعصية عاد عليهما، فكانا ظالمين، وبأنّهما جرّا على أنفسهما غضب الله تعالى، فهما في توقّع حقوق العذاب، وقد جزما بأنّهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما، إمّا بطريق الإلهام أو نوع من الوحي، وإمّا بالاستدلال على العواقب بالمبادئ، فإنّهما رأيا من العصيان بوادئ الضرّ والشرّ، فعلما أنّه من غضب الله ومن مخالفة وصايته، وقد أكّدا جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهارا لتحقيق الخسران، استرحاما واستغفارا من الله تعالى.

{ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }[24]

طوى القرآن هنا ذكر التوبة على آدم، لأنّ المقصود من القصّة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان وتحذير النّاس من اتّباع وسوسته، وإظهار ما يعقبه اتّباعه من الخسران والفساد، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التوبة للاقتصار على أسباب الخسارة، وقد ذكرت التوبة في آية البقرة المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند ربّه، ولكلّ مقام مقال. والخطاب لآدم وزوجه وإبليس. والأمر تكويني، وبه صار آدم وزوجه وإبليس من سكّان الأرض.

{ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } في موضع الحال من ضمير{اهْبِطُوا} المرفوع بالأمر التكويني فهذه الحال أيضا تفيد معنى تكوينيّا، وإذ قد كانت هذه العداوة تكوينيّة بين أصلي الجنسين، كانت موروثة في نسليهما.

والمقصود تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم ليتّهموا كلّ وسوسة تأتيهم من قبله.

وإذ قد كانت نفوس الشياطين داعية إلى الشرّ بالجبلّة، تعيّن أنّ عقل الإنسان منصرف بجبلّته إلى الخير، ولكنّه معرّض لوسوسة الشياطين، فيقع في شذوذ عن أصل فطرته. وفي هذا ما يكون مفتاحا لمعنى كون

النّاس يولدون على الفطرة، وكون الإسلام دين الفطرة، وكون الأصل في النّاس الخير.
{ **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** } عطفت على {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ }.
المستقرّ، مصدر ميمي، والاستقرار هو المكث، وتقدم عند قوله تعالى {لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ} [الأنعام: 67].
والمراد به الوجود، أي وجود نوع الإنسان وبخصائصه، وليس المراد به الدفن كما فسّر به البعض.
المتاع والتمتّع، نيل الملذّات والمرغوبات غير الدائمة، وتقدم في قوله تعالى { لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } [النساء :102]
الحين، المدّة من الزمن، طويلة أو قصيرة، وقد نكّر هنا ولم يحدّد لاختلاف مقداره باختلاف الأجناس والأفراد. وهذا الزمن المقارن لحالة الحياة والإدراك هو المسمّى بالأجل، فإذا انتهى الأجل وانعدمت الحياة انقطع المستقرّ والمتاع. وهذا إعلام من الله بما قدره للنّوعين، وليس فيه امتنان ولا تنكيل بهم.

{ **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** }[25]

أعيد فعل القول في هذه الجملة مستأنفا غير مقترن بعاطف، مع كون القائل واحدا، والغرض متّحدا، خروجا عن مقتضى الظاهر، لأنّ مقتضى الظاهر في مثله هو العطف، وقد أهمل توجيه ترك العطف جمهور الحذّاق من المفسّرين؛ الزمخشري وغيره، ولعلّه رأى ذلك أسلوبا من أساليب الحكاية، وأوّل من رأيته حاول توجيه ترك العطف هو الشيخ محمد بن عرفة التونسي في إملاءات التفسير المروية عنه.
والذي أراه أنّ هذا ليس أسلوبا في حكاية القول يتخيّر فيه البليغ، وإنّما استئناف ابتدائي للاهتمام بالخبر، إيذانا بتغيّرالخطاب بأن يكون بين الخطابين تخالف ما، فالخطاب بالأوّل آدم وزوجه الشيطان، والمخاطب بالثّاني آدم وزوجه وأبناؤهما، والقرينة على أنّ إبليس غير داخل في الخطاب في قوله {وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} لأنّ الإخراج من الأرض يقتضي سبق الدخول في باطنها، وذلك هو الدفن بعد الموت، والشياطين لا يدفنون. وقد أمهل الله إبليس بالحياة إلى يوم البعث فهو يحشر حينئذ أو يموت ويبعث، ولا يعلم ذلك إلّا الله تعالى.
وقد دلّ جمع الضمير على كلام مطوي بطريقة الإيجاز: وهو أن آدم وزوجه استقرّا في الأرض، وتظهر لهما ذرية، وأن الله أعلمهم بطريق من طرق الإعلام الإلهي بأنّ الأرض قرارهم، ومنها مبعثهم، يشمل هذا الحكم الموجودين منهم يوم الخطاب والذين سيوجدون من بعد.
وقد يُجعل سبب تغيير الأسلوب بأنّ القول السابق قول مخاطبة، والقول الذي بعده قول تقدير وقضاء، أي قدّر الله تحيون فيها وتموتون فيها وتخرجون منها.

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [26]

إذا جرينا على ظاهر التفاسير كان قوله { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } استئنافا ابتدائيا، عاد به الخطاب إلى سائر النّاس الذين خوطبوا في أوّل الدعوة، لأنّ الغرض من السورة إبطال ما كان عليه مشركو العرب، أمّة الدعوة، من الشرك وتوابعه من أحوال دينهم الجاهلي، وكان قوله { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } [11] استطراد بذكر منّه عليهم وهم يكفرون به، كما تقدّم عند قوله تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ}.

فخاطبت هذه الآية جميع بني آدم بشيء من الأمور المقصودة من السورة، فهذه الآية كالمقدمة للغرض.

ويجوز أن يكون قوله { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } وما أشبهه مما افتتح بقوله {يَا بَنِي آدَمَ} أربع مرات، ممّا خاطب الله بني آدم في ابتداء عهدهم بعمران الأرض على لسان أبيهم، أو بطريق من طرق الإعلام الإلهي، ولو بالإلهام، لما تنشأ به في نفوسهم هذه الحقائق، واستطرد بين ذلك كلّه بمواعظ تنفع الذين قصدوا من هذا القصص، وهم المشركون المكذّبون محمدا ﷺ، فهم المقصود من هذا الكلام كيفما تفنّنت أساليبه وتناسق نظمُه.

وأيّا ما كان فالمقصود الأوّل من هذه الخطابات، أو من حكاياتها هم مشركو العرب ومكذّبو محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك تخلّلت هذه الخطابات مستطردات وتعريضات مناسبة لما وضعه المشركون من التكاذيب في نقض أمر الفطرة.

وهذا الخطاب يشمل المؤمنين والمشركين، ولكن الحظّ الأوفر منه للمشركين، لأنّ حظّ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنّهم موافّقون في شؤونهم لمرضاة ربّهم، وأمّا حظّ المشركين فهو الإنذار بأنّهم كافرون بنعمة ربّهم، معرّضون لسخطه وعقابه.

وابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشراشر قلوبهم، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وقع عجيب، بعد الفراغ من ذكر قصّة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشيطان.

ولمّا كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنّة منّة عليه، وقد تقلّدها بنوه، خوطب النّاس بشمول هذه المنّة لهم بعنوان يدلّ على أنّها منّة موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سمّى تيسير اللباس لهم وإلهامهم إيّاه إنزالا، لقصد تشريف هذا المظهر، وهو أول مظاهر الحضارة، بأنّه منزّل على النّاس من عند الله.

وهذا تنبيه إلى أنّ اللّباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أوّل أصول الإسلام، وأنّه مما كرّم الله به النوع منذ ظهوره في الأرض.

اللّباس، اسم لما يلبسه الإنسان، أي يستر به جزءا من جسده، فالقميص لباس، والإزار لباس، والعمامة لباس، ويقال لِبس التاج ولبس الخاتم قال تعالى {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: 12] ومصدر لِبس

اللُّبس (بضم اللام).
{ **يُوَارِي سَوْآتِكُمْ** } صفة مدح اللّباس، أي من شأنه ذلك، وإن كان كثير من اللباس ليس لموارات السوآت مثل العمامة، وفي الآية إشارة إلى وجوب ستر العورة المغلّظة، وهي السوأة، وأمّا ستر ما عداها من الرجل والمرأة فلا تدل الآية عليه، وقد ثبت بعضه بالسنّة، وبعضه بالقياس، والخوض في تفاصيلها وعللها من مسائل الفقه.
الرّيش، لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطير لأنّه زينته، ويقال للباس الزّينة رِياش.
والمعنى يسّرنا لكم لباسا يستركم ولباسا تتزيّنون به.
{ **وَلِبَاسُ التَّقْوَى** } قرأه نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر بالنصب، عطفا على {لِبَاساً}، والتقوى، على هذه القراءة، مصدر بمعنى الوقاية، فالمراد: لبوس الحرب، من الدروع والجواشن والمغافر. فيكون كقوله تعالى {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} [النحل: 81].
وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، وأبو عمرو، ويعقوب، وخلف بالرفع {لِبَاسُ التَّقْوَى} على أنّ الجملة معطوفة على جملة { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } ، فيجوز أن يكون المراد بلباس التقوى مثل ما يرد به في قراءة النصب. ويجوز أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله وخشيته. وهذا المعنى الرفعُ أليق به. ويكون استطرادا للتحريض على تقوى الله، فإنّها خير للنّاس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه.
{ **ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** } بعد الامتنان بأصناف اللّباس، استئنافين يؤذنان بعظيم النعمة، الأوّل بأنّ اللّباس خير للنّاس، والثاني بأنّ اللّباس آية من آيات الله تدل على علمه ولطفه، وتدلّ على وجوده.
وضمير الغيبة في { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } التفات، أي جعل الله ذلك آية لعلكم تتذكرون عظيم قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق والتقدير واللطف، وفي هذا الالتفات تعريض بمن لم يتذكّر من بني آدم فكأنه غائب عن حضرة الخطاب، على أنّ ضمائر الغيبة، في مثل هذا المقام في القرآن، كثيرا ما يقصد بها مشركو العرب.

{ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنّة يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ}[27]
النداء بعنوان بني آدم، للوجه الذي ذكرته في الآية قبلها، مع زيادة التنويه بمنّة اللباس. وقد نهوا عن أن يفتنهم الشيطان، وفتون الشيطان حصول آثار وسوسته، أي لا تمكّنوا الشيطان من أن يفتنكم. والمعنى النهي

عن طاعته، وهذا من مبالغة النهي، فالمعنى لا تطيعوا الشيطان في فتنه فيفتنكم.
وشبّه الفتون الصادر من الشيطان للنّاس بفتنة آدم وزوجه، إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهيّ عنه، فأخرجهما من نعيم كانا فيه، تذكيرا للبشر بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم، وشملت كلّ أحد من النوع، إذ حرم من النعيم الذي كان يتحقّق له لو بقي أبواه في الجنّة وتناسلا فيها، وفي ذلك أيضا تذكير بأنّ عداوة البشر للشيطان موروثة، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده.
{ **كَمَا أَخْرَجَ** } كإخراجه أبويكم من الجنّة، فإنّ إخراجه إيّاهما من الجنّة فتون عظيم يشبّه به فتون الشيطان حين يراد تقريب معناه للبشر وتخويفهم منه.
الأبوان، تثنية الأب، والمراد بهما الأب والأمّ على التغليب، وهو تغليب شائع في الكلام وتقدّم عند قوله تعالى {وَلِأَبَوَيْهِ} [النساء :11]. وأطلق الأب هنا عن الجدّ لأنّه أب أعلى، كما في قول النبي ﷺ: أنا ابن عبد المطلب.
{ **يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا** } في موضع الحال، والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حال انكشاف سوآتهما، لأن انكشاف السوءة من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف النّاس.
والتعبير عمّا مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين.
واللّباس تقدم قريبا، ويجوز هنا أن يكون حقيقة، وهو لباس جلّلهما الله به في تلك الجنّة يحجب سوآتهما، كما روى أنّه حجاب من نور، وروي أنه كقشر الأظفار وهي روايات غير صحيحة، والأظهر أنّ نزع اللباس تمثيل لحال التسبّب في ظهور السوءة.
وإسناد الإخراج والنزع والإراءة إلى الشيطان مجاز عقلي، مبني على التسامح في الإسناد بتنزيل السبب منزلة الفاعل، سواء اعتبر النزع حقيقة أم تمثيلا، فإن أطراف الإسناد المجازي العقلي تكون حقائق، وتكون مجازات، وتكون مختلفة، كما تقرّر في علم المعاني.
{ **لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا** } لام التعليل الادعائي، تبعا للمجاز العقلي، لأنّه لما أسند الإخراج والنزع والإرادة إليه على وجه المجاز العقلي، ناسب أن يجعل له غرض من تلك الأفعال المضرّة، وكونه قاصدا من ذلك الشناعة والفظاعة، كشأن الفاعلين أن تكون لهم علل غائيّة من أفعالهم إتماما للكيد، وإنّما الشيطان في الواقع سبب لرؤيتهما سوآتهما، فانتظم الإسناد الادعائي مع التعليل الادعائي، فكانت لام العلة تقوية للإسناد المجازي، وترشيحا له، ولأجل هذه النكتة لم نجعل اللام هنا للعاقبة.
{ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ** } واقعة موقع التعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده، فأخبر الله النّاس بأن الشياطين ترى البشر، وأنّ البشر لا يرونها، إظهارا للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر النّاس منهم، فإنّ جانب كيدهم قوي متمكّن وجانب حذر النّاس منهم ضعيف، لأنّهم يأتون المكيد من حيث لا يدري.

قَبِيلُهُ، بمعنى القبيلة، للدلالة على أنّ له أنصارا ينصرونه على حين غفلة من النّاس.
وتأكيد الخبر بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن الحذر من الشيطان وفتنته منزلة من يتردّدون في أنّ الشيطان يراهم وفي أنّهم لا يرونه.
{ **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** } فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يخوّل الله رؤية الشياطين أو الجنّ متشكّلة في أشكال الجسمانيذات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: " إنّ عفريتا من الجنّ تفلّت عليّ الليلة في صلاتي فهممت أن أوثقه في سارية من المسجد..." . أو كرامة للصالحين من الأمم، كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة، وقول النبي ﷺ لأبي هريرة: " ذلك شيطان ". ولا يكون ذلك إلّا على تشكّل الشيطان أو الجنّ في صورة غير صورته الحقيقية، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلولا الخبر لما علم ذلك.
{ **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا قصد منه الانتقال إلى أحوال المشركين في أئتمارهم بأمر الشيطان، تحذيرا للمؤمنين من الانتظام في سلكهم، وتنفيرا من أحوالهم، والمناسبة هي التحذير. وتأكيد الخبر بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر بالنسبة لمن يسمعه من المؤمنين.
{ **جَعَلْنَا** } جعل التكوين، بمعنى خلقنا الشياطين.
{ **أَوْلِيَاءَ** } حال من {الشَّيَاطِينَ} وهي حال مقدّرة أي خلقناهم مقدّرة ولايتهم للذين لا يؤمنون، وذلك أن الله جبل أنواع المخلوقات وأجناسها على طبائع لا تنتقل عنها، ولا تقدر على التصرّف بتغييرها، كالافتراس في الأسد، واللسع في العقرب، وخلق في الإنسان العقل والفكر فجعله قادرا على اكتساب ما يختار، ولمّا كان من جبلّة الشياطين حبّ ما هو فساد، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنّه قد يتطلّب الأمر العائد بالفساد، كان الإنسان في هذه الحالة موافقا لطبع الشياطين، ومؤتمرا بما تسوله إليه، ثم يغلب كسب الفساد والشر على الذين توغلوا فيه وتدرجوا إليه، حتى صار المالك لإراداتهم، فلا جرم نشأت بينهم وبين الشياطين ولاية ووفاق، لتقارب الدواعي، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلة التي أثبتها قوله {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأعراف: 22] وقوله {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} فصارت ولاية ومحبّة عند بلوغ ابن آدم آخر دركات الفساد، وهو الشرك وما فيه، فصار هذا جعلا جديدا ناسخا للجعل الذي في قوله {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} كما تقدمت الإشارة إليه هنالك. فما في هذه الآية مقيد للإطلاق الذي في الآية الأخرى، تنبيها على أنّ من حق المؤمن أن لا يوالي الشيطان.
والمراد بالذين لا يؤمنون المشركون، لأنّهم المضادون للمؤمنين في مكّة.

{ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ }[28]

{ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** } معطوف على { لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [27]، فهو من جملة الصلة، وفيه إدماج لكشف باطلهم في تعلّلاتهم ومعاذيرهم الفاسدة، أي للّذين لا يقبلون الإيمان ويفعلون الفواحش ويعتذرون عن فعلها بأنّهم اتّبعوا آباءهم وأنّ الله أمرهم بذلك، وهذا خاص بأحوال المشركين المكذّبين. والمقصود تفظيع حال دينهم، بأنّه ارتكاب فواحش.

الفاحشة، في الأصل صفة لموصوف محذوف أي، فَعْلَة فاحشةٌ، ثم نزل الوصف منزلة الاسم لكثرة دورانه، فصارت الفاحشة اسما للعمل الذميم، وهي مشتقة من الفُحش (بضم الفاء) وهو الكثرة والقوّة في الشيء المذموم والمكروه، وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضرّ وفساد بحيث يأباها أهل العقول الراجحة، وينكرها أولو الأحلام، ويستحيي فاعلها من النّاس، ويتستّر من فعلها، مثل البغاء والزنى والوأد والسرقة، ثم تنهى عنها الشرائع الحقّة.

{ **قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** } فكأنّ أئمة الشرك قد أعدّوا لأتباعهم معاذير عن تلك الأعمال، وجماعها أن ينسبوها إلى آبائهم السالفين الذين هم قدوة لخلفهم، واعتقدوا أن آباءهم أعلم بما في طي تلك الأعمال من مصالح لو اطلع عليها المنكرون لعرفوا ما أنكروا، ثم عطفوا على ذلك أنّ الله أمر بذلك، يعنون أن آباءهم ما رسموها من تلقاء أنفسهم، ولكنّهم رسموها بأمر من الله تعالى، ففهم منه أنّهم اعتذروا لأنفسهم واعتذروا لآبائهم.

{ **وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** } ليس ادعاء بلوغ أمر من الله إليهم، ولكنّهم أرادوا أنّ الله أمر آباءهم الذين رسموا تلك الرسوم وسنّوها، فكان أمر الله آباءهم أمرا لهم، لأنّه أراد بقاء ذلك في ذريّاتهم، فهذا معنى استدلالهم، وقد أجمله إيجاز القرآن اعتمادا على فطنة المخاطبين.

ودلّت الآية على إنكار ما كان مماثلا لهذا الاستدلال، وهو كلّ دليل توكأ على اتّباع الآباء في الأمور الظاهر فسادها وفحشها، وكلّ دليل استند إلى ما لا قبل للمستدلّ بعلمه، فإنّ قولهم {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} دعوى باطلة إذ لم يبلغهم أمر الله بذلك بواسطة مبلّغ، فإنهم كانوا ينكرون النبوءة، فمن أين لهم تلقّي مراد الله تعالى.

{ **قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ** } رد الله ذلك عليهم، وأعرض عن رد قولهم {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} لأنّه إن كان يراد ردّه من جهة التكذيب، فهم غير كاذبين في قولهم، لأنّ آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش، وإن كان يراد رده من جهة عدم صلاحيته للحجّة فإنّ ذلك ظاهر.

لأنّ الله متصف بالكمال فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء وأنكروه، فكون الفعل فاحشة كاف في الدلالة على أنّ الله لا يأمر به لأنّ الله له الكمال الأعلى، وما كان اعتذارهم بأنّ الله أمر بذلك إلّا عن جهل، ولذلك وبّخهم الله بالاستفهام التوبيخي بقوله:

{ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } أي ما لا تعلمون أن الله أمر به، فحذف المفعول لدلالة ما تقدّم عليه، لأنّهم لم يعلموا أنّ الله أمرهم بذلك، إذ لا مستند لهم فيه، وإنّما قالوه عن مجرّد التوهّم، ولأنّهم لم يعلموا أنّ الله لا يليق بجلالة وكماله أن يأمر بمثل تلك الرذائل.

{ **أَتَقُولُونَ** } ضمن معنى تكذبون أو معنى تتقوّلون، فلذلك عدي بـ (على)، وكان حقّه أن يعدّى بـ (عن) لو كان قولا صحيح النسبة، وإذ كان التوبيخ واردا على أن يقولوا على الله ما لا يعلمون كان القول على الله بما يتحقّق عدم وروده من الله أحرى.

واعلم أن ليس في الآية مستند لإبطال التقليد في الأمور الفرعية أو الأصول الدينيّة، لأنّ التقليد الذي نعاه الله على المشركين هو تقليدهم من ليسوا أهلا لأن يقلّدوا، لأنّهم لا يرتفعون عن رتبة مقلّديهم، إلّا بأنّهم أقدم جيلا، وأنّهم آباؤهم، فإنّ المشركين لم يعتذروا بأنّهم وجدوا عليه الصالحين وهداة الأمّة، ولا بأنّه ممّا كان عليه إبراهيم وأبناؤه. ولأنّ التقليد الذي نعاه الله عليهم تقليد أعمال بديهيّة الفساد، والتقليد في الفساد يستوي، هو وتسنينه، في الذمّ، على أنّ تسنين الفساد أشدّ مذمّة من التقليد فيه كما أنبأ عنه الحديث الصحيح: ما من نفس تقتل ظلما إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها ذلك لأنّه أوّل من سن القتل" ، وحديث: "من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة".

{ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [29] فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } [30]

بعد أن أبطل زعمهم أنّ الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش إبطالا عاما بقوله {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} استأنف استئنافا استطراديا بما فيه جماع مقوّمات الدين الحقّ الذي يجمعه معنى القسط، أي العدل، تعليما لهم بنقيض جهلهم، وتنويها بجلال الله تعالى، بأن يعلموا ما شأنه أن يأمر الله به.

ولأهمية هذا الغرض، ولمضادته لمدعاهم المنفي في جملة {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} فصلت هذه الجملة عن التي قبلها، ولم يعطف القول على القول ولا المقول على المقول، لأنّ في إعادة فعل القول وفي ترك عطفه على نظيره لفتا للأذهان إليه.

القسط، العدل وهو هنا العدل بمعناه الأعمّ، أي الفعل الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط في الأشياء، وهو الفضيلة من كل فعل. فالله أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول السليمة أنّه صلاح محض وأنّه حسن مستقيم، نظير قوله {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} [الفرقان: 67].

فالتوحيد عدل بين الإشراك والتعطيل، والإحسان عدل بين الشحّ والإسراف.

فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائما للصلاح عاجلا وآجلا، أي سالما من عواقب الفساد، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أنّ الله أمرهم بها، لأنّ شيئا من تلك الفواحش ليس بقسط، فقوله { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} كلام جامع لإبطال كلّ ما يزعمون أنّ الله أمرهم به ممّا ليس من قبيل القسط.

{ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } عطف على جملة {أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ}، أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأولئك المخاطبين أقيموا وجوهكم. والقصد الأوّل منه إبطال بعض ممّا زعموا أنّ الله أمرهم به، بطريق أمرهم بضد ما زعموه، ليحصل أمرهم بما يرضي الله بالتصريح.

إقامة الوجوه، تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى، في مواضع عبادته، بحال المتهيّئ لمشاهدة أمر مهمّ فذلك التوجّه المحض يطلق عليه إقامة، كما يقال: قامت السوق، وقامت الصلاة وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [البقرة:3]، فالمعنى أنّ الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد، لأنّ ذلك هو تعظيم المعبود ومكان العبادة. وهذا كما ورد في الحديث: " المصلي يناجي ربّه فلا يبصقن قبل وجهه".

{ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } عند كل مكان متّخذ لعبادة الله تعالى، واسم المسجد منقول في الإسلام للمكان المعيّن المتّخذ للصلاة، وتقدم عند قوله تعالى {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ} [المائدة :2].

فالأمر بإقامة الوجوه عند المساجد كلّها، أمر بالتزام التوحيد وكمال الحال في شعائر الحجّ كلها. وهذا الأمر وإن كان المقصود به المشركين لأنّهم المتّصفون بضدّه، فللمؤمنين منه حظّ الدوام عليه، كما كان للمشركين حظّ الإعراض عنه والتفريط فيه.

{ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }الدعاء هنا بمعنى العبادة. والإخلاص، تمحيص الشيء من مخالطة غيره. والدين، بمعنى الطاعة، من قولهم دنت لفلان أي أطعته. ومنه سمّي الله تعالى: الديّان، أي القهّار المذلّل المطوّع لسائر الموجودات.

{ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } هذا إنذار لهم بأنّهم عائدون إليه فمجازون عن إشراكهم في عبادته، وهو أيضا احتجاج عليهم على عدم جدوى عبادتهم غير الله، وإثبات للبعث الذي أنكروه.

{ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ } أي ترجعون إلى الله فريقين. وهذا كلّه إنذار من الوقوع في الضلال، وتحذير من اتباع الشيطان، وتحريض على توخّي الاهتداء الذي هو من الله تعالى، كما دل عليه إسناده إلى ضمير الجلالة في قوله {هَدَى} فيعلم السامعون أنهم إذا رجعوا إليه فريقين كان الفريق المفلح هو الفريق الذين هداهم الله تعالى.

وذلك أن المخاطبين كانوا مشركين كلّهم، فلمّا أمروا بأن يعبدوا الله مخلصين افترقوا فريقين: فريقا هداه الله إلى التوحيد، وفريقا لازم الشرك والضلالة، فلم يطرأ عليهم حال جديد. وبذلك يظهر حسن موقع لفظ {حَقَّ} هنا دون أن يقال أضلّه الله، لأنّ ضلالهم قديم مستمر اكتسبوه لأنفسهم، كما في نظيره {فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ

وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل: 36] ثم قال {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [النحل: 37]. فليس تغيير الأسلوب بين { فريقا هدى } وبين {وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ} تحاشيا عن إسناد الإضلال إلى الله، كما توهّمه صاحب الكشاف، لأنّه قد أسند الإضلال إلى الله في نظير هذه الآية كما علمت وفي آيات كثيرة، ولكن اختلاف الأسلوب لاختلاف الأحوال.

وجرّد فعل (حقّ) عن علامة التأنيث لأنّ فاعله غير حقيقي التأنيث، وقد أظهرت علامة التأنيث في نظيره في قوله تعالى {وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل: 36].

{ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } استئناف مراد به التعليل لجملة **{ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ }** وهذا شأن (إنّ) إذا وقعت في صدر جملة عقب جملة أخرى أن تكون للربط والتعليل وتغني غَنَاء الفاء، كما تقدم غير مرة.

والمعنى أنّ هذا الفريق، الذي حقّت عليهم الضلالة، لمّا سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام، لم يطلبوا النجاة ولم يتفكّروا في ضلال الشرك البيّن، ولكنهم استوحوا شياطينهم، وطابت نفوسهم بوسوستهم، وائتمروا بأمرهم، واتخذوهم أولياء، فلا جرم أن يدوموا على ضلالهم لأجل اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله.

{ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } عطف على جملة {اتَّخَذُوا} فكان ضلالهم ضلالا مركّبا، إذ هم قد ضلّوا في الائتمار بأمر أئمة الكفر وأولياء الشياطين، ولمّا سمعوا داعي الهدى لم يتفكّروا، وأهملوا النظر، لأنّهم يحسبون أنّهم مهتدون، فلذلك لم تخطر ببالهم الحاجة إلى النظر في صدق الرّسول ﷺ.

الحسبان، الظنّ، وهو هنا ظنّ مجرّد عن دليل، وذلك أغلب ما يراد بالظن وما يرادفه في القرآن.

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[31]

إعادة النداء في صدر هذه الجملة للاهتمام. وهذه الجملة تتنزل، من التي بعدها، {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ} منزلة النتيجة من الجدل، فقدّمت على الجدل، فصارت بمنزلة دعوى، وجُعل الجدل حجّة على الدعوى، وذلك طريق من طرق الإنشاء في ترتيب المعاني ونتائجها.

{ خُذُوا زِينَتَكُمْ } إبطال ما زعمه المشركون من لزوم التعرّي في الحجّ في أحوال خاصة، وعند مساجد معيّنة، فقد أخرج مسلم عن عروة بن الزبير، قال: " كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلّا الحُمْس (والحُمْس قريش وما ولدت) فكان غيرهم يطوفون عراة إلّا أن يعطيهم الحمس ثيابا، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء". وعنه: " أنّهم كانوا إذا وصلوا إلى منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة". وروي أنّ الحمس كانوا يقولون: نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلّا في ثيابنا ولا يأكل، إذا دخل أرضنا، إلّا

من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكّة يعيره ثوبا ولا يجد ما يستأجر به كان بين أحد أمرين إمّا أن يطوف بالبيت عريانا، وإمّا أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسّه أحد، وكان ذلك الثوب يسمى: اللَّقى (بفتح اللام).

وفي الكشاف، عن طاووس: كان أحدهم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه، لأنهم قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقد أبطله النبي ﷺ إذ أمر أبا بكر رضي الله عنه، عام حجّته سنة تسع، أن ينادي في الموسم: " أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان".

{ **خُذُوا زِينَتَكُمْ** } الأمر للوجوب، وفي قوله { **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا** } للإباحة لبني آدم الماضين والحاضرين.

والمقصود من توجيه الأمر أو من حكايته إبطال التحريم الذي جعله أهل الجاهليّة لأنّهم نقضوا به ما تقرّر في أصل الفطرة ممّا أمر الله به بني آدم كلّهم، وامتن به عليهم، إذ خلق لهم ما في الأرض جميعا.

{ **عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** } تعميم، أي لا تخصّوا بعض المساجد بالتعري مثل المسجد الحرام ومسجد منى، وقد تقدم في قوله {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: 29].

الإسراف، تقدم عند قوله تعالى {وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً} [النساء: 6]، وهو تجاوز الحدّ المتعارف في الشيء. والنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ}. ولأن مقدار الإسراف لا ينضبط فلا يتعلّق به التكليف، ولكن يوكل إلى تدبير النّاس مصالحهم.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** } تذييل، وتقدّم القول في نظيره في سورة الأنعام.

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }[32]

استئناف معترض بين الخطابات المحكيّة والموجّهة، وهو موضع إبطال مزاعم أهل الجاهليّة فيما حرّموه من اللباس والطعام وهي زيادة تأكيد لإباحة التستّر في المساجد، فابتدئ الكلام السابق بأنّ اللّباس نعمة من الله، وثنّى بالأمر بإجاب التستّر عند كل مسجد، وثلّث بإنكار أن يوجد تحريم اللباس.

{ **قُلْ** } دلالة على أنّه كلام مسوق للردّ والإنكار والمحاورة.

والاستفهام إنكاري قصد به التهكّم إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يطلب منهم البيان والإفادة، نظير قوله {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} [الأنعام: 148].

{ **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } ولوضوح انتفاء تحريمها، وأنه لا يقوله عاقل، وأن السؤال سؤال عالم لا سؤال طالب علم، أمر السائل بأن يجيب بنفسه.

{ **هِيَ** } ضميرعائد إلى الزينة والطيّبات.
{ **خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } قرأه نافع، وحده بالرفع على أنه خبر ثان، وقرأه باقي العشرة بالنصب على الحال من المبتدأ، ومعنى القراءتين واحد، وهو أنّ الزينة والطيبات تكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة.
والمقصود أنّ المشركين وغيرهم من الكافرين لا زينة لهم ولا طيّبات من الرزق يوم القيامة. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وأصحابه.
{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ** } تقدم نظير هذا التركيب في سورة الأنعام.
والمراد بالآيات الدلائل الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وانفراده بالإلهيّة. والدالة على صدق رسوله ﷴ ﷺ، إذ بيّن فساد دين أهل الجاهليّة. وعلّم أهل الإسلام علما كاملا لا يختلط معه الصالح والفاسد من الأعمال.
{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } لام العلّة، وهو متعلّق بفعل {نُفَصِّلُ} ، أي تفصيل الآيات لا يفهمه إلّا قوم يعلمون. والمراد، الثناء على المسلمين الذين فهموا الآيات وشكروا عليها. والتعريض بجهل وضلال عقول المشركين الذين استمروا على عنادهم وضلالهم، رغم ما فصّل لهم من الآيات.

{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ }.[33]
{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي مفاده أنّ الله حرم الفواحش وما ذكر معها، لا ما حرّمتموه من الزينة والطيبات، فأفاد إبطال اعتقادهم، ثم هو يفيد بطريق التعريض أنّ ما عده الله من المحرمات الثابت تحريمها قد تلبسوا بها، لأنه لما عدّ أشياء، وقد علم النّاس أن المحرمات ليست محصورة فيها، علم السامع أن ما عيّنه مقصود به تعيين ما تلبّسوا به فحصل بصيغة القصر تحليل ما زعموه حراما وتحريم ما استباحوه من الفواحش وما معها.
الفواحش، جمع فاحشة وقد تقدم عند قوله تعالى {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً} [النساء :22] و عند قوله تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [الأعراف: 28].
{ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** } هو ما يظهره النّاس بين قرنائهم وخاصتهم مثل البغاء والمخادعة.
{ **وَمَا بَطَنَ** } ما لا يظهره النّاس مثل الوأد والسرقة، وقد تقدم عند قوله تعالى {وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأنعام: 151].
الإثم، كل ذنب، فهو أعم من الفواحش، وتقدم في قوله تعالى {قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} [البقرة :219].
فيكون ذكر الفواحش قبله للاهتمام بالتحذير منها قبل التحذير من عموم الذنوب، فهو من ذكر الخاص قبل العام للاهتمام، كذكر الخاص بعد العام، إلا أن الاهتمام الحاصل بالتخصيص مع التقديم أقوى لأن فيه اهتماما

من جهتين.
البغي، هو الاعتداء على حقّ الغير بسلب أموالهم أو بأذاهم، والكبر على النّاس من البغي، وقد كان البغي شائعا في الجاهليّة فكان القوي يأكل الضعيف، وذو البأس يغير على أنعام النّاس ويقتل أعداءه منهم، ومن البغي أن يضربوا من يطوف بالبيت بثيابه إذا كان من غير الحمس. وأن يلزموه بأن لا يأكل غير طعام الحمس، ولا يطوف إلا في ثيابهم.
{ بِغَيْرِ الْحَقِّ } صفة كاشفة للبغي، لأن البغي لا يكون إلا بغير حق.
الإشراك، معروف، وقد حرمه الله تعالى على لسان جميع الأنبياء منذ خلق البشر.
{ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } والسلطان البرهان والحجة. نفي الحجّة الدالة على إثبات صفة الشركة مع الله في الإلهية. وهذه الصلة مؤذنة بتخطئة المشركين، ونفي معذرتهم في الإشراك بأنه لا دليل يشتبه على النّاس في عدم استحقاق الأصنام العبادة.
{ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } تقدم نظيره عند قوله تعالى{ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [28]
وقد جمعت هذه الآية أصول أحوال أهل الجاهليّة فيما تلبّسوا به من الفواحش والآثام، وهم يزعمون أنّهم يتورّعون عن الطواف في الثياب، وعن أكل بعض الطيّبات في الحجّ.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ }[34]

لما نعى الله على المشركين ضلالهم وتمرّدهم، بعد أن دعاهم إلى الإيمان، وإعراضهم عنه، بالمجادلة والتوبيخ وإظهار نقائصهم بالحجّة البيّنة، وكان حالهم حال من لا يقلع عمّا هم فيه، أعقب ذلك بإنذارهم ووعيدهم، إقامة للحجّة عليهم وأعذارا لهم قبل حلول العذاب بهم.
وهذه الجملة تحتمل معنيين:
أحدهما: أن يكون المقصود بهذا الخبر المشركين، بأن أقبل الله على خطابهم، أو أمر نبيّه بأن يخاطبهم، لأنّ هذا الخطاب خطاب وعيد وإنذار.
والمعنى الثاني: أن يكون المقصود بالخبر النبي ﷺ، فيكون وعدا له بالنصر على مكذّبيه.
وذكر عموم الأمم في هذا الوعيد، مع أنّ المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا، إنّما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم، على طريقة الاستشهاد بشواهد التاريخ في قياس الحاضر على الماضي، فيكون الوعيد خبرا معضودا بالدليل والحجّة.
وذكر الأجل هنا، دون أن يقول لكل أمة عذاب أو استئصال، إيقاظا لعقولهم من أن يغرّهم الإمهال فيحسبوا

أنّ الله غير مؤاخذهم على تكذيبهم، وطمأنة للرّسول ﷺ بأنّ تأخير العذاب عنهم إنّما هو جري على عادة الله تعالى في إمهال الظالمين على حد قوله {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: 110].

{ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** } لكلّ أمة مكذّبة إمهال فحذف وصف الأمّة.

الأجل، يطلق على مدة الإمهال، وجعل لذلك الزمان نهاية وهي الوقت المضروب لانقضاء الإمهال، ويطلق على الوقت المحدد به انتهاء المدّة، وفي هذه الآية يصح للاستعمالين بأن يكون المراد بالأجل الأول المدّة، وبالثاني الوقت المحدّد لفعل ما.

والمراد بالأمّة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرّسل، كما يدلّ عليه السياق من قوله تعالى {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ} [الأعراف: 33]، وليس المراد بالأمّة، الجماعة التي يجمعها نسب أو لغة، إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها.

وليس المراد في الآية، بأجل الأمة، أجل أفرادها، وهو مدّة حياة كل واحد منها، لأنه لا علاقة له بالسياق.

{ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ** } أظهر لفظ أجل ولم يكتف بضميره لزيادة تقرير الحكم عليه، ولتكون هذه الجملة مستقلّة بنفسها غير متوقّفة على سماع غيرها، بحيث تجري مجرى المثل. وإرسال الكلام الصالح لأن يكون مثلا طريق من طرق البلاغة.

{ **لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** } بمعنى، لا يتأخّرون ولا يتقدّمون، فالسين والتاء فيهما للتأكيد مثل استجاب. والمقصود أنهم لا يؤخّرون عنه.

وكل ذلك مبني على تمثيل حالة الذي لا يستطيع التخلّص من وعيد أو نحوه، بهيئة من احتبس بمكان لا يستطيع تجاوزه إلى الأمام ولا إلى الوراء.

{ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [35] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[36]

قال ابن عطية : " وكأن هذا خطابٌ لجميع الأمم، قديمها وحديثها، هو متمكّن لهم، ومتحصّل منه لحاضري محمد ﷺ أن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه ".

يريد أنّ الله أبلغ النّاس هذا الخطاب على لسان كلّ نبي، من آدم إلى هلم جرّا. فما من نبيء أو رسول إلّا وبلّغه أمّته، وأمرهم بأن يبلّغ الشاهد منهم الغائب، حتّى نزل في القرآن على محمد ﷺ، فعلمت أمّته أنّها مشمولة في عموم بني آدم.

وهذه الآية، والتي بعدها، متصلتا المعنى بمضمون قوله تعالى في أوّل السورة {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} [4] اتصال التفصيل بإجماله. أكّد به تحذيرهم من كيد الشيطان وفتونه، وأراهم به مناهج الرشد التي تعين على تجنّب كيده، بدعوة الرسل إيّاهم إلى التقوى والإصلاح، كما أشار إليه بقوله {يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ} [27]، وأنبأهم بأنّ الشيطان توعّد نوع الإنسان {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [16]، فلذلك حذّر الله بني آدم من كيد الشيطان، وأشعرهم بقوّته {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ} [27] عسى أن يتّخذوا العدّة للنّجاة من مخالب فتنته، وأردف ذلك بالتحذير من حزبه ودعاته الذين يفتنون المؤمنين، ثم عزّز ذلك بإعلامه إيّاهم أنّه أعانهم على الاحتراز من الشيطان، بأن يبعث إليهم قوما من حزب الله يبلّغونهم عن الله ما فيه منجاة لهم من كيد الشياطين، {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}، فأوصاهم بتصديقهم والامتثال لهم.

{ **إِمَّا** } مركّبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة المؤكّدة لمعنى الشرطية، واصطلح أئمة رسم الخط على كتابتها في صورة كلمة واحدة، رعيا لحالة النطق بها، بإدغام النون في الميم، والأظهر أنّها تفيد مع التأكيد عموم الشرط مثل أخواتها (مهما) و (أينما).

{ **مِنْكُمْ** } أي من بني آدم، وهذا تنبيه لبني آدم بأنّهم لا يترقّبون أن تجيئهم رسل الله من الملائكة، لأنّ المرسل يكون من جنس من أرسل إليهم، وفي هذا تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرسل، لأنّهم من جنسهم، مثل قوم نوح، إذ قالوا {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا} [هود: 27].

{ **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي** } يتلونها ويحكونها، ويجوز أن يكون بمعنى يُتبعون الآية بأخرى، ويجوز أن يكون بمعنى يظهرون، وكلّها معان مجازية للقصّ.

الآية، أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل. و**آيات الله**، الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، كما تقدم عند قوله {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [البقرة:39].

ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للنّاس. ووجه دلالة الآيات على ذلك إمّا لأنّها جاءت على نظم يعجز البشر عن تأليف مثله، وذلك من خصائص القرآن، وإمّا لأنّها تشتمل على أحكام ومعان لا قبل لغير الله ورسوله بإدراك مثلها، أو لأنّها تدعو إلى صلاح لم يعهده النّاس، فيدل ما اشتملت عليه على أنّه ممّا أراده الله للنّاس، مثل بقيّة الكتب التي جاءت بها الرسل، وإمّا لأنها قارنتها أمور خارقة للعادة تحدّى بها الرّسول المرسل بتلك الأقوال أمّته، فهذا معنى تسميتها آيات، ومعنى إضافتها إلى الله تعالى.

ويجوز أن يكون المراد بالآيات ما يشمل المعجزات غير القولية، مثل نبع الماء من بين أصابع محمد ﷺ، ومثل قلب العصا حيّة لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمة لعيسى عليه السلام.

{ **فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } جواب الشرط وبينها وبين جملة {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ} محذوف تقديره، فاتقى منكم فريق وكذّب فريق، {فَمَنِ اتَّقَى}. وهذه الجملة شرطيّة أيضا، وجوابها {فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } ، أي فمن اتبع رسلي فاتقاني وأصلح نفسه وعمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إيماء إلى حكمة إرسال الرسل، وتحريضا على اتّباعهم، بأنّ فائدته للأمم لا للرّسل، كما قال شعيب {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: 88].

فالخوف والحزن المنفيان هما ما يوجبه العقاب، وقد ينتفي عنهم الخوف والحزن مطلقا بمقدار قوة التقوى والصلاح، وهذا من الأسرار التي بين الله وعباده الصالحين، ومثله قوله تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [يونس: 62، 64].

{ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } معطوفة على جملة { فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ }، والرابط محذوف تقديره، والذين كفروا منكم وكذّبوا.

الاستكبار، مبالغة في التكبّر، فالسين والتاء للمبالغة وللحسبان أيضا، وهو أن يعد المرء نفسه كبيرا، أي عظيما وما هو به، ، وكلا الأمرين يؤذن بإفراطهم في ذلك وأنّهم عدوا قدرهم.

وفيه معنى الإعراض، فعلق به ضمير الآيات، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها.

وأفاد تحقيق أنّهم صائرون إلى النّار بطريق قصر ملازمة النّار عليهم في قوله {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} لأنّ لفظ أصحاب مؤذن بالملازمة، وبما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات في قوله { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [37] قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ فِي النّار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [39]

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [37] قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ فِي النّار }

هذه كالفذلكة لما تقدّم، لتبيّن أنّ صفات الضلال، التي أُبهم أصحابها، هي حافّة بالمشركين المكذّبين برسالة محمد ﷺ، فإنّ الله ذكر أولياء الشياطين وبعض صفاتهم بقوله {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ} [27]، وذكر أنّ الله عهد لبني آدم منذ القدم بأن يتّبعوا من يجيئهم من الرسل عن الله تعالى بآياته ليتّقوا ويصلحوا، ووعدهم على اتباع ما جاءهم، الأمن من الخوف والحزن، وأوعدهم على التكذيب والاستكبار بأن يكونوا أصحاب النّار، فقد أعذر إليهم وبصّرهم بالعواقب، فتفرع على ذلك، أنّ من كذب على الله، فزعم أنّ الله أمره بالفواحش، أو كذّب بآيات الله التي جاء بها رسوله، فقد ظلم نفسه ظلما عظيما، حتّى يُسأل عمن هو أظلم منه.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى** } تقدّم الكلام على هذا تركيب عند قوله تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [البقرة :114]، وأنّ الاستفهام للإنكار، أي لا أحد أظلم.

الافتراء و**الكذب**، تقدّم القول فيهما عند قوله {وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [المائدة:103]، ولهذه الآية اتصال بآية {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} [4] من حيث ما فيها من التهديد بوعيد عذاب الآخرة وتفظيع أهواله.

وإنّما كانوا أظلم النّاس ولم يكن أظلم منهم، لأنّ الظلم اعتداء على حقّ، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى. والمراد بهذا الفريق، هم المشركون من العرب، فإنّهم كذّبوا بآيات الله التي جاء بها محمد ﷺ، وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أنّ الله أمرهم به من الفواحش، كما تقدّم آنفا عند قوله تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} [28].

{ **أو** } ظاهرها التقسيم فيكون الأظلم، وهم المشركون، فريقين: فريق افتروا على الله الكذب، وهم سادة أهل الشرك وكبراؤهم، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ونسبوه إلى الله وهم يعلمون، مثل عمرو بن لحي، وأبي كبشة، ومن جاء بعدهما، وأكثر هذا الفريق قد انقرضوا في وقت نزول الآية، وفريق كذّبوا بالآيات ولم يفتروا على الله، وهم عامة المشركين، من أهل مكة وما حولها.

ولك أن تجعل { أو } بمعنى الواو، فيكون الموصوف بأنّه أظلم النّاس هو من اتصف بالأمرين الكذب والتكذيب، ويكون صادقا على المشركين لأنّ جماعتهم لا تخلو عن ذلك.

{ **أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ** } جيء باسم الإشارة ليدلّ على أنّ المشار إليهم أحرياء بأن يصيبهم العذاب بناء على ما دلّ عليه التفريع بالفاء.

والجملة يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عن الاستفهام، لأنّ التهويل المستفاد من الاستفهام يسترعي السامع أن يسأل عمّا سيلاقونه من الله الذي افتروا عليه وكذّبوا بآياته.

ويجوز أن تكون عطف بيان لجملة { أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [36]، أي خالدون الخلود الذي هو نصيبهم من الكتاب.

{ **يَنَالُهُمْ** } مادة النيل والنوال وردت واوية العين ويائية العين مختلطتين في دواوين اللغة. تقول نُلت (بضم النون) من نال ينول، وتقول نِلت (بكسر النون) من نال ينيل، ويظهر أن أكثر معاني المادتين مترادفة، وأصل النيل إصابة الإنسان شيئا لنفسه بيده، ونوّله أعطاه فنال، فالأصل أن تقول نال فلان كسبا، وقد جاء هنا بعكس ذلك، لأنّ النصيب من الكتاب هو أمر معنوي، فتعيّن أن يكون هذا إمّا مجازا مرسلا في معنى مطلق الإصابة، وإمّا أن يكون استعارة مبنيّة على عكس التشبيه، بأن شبّه النصيب بشخص طالب طلبة فنالها، وإنّما يصار إلى هذا، للتنبيه على أنّ الذي ينالهم شيء يكرهونه.

النصيب، الحظ الصائر لأحد المتقاسمين من الشيء المقسوم. وقد تقدم عند قوله تعالى {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا} [البقرة: 202].

{ **مِنَ الْكِتَابِ** } والمراد بالكتاب ما تضمّنه الكتاب، فإن كان الكتاب مستعملا حقيقة فهو القرآن، ونصيبهم منه هو نصيبهم من وعيده، وإن كان الكتاب مجازا في الأمر الذي قضاه الله وقدّره، فنصيبهم منه هو ما أخبر الله بأنّه قدّره عليهم من الخلود في العذاب، وأنه لا يغفر لهم.

والمعنى: إمّا أنّ كل واحد من المشركين سيصيبه ما توعدهم الله به من الوعيد على قدر عتوّه في تكذيبه وإعراضه، فتصيبه هو ما يناسب حاله عند الله من مقدار عذابه، وإمّا أن مجموع المشركين سيصيبهم ما قدّر لأمثالهم من الأمم المكذّبين للرسل المعرضين عن الآيات من عذاب الدنيا، فلا يغرنّهم تأخير ذلك، لأنّه مصيبهم لا محالة عند حلول أجله، فنصيبهم هو صفة عذابهم من بين صفات العذاب التي عذّبت بها الأمم.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا** } تفصيل لمضمون جملة {يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ} . فالوقت الذي أفاده قوله {إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} هو مبدأ وصف نصيبهم من الكتاب حين ينقطع عنهم الإمهال الذي لقوه في الدنيا. و{حَتَّى} ابتدائية لأنّ الواقع بعدها جملة فتفيد السببيّة، فالمعنى، فـ {إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا}. و(حتّى) الابتدائية لها صدر الكلام، فالغاية التي تدلّ عليها هي غاية ما يخبر به المخبر، وليست غاية ما يبلغ إليه المعطوف عليه بحتّى، لأن ذلك إنّما يلتزم إذا كانت حتى عاطفة.

وهي تدلّ على أنّ مضمون الكلام الذي بعدها أهم بالاعتناء للإلقاء عند المتكلم، لأنّه أجدى في الغرض المسوق له الكلام، وهذا الكلام الواقع هنا بعد (حتّى) فيه تهويل ما يصيبهم عند قبض أرواحهم، وهو أدخل في تهديدهم وترويعهم وموعظتهم، من الوعيد المتعارف، وقد هدّد القرآن المشركين بشدائد الموت عليهم في آيات كثيرة لأنّهم كانوا يرهبونه.

وقد تقدّم بعض هذا عند قوله تعالى {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ} [الأنعام:31].

{ **رُسُلُنَا** } هم الملائكة قال تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ} [السجدة: 11] وقال {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ} [الأنفال: 50.]

{ **يَتَوَفَّوْنَهُمْ** } في موضع الحال من {رُسُلُنَا} وهي حال معلّلة لعاملها، كقوله {وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: 61، 62]، أي رسول لأبلغكم ولأنصح لكم.

التوفّي، نزع الرّوح من الجسد، و تقدّم بيانه عند قوله {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [آل عمران:55]، وهو المراد هنا، فيجوز أن يكون المراد منه وقت أن يتوفوهم جميعا، إن كان المراد بالنصيب من الكتاب الاستئصال، أي حين تبعث طوائف الملائكة لإهلاك جميع أمّة الشرك.

ويجوز أن يكون المراد حين يتوفّون آحادهم في أوقات متفرّقة، إن كان المراد بالنصيب من الكتاب وعيد العذاب. وعلى الوجهين فالقول محكي على وجه الجمع، والمراد منه التوزيع، أي قال كل ملك لمن وكِّل بتوفّيه. وقد حكي كلام الرسل معهم وجوابهم إياهم بصيغة الماضي على طريقة المحاورة، لأنّ وجود ظرف المستقبل قرينة على المراد.

{ **أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } الاستفهام مستعمل في التهكّم والتأييس.

يعني، أين آلهتكم التي كنتم تزعمون أنّهم ينفعونكم عند الشدائد ويردون عنكم العذاب، فإنّهم لم يحضروكم. وذلك حين يشهدون العذاب، عند قبض أرواحهم، فقد جاء في حديث الموطأ: أنّ الميت يرى مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النّار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله".

{ **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** } أي أتلفوا مواقعنا وأضاعونا فلم يحضروا، وهذا يقتضي أنهم لمّا يعلموا أنّهم لا يغنون

عنهم شيئا من النفع، لأنّ ذلك إنّما يتبيّن لهم يوم الحشر، حين يرون إهانة أصنامهم وتعذيب كبرائهم، ولذلك لم ينكروا في جوابهم أنهم كانوا يدعونهم من دون الله.

{ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } والشهادة هنا شهادة ضمنيّة، لأنّهم لمّا لم ينفوا أن يكونوا يدعون من دون الله وأجابوا بأنّهم ضلوا عنهم، قد اعترفوا بأنّهم عبدوهم.

بخلاف ما حكي عنهم في يوم الحشر من قولهم {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: 23] ولذلك قال هناك {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الأنعام: 24].

{ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّار } فهذا قول آخر، ليس هو من المحاورة السابقة، لأنّه جاء بصيغة الإفراد، والأقوال قبله مسندة إلى ضمائر الجمع، فتعيّن أن ضمير **{ قال }** عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام، لأنّ مثل هذا القول لا يصدر من أحد غير الله تعالى، فهو استئناف كلام نشأ بمناسبة حكاية حال المشركين حين أوّل قدومهم على الحياة الآخرة، وهي حالة وفاة الواحد منهم، فيكون خطابا صدر من الله إليهم بواسطة أحد ملائكته، أو بكلام سمعوه وعلموا أنّه من قبل الله تعالى بحيث يوقنون منه أنّهم داخلون إلى النّار، فيكون هذا من أشدّ ما يرون فيه مقعدهم من النّار عقوبة خاصة بهم.

والأمر مستعمل للوعيد فيتأخر تنجيزه إلى يوم القيامة.

ويجوز أن يكون المحكي به ما يصدر من الله تعالى يوم القيامة من حكم عليهم بدخول النّار مع الأمم السابقة، فذُكر عقب حكاية حال قبض أرواحهم، إكمالا لذكر حال مصيرهم، وتخلّصا إلى وصف ما ينتظرهم من العذاب، ولذكر أحوال غيرهم.

وأيّا ما كان فالإتيان بفعل القول، بصيغة الماضي، للتنبيه على تحقيق وقوعه على خلاف مقتضى الظاهر.

{ قَدْ خَلَتْ } قد مضت وانقرضت قبلكم، كما في قوله تعالى {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [البقرة: 134]. يعني، أنّ حالهم كحال الأمم المكذّبين قبلهم، وهذا تذكير لهم بما حاق بأولئك الأمم من عذاب الدنيا، وتعريض بالوعيد، بأن يحلّ بهم مثل ذلك، وتصريح بأنّهم في عذاب النّار سواء.

{ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ }[39]

{ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا }، مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لوصف أحوالهم في النّار، وتفظيعها للسامع، ليتّعظ أمثالهم ويستبشر المؤمنين بالسلامة ممّا أصابهم. ويجوز أن تكون جملة معترضة.

{ أُمَّةٌ } نكرة وقعت في حيز عموم الأزمنة، والمراد بأختها المماثلة لها في الدين الذي أوجب لها الدخول في

النار، كما يقال: هذه الأمة أخت تلك الأمة إذا اشتركتا في النسب، فيقال: بكر وأختها تغلب.
والمقام يعيّن جهة الأخوّة، وسبب اللعن أنّ كلّ أمّة إنّما تدخل النّار بعد مناقشة الحساب، والأمر بإدخالهم النّار، وإنّما يقع ذلك بعد أن يتبيّن لهم أنّ ما كانوا عليه من الدين هو ضلال وباطل، وبذلك تقع في نفوسهم كراهية ما كانوا عليه، لأنّ النفوس تكره الضلال والباطل بعد تبيّنه، ولأنّهم رأوا أنّ عاقبة ذلك كانت مجلبة العقاب لهم، فيزدادون بذلك كراهية لدينهم، فإذا دخلوا النّار فرأوا الأمم التي أدخلت النّار قبلهم علموا، بوجه من وجوه العلم، أنّهم أدخلوا النّار بذلك السبب فلعنوهم لكراهية دينهم ومن اتبعوه.
وقيل: المراد بأختها أسلافها الذين أضلّوها.
{ **حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا** } حتّى ابتدائية، فهي جملة مستأنفة، وقد تقدّم أنّ (حتّى) الابتدائية تفيد معنى التسبّب، أي تسبب مضمون ما قبلها في مضمون ما بعدها.
{ **ادَّارَكُوا** } أصله تداركوا فقلبت التاء دالا ليتأتى إدغامها في الدال للتخفيف، وسكنت ليتحقق معنى الإدغام المتحركين، لثقل واجتلبت همزة الوصل لأجل الابتداء بالساكن. والمعنى، تلاحقوا واجتمعوا في النّار.
{ **جَمِيعاً** } حال من ضمير {ادَّارَكُوا} لتحقيق استيعاب الاجتماع، أي حتّى إذا اجتمعت أمم الضلال كلّها.
{ **أُخْرَاهُمْ** } : الآخرة في الرتبة، وهم الأتباع والرعيّة من كلّ أمّة من تلك الأمم، لأنّ كلّ أمّة في عصر لا تخلو من قادة ورعاع.
{ **لِأُولاهُمْ** } الأولى في المرتبة والاعتبار، وهم القادة والمتبوعون من كلّ أمّة أيضا.
وقيل: أريد بالأخرى المتأخرة في الزمان، وبالأولى أسلافهم، وهذا لا يلائم ما يأتي بعده.
واللام في{لِأُولاهُمْ} لام العلّة، وليست اللام التي يتعدى بها فعل القول، لأنّ قول الطائفة الأخيرة موجّه إلى الله تعالى.
{ **عَذَاباً ضِعْفاً** }، والضعف (بكسر الضاد) المثل لمقدار الشيء، وهو من الألفاظ الدالة على معنى نسبي يقتضي وجود معنى آخر، كالزوج والنصف، ويختص بالمقدار والعدد، هذا قول أبي عبيدة والزجاج وأئمة اللغة، وقد يستعمل فعله في مطلق التكثير وذلك إذا أسند إلى ما لا يدخل تحت المقدار، مثل العذاب في قوله تعالى { يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الفرقان: 69]
{ **قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ** } حكاية لجواب الله إيّاهم عن سؤالهم مضاعفة العذاب لقادتهم، فلذلك فصل ولم يعطف جريا على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات. والتقدير: لكلّ أمّة، أو لكل طائفة ضعف، أي زيادة عذاب مثل العذاب الذي هي معذبه أوّل الأمر، فأمّا مضاعفة العذاب للقادة فلأنّهم سنّوا الضلال أو أيّدوه ونصروه وذبّوا عنه بالتمويه والمغالطات فأضلّوا، وأما مضاعفته للأتباع فلأنّهم ضلّوا بإضلال قادتهم، ولأنّهم بطاعتهم العمياء لقادتهم، يزيدونهم طغيانا وجراءة على الإضلال ويغرونهم بالازدياد منه.

{ **وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ** } الاستدراك لرفع ما توهمه التسوية بين القادة والأتباع في مضاعفة العذاب، والتقدير، لا تعلمون سبب تضعيف العذاب لكلّ من الطائفتين.

{ **وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ** } عطفت على جملة {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ} لأنّهم لم يدخلوا في المحاورة ابتداء فلذلك لم تفصل الجملة.

{ **فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ** } الفاء فاء فصيحة، مرتبة على قول الله تعالى {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} حيث سوّى بين الطائفتين في مضاعفة العذاب. لأنّ إخبار الله تعالى { لِكُلٍّ ضِعْفٌ } سبب للعلم بأنّ لا مزيّة لأخراهم عليهم في تعذيبهم عذابا أقل من عذابهم. فالتقدير، فإذا كان لكلّ ضعف فما كان لكم من فضل.

{ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } يجوز أن يكون من كلام أولاهم، للتشفّي منهم فيما نالهم من عذاب الضعف. وصيغة الأمر {فَذُوقُوا} مستعملة في الإهانة والتشفي.

الذوق، استعمل مجازا مرسلا في الإحساس بحاسة اللمس، وقد تقدم نظائره غير مرّة.

{ **بِمَا** } الباء سببيّة، أي بسبب ما كنتم تكسبون مما أوجب لكم مضاعفة العذاب.

{ **تَكْسِبُونَ** } عبّر بالكسب دون الكفر لأنّه أشمل لأحوالهم، لأنّ إضلالهم لأعقابهم كان بالكفر وبحب الفخر والإغراب بما علّموهم وما سنوا لهم، فشمل ذلك كله أنه كسب.

ويجوز أن يكون قوله {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} من كلام الله تعالى، مخاطبا به كلا الفريقين، وعلى اعتباره يكون الأمر في قوله {فَذُوقُوا} للتكوين والإهانة.

وفيما قصّ الله من محاورة قادة الأمم وأتباعهم ما فيه موعظة وتحذير لقادة المسلمين من الإيقاع بأتباعهم فيما يزجّ بهم في الضلالة، ويحسن لهم هواهم، وموعظة لعامتهم من الاسترسال في تأييد من يشايع هواهم، ولا يبلّغهم النصيحة، وفي الحديث: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ".

{ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الجنّة حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ [40] لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } [41]

استئناف ابتدائي مسوق لتحقيق خلود الفريقين في النّار. وأكّد الخبر بـ {إِنَّ} لتأييسهم من دخول الجنّة، لدفع توهّم أن يكون المراد من الخلود المتقدّم ذكره، الكناية عن طول مدّة البقاء في النّار، فإنّه ورد في مواضع كثيرة مرادا به هذا المعنى.

{ **أَبْوَابُ السَّمَاءِ** } السماء أطلقت في القرآن على معان، والأكثر أن يراد بها العوالم العليا غير الأرضيّة،

فالسماء مجموع العوالم العليا وهي مراتب وفيها عوالم القدس الإلهية من الملائكة والروحانيّات الصالحة النافعة، ومصدر إفاضة الخيرات الروحيّة والجثمانية على العالم الأرضي، ومصدر المقادير المقدّرة .

أبواب السماء، أسبابُ أمور عظيمة، أطلق عليها اسم الأبواب لتقريب حقائقها إلى الأذهان فمنها قبول الأعمال، ومسالك وصول الأمور الخيريّة الصادرة من أهل الأرض، وطرق قبولها، وهو تمثيل لأسباب التزكية.

وأضيفت الأبواب إلى السماء ليظهر أنّ هذا تمثيل لحرمانهم من وسائل الخيرات الإلهية الروحيّة، فيشمل ذلك عدم استجابة الدعاء، وعدم قبول الأعمال والعبادات، وحرمان أرواحهم بعد الموت مشاهدة مناظر الجنّة ومقاعد المؤمنين منها. فتكون{ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ } كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الخيرات الإلهيّة في الآخرة.

{ وَلا يَدْخُلُونَ الجنّة حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } إخبار عن حالهم في الآخرة وتحقيق لخلودهم في النار. فبعد أن حقّق ذلك بتأكيد الخبر كلّه بحرف التوكيد**{إنَّ}**، زيد تأكيدا بطريق تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، المشتهر عند أهل البيان بتأكيد المدح بما يشبه الذم، فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنّة امتدادا مستمرا، إذ جعل غايته شيئا مستحيلا، وهو أن يلج الجمل في سمّ الخياط، أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنّة غاية لكانت غايته ولوج الجمل وهو البعير في سمّ الخياط، وهو أمر لا يكون أبدا.

الجمل، البعير المعروف للعرب، ضرب به المثل لأنّه أشهر الأجسام في الضخامة في عرف العرب.

الخياط، هو المخيط بكسر الميم وهو آلة الخياطة المسمى بالإبرة.

السمّ، الخرْت الذي في الإبرة يدخل فيه خيط الخائط، وهو ثقب ضيق، وهو (بفتح السين) في الآية بلغة قريش وتضمّ السين في لغة أهل العالية(هي ما بين نجد وبين حدود أرض مكّة).

والقرآن أحال على ما هو معروف عند النّاس من حقيقة الجمل وحقيقة الخياط، ليعلم أنّ دخول الجمل في خرت الإبرة محال متعذّر ما داما على حاليهما المتعارفين.

{ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } تذييل يؤذن بأنّ الإجرام هو الذي أوقعهم في ذلك الجزاء.

الإجرام، فعل الجُرم (بضم الجيم) وهو الذنب، وأصل: أجرم صار ذا جرم.

{ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ }

المِهَاد، بكسر الميم ما يمهّد، أي يفرش. و**غَوَاشٍ،** جمع غاشية وهي ما يغشى الإنسان، أي يغطّيه كاللّحاف. شبّه ما هو تحتهم من النّار بالمهاد، وما هو فوقهم منها بالغواشي، كناية عن انتفاء الراحة لهم في جهنّم، فإنّ المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للراحة.

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } ليدلّ على أن سبب ذلك الجزاء بالعقاب: هو الظلم، وهو الشرك.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[42]

أعقب الإنذار والوعيد للمكذّبين، بالبشارة والوعد للمؤمنين المصدّقين على عادة القرآن في تعقيب أحد الغرضين بالآخر.

عطف على { الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [40]، لأن بين مضمون الجملتين مناسبة متوسّطة بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وهو التّضاد بين وصف المسند إليهما في الجملتين، وهو التكذيب بالآيات والإيمان بها، وبين حكم المسندين وهو العذاب والنعيم، وهذا من قبيل الجامع الوهمي المذكور في أحكام الفصل والوصل من علم المعاني.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** } ولم يذكر متعلّق الإيمان، لأن الإيمان صار كاللقب للإيمان الخاص الذي جاء به دين الإسلام وهو الإيمان بالله وحده.

{ **لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا** } معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج. وفائدة هذا الإدماج الإرتفاق بالمؤمنين، لأنّه لمّا بشّرهم بالجنّة على فعل الصالحات أطْمن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصالحة بما يخرج عن الطاقة، بل إنّما يُطلبون منها بما في وسعهم، فإن ذلك يرضي ربّهم.

الوسع، تقدم في قوله تعالى {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة :286].

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } دلّ على قصر ملازمة الجنّة عليهم، دون غيرهم، ففيه تأييس آخر للمشركين بحيث قويت نصيّة حرمانهم من الجنّة ونعيمها.

{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [43]

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقّق وقوعه، أي: وننزع ما في صدورهم من غلّ، وهو تعبير معروف في القرآن كقوله تعالى {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} [النحل: 1]

النزع، حقيقته قلع الشيء من موضعه، و تقدّم عند قوله تعالى {وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} [آل عمران:26].

ونزع الغلّ من قلوب أهل الجنّة، هو إزالة ما كان في قلوبهم في الدنيا من الغلّ عند تلقي ما يسوء من الغير، بحيث طهّر الله نفوسهم في حياتها الثانية عن الانفعال بالخواطر المدنّسة التي منها الغلّ، وأزال طباع الغلّ

التي في النفوس البشريّة بحيث لا يخطر في نفوسهم.
الغلّ، الحقد والإحْنَة والضِغْن، التي تحصل في النفس عند إدراك ما يسؤوها من عمل غيرها، وليس الحسد من الغلّ بل هو إحساس باطني آخر.
{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ** } في موضع الحال، أي هم في أمكنة عالية تشرف على أنهار الجنّة.
{ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا** } وهذا القول يحتمل أن يكونوا يقولونه في خاصتهم ونفوسهم، على معنى التقرّب إلى الله بحمده، ويحتمل أن يكونوا يقولونه بينهم في مجامعهم.
{ **لِهَذَا** } الإشارة إلى جميع ما هو حاضر من النعيم في وقت ذلك الحمد.
{ **هَدَانَا** } الهداية له هي الإرشاد إلى أسبابه، وجعل الهداية لنفس النعيم، لأنّ الدلالة على ما يوصل إلى الشيء إنّما هي هداية لأجل ذلك الشيء.
{ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ** } في موضع الحال من الضمير المنصوب، دلّ على بعد حالهم السالفة عن الاهتداء، فإنّهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة قد رسخت في أنفسهم، فما كان من السهل اهتداؤهم، لولا أن هداهم الله ببعثة الرسل وسياستهم في دعوتهم، وأن قذف في قلوبهم قبول الدعوة.
{ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** } جملة مستأنفة، استئنافا ابتدائيا، لصدروها عن ابتهاج نفوسهم واغتباطهم بما جاءتهم به الرسل. فلم يعاندوا، ولم يستكبروا، مع ما يسّر الله لهم من قبولهم الدعوة وامتثالهم الأمر، فإنّه من تمام المنّة المحمود عليها. وهذا التيسير هو الذي حُرمه المكذّبون المستكبرون، لأجل ابتدائهم بالتكذيب والاستكبار، دون النظر والاعتبار.
{ **وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } هذا النداء جواب لثنائهم، يدلّ على قبول ما أثنوا به، وعلى رضى الله عنهم. والنداء من قبل الله، ولذلك بني فعله إلى المجهول لظهور المقصود.
النداء، إعلان الخطاب، وهو أصل حقيقته في اللغة، ويطلق النداء غالبا على دعاء أحد ليقبل بذاته أو بفهمه لسماع كلام، ولو لم يكن برفع صوت { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً } [مريم:3] ولهذا المعنى حروف خاصة تدل عليه في العربية. وتقدّم عند قوله تعالى { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا } [الأعراف: 22].
{ **أَنْ تِلْكُمُ الجنّة** } والإشارة إلى الجنّة بـ {تِلْكُمُ} ، الذي حقّه أن يستعمل في المشار إليه البعيد، مع أنّ الجنّة حاضرة بين يديهم، لقصد رفعة شانها وتعظيم المنّة بها.
الإرث، حقيقته مصير مال الميت إلى أقرب النّاس إليه، ويقال: أورث الميت أقرباءه ماله، بمعنى جعلهم يرثونه عنه، لأنّه لمّا لم يصرفه عنهم بالوصية لغيره فقد تركه لهم، ويطلق مجازا على مصير شيء إلى أحد بدون عوض ولا غصب تشبيها بإرث الميّت، أي أعطيتموها عطيّة هنيئة لا تعب فيها ولا منازعة.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } الباء سببية، أي بسبب أعمالكم، وهي الإيمان والعمل الصالح. وهذا الكلام ثناء عليهم بأنّ الله شكر لهم أعمالهم، فأعطاهم هذا النعيم الخالد لأجل أعمالهم.

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [44] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } [45]

{ **وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة** } وهذا النداء خطاب من أصحاب الجنّة، عبّر عنه بالنداء كناية عن بلوغه إلى أسماع أصحاب النّار من مسافة سحيقة البعد، ووسيلة بلوغ هذا الخطاب من الجنّة إلى أصحاب النّار وسيلة عجيبة غير متعارفة. وعلم الله وقدرته لا حدّ لمتعلقاتهما.

{ **أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً** } (أن) تفسيريّة للنداء. والخبر مستعمل في لازم معناه وهو الاغتباط بحالهم، وتنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهيّة حالهم. وهذه الكناية جمع فيها بين المعنى الصريح والمعاني الكنائيّة، ولكن المعاني الكنائية هي المقصودة، إذ ليس القصد أن يعلم أهل النّار بما حصل لأهل الجنّة، ولكن القصد ما يلزم عن ذلك. وأمّا المعاني الصريحة فمدلولة بالأصالة عند عدم القرينة المانعة.

{ **فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً** } الاستفهام مستعمل مجازا مرسلا بعلاقة اللّزوم في توقيف المخاطبين على غلطهم، وإثارة ندامتهم وغمّهم على ما فرط منهم، والشماتة بهم في عواقب عنادهم. والمعاني المجازية التي علاقتها اللّزوم يجوز تعدّدها مثل الكناية، وقرينة المجاز هي ظهور أنّ أصحاب الجنّة يعلمون أنّ أصحاب النّار وجدوا وعده حقّا.

الوجدان، إلفاء الشيء ولقيّه، قال تعالى {فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ} [القصص: 15] وفعله يتعدى إلى مفعول واحد. ولا يدلّ على سبق بحث أو تطلّب. وقد يستعمل الوجدان في الإدراك والظنّ مجازا، وهو مجاز شائع.

{ **قَالُوا نَعَمْ** } جواب المقرّ المتحسّر المعترف، وقد جاء الجواب صالحا لظاهر السؤال وخفيّه، فالمقصود من الجواب بها، تحقيق ما أريد بالسؤال من المعاني حقيقة أو مجازا.

{ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** }

التّأذين، رفع الصوت بالكلام رفعا يُسمع البعيد بقدر الإمكان، وهو مشتق من الأُذن (بضم الهمزة)، جارحة السمع المعروفة، وهذا التّأذين، إخبار باللعن، وهو الإبعاد عن الخير، أي إعلام بأنّ أهل النّار مبعدون عن رحمة الله، زيادة في التأييس لهم، أو دعاء عليهم بزيادة البعد عن الرحمة، بتضعيف العذاب أو تحقيق الخلود. ووقوع هذا التأذين عقب المحاورة يُعلَم منه أنّ المراد بالظالمين أصحاب النار، ومن تلك الصفات والأفعال، تفظيع حالهم، والنداء على خبث نفوسهم، وفساد معتقدهم.

والتعبير عنهم بالظالمين تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللقب تعرف به جماعتهم، كما يقال: المؤمنين، لأهل الإسلام.

{ **أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** } يجوز أن تكون هذه اللعنة كانت الملائكة يلعنونهم بها في الدنيا، فجهروا بها في الآخرة، لأنّها صارت كالشعار للكفرة ينادون بها.

{ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً** }

{**يَصُدُّونَ** – وقوله - **وَيَبْغُونَهَا**}، شان المضارع الدلالة على حدث حاصل في زمن الحال، وهم في زمن التأذين لم يكونوا متّصفين بالصدّ عن سبيل الله، ولا ببغي عوج السبيل، فذلك لقصد ما يفيده المضارع من تكرّر حصول الفعل تبعا لمعنى التجدّد. والمعنى وصفهم بتكرّر ذلك منهم في الزمن الماضي، وهو معنى قول علماء المعاني **استحضار الحالة**، كقوله تعالى في الحكاية عن نوح {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ} [هود: 38].

الصدّ عن سبيل الله: إمّا تعرّض المشركين للراغبين في الإسلام بالأذى والصرف عن الدخول في الدين بوجوه مختلفة، وإمّا إعراضهم عن سماع دعوة الإسلام وسماع القرآن.

سبيل الله، ما به الوصول إلى مرضاته وهو الإسلام.

العوج، ضد الاستقامة، وهو (بفتح العين) في الأجسام و(بكسرها) في المعاني، وأصله أن يجوز فيه الفتح والكسر، ولكن الاستعمال خصّص الحقيقة بأحد الوجهين والمجاز بالوجه الآخر، وذلك من محاسن الاستعمال. أي ويرومون إظهار هذه السبيل عوجاء. أي يختلقون لها نقائص، تنفيرا عن الإسلام.

{ **وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ** } أي كافرون بالآخرة فيما مضى من حياتهم الدنيا، فإنّهم حينئذ قد علموا الحقّ وشاهدوه كما دل عليه قولهم { نعم }.

وورد وصفهم بالكفر بطريق الجملة الإسميّة، للدلالة على ثبات الكفر فيهم وتمكّنه منهم، لأنّ الكفر من الاعتقادات العقلية التي لا يناسبها التكرّر، فلذلك خولف بينه وبين وصفهم بالصدّ عن سبيل الله وبغي إظهار العوج فيها، لأنّ ذينك من الأفعال القابلة للتكرّر، بخلاف الكفر فإنه من الانفعالات.

{ **وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجنّة أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ [46] وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النّار قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } [47]

{ **بَيْنَهُمَا** } الضمير يعود إلى لفظي الجنّة والنّار، وهما اسما مكان، فيصلح اعتبار التوسّط بينهما. وجعل الحجاب فصلا بينهما، وتثنية الضمير تعيّن هذا المعنى، ولو أريد من الضمير فريقا أهل الجنّة وأهل النار، لقال: بينهم. كما قال في سورة الحديد {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ} [13].

الحجاب، سور ضرب فاصلا بين مكان الجنّة ومكان جهنم، وقد سمّاه القرآن سورا في قوله {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ} [الحديد :13]. وسُمّي حجابا، لأنّه يقصد منه الحجب والمنع، كما سمّي سورا باعتبار الإحاطة.

الأعراف، جمع عُرْف (بضم العين وسكون الراء وقد تضمّ) وهو أعلى الشيء، ومنه سُمّي عرف الفرس، الشعر الذي في أعلى رقبته، وسمّي عرف الديك، الريش الذي في أعلى رأسه.

{ **الأَعْرَافِ** } يجوز أن تكون (أل) للعهد، وهي الأعراف المعهودة التي تكون بارزة في أعالي السور، ليرقب منها النظّارة حركات العدوّ ليشعروا به إذا داهمهم. أو يجعل (أل) عوضا عن المضاف إليه: أي وعلى أعراف السور. وأيّا ما كان، فنظم الآية يأبى أن يكون المراد من الأعراف مكانا مخصوصا يتعرّف منه أهل الجنّة وأهل النّار، إذ لا وجه حينئذ لتعريفه مع عدم سبق الحديث عنه.

والآية حديث عن رجال مجهولين يكونون على أعراف هذا الحجاب. قبل أن يدخلوا الجنّة، فيشهدون هنالك أحوال أهل الجنّة وأحوال أهل النّار، ويعرفون رجالا من أهل النّار كانوا من أهل العزة والكبرياء في الدنيا، وكانوا يكذبون وعد الله المؤمنين بالجنّة.

وليس تخصيص الرجال بالذكر بمقتض أن ليس في أهل الأعراف نساء، ولا اختصاص هؤلاء الرجال المتحدث عنهم بذلك المكان دون سواهم من الرجال، ولكن هؤلاء رجال يقع لهم هذا الخبر، فذكروا هنا للاعتبار على وجه المصادفة، لا لقصد تقسيم أهل الآخرة وأمكنتهم.

ولعلّ توهّم أنّ تخصيص الرجال بالذكر لقصد التقسيم قد أوقع بعض المفسّرين في حيرة لتطلّب المعنى، لأنّ ذلك يقتضي أن يكون أهل الأعراف قد استحقّوا ذلك المكان لأجل حالة لا حظّ للنساء فيها، وليس إلّا الجهاد. فقال بعض المفسّرين: هؤلاء قوم جاهدوا وكانوا عاصين لآبائهم.

وبعض المفسّرين حمل الرجال على المجاز، بمعنى الأشخاص من الملائكة، أطلق عليهم الرجال لأنّهم ليسوا إناثا كما أطلق على أشخاص الجنّ في قوله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: 6].

وأمّا ما نقل عن بعض السلف أنّ أهل الأعراف هم قوم استوت موازين حسناتهم مع موازين سيئاتهم، ويكون إطلاق الرجال عليهم تغليبا، لأنّه لابد أن يكون فيهم نساء، ويروى فيه أخبار مسندة إلى النبي ﷺ لم تبلغ مبلغ الصحيح ولم تنزل إلى رتبة الضعيف، روى بعضها ابن ماجة، وبعضها ابن مردويه، وبعضها الطبري، فإذا صحّت، فإنّ المراد منها، أنّ من كانت تلك حالتهم يكونون من جملة أهل الأعراف المخبر عنهم في القرآن بأنّهم لم يدخلوا الجنّة وهم يطمعون. وليس المراد منها أنّهم المقصود من هذه الآية كما لا يخفى على المتأمل فيها.

والذي ينبغي تفسير الآية به، أنّ هذه الأعراف جعلها الله مكانا يُوقف به من جعله الله من أهل الجنّة قبل دخوله إيّاها، وذلك ضرب من العقاب خفيف، فجعل الداخلين إلى الجنّة متفاوتين في السبق تفاوتا يعلم الله أسبابه ومقاديره، وقد قال تعالى {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: 10]. وخص الله بالحديث في هذه الآيات رجالا من أصحاب الأعراف.

ثم يحتمل أن يكون أصحاب الأعراف من الأمة الإسلامية خاصة، ويحتمل أن يكونوا من سائر الأمم المؤمنين برسلهم، وأياما كان فالمقصود من هذه الآيات هم من كان من الأمّة المحمدية.

السيما، بالقصر السمة أي العلامة، أي بعلامة ميّز الله بها أهل الجنّة وأهل النّار، وقد تقدّم بيانها واشتقاقها عند قوله تعالى {تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [البقرة :273].

{ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجنّة أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } ونداؤهم أهل الجنّة بالسلام يؤذن بأنّهم في اتصال بعيد من أهل الجنّة، فجعل الله ذلك أمارة لهم بحسن عاقبتهم ترتاح لها نفوسهم، ويعلمون أنّهم صائرون إلى الجنّة، فلذلك حكي الله حالهم هذه للنّاس إيذانا بذلك وبأنّ طمعهم في قوله **{ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ }** هو طمع مستند إلى علامات وقوع المطموع فيه، فهو من صنف الرجاء.

{ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } دعاء تحيّة وإكرام.

وجملة { لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } مستأنفة للبيان، والجملتان معا معترضتان بين جملة {وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} وجملة {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ }.

{ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النّار قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

الصرف، أمر الحالّ بمغادرة المكان. والصرف هنا مجاز في الالتفات أو استعارة. وإسناده إلى المجهول هنا جار على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يتطلب لها فاعل، وقد تكون لهذا الإسناد هنا فائدة زائدة، وهي الإشارة إلى أنّهم لا ينظرون إلى أهل النّار إلّا نظرا شبيها بفعل من يحمله على الفعل حامل، وذلك أنّ النفس وإن كانت تكره المناظر السيّئة، فإنّ حبّ الاطلاع يحملها على أن توجّه النظر إليها آونة لتحصيل ما هو مجهول لديها.

التلقاء، مكان وجود الشيء، وهو منقول من المصدر الذي هو بمعنى اللقاء.

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ [48] أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجنّة لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ }[49]

والنداء يؤذن ببعد المخاطب، فيظهر أنّ أهل الأعراف لمّا تطلّعوا بأبصارهم إلى النّار عرفوا رجالا، أو قبل ذلك لما مُرّ عليهم بأهل النّار عرفوا رجالا كانوا جبّارين في الدنيا.

السيما هنا، يتعيّن أن يكون المراد بها ذوات الأشخاص، وليست السيما التي يتميز بها أهل النّار كلّهم كما هو في الآية السابقة.

فالمقصود بهذه الآية ذكر شيء من أمر الآخرة. فيه نذارة وموعظة لجبابرة المشركين من العرب الذين كانوا يحقّرون المستضعفين من المؤمنين، وفيهم عبيد وفقراء.

قال ابن الكلبي: ينادي أهل الأعراف وهم على السور: " يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان". فهؤلاء من الرجال الذين يعرفونهم بسيماهم وكانوا من أهل العزّة والكبرياء.

{ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ } يحتمل أن يكون جمع النّاس، أي ما أغنت عنكم كثرتكم التي تعتزون بها، ويحتمل أن يراد من الجمع المصدر بمعنى اسم المفعول، أي ما جمعتموه من المال والثروة. والخبر مستعمل في الشماتة والتوقيف على الخطأ.

{ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } و(ما) الثانية مصدريّة، أي واستكباركم الذي مضى في الدنيا، ووجه صوغه بصيغة الفعل دون المصدر ليتوسّل بالفعل إلى كونه مضارعا فيفيد أن الاستكبار كان دأبهم لا يفترون عنه.

{ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ } من كلام أصحاب الأعراف. والاستفهام مستعمل في التقرير.

{ هَؤُلاءِ } الإشارة إلى قوم من أهل الجنّة كانوا مستضعفين في الدنيا ومحقّرين عند المشركين، قال المفسّرون، هؤلاء مثل سلمان، وبلال، وخبّاب، وصهيب من ضعفاء المؤمنين. فإمّا أن يكونوا حينئذ قد استقرّوا في الجنّة، فجلّاهم الله لأهل الأعراف وللرجال الذين خاطبوهم، وإمّا أن يكون ذلك الحوار قد وقع قبل إدخالهم الجنّة.

{ أَقْسَمْتُمْ } لإظهار تصلّبهم في اعتقادهم وأنّهم لا يخامرهم شكّ في ذلك.

{ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ } هو المقسم عليه، وهذا النظم الذي حكي به قسمهم يؤذن بتهكّمهم بضعفاء المؤمنين في الدنيا.

{ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ } قيل مقول قول محذوف اختصارا لدلالة السياق عليه، والتقدير: قال لهم الله ادخلوا الجنّة، فكذّب الله قسمكم وخيّب ظنّكم. وهذا كلّه من كلام أصحاب الأعراف، والأظهر أن يكون الأمر للدعاء، لأنّ، المشار إليهم بهؤلاء هم أناس من أهل الجنّة، لأنّ ذلك الحين قد استقر فيه أهل الجنّة في الجنّة وأهل النّار في النّار، كما تقتضيه الآيات السابقة، فلذلك يتعيّن جعل الأمر للدعاء. وإذ قد كان الدخول حاصلا فالدعاء به لإرادة الدوام.

{ **لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** } تقدم تفسيره عند قوله تعالى {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [لأعراف: 35].

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ [50] الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ } [51].

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا }

{ **وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ** } القول فيها كالقول في {وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا} [44]. وأصحاب النّار مراد بهم من كان من مشركي أمّة الدعوة لأنّهم المقصود كما تقدّم.

الفيض، حقيقته سيلان الماء وانصبابه بقوّة، ويستعمل مجازا في الكثرة. ويجيء منه مجاز في السخاء ووفرة العطاء، ومنه ما في الحديث أنّه قال لطلحة: " أنت الفيّاض".

فالفيض في الآية إذا حمل على حقيقته كان أصحاب النّار طالبين من أصحاب الجنّة أن يصبّوا عليهم ماء ليشربوا منه، وعلى هذا المعنى حمله المفسرون.

ويجوز عندي أن يحمل الفيض على المعنى المجازي، وهو سعة العطاء والسخاء، من الماء والرزق، إذ ليس معنى الصبّ بمناسب، بل المقصود الإرسال والتفضّل، ويكون العطف عطف مفرد على مفرد وهو أصل العطف، ويكون سؤالهم من الطعام مماثلا لسؤالهم من الماء في الكثرة.

الرزق، مراد به الطعام كما في قوله تعالى {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ} [البقرة: 25].

{ **قَالُوا** } الضمير لأصحاب الجنّة، وهو جوابهم عن سؤال أصحاب النّار، ولذلك فصل على طريقة المحاورة.

{ **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** } التحريم مستعمل في معناه اللغوي. والمراد بالكافرين المشركون، لأنّهم قد عُرفوا في القرآن بأنّهم اتخذوا دينهم لهو ولعبا، وعُرفوا بإنكار لقاء يوم الحشر. وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأنعام :70].

{ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } وظاهر النظم أنّه من حكاية كلام أهل الجنّة. وجُوّز أن يكون مبتدأ على أنّه من كلام الله تعالى.

{ **فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ** }

اعتراض حكي به كلام من جانب الله تعالى، يسمعه الفريقان. وتغيير أسلوب الكلام هو القرينة على اختلاف المتكلّم، وهذا الأليق بما رجّحناه من جعل قوله {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً} إلى آخره حكاية لكلام أصحاب الجنّة.

وهذا العطف بالفاء من قبيل ما يسمّى بعطف التلقين الممثّل له غالبا بمعطوف بالواو فهو عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر، وتقدير الكلام، قال الله: {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ} ، فحذف فعل القول، وهذا تصديق لأصحاب الجنة.

النسيان، في الموضعين مستعمل مجازا في الإهمال والترك، لأنّه من لوازم النسيان، فإنّهم لم يكونوا في الدنيا ناسين لقاء يوم القيامة. فقد كانوا يذكرونه ويتحدّثون عنه حديث من لا يصدّق بوقوعه.

{ **فَالْيَوْمَ** } وتعليق الظرف بفعل{نَنْسَاهُمْ} لإظهار أنّ حرمانهم من الرحمة كان في أشد أوقات احتياجهم إليها، فكان لذكر اليوم أثر في إثارة تحسّرهم وندامتهم، وذلك عذاب نفسانيّ.

{ **كَمَا نَسُوا** } دلّ معنى كاف التشبيه على أنّ حرمانهم من رحمة الله كان مماثلا لإهمالهم التصديق باللقاء، وهي مماثلة جزاء العمل للعمل، وهي مماثلة اعتبارية.

{ **وَمَا كَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ** } تقدّم نظيره عند قوله {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام :33]

{ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [52]

عطف القصّة على القصّة، والغرض على الغرض، فهو كلام أنف انتقل به من غرض الخبر عن حال المشركين في الآخرة إلى غرض وصف أحوالهم في الدنيا، المستوجبين بها لما سيلاقونه في الآخرة، وليس هو من الكلام الذي عقب الله به كلام أصحاب الجنّة في قوله {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا}.

{ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ** } التأكيد بلام القسم و(قد)، إمّا باعتبار صفة {كتاب}، فيكون التأكيد جاريا على مقتضى الظاهر، لأنّ المشركين ينكرون أن يكون القرآن موصوفا بتلك الأوصاف.

وإمّا تأكيد لفعل {جِئْنَاهُمْ}، وهو بلوغ الكتاب إليهم فيكون التأكيد خارجا على خلاف مقتضى الظاهر، بتنزيل المبلّغ إليهم منزلة من ينكر بلوغ الكتاب إليهم، لأنّهم في إعراضهم عن النظر والتدبّر في شانه بمنزلة من لم يبلغه الكتاب.

{ **بِكِتَابٍ**} المراد به القرآن. والتنكير قصد به التعظيم، أو قصد به النوعيّة، أي ما هو إلّا كتاب كالكتب التي أنزلت من قبل.

{ **فَصَّلْنَاهُ** } أي بيّنّا ما فيه، والتفصيل تقدّم عند قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55].

{ **عَلَى عِلْمٍ** } أي حال كوننا على علم، ومعنى هذا التمكّن، أنّ علم الله تعالى ذاتيّ لا يعزب عنه شيء من المعلومات. والتّنكير للتعظيم.
{ **هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } إشارة إلى أنّ المؤمنين هم الذين توصّلوا للاهتداء به والرحمة، وأنّ من لم يؤمنوا قد حرموا الاهتداء والرحمة، وهذا كقوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}[البقرة:2].

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [53].

{ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، كالجواب عن سؤال من يسأل: فماذا يؤخّرهم عن التصديق بهذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؟ والاستفهام إنكاري ولذلك جاء بعده الاستثناء.
يَنْظُرُونَ، ينتظرون من النظرة بمعنى الانتظار، أي ما ينتظرون آية أعظم إلّا تأويل الكتاب، أي إلّا ظهور ما توعّدهم به، وإطلاق الانتظار هنا استعارة تهكّميّة. وقد مضى القول في نظير هذا التركيب عند قوله تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام :158].
التأويل، توضيح وتفسير ما خفي، من مقصد كلام أو فعل، وتحقيقه، وقد تقدّم اشتقاقه ومعناه في المقدّمة الأولى من مقدّمات هذا التفسير.
وتأويله، وضوح معنى ما عدّوه محالا وكذبا، من البعث والجزاء ورسالة رسول من الله تعالى ووحدانية الإله والعقاب، فذلك تأويل ما جاء به الكتاب، أي تحقيقه ووضوحه بالمشاهدة، وما بعد العيان بيان.
{ **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** } تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان للمراد من تأويله، وهو التأويل الذي سيظهر يوم القيامة، فالمراد باليوم يوم القيامة.
{ **يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ** } هم المشركون، وهم معاد ضمير {يَنْظُرُونَ} فكان مقتضى الظاهر أن يقال: يقولون، إلّا أنّه أظهر بالموصوليّة لقصد التسجيل عليهم بأنّهم نسوه وأعرضوا عنه وأنكروه، مرادا به التنبيه على خطئهم، والنعي عليهم بأنّهم يجرّون، بإعراضهم، سوء العاقبة لأنفسهم.
النسيان، مستعمل في الإعراض والصدّ، كما تقدّم في قوله {كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} [الأعراف: 51].
{ **مِنْ قَبْلُ** } ، أي من قبل تأويله، أو من قبل ذلك اليوم، أي في الدنيا. والقول هنا كناية عن العلم والاعتقاد، لأنّ الأصل في الأخبار مطابقتها لاعتقاد المخبر، أي يتبيّن لهم الحق ويصرحون به.
{ **قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** } خبر مستعمل في الإقرار بخطئهم في تكذيب الرسل، وإنشاء للحسرة على

ذلك، وإبداء الحيرة فيما ذا يصنعون. وهذا القول يقوله بعضهم لبعض اعترافا بخطئهم في تكذيبهم الرّسول ﷺ وما أخبر به عن الرسل من قبله.

{ **رُسُلُ رَبِّنَا** } جمع الرسل هنا، مع أنّ الحديث عن المكذّبين محمدا ﷺ، وذلك لأنّ رسول الله ﷺ ضرب لهم الأمثال بالرسل السابقين، وهم لمّا كذّبوه جرّأهم تكذيبه على إنكار بعثة الرسل. أو لأنّهم مشاهدون يومئذ ما هو عقاب الأمم السابقة على تكذيب رسلهم، فيصدر عنهم ذلك القول عن تأثّر بجميع ما شاهدوه من التهديد الشامل لهم ولمن عداهم من الأمم.

{ **فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا** } الاستفهام يجوز أن يكون حقيقيّا يقوله بعضهم لبعض، لعلّ أحدهم يرشدهم إلى مخلّص لهم من تلك الورطة، وهذا القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهدّدهم قبل أن يوقنوا بانتفاء الشفعاء. ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في التمنّي. ويجوز أن يكون مستعملا في النفي، على معنى التحسّر والتندم.

الشفعاء، جمع شفيع وهو الذي يسعى بالشفاعة، وهم يسمّون أصنامهم شفعاء، قال تعالى {وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس: 18]. وتقدّم معنى الشفاعة عند قوله تعالى {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة :48].

{ **فَيَشْفَعُوا لَنَا** } انتصب على جواب الاستفهام، أو التمنّي، أو النفي.

{ **أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } العطف بـ (أو) يجعل الاستفهام عن أحد الأمرين، لأنّ أحدهما لا يجتمع مع الآخر، فإذا حصلت الشفاعة فلا حاجة إلى الردّ، وإذا حصل الردّ استغني عن الشفاعة.

{ **فَنَعْمَلَ** } المراد بالعمل ما يشمل الاعتقاد، وهو الأهم، مثل اعتقاد الوحدانيّة والبعث وتصديق الرّسول ﷺ، لأنّ الاعتقاد عمل القلب، ولأنّه تترتب عليه آثار عمليّة، من أقوال وأفعال وامتثال.

{ **الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } المراد بالصّلة ما كانوا يعملونه من أمور الدين، أي فنعمل ما يغاير ما صمّمنا عليه بعد مجيء الرّسول ﷺ.

{ **قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا تذييلا وخلاصة لقصّتهم، أي فكان حاصل أمرهم أنّهم خسروا أنفسهم، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون.

الخسارة، مستعارة لعدم الانتفاع بما يرجى منه النفع، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: 12].

الضلال، شبّه حالهم بضلال الإبل عن أربابها تهكّما عليهم.

{ **مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } أي يَكْذِبونه إذ يقولون {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا} [يونس: 18]، وهم جماد لا حظّ لهم في شؤون العقلاء حتّى يشفعوا، فهم قد ضلّوا عنهم من الآن ولذلك عبّر بالماضي، لأنّ الضلال المستعار للعدم، متحقق من ماضي الأزمنة.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [54]

جاءت أغراض هذه السورة متناسبة متماسكة. فإنّها ابتدئت بذكر القرآن والأمر باتباعه ونبذ ما يصدّ عنه وهو اتباع الشرك، ثم التذكير بالأمم التي أعرضت عن طاعة رسل الله. ثم الاستدلال على وحدانيّة الله، والامتنان بخلق الأرض والتمكين منها، وبخلق أصل البشر وخلقهم، وخُلِّل ذلك بالتذكير بعداوة الشيطان للبشر. وانتقل من ذلك إلى التنديد على المشركين فيما اتبعوا فيه تسويل الشيطان، ثم بتذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله على البشر في قوله {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [35]. وبأنّ المشركين ظلموا بنكث العهد وتوعّدهم وذكّرهم أحوال أهل الآخرة، وعَقِب ذلك عاد إلى ذكر القرآن.

فلا جرمقد تهيّأت الأسماع والقلوب لتلقّي الحجّة على أنّ الله إله واحد، وأنّ آلهة المشركين ضلال وباطل، ثمّ لبيان عظيم قدرته ومجده. فكان ما في صدر السورة بمنزلة المطلوب المنطقي، وكان ما بعده بمنزلة البرهان، وكان قوله {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} بمنزلة النتيجة للبرهان، والنتيجة مساوية للمطلوب إلّا أنّها تؤخذ أوضح وأشد تفصيلا.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ } الخطاب موجّه إلى المشركين ابتداء، ولذلك كان للتأكيد بحرف (إنّ) موقعه لردّ إنكار المشركين انفراد الله بالربوبيّة. وإذ كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرة بعظم مجد الله وسعة ملكه، ويزيدهم ذكرى بدلائل قدرته، كان الخطاب صالحا لتناول المسلمين، لصلاحيّة ضمير الخطاب لذلك، ولا يكون حرف { إنّ } بالنسبة إليهم سدى، لأنّه يفيد الاهتمام بالخبر.

{ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } صفة لاسم الجلالة، والصلة مؤذنة بالإيماء إلى وجه بناء الخبر المتقدّم، وهو {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ}، لأنّ خلق السماوات والأرض يكفيهم دليلا على انفراده بالإلهيّة.

{ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } تعليم بعظيم قدرته، ويحصل منه للمشركين زيادة شعور بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية. ولا يدل قوله { فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } على أنّ أهل مكّة كانوا يعلمون ذلك. وفيه تحدٍّ لأهل الكتاب.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرّجا، وأن لا يكون دفعة، لأنّه جعل العوالم متولّدا بعضها من بعض، لتكون أتقن صنعا ممّا لو خلقت دفعة، وليكون هذا الخلق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرّج.

وظاهر الآيات أنّ الأيام هي المعروفة للنّاس، التي هي جمع اليوم الذي هو مدة تقدر من مبدإ ظهور الشمس

في المشرق إلى ظهورها في ذلك المكان ثانية، وعلى هذا التفسير فالتقدير في ما يماثل تلك المدّة ست مرات، لأنّ حقيقة اليوم بهذا المعنى لم تتحقّق إلّا بعد تمام خلق السماء والأرض.

وقيل: إنّ الأيام هنا جمع اليوم من أيام الله تعالى الذي هو مدة ألف سنة، فستة أيام عبارة عن ستة آلاف من السنين نظرا لقوله تعالى {وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: 47] وقوله {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [السجدة:5]. ونقل ذلك عن زيد بن أرقم واختاره النقّاش، وما هو ببعيد، وإن كان مخالفا لما في التوراة.

وقيل المراد: في ستة أوقات، فإن اليوم يطلق على الوقت كما في قوله تعالى {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} [لأنفال: 16] أي حين إذ يلقاهم زحفا، ومقصود هذا القائل أنّ السماوات والأرض خلقت عالما بعد عالم ولم يشترك جميعها في أوقات تكوينها.

وأيّا ما كان فالأيام مراد بها مقادير لا الأيام التي واحدها يوم، والتعمّق في البحث في هذا خروج عن غرض القرآن.

الاستواء، حقيقته الاعتدال، والذي يؤخذ من كلام المحقّقين من علماء اللغة والمفسّرين أنّه حقيقة في الارتفاع والاعتلاء، كما في قوله تعالى في صفة جبريل {فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} [النجم: 6، 8].

والاستواء له معان متفرّعة عن حقيقته، أشهرها القصد والاعتلاء.

وقد التزم هذا اللفظ في القرآن مسندا إلى ضمير الجلالة عند الإخبار عن أحوال سماوية، كما في هذه الآية.

ونظائرها سبع آيات من القرآن: هنا، وفي يونس، والرعد، وطه، والفرقان، وألم السجدة، والحديد، وفصلت.

فظهر لي أنّ لهذا الفعل خصوصيّة في كلام العرب كان بسببها أجدر بالدلالة على المعنى المراد تبليغه مجملا مما يليق بصفات الله ويقرّب إلى الإفهام معنى عظمته، ولذلك اختير في هذه الآيات دون غيره من الأفعال التي فسّره بها المفسّرون.

فالاستواء يعبّر عن شأن عظيم من شؤون عظمة الخالق تعالى، اختير التعبير به على طريق الاستعارة والتمثيل، لأن معناه أقرب معاني المواد العربية إلى المعنى المعبّر عنه من شؤونه تعالى، فإن الله لما أراد تعليم معان من عالم الغيب لم يكن يتأتى ذلك في اللغة إلّا بأمثلة معلومة من عالم الشهادة، فلم يكن بد من التعبير عن المعاني المغيّبة بعبارات تقربها مما يعبّر به عن عالم الشهادة، ولذلك يكثر في القرآن ذكر الاستعارات التمثيلية والتخيلية في مثل هذا.

وقد كان السلف يتلقّون أمثالها بلا بحث ولا سؤال لأنّهم علموا المقصود الإجمالي منها فاقتنعوا بالمعنى مجملا، ويسمون أمثالها بالمتشابهات، ثم لمّا ظهر عصر ابتداء البحث كانوا إذا سئلوا عن هذه الآية يقولون: استوى الله على العرش ولا نعرف لذلك كيفا، وقد بيّنتُ أنّ مثل هذا من القسم الثاني من المتشابه عند قوله

تعالى {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران :7]، فكانوا يأبون تأويلها. وقد حكى عياض في المدارك عن سفيان بن عيينة أنّه قال: سأل رجل مالكا فقال: الرحمان على العرش استوى. كيف استوى يا أبا عبد الله؟ فسكت مالك مليا حتى علاه الرّحضَاء ثم سُرّي عنه، فقال: " الاستواء معلوم والكيف غير معقول والسؤال عن هذا بدعة والإيمان به واجب وإني لأظنك ضالا ".

قال البخاري، عن مجاهد: استوى، علا على العرش، وعن أبي العالية: استوى إلى السماء ارتفع فسوى خلقهن.

وأحسب أن استعارته تختلف بقرينة الحرف الذي يعدّى به فعله، فإن عدّي بحرف **(على)** كما في هذه الآية ونظائرها فهو مستعار من معنى الاعتلاء، مستعمل في اعتلاء مجازي يدل على معنى التمكّن، فيحتمل أنّه أريد منه التمثيل، وهو تمثيل شأن تصرّفه تعالى بتدبير العوالم، ولذلك نجده بهذا التركيب في الآيات السبع واقعا عقب ذكر خلق السماوات والأرض، فالمعنى حينئذ: خلقها ثم هو يدبّر أمورها تدبير الملك أمور مملكته مستويا على عرشه. ومما يقرب هذا المعنى قول النبي ﷺ: "يقبض الله الأرض ويطوي السماوات يوم القيامة ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض" .

ولذلك أيضا عقّب التركيب في مواقعه كلّها بما فيه معنى التصرّف كقوله هنا {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}.

وكمال هذا التمثيل يقتضي أن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة الممثّلة مشبّها بجزء من أجزاء الهيئة الممثل بها، فيقتضي أن يكون ثمّة موجود من أجزاء الهيئة الممثلة مشابها لعرش الملك في العظمة، وكونه مصدر التدبير والتصوف الإلهي يفيض على العوالم قوى تدبيرها.

وقد دلّت الآثار الصحيحة من أقوال الرّسول ﷺ على وجود هذا المخلوق العظيم المسمّى بالعرش كما سنبيّنه. فأمّا إذا عدي فعل الاستواء بحرف **(اللام)** فهو مستعار من معنى القصد والتوجّه إلى معنى تعلّق الإرادة، كما في قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: 29].

العرش، حقيقته الكرسي المرتفع الذي يجلس عليه الملك، قال تعالى {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل: 23] وقال {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ} [يوسف: 100].

وهو في هذه الآية ونظائرها مستعمل جزءا من التشبيه المركّب، ومن بداعة هذا التشبيه أن كان كل جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة مماثلا لجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها، وذلك أكمل التمثيل في البلاغة العربية، كما قدمته آنفا. وإذ قد كان هذا التمثيل مقصودا لتقريب شأن من شؤون عظمة ملك الله بحال هيئة من الهيئات المتعارفة، ناسب أن يشتمل على ما هو شعار أعظم المدبرين للأمور المتعارفة أعني الملوك، وذلك شعار العرش الذي من حوله تصدر تصرفات الملك، فإن تدبير الله لمخلوقاته بأمر التكوين يكون صدوره بواسطة الملائكة، وقد بيّن القرآن عمل بعضهم مثل جبريل عليه السلام وملك الموت، وبينت السنة بعضها: فذكرت

ملك الجبال، وملك الرياح، والملك الذي يباشر تكوين الجنين، ويكتب رزقه وأجله وعاقبته، وكذلك أشار القرآن إلى أنّ من الموجودات العلوية موجودا منوّها به سمّاه العرش ذكره القرآن في آيات كثيرة. ولما ذكر خلق السماوات والأرض وذكر العرش ذكره بما يشعر بأنه موجود قبل هذا الخلق. وبيّنت السنّة أن العرش أعظم من السماوات وما فيهن، من ذلك حديث عمران بن حصين أنّ النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض"، وحديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في حديث طويل:" فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنّة وفوقه عرش الرحمان ومنه تفجّر أنهار الجنة". وقد قيل إن العرش هو الكرسي وأنه المراد في قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} كما تقدم الكلام عليه في سورة البقرة [255].

{ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } وقد دلت (ثمّ) على التراخي الرتبي أي وأعظم من خلق السماوات والأرض استواءه على العرش، تنبيها على أنّ خلق السماوات والأرض لم يحدث تغييرا في تصرفات الله بزيادة ولا نقصان، ولذلك ذكر الاستواء على العرش عقب ذكر خلق السماوات والأرض في آيات كثيرة، ولعلّ المقصد من ذلك إبطال ما يقوله اليهود: إن الله استراح في اليوم السابع. فهو كالمقصد من قوله تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [قّ:38].

{ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ** } حال من اسم الجلالة، ذكر به شيء من عموم تدبيره تعالى وتصرّفه المضمّن في الاستواء على العرش، وتنبيه على المقصود من الاستواء، وخصّ هذا التصرّف بالذكر لما يدلّ عليه من عظيم المقدرة، وما فيه من عبرة التغيّر ودليل الحدوث، ولكونه متكرّرا حدوثه في مشاهدة النّاس كلّهم.

يُغْشِي، الإغشاء والتغشية، جعل الشيء غاشيا، حقيقته التغطية والغمّ. فمعنى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} أن الله يجعل أحدهما غاشيا الآخر، وهو مستعار للاخفاء، لأنّ النهار يزيل أثر الليل والليل يزيل أثر النهار.

{ **يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** } إن جُعلت استئنافا أو بدل اشتمال من جملة {يغشي} فأمرها واضح، واحتمل الضمير المنصوب في {يطلبه} أن يعود إلى الليل وإلى النهار.

وإن جُعلت حالا تعيّن أن تعتبر حالا من أحد المفعولين على السواء فإن كلا الليل والنهار يعتبر طالبا ومطلوبا، تبعا لاعتبار أحدهما مفعولا أولا أو ثانيا.

الحثيث، المسرع، وهو فعيل بمعنى مفعول، من حثّه إذا أعجله وكرّر إعجاله ليبادر بالعجلة. فالمعنى يطلبه سريعا مجدّا في السرعة لأنّه لا يلبث أن يعفى أثره.

{ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ** } بالنصب في قراءة الجمهور معطوفات على السماوات والأرض، أي وخلق الشمس والقمر والنجوم، وهي من أعظم المخلوقات التي اشتملت عليها السماوات.

و{مُسَخَّرَاتٍ} حال من المذكورات.

وقرأ ابن عامر برفع {الشَّمْسُ} وما عطف عليه ورفع {مُسَخَّرَاتٌ} ، فتكون الجملة حالا من ضمير اسم الجلالة كقوله { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}.

وتقدم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [البقرة :164].

التسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق أو شاغل، بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوض، فمنه تسخير العبيد والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل. ويستعمل مجازا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شانه أن يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام، تصريفا يصيّره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح أو بالجذف، وتسخير السحاب للامطار.

فقوله { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } أطلق التسخير فيه مجازا على جعلها خاضعة للنّظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير.

{ **بِأَمْرِهِ** } لفظ الأمر مستعمل مجازا في التصريف بحسب القدرة الجارية على وفق الإرادة، ومنه أمر التكوين المعبر عنه في القرآن بقوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يّس:82].

فـ (كن)تقريب لنفاذ القدرة.

{ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** } مستأنفة استئناف التذييل للكلام السابق من قوله {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} لإفادة تعميم الخلق. فالخلق، إيجاد الموجودات، والأمر تسخيرها للعمل الذي خلقت لأجله.

{ **أَلا** } افتتحت الجملة بحرف التنبيه لتعي نفوس السامعين هذا الكلام الجامع.

{ **تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } تذييل معترضة بين جملة {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} وجملة {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} إذ قد تهيّأ المقام للتّذكير بفضل الله على النّاس، وبنافع تصرفاته، عقب ما أجرى من إخبار عن عظيم قدرته وسعة علمه وإتقان صنعه.

وفعل { تَبَارَكَ } في صورة اشتقاقه يؤذن بإظهار الوصف على صاحبه المتّصف به، أي ظهرت بركته.

البركة، شدّة الخير، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً} [آل عمران :96]، فبركة الله الموصوف بها هي مجده ونزاهته وقدسه، وذلك جامع صفات الكمال، ومن ذلك أنّ له الخلق والأمر.

{ **رَبُّ الْعَالَمِينَ** } إتباع اسم الجلالة بالوصف في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد، لأنّه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبّر أحوال الموجودات، بوصف كونه رب أنواع المخلوقات. ومضى الكلام على {الْعَالَمِينَ} في سورة الفاتحة[2].

{ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** }[55]

جملة معترضة بين جملة { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [54] وجملة { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [57] جرى هذا الاعتراض على عادة القرآن في انتهاز فرص تهنُّؤ القلوب للذكرى. والخطاب خاص بالمسلمين لأنّه تعليم لأدب دعاء الله تعالى وعبادته، وليس المشركون بمتهيّئين لمثل هذا الخطاب، وهو تقريب للمؤمنين وإدناء لهم وتنبيه على رضى الله عنهم ومحبته، وشاهده قوله بعده {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [56].

الدعاء، حقيقته النداء، ويطلق أيضا على النداء لطلب مهم، واستعمل مجازا في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الركوع والسجود، مع مقارنتهما للأقوال وهو إطلال كثير في القرآن.

والمراد منه هنا الطلب والتوجّه، لأنّ المسلمين قد عبدوا الله وأفردوه بالعبادة، وإنّما المهم إشعارهم بالقرب من رحمة ربّهم وإدناء مقامهم منها.

{ **رَبَّكُمْ** } وجيء لتعريف الربّ بطريق الإضافة دون ضمير الغائب، مع وجود معاد قريب في قوله {تَبَارَكَ اللَّهُ} [54] ودون ضمير المتكلّم، لأنّ في لفظ الربّ إشعارا بتقريب المؤمنين بصلة المربوبية، وليتوسل بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إلى تشريف المؤمنين وعناية الربّ بهم.

التضرّع، إظهار التذلّل بهيئة خاصة، ويطلق التضرّع على الجهر بالدعاء، وقد فسّر في هذه الآية وفي قوله في سورة الأنعام {تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} بالجهر بالدعاء، وهو الذي نختاره لأنّه أنسب بمقابلته بالخفية.

ومن المفسّرين من أبقى التضرّع على حقيقته وهو التذلّل، فيكون مصدرا بمعنى الحال، أي متذلّلين، أو مفعولا مطلقا لـ {ادْعُوا} ، لأن التذلل بعض أحوال الدعاء فكأنه نوع منه، وجعلوا قوله {وَخُفْيَةً}، أي ادعوه مخفين دعاءكم، حتّى أوهم كلام بعضهم أنّ الإعلان بالدعاء منهي عنه أو غير مثوب عليه، وهذا خطأ، فإن النبي ﷺ دعا علنا غير مرّة. وعلى المنبر بمسمع من النّاس وقال: " اللّهم حوالينا ولا علينا "، وقال: " اللّهم عليك بقريش".

فالصواب أنّ قوله {تَضَرُّعاً} إذن بالدعاء بالجهر والإخفاء، وأمّا ما ورد من النهي عن الجهر فإنّما هو عن الجهر الشديد الخارج عن حد الخشوع.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** } واقعة موقع التعليل للأمر بالدعاء، إشارة إلى أنّه أمر تكريم للمسلمين يتضمّن رضى الله عنهم، ولكن سلك في التعليل طريق إثبات الشيء بإبطال ضده، تنبيها على قصد الأمرين وإيجازا في الكلام. ولكون الجملة واقعة موقع التعليل افتتحت بـ { إنّ } المفيدة لمجرّد الاهتمام، بقرينة خلو المخاطبين عن التردّد في هذا الخبر، ومن شان (إنّ) إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التعليل والربط، وتقوم مقام الفاء، كما نبّه عليه الشيخ عبد القاهر.

{ **لا يُحِبُّ** } وإطلاق المحبة وصفا لله تعالى، في هذه الآية ونحوها، إطلاق مجازي مراد بها لازم معنى المحبّة، بناء على أنّ حقيقة المحبة انفعال نفساني، وعندي فيه احتمال، فقالوا: أريد **لازم المحبّة**، أي في المحبوب والمحب، فيلزمها اتصاف المحبوب بما يرضي المحب لتنشأ المحبة التي أصلها الاستحسان، ويلزمها **رضى المحِبّ** عن محبوبهن **وإيصال النفع له**. وهذان اللازمان متلازمان في أنفسهما، فإطلاق المحبة وصفا لله مجاز بهذا اللازم المركب.

{ **الْمُعْتَدِينَ** } المشركون، لأنّه يرادف الظالمين.

والمعنى: ادعوا ربكم لأنه يحبكم ولا يحب المعتدين.

{ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [56]

{ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** }

عطف النهي عن الفساد في الأرض على جملة {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} عطفا على طريقة الاعتراض، فإنّ الكلام لما أنبأ عن عناية الله بالمسلمين وتقريبه إيّاهم إذ أمرهم بأن يدعوه وشرّفهم بذلك العنوان العظيم في قوله {رَبَّكُمْ} [55]، وعرّض لهم بمحبّته إيّاهم دون أعدائهم المعتدين، أعقبه بما يحول بينهم وبين الإدلال على الله بالاسترسال فيما تمليه عليهم شهواتهم من ثوران القوتين، الشهويّة والغضبيّة، فإنّهما تجنيان فسادا في الغالب، فذكّرهم بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزّها عن أن يخالطه فساد، وكذلك دأب القرآن أن يعقب الترغيب بالترهيب، وبالعكس، لئلّا يقع النّاس في اليأس أو الأمن.

وفيه تعريض بانّ المعتدين، وهم المشركون مفسدون في الأرض، وإرباء للمسلمين عن مشابهتهم، أي لا يليق بكم وأنتم المقرّبون من ربكم، المأذون لكم بدعائه، أن تكونوا مثل المبعدين منه المبغضين.

والإفساد في الأرض والإصلاح تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [البقرة :11].

وقد يكون بعض الإفساد مؤدّيا إلى صلاح أعظم ممّا جره الإفساد من المضرّة، فيترجّح الإفساد إذا لم يمكن تحصيل صلاح ضروري إلّا به، فقد قطع رسول الله ﷺ نخل بني النضير، ونهى أبو بكر رضي الله عنه عن قطع شجر العدو، لاختلاف الأحوال.

{ **بَعْدَ إِصْلاحِهَا** } بعديّة حقيقية، لأنّ الأرض خلقت من أوّل أمرها على صلاح قال الله تعالى {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} [فصلت: 10] على نظام صالح بما تحتوي عليه، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض، وخلق له ما في الأرض، وعزز ذلك

النظام بقوانين وضعها الله على ألسنة المرسلين والصالحين والحكماء من عباده، الذين أيدهم بالوحي والخطاب الإلهي، أو بالإلهام والتوفيق والحكمة، فعلّموا النّاس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النافع وإزالة ما في النافع من الضرّ وتجنب ضرّ الضار، فذلك النظام الأصلي، والقانون المعزّز له، كلاهما إصلاح في الأرض، لأنّ الأول إيجاد الشيء صالحا، والثاني جعل الضار صالحا بالتهذيب أو بالإزالة.

{ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }

عود إلى أمر الدعاء لأنّ ما قبله من النهي عن الإفساد أشبه الاحتراس المعترض بين أجزاء الكلام، وأعيد الأمر بالدعاء ليبنى عليه قوله {خَوْفاً وَطَمَعاً} قصدا لتعليم الباعث على الدعاء بعد أن علموا كيفيّته، وهذا الباعث تنطوي تحته أغراض الدعاء وأنواعه، فلا إشكال في عطف الأمر بالدعاء على مثله لأنّهما مختلفان باختلاف متعلقاتهما.

الخوف، تقدّم عند قوله تعالى {إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} [البقرة: 229].

الطمع، تقدّم في قوله {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ} في سورة البقرة [75].

وانتصاب {خَوْفاً وَطَمَعاً} هنا على المفعول لأجله، أي أنّ الدعاء يكون لأجل خوف منه وطمع فيه.

فالخوف من غضبه وعقابه، والطمع في رضاه وثوابه، والدعاء لأجل الخوف نحو الدعاء بالمغفرة، والدعاء لأجل الطمع نحو الدعاء بالتوفيق وبالرحمة. وفي الأمر بالدعاء خوفا وطمعا دليل على أنّ من حظوظ المكلّفين في أعمالهم مراعاة جانب الخوف من عقاب الله والطمع في ثوابه، وهذا مما طفحت به أدلّة الكتاب والسنّة.

{ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } واقعة موقع التفريع على جملة {وَادْعُوهُ} ، فلذلك قرنت بـ (إنّ) الدالة على التوكيد، وهو لمجرد الاهتمام بالخبر.

{رَحْمَتَ **اللَّهِ** } إحسانه وإيتاؤه الخير.

{ **قَرِيبٌ** } والقرب حقيقته دنو المكان وتجاوره، ويطلق على الرجاء مجازا يقال: هذا قريب، أي ممكن مرجو. وهو هنا بهذا المعنى.

{ **قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } دلّ على مقدّر في الكلام، أي وأحسنوا لأنّهم إذا دعوا خوفا وطمعا فقد تهيأوا لنبذ ما يوجب الخوف، واكتساب ما يوجب الطمع، لئلا يكون الخوف والطمع كاذبين، لأنّ من خاف لا يقدم على المخوف، ومن طمع لا يترك طلب المطموع، ويتحقّق ذلك بالإحسان في العمل ويلزم من الإحسان ترك السيئات، فلا جرم تكون رحمة الله قريبا منهم، وسكت عن ضدّ المحسنين رفقا بالمؤمنين وتعريضا بأنّهم لا يظنّ بهم أن يسيئوا فتبعد الرحمة عنهم.

وعدم لحاق علامة التأنيث لوصف {قَرِيبٌ} مع أن موصوفه مؤنث اللفظ، وجهه علماء العربية بوجوه كثيرة، وأشار إليهما في الكشاف.وجلّها يحوم حول تأويل الاسم المؤنث بما يرادفه من اسم مذكر، أو الاعتذار بأن بعض الموصوف به غير حقيقي التأنيث كما هنا، وأحسنها عندي قول الفراء وأبي عبيدة: أنّ قريبا أو بعيدا إذا أطلق على قرابة النسب أو بعد النسب فهو مع المؤنث بتاء ولا بد، وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفة وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان، وهو الأكثر، قال الله تعالى {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: 83] وقال {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً} [الأحزاب: 63].

{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [57]

لمّا ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضا من رحمته العامة وهو المطر. فذكر إرسال الرياح هو المقصود الأهم، لأنّه دليل على عظم القدرة والتدبير، ولذلك جعلناه معطوفا على {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [54]. وذكر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرياح يحصل منه إدماج الامتنان في الاستدلال، وذلك لا يقتضي أنّ الرياح لا ترسل إلّا للتبشير بالمطر، ولا أنّ المطر لا ينزل إلّا عقب إرسال الرياح، إذ ليس المقصود تعليم حوادث الجو، و ليس في الكلام ما يقتضي انحصار الملازمة.

وفيه تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع.

وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهبّ فيه ووصولها، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخّرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه، فشبّهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما، ومن بدائع هذه الاستعارة أنّ الريح لا تفارق كرة الهواء كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [البقرة :164]، فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد.

{ **بُشْراً** } قرأه نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر {نُشُراً} (بضم النون والشين) على أنّه جمع نَشور (بفتح النون) كرسول ورسل، وهو فعول بمعنى فاعل، والنَشور الريح الحيّة الطيّبة لآنّها تنشر السحاب، أي تبثّه وتكثره في الجو، كالشيء المنشور، ويجوز أن يكون فعولا بمعنى مفعول، أي منشورة، أي مبثوثة في الجهات، متفرقة فيها، لأنّ النشر هو التفريق في جهات كثيرة، ومعنى ذلك أن ريح المطر تكون ليّنة، تجيء مرة من الجنوب ومرة من الشمال، وتتفرّق في الجهات حتى ينشأ بها السحاب ويتعدّد سحابات مبثوثة.

وقرأه ابن عامر {نُشْراً} (بضم النون وسكون الشين) وهو تخفيف نُشُر الذي هو بضمتين كما يقال: رسل في رسل.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف {نَشْراً } بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر، وانتصب إمّا على المفعولية المطلقة لأنّه مرادف لـ "أرسل" بمعناه المجازي، أي أرسلها إرسالا أو نشرها نشرا. وإمّا على الحال من الريح، أي ناشرة أي السحاب، أو من الضمير في "أرسل" أي أرسلها ناشرا أي محييا بها الأرض الميّتة.

وقرأه عاصم{ **بُشْراً** } بالباء الموحدة في موضع النون مضمومة وبسكون الشين وبالتنوين، وهو تخفيف بُشُرا (بضمّهما) على أنّه جمع بشير مثل نُذُر ونذير، أي مبشّرة للنّاس باقتراب الغيث.

فحصل من مجموع هذه القراءات أنّ الرياح تنشر السحاب، وأنّها تأتي من جهات مختلفة تتعاقب فيكون ذلك سبب امتلاء الأسحبة بالماء، وأنّها تحيي الأرض بعد موتها، وأنّها تبشّر النّاس بهبوبها.

{ **بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** } أصل معنى قولهم (بين يدي فلان)، أنّه يكون أمامه بقرب منه (ولذلك قوبل بالخلف في قوله تعالى {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [البقرة: 255])، فقصد قائله الكناية عن الأمام.

الرحمة، أريد بها المطر، والقرينة على المراد بقيّة الكلام. وليست الرحمة من أسماء المطر في كلام العرب فإنّ ذلك لم يثبت، وإضافة الرحمة إلى اسم الجلالة في هذه الآية تبعد دعوى من ادعاها من أسماء المطر.

والمقصد الأوّل من قوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ} تقريع للمشركين وتفنيد إشراكهم، وتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم، لأنّ المشركين يعلمون أنّ للرياح مصرِّفا وأنّ للمطر مُنْزِلا، غير أنّهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنية إلى المجهول غالبا، فيقولون: (مطرنا بِنَوْء الثّريّا) ويقولون: (غِثْنَا مَا شِئْنَا) مبنيا للمجهول أي أغثنا، فأخبر الله تعالى بأنّ فاعل تلك الأفعال هو الله.

{ **حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ** } حَتَّى ابتدائية وهي غاية لمضمون قوله {بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} ، الذي هو في معنى متقدِّمة رحمتَه، أي تتقدّمها مدّة وتنشر أسحبتها، حتّى إذا أقلّت سحابا أنزلنا به الماء. فإنزال الماء هو غاية تقدّم الرياح وسبقها المطر.

الثقال، البطيئة التنقل لما فيها من رطوبة الماء، وهو البخار. وهو السحاب المرجوّ منه المطر.

{ **أَقَلَّتْ** } حملت، مشتق من القلّة، لأنّ الحامل يعدّ محموله قليلا فالهمزة فيه للجعل.

وإقلال الريح السحاب، هو أنّ الرياح تمرّ على سطح الأرض فيتجمّع بها ما على السطح من البخار، وترفعه الرياح إلى العلو في الجوّ، حتّى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجوّ، فهنالك ينقبض البخار وتتجمّع أجزاؤه فيصير سحابات، وكلما انضمّت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقل من إحداهما، حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقلّ انتشارها إلى أن تصير سحابا عظيما فيثقل، فينماع، ثم ينزل مطرا.

وقد تبيّن أن المراد من قوله {أَقَلَّتْ} غير المراد من قوله {فَتُثِيرُ سَحَاباً} [الروم: 48].

السحاب، اسم جمع لسحابة فلذلك جاز إجراؤه على اعتبار التذكير نظرا لتجرد لفظه عن علامة التأنيث، وجاز اعتبار التأنيث فيه نظرا لكونه في معنى الجمع ولهذه النكتة وصف السحاب في ابتداء إرساله بأنها تثير، ووصف بعد الغاية بأنها ثقال، وهذا من إعجاز القرآن العلمي، وقد ورد الاعتباران في هذه الآية فوصف السحاب بقوله {ثِقَالاً} اعتبارا بالجمع، وأعيد الضمير إليه بالإفراد في قوله {سُقْنَاهُ}.

السَّوْق، حقيقتة أنّه تسيير ما يمشي ومسَيِّره وراءه يُزجيه ويَحثُّه، وهو هنا مستعار لتسيير السحاب بأسبابه التي جعلها الله.

{ **لِبَلَدٍ** } اللام، لام العلة، أي لأجل بلد ميّت، وفي هذه اللام دلالة على العناية الربّانية بذلك البلد فلذلك عدل عن تعدية سقناه بحرف (إلى).

الميّت، مجاز أطلق على الجانب الذي انعدم منه النبات، وإسناد الموت المجازي إلى البلد هو أيضا مجاز عقلي، لأنّ الميّت إنما هو نباته وثمره.

{ **فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } الضمير المجرور بالباء{ بِهِ } يجوز أن يعود إلى البلد، فيكون الباء بمعنى (في)، ويجوز أن يعود إلى الماء فيكون الباء للآلة.

{ **كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } استغراق حقيقي، لأنّ البلد الميّت ليس معيّنا، بل يشمل كل بلد ميّت ينزل عليه المطر، فيحصل من جميع أفراد البلد الميّت جميع الثمرات قد أخرجها الله بواسطة الماء، والبلد الواحد يخرج ثمراته المعتادة فيه.

{ **كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى** } معترضة استطرادا للموعظة، والاستدلال على تقريب البعث الذي يستبعدونه. فوجه الشبه هو إحياء بعد موت.

{ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } مستأنفة، والرجاء ناشئ عن الجمل المتقدمة من قوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} لأن المراد التذكّر الشامل الذي يزيد المؤمن عبرة وإيمانا، والذي من شانه أن يقلع من المشرك اعتقاد الشرك ومن منكر البعث إنكاره.

{ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } [58]

جملة معترضة بين {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى} وبين {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً} [59] تتضمّن تفصيلا لمضمون جملة {فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [57] إذ قد بيّن فيها اختلاف حال البلد الذي يصيبه ماء السحاب. دعا إلى هذا التفصيل أنّه لمّا مثّل إخراج ثمرات الأرض بإخراج الموتى منها يوم البعث تذكيرا بذلك للمؤمنين، وإبطالا

لإحالة البعث عند المشركين، مُثّل هنا باختلاف حال إخراج النبات من الأرض اختلاف حال النّاس الأحياء في الانتفاع برحمة هدى الله. فموقع قوله {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} كموقع قوله {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى} ولذلك ذيل هذا بقوله {كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} كما ذيّل ما قبله بقوله {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [57].

والمعنى: كذلك نخرج الموتى وكذلك ينتفع برحمة الهدى من خلقت فطرته طيّبة قابلة للهدى، كالبلد الطيّب ينتفع بالمطر، ويُحرم من الانتفاع بالهدى من خلقت فطرته خبيثة كالأرض الخبيثة لا تنتفع بالمطر فلا تنبت نباتا نافعا، **فالمقصود من هذه الآية التمثيل**، وليس المقصود مجرّد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر، لأنّ الغرض المسوق له الكلام يجمع أمرين؛ العبرة بصنع الله، والموعظة بما يماثل أحواله.

الطيّب، وصف على وزن فَيْعِل وهي صيغة تدلّ على قوّة الوصف في الموصوف. والطيّب المتصف بالطيّب، وقد تقدم تفسير الطّيّب عند قوله تعالى {قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} [المائدة :4].

البلد الطّيّب، الأرض الموصوفة بالطِّيب، وطيبها زكاء تربتها وملاءمتها لإخراج النبات الصالح وللزرع والغرس وهي الأرض النّقيّة.

{ **بِإِذْنِ رَبِّهِ** } في موضع الحال من {نَبَاتُهُ} . و**الإذن**، الأمر، والمراد به أمر العناية به، كقوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [صّ: 75] ليدلّ على تشريف ذلك النبات، فهو في معنى الوصف بالزكاء.

{ **وَالَّذِي خَبُثَ** } حمله جميع المفسّرين على أنّه وصف للبلد، أي البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطّيب، وفسّروه بالأرض التي لا تنبت إلّا نباتا لا ينفع، ولا يسرع إنباتها، مثل السباخ، وحملوا ضمير يخرج على أنّه عائد للنبات، وجعلوا تقدير الكلام: والذي خبث لا يخرج نباته إلّا نكدا.

والذي يظهر لي، أن يكون {الَّذِي} صادقا على نبات الأرض، والمعنى: والنبت الذي خبث لا يخرج إلّا نكدا، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيبا بإذن ربه، والنبات الذي خبث يخرج نكدا من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ.

النّكد، وصف من النكَد (بفتح الكاف) وهو مصدر نَكِدَ الشّيءُ إذا كان غير صالح يجرّ على مستعمله شرًّا.

وفي تفصيل معنى الآية جاء الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: " مثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع بها الله النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنّما هي قِيعَانٌ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع لذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به ".

{ **كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ** } الإشارة إلى تفنّن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانيّة، والدالة أيضا على وقوع البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابليّة النّاس للهدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البيّن المقرّب في جميع ذلك، فذلك تصريف، أي تنويع وتفنين للآيات أي الدلائل.
{ **لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** } المؤمنون: تنبيها على أنّهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأنّ غيرهم مورد التمثيل بالبلد الخبيث.

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [59]

استئناف انتقل به الغرض من إقامة الحجّة والمنّة المبتدئة بقوله تعالى {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ} [10]، وتنبيه أهل الضلالة أنّهم غارقون في كيد الشيطان، الذي هو عدوّ نوعهم، من قوله {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ - إلى قوله - وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [16، 33]، ثم بالتهديد بوصف عذاب الآخرة وأحوال النّاس فيه، وما تخلّل ذلك من الأمثال والتعريض، إلى غرض الاعتبار والموعظة بما حلّ بالأمم الماضية، فهذا الاستئناف له مزيد اتصال بقوله في أوائل السورة { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا }[4]، وقد أفيض القول فيه في معظم السورة. وتَتَبُعُ هذا الاعتبارَ أغراضٌ أخرى؛ وهي تسلية الرّسول ﷺ، وتعليم أمّته بتاريخ الأمم التي قبلها من الأمم المرسل إليهم، ليعلم المكذّبون من العرب أن لا غضاضة على محمد ﷺ، ولا على رسالته من تكذيبهم، ولا يجعله ذلك دون غيره من الرّسل، بله أن يؤيّد زعمهم أنّه لو كان صادقا في رسالته لأيّده الله بعقاب مكذّبيه، لمّا قالوا على سبيل التهكّم أو الحجاج { اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم }. وليعلم أهل الكتاب وغيرهم أنّ ما لقيه محمد ﷺ من قومه هو شنشنة أهل الشقاوة تلقاء دعوة رسل الله.
{ **لَقَدْ** } أكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق لأنّ الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذّبة رسلها بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمد ﷺ.
{ **نُوحاً** } تقدّم التعريف بنوح عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً} [آل عمران:33]، وكان قوم نوح يسكنون الجزيرة والعراق، حسب ظن المؤرّخين، وعبّر عنهم القرآن بطريق القوميّة المضافة إلى نوح إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم يعرفون به.
{ **فَقَالَ يَا قَوْمِ** } خاطب نوح قومه كلّهم لأنّ الدعوة لا تكون إلّا عامة لهم، وعبّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة، ليتحقّقوا أنّه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم.
{ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } إبطال للحالة التي كانوا عليها، وهي تحتمل أن تكون حالة شرك كحالة

العرب، وتحتمل أن تكون حالة وثنيّة باقتصارهم على عبادة لأصنام دون الله تعالى، كحالة الصابئة وقدماء اليونان، وآيات القرآن صالحة للحالين. والمنقول في القصص، أنّ قوم نوح كانوا مشركين، وهو الذي يقتضيه ما في صحيح البخاري عن ابن عباس، أنّ آلهة قوم نوح أسماء جماعة من صالحيهم، فلمّا ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا في مجالسهم أنصابا، فاتخذوها وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبدت. وظاهر ما في سورة نوح أنّهم كانوا لا يعبدون الله لقوله {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ} [نوح: 3] وظاهر ما في سورة فصّلت أنهم يعترفون بالله لقولهم {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً} [فصلت: 14].

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } على الوجه الأوّل، بيان للعبادة التي أمرهم بها، أي أفردوه بالعبادة دون غيره، إذ ليس غيره لكم بإله. وعلى الوجه الثاني، يكون استئنافا بيانيّا للأمر بالإقلاع عن عبادة غيره.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } يجوز أن تكون في موقع التعليل، كما في الكشّاف، أي لمضمون قوله {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} كأنّه قيل: اتركوا عبادة غير الله خوفا من عذاب يوم عظيم، وبني نظم الكلام على خوف المتكلّم عليهم، دلالة على إمحاضه النّصح لهم وحرصه على سلامتهم، حتّى جعل ما يضرّ بهم كأنّه يضرّ به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم، وذلك لأن قوله هذا كان في مبدإ خطابهم بما أرسل به.

ويحتمل أنّه قاله بعد أن ظهر منهم التكذيب، إي إن كنتم لا تخافون عذابا فإني أخافه عليكم، وهذا من رحمة الرسل بقومهم.

ويجوز أن تكون مستأنفة ثانية بعد جملة {اعْبُدُوا اللَّهَ} لقصد الإرهاب والإنذار، ونكتة بناء نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم هي هي.

والعذاب المخوف ويومه يحتمل أنّهما في الآخرة أو في الدنيا، والأظهر الأوّل لأن جوابهم بأنّه في ضلال مبين يشعر بأنّهم أحالوا الوحدانية وأحالوا البعث كما يدل عليه قوله في سورة نوح { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح: 17، 18] فحالهم كحال مشركي العرب لأنّ عبادة الأصنام تمحّض أهلها للاقتصار على أغراض الدنيا.

{ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ }[60]

اقترن جوابهم بحرف التأكيد للدلالة على أنّهم حقّقوا وأكّدوا اعتقادهم أنّ نوحا منغمس في الضلالة.

{**الْمَلَأُ**} مهموز بغير مدّ، الجماعة الذين أمرهم واحد ورأيهم واحد لأنّهم يمالئ بعضهم بعضا، أي يعاونه ويوافقه. ويطلق الملأ على أشراف القوم وقادتهم لأنّ شأنهم أن يكون رأيهم واحدا عن تشاور، وهذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة (من) الدالة على التبعيض، أي أنّ قادة القوم هم الذين تصدّوا لمجادلة نوح والمناضلة عن دينهم بمسمع من القوم الذين خاطب جميعهم.

{ **لَنَرَاكَ** } الرؤية قلبية بمعنى العلم. أي إنّا لنوقن أنّك في ضلال مبين، ولم يوصف الملأ هنا بالذين كفروا أو بالذين استكبروا، كما وصف الملأ في قصّة هود بالذين كفروا، استغناء بدلالة المقام على أنّهم كذبوا وكفروا.

الضّلال، اسم مصدر ضلّ إذا أخطأ الطريق الموصل.

المبين، اسم فاعل من (أبان) المرادف (بان).

ضَلالٍ مُبِينٍ، الضّلال البالغ الغاية في البعد عن طريق الحق، وهذه شبهة منهم فإنّهم توهّموا أنّ الحق هو ما هم عليه.

{ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [61] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [62] أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [63]

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } النداء في جوابه إيّاهم للاهتمام بالخبر، ولم يخصّ خطابه بالذين جاوبوه، بل أعاد الخطاب إلى القوم كلّهم، لأنّ جوابه، مع كونه مجادلة للملأ من قومه، هو أيضا يتضمّن دعوة عامة، استنزالا لطائر نفوسهم.

{ **ضَلالَةٌ** } مصدر مثل الضلال، فتأنيثه لفظي محض، والعرب يستشعرون التأنيث غالبا في أسماء أجناس المعاني، مثل الغواية والسفاهة، فالتاء لمجرد تأنيث اللفظ وليس في هذه التاء معنى الوحدة، لأنّ أسماء أجناس المعاني لا تراعى فيها المشخّصات، فليس الضلال بمنزلة اسم الجمع للضلالة، خلافا لما في الكشّاف، وكأنّه حاول إثبات الفرق بين قول قومه له {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ} [60]، وقوله هو {لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ} وتبعه فيه الفخر، وابن الأثير في المثل السائر، وقد تكلّف لتصحيحه التفتزاني، ولا حاجة إلى ذلك، لأنّ التخالف بين كلمتي ضلال وضلالة اقتضاه التفنّن حيث سبق لفظ ضلال، وموجب سبقه إرادة وصفه بـ {مُبِينٍ}، فلو عبّر هنالك بلفظ ضلالة لكان وصفها بمبينة غير مألوف الاستعمال، ولمّا تقدّم لفظ {ضَلالٍ} استحسن أن يعاد بلفظ يغايره في السورة دفعا لثقل الإعادة. فقوله {لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ} رد لقولهم {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} بمساوية لا بأبلغ منه.

{ **وَلَكِنِّي رَسُولٌ** } الاستدراك لرفع ما توهّموه من أنّه في ضلال حيث خالف دينهم، أي هو في حال رسالة عن الله، مع ما تقتضي الرسالة من التبليغ والنصح والإخبار بما لا يعلمونه، وذلك ما حسبوه ضلالا.

{ **مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } واختيار طريق الإضافة في تعريف المرسِل، لما تؤذن به من تفخيم المضاف ومن وجوب طاعته على جميع النّاس، تعريضا بقومه إذ عصوه.

{ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي** } صفة لرسول، أو مستأنفة، والمقصود منها إفادة التجدّد، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم تأييسا لهم من متابعته إيّاهم.

التبليغ والإبلاغ: جعل الشيء بالغا، أي واصلا إلى المكان المقصود، وهو هنا استعارة للإعلام بالأمر المقصود علمه، فكأنّه ينقله من مكان إلى مكان.

{ **وَأَنْصَحُ لَكُمْ** } النصح والنصيحة كلمة جامعة، يعبّر بها عن حسن النيّة وإرادة الخير من قول أو عمل، وفي الحديث: " الدين النصيحة ". ويكثر إطلاق النصح على القول إلذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفعه عنه الضرّ. وضدّه الغشّ.

وفي الإتيان بالمضارع دلالة على تجديد النصح لهم، وإنّه غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذاءتهم.

{ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جمعا لمعان كثيرة مما تتضمّنه الرسالة، وتأييدا لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم، والاستخفاف بكراهيتهم وأذاهم. ويتضمن هذا الإجمال البديع تهديدا لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل، وتنبيها للتأمّل فيما أتاهم به، وفتحا لبصائرهم أن تتطلب العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكل ذلك شأنه أن يبعثهم على تصديقه وقبول ما جاءهم به.

{ **أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } انتقل إلى كشف الخطأ في شبهتهم. مفتتحا الجملة بالاستفهام الإنكاري بعد واو العطف، وهذا مشعر بأنّهم أحالوا أن يكون رسولا، مستدلين بأنّه بشر مثلهم، كما وقعت حكايته في آية أخرى {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ} [المؤمنون: 24].

العجب، حقيقته أنّه انفعال نفساني يحصل عند إدراك شئ غير مألوف، وقد يكون العجب مشوبا بإنكار الشيء المتعجّب منه واستبعاده وإحالته، كما في قوله تعالى {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [قّ: 2، 3]. والذي في هذه الآية كناية عن الإنكار كما في قوله تعالى {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [هود: 73] أنكروا عليها أنّها عدت ولادتها ولدا، وهي عجوز، محالا.

{ **عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ** } أي من جنسهم البشري، ومع ما في الكلام من فضح شبهتهم، فيه أيضا ردّ لها بأنّهم أحقّاء بأن يكون ما جعلوه موجب استبعاد واستحالة هو موجب القبول والإيمان، إذ الشان أن ينظروا في الذكر الذي جاءهم من ربّهم وأن لا يسرعوا إلى تكذيب الجائي به، وأن يعلموا أن كون المذكّر رجلا منهم أقرب إلى التعقّل من كون مذكّرهم من جنس آخر من ملك أو جنّي.

{ **لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } وقد رُتّبت الجمل على ترتيب حصول مضمونها في الوجود، فإنّ الإنذار مقدّم لأنّه حمل على الإقلاع عمّا هم عليه من الشرك أو الوثنية، ثم يحصل بعده العمل الصالح فترجى منه الرحمة.

الإنذار، تقدم عند قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً} [البقرة :119].
التقوى، تقدم عند قوله تعالى {فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة :2].
لَعَلَّكُمْ، تقدم في قوله تعالى {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة :21].
الرحمة، تقدمت عند قوله تعالى {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:3].

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ}[64]

ضمير الجمع عائد إلى القوم، والفاء في قوله {فَأَنْجَيْنَاهُ} للتعقيب، وهو تعقيب عرفي، لأنّ التكذيب حصل بعده الوحي إلى نوح بأنّه لن يؤمن من قومه إلّا من قد آمن، ولا يرجى زيادة مؤمن آخر، وأمره بأن يدخل الفلك ويحمل معه من آمن إلى آخر ما قصّه الله في سورة هود.
{ **فَأَنْجَيْنَاهُ** } قدّم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين، وتعجيلا لمسرّة السامعين من المؤمنين، بأنّ عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجّي الرّسول والمؤمنين. فلذلك، التقديم يفيد التعريض بالنذارة، وإلّا فإنّ الإغراق وقع قبل الإنجاء، إذ لا يظهر تحقّق إنجاء نوح ومن معه إلّا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به.
{ **فِي الْفُلْكِ** } تقدّم في قوله تعالى { إن في خلق السماوات والأرض} [البقرة :164].
{ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** } هم الذين آمنوا به، وسنذكر تعيينهم عند الكلام على قصته في سورة هود.
{ **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } والإتيان بالموصول دون أن يقال: وأغرقنا سائرهم، أو بقيّتهم، لما تؤذن به الصلة من وجه تعليل الخبر {وَأَغْرَقْنَا}، أي أغرقناهم لأجل تكذيبهم.
{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ** } تتنزل منزلة العلّة لجملة {أَغْرَقْنَا} كما دلّ عليه حرف (إنّ) لأنّه هنا لا يقصد به رد الشكّ والتردّد، إذ لا شك فيه، وإنّما المقصود من الحرف الدلالة على الاهتمام بالخبر، ومن شأن (إنّ) إذا جاءت للاهتمام أن تقوم مقام فاء التفريع، وتفيد التعليل وربط الجملة بالتي قبلها.
{عَمِينَ} جمع (عَمٍ)جمع سلامة بواو ونون، مشتقّ من العمى، وأصله فقدان البصر، ويطلق مجازا على فقدان الرأي النافع، ويقال: عمى القلب، وقد غلب في الكلام تخصيص الموصوف بالمعنى المجازي بالصفة المشبّهة لدلالتها على ثبوت الصفة، وتمكّنها بان تكون سجيّة وإنما يصدق ذلك في فقد الرأي، لأن المرء يخلق عليه غالبا، بخلاف فقد البصر، ولذلك قال تعالى هنا {عَمِينَ} ولم يقل عميا كما قال في الآية الأخرى {عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً} [الاسراء: 97].

{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ [65] قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [66]

قدّم المجرور على المفعول الأصلي ليتأتّى الإيجاز بالإضمار حيث أريد وصف هود بأنّه من إخوة عاد ومن صميمهم، من غير احتياج إلى إعادة لفظ عاد، ومع تجنّب عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة.

عادٌ، أمّة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وكانوا عشر قبائل، وقيل ثلاث عشرة قبيلة، وهم أبناء عاد بن عُوص، وعوص هو ابن إرَمَ بن سام بن نوح، كذا اصطلح المؤرّخون. وكانت منازل عاد ببلاد العرب بالشِّحْر (بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة) من أرض اليمن وحضر موت وعمان والأحقاف، وهي الرمال التي بين حضر موت وعمان.

هود، اختلف في نسبه، فقيل: هو من ذريّة عاد، وقيل: هو من ذريّة سام جدّ عاد، وليس من ذرية عاد.

{ أَخَاهُمْ } والأخ هنا مستعمل في مطلق القريب، على وجه المجاز المرسل، ومنه قولهم: يا أخا العرب. وقد كان هود من بني عاد، ويطلق الأخ مجازا أيضا على المصاحب الملازم، كقولهم: هو أخو الحرب، ومنهقوله تعالى {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الاسراء: 27] وقوله {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} [لأعراف: 202]. فالمراد أنّ هودا كان من ذوي نسب قومه عاد، وإنما وصف هود وغيره بذلك، ولم يوصف نوح بأنّه أخ لقومه، لأنّ النّاس في زمن نوح لو يكونوا قد انقسموا شعوبا وقبائل، والعرب يقولون، للواحد من القبيلة: أخو بني فلان، قصدا لعزوه ونسبته، تمييزا للنّاس إذ قد يشتركون في الأعلام.

ويؤخذ من هذه الآية ونظائرها أنّ نظام القبائل ما حدث إلّا بعد الطوفان.

{ قَالَ يَا قَوْمِ } فصلت ولم تعطف بالفاء كما عطف نظيرها المتقدّم في قصّة نوح، لأنّ الحال اقتضى هنا أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ قصّة هود لمّا وردت عقب قصّة نوح المذكور فيها دعوته قومه صار السامع مترقِّبا معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم.

{ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } مستأنفة ابتدائية، وقد شابهت دعوة هود قومه دعوة نوح قومه في المهمّ من كلامهما، لأنّ الرّسل مرسلون من الله والحكمة من الإرسال واحدة، فلا جرم أن تتشابه دعواتهم، وفي الحديث: " الأنبياء أبناء عَلّاتٍ "، وقال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} [الشورى: 13].

{ أَفَلا تَتَّقُونَ } استفهاميّة إنكاريّة معطوفة بفاء التفريع على جملة {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} . والمراد بالتقوى الحذر من عقاب الله تعالى على إشراكهم غيره في العبادة واعتقاد الإلهية. وفيه تعريض بوعيدهم إن استمروا على ذلك. ويحتمل أنّ ذلك حكاية قول من أقواله في تكرير الدعوة بعد أن دعاهم المرّة بعد المرّة ووعظهم.

{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ } ووصف الملإ بـ {الَّذِينَ كَفَرُوا} هنا، دون ما في قصة نوح، وصف

كاشف وليس للتقييد تفنّنا في أساليب الحكاية، ألا ترى أنّه قد وصف ملأ قوم نوح بـ {الَّذِينَ كَفَرُوا} في آية سورة هود.

{ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } والرؤية قلبية، أي أنّا لنعلم أنّك في سفاهة.

السفاهة، سخافة العقل، وقد تقدّم عند قوله تعالى {قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ} [البقرة: 13].

وأطلقوا الظن على اليقين، وهو استعمال كثير، كما في قوله تعالى {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ}[البقرة :46].

وقد تشابهت أقوال قوم هود وأقوال قوم نوح في تكذيب الرّسول، لأنّ ضلالة المكذّبين متّحدة، وشبهاتهم متّحدة، كما قال تعالى {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [البقرة: 118].

{ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [67] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } [68].

فصلت جملة {قَالَ} لأنها على طريقة المحاورة، وقد تقدّم القول فيها آنفا وفيما مضى.

وتفسير الآية تقدّم في نظيرها آنفا في قصّة نوح، إلّا أنّه قال هناك {وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: 62] وقال في هذه {وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} فنوح قال ما يدلّ على أنّه غير مقلع عن النصح للوجه الذي تقدّم، وهود قال ما يدل على أن نصحه لهم وصف ثابت فيه متمكّن منه، وأنّ ما زعموه سفاهة هو نصح.

الأمين، هو الموصوف بالأمانة، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره، وتمنعه من إضاعته، أو جعله لنفع نفسه، وضدّها الخيانة.

{ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[69]

{ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ }

هذا مماثل قول نوح لقومه وقد تقدّم آنفا سبب المماثلة. وتقدّم من قبل تفسير نظيره. يجوز أن يكون قوله {لِيُنْذِرَكُمْ} عطفا على قوله {اعْبُدُوا} [65]، ويكون ما بينهما اعتراضا حُكي به ما جرى بينه وبين قومه من المحاورة التي قاطعوه بها عقب قوله لهم {اعْبُدُوا اللَّهَ} [65]، فلمّا أتمّ جوابهم عمّا قاطعوا به كلامه عاد إلى دعوته، فيكون رجوعا إلى الدعوى.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

انتقل من أمرهم بالتوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم التي لا ينكرون أنّها من نعم الله دون غيره، لأن الخلق

والأمر لله لا لغيره، تذكيرا من شانه إيصالهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة. وإنّما أمرهم بالذُّكر (بضم الذال) لأنّ النفس تنسى النعم فتكفر المنعم، فإذا تذكّرت النعمة رأت حقا عليها أن تشكر المنعم، ولذلك كانت مسألة شكر المنعم من أهم مسائل التكليف.

{ **خُلَفَاءَ** } جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شيء، أي يتولّى عمل ما كان يعمله الآخر، وقد تقدّم عند قوله تعالى {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة :30]. فالمراد: جعلكم خلفاء في تعمير الأرض.

{ **مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** } المقصود أنّهم خلفاء قوم نوح، فعاد أوّل أمّة اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان، وليس المراد أنّهم خلفوا قوم نوح في ديارهم لأنّ منازل عاد غير منازل قوم نوح عند المؤرّخين.

وهذا التذكير، تصريح بالنعمة، وتعريض بالنذارة والوعيد بأنّ قوم نوح إنّما استأصلهم وأبادهم عذاب من الله على شركهم، فمن اتّبعهم في صنعهم يوشك أن يحلّ به عذاب أيضا.

{ **الْخَلْقُ** } يحتمل أن يكون مصدرا خالصا، ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول، وهو يستعمل في المعنيين.

{ **بَصْطَةً** } ثبت في المصاحف بصاد قبل الطاء وهو مرادف بسطة الذي هو بسين قبل الطاء. والبصطة، الوفرة والسعة في أمر من الأمور.

فإن كان {**الْخَلْقُ**} بمعنى المصدر، فالبصطة الزيادة في القوى الجبليّة، أي زادهم قوة في عقولهم وأجسامهم فخلقهم عقلاء أصحاء، وقد اشتهر عند العرب نسبة العقول الراجحة إلى عاد، ونسبة كمال قوى الأجسام إليهم قال النابغة:

أحلام عاد واجسام مطهّرة ... من المعقة والآفات والإثِم

وقال وَدّاك بن ثُمَيْل المازني في الحماسة:

وأحلام عاد لا يخاف جليسهم ... ولو نطق العوّار غَرْبَ لسان

وإن كان {**الخَلْقُ**} بمعنى النّاس فالمعنى، وزادكم بصطة في النّاس بأن جعلكم أفضل منهم فيما تتفاضل به الأمم من الأمور كلّها، فيشمل رجحان العقول وقوة الأجسام وسلامتها من العاهات والآفات وقوّة البأس، وقد نسبت الدروع وكذلك السيوف إلى عاد فيقال لها: العاديّة. وقد قال الله تعالى حكاية عنهم { وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت: 15]، وحكى في سورة الشعراء عن هود أنّه قال لهم {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [129] وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [130] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [131] وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ [132] أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ [133] وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [134].

{ **فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ** }الفاء فصيحة، أي فاذكروا نعمه الكثيرة تفصيلا، فالكلام جاء على طريقة القياس من الاستدلال بالجزئي على إثبات حكم كلّي، فإنّه ذكّرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاء، ونعم مجملة وهي

زيادة بصطتهم، ثم ذكّرهم بقية النعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف.
الآلاء، جمع (إلَى) والإلَى النّعمة وهذا مثل جمع عنب على أعناب، ونظيره جمع إنًى بالنون، وهو الوقت، على آناء قال تعالى {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} [الأحزاب: 53] أي وقته، وقال {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ} [طه:130]
{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } ورتّب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأن ذكر النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة.

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [70] **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } [71]
جاوبوا هودا بما أنبأ عن ضياع حجّته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتوحيد، وهذا الجواب أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأوّل، إذ قالوا {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [66] كأنهم راموا استنزال نفس هود ومحاولة إرجاعه عمّا دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار وذكّروه بانّ الأمر الذي أنكره هو دين آباء الجميع تعريضا بأنّه سفّه آباءه. وهذا المقصد هو الذي اقتضى التعبير عن دينهم بطريق الموصوليّة في قولهم {مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} إيماء إلى وجه الإنكار عليه، وإلى أنّه حقيق بمتابعة دين آبائه، كما قال الملأ من قريش لأبي طالب حين دعاه النبي ﷺ أن يقول (لا إله إلا الله) عند احتضاره، فقالوا لأبي طالب: أترغب عن ملّة عبد المطلب.
{ **يَعْبُدُ** } والتعبير بالفعل وكونه مضارعا ليدل على أنّ ذلك متكرّر من آبائهم ومتجدّد وأنّهم لا يفترون عنه.
{ **أَجِئْتَنَا** } أقصدت واهتممت بنا لنعبد الله وحده، فاستعير فعل المجيء لمعنى الاهتمام والتحفّز والتصلّب.
{ **وَنَذَرَ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].
{ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** } الفاء لتفريع طلب تحقيق ما توعّدهم به، وتحدّيا لهود، وإشعارا له بأنّهم موقنون بأن لا صدق للوعيد الذي يتوعّدهم، فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب. فالأمر {فَأْتِنَا} للتعجيز.
الإتيان بالشيء، حقيقته أن يجيء مصاحبا إيّاه، ويستعمل مجازا في الإحضار والإثبات كما هنا.
والمعنى فعجّل لنا ما تعدنا به من العذاب، أو فحقّق لنا ما زعمت من وعيدنا.
وأسندوا الفعل إلى ضميره، تعريضا بانّ ما توعّدهم به هو شيء من مختلقاته وليس من قبل الله تعالى.
والوعد الذي أرادوه وعد بالشر، وهو الوعيد. ولم يتقدّم ما يفيد أنّه توعدهم بسوء، فيحتمل أن يكون وعيدا ضمنيا تضمنه قوله {أَفَلا تَتَّقُونَ} [65] .
{ **إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } وعقّبوا كلامهم بالشرط استقصاء لمقدرته، قصدا منهم لإظهار عجزه عن الإتيان

بالعذاب فلا يسعه إلّا الاعتراف بأنّه كاذب، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله تقديره: أتيت به وإلّا فلست بصادق.

{ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ** } أجابهم بأن أخبرهم بأنّ الله قد غضب عليهم، وأنّهم وقع عليهم رجس من الله.

{ **وَقَعَ** } الأظهر أنّ معناه حقّ وثبت، من قولهم للأمر المحقّق: هذا واقع، وللأمر المكذوب: هذا غير واقع.

الرجس، هو الشيء الخبيث، أطلق هنا مجازا على خبث الباطن، أي فساد النفس كما في قوله تعالى {فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ} [توبة: 125]. والمعنى، أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم، فلا يقبلون الخير ولا يصيرون إليه.

وعن ابن عباس أنّه فسر الرجس هنا باللعنة، والجمهور فسّروا الرجس هنا بالعذاب، فيكون فعل {وَقَعَ} من استعمال صيغة الماضي في معنى الاستقبال، إشعارا بتحقيق وقوعه.

ومنهم من فسّر الرجس بالسخط، وفسر الغضب بالعذاب، على أنّه مجاز مرسل، لأنّ العذاب أثر الغضب.

غضب الله، تقديره الإبعاد والعقوبة والتحقير، وهي آثار الغضب في الحوادث، لأنّ حقيقة الغضب، انفعال تنشأ عنه كراهية المغضوب عليه وإبعاده وإضراره.

{ **عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ** } تقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب، إيقاظا لبصائرهم لعلهم يبادرون بالتوبة، ولأنّ المجرورين متعلقان بالفعل فناسب إيلاؤهما إيّاه.

{ **أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** } لمّا قدّم إنذارهم بغضب الله عاد إلى الاحتجاج عليهم بفساد معتقدهم، فأنكر عليهم أن يجادلوا في شأن أصنامهم.

المجادلة، المحاجة.

{ **فِي أَسْمَاءٍ** } عبر عن الأصنام بأنّها أسماء، أي هي مجرّد أسماء ليست لها الحقائق التي اعتقدوها ووضعوا لها الأسماء لأجل استحضارها. فلعلّ بعض آلهة عاد كان مجرّد اسم يذكرونه بالإلهية ولا يجعلون له تمثالا ولا نصبا، مثل ما كانت العزى عند العرب، فقد قيل: إنّهم جعلوا لها بيتا ولم يجعلوا لها نصبا، وقد قال الله تعالى في ذلك {إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم: 23]

وذكر أهل الأخبار أن عادا اتخذوا أصناما ثلاثة وهي:

صَمود، (بفتح الصاد المهملة) بوزن زبور. و**صُداء،** (بضم الصاد المهملة وبدال مهملة بعدها ألف وبعد الألف همزة). و **الهباء**. ولم أر ذكر (صُداء والهباء) فيما رأيت من كتب اللغة.

{ **سَمَّيْتُمُوهَا** } ليس المراد من التسمية في الآية وضع الإسم للمسمّى، كما يقال: سمّيت ولدي كذا، لأنّ المخاطبين وكثيرا من آبائهم لاحظ لهم في تسمية الأصنام، وإنّما ذلك من فعل بعض الآباء وهم الذين انتحلوا

الشرك واتخذوه دينا وعلّموه أبناءهم وقومهم، ولأجل هذا المعنى المقصود من التسمية لم يذكر لفعل(سمّيتم) مفعول ثان ولا متعلّق، بل اقتصر على مفعول واحد.

{ **وَآبَاؤُكُمْ** } لأن من آباءهم من وضع لهم تلك الأسماء، فالواضعون وضعوا وسمّوا، والمقلّدون سمّوا ولم يضعوا، واشتراك الفريقان في أنهم يذكرون أسماء لا مسمّيات لها.

السلطان، الحجّة التي يصدّق بها المخالف، سمّيت سلطانا لأنّها تتسلّط على نفس المعارض وتقنعه.

ونفى أن تكون الحجّة منزلة من الله، لأنّ شأن الحجّة في مثل هذا أن يكون مخبرا بها من جانب الله تعالى، لأن أمور الغيب مما استأثر الله بعلمه. وأعظم المغيبات ثبوت الإلهية لأنّه قد يقصر العقل عن إدراكها فمن شأنها أن تتلقى من قبل الوحي الإلهي.

{ **فَانْتَظِرُوا** }الفاء لتفريع هذا الإنذار والتهديد السابق، لأنّ وقوع الغضب والرجس عليهم، ومكابرتهم واحتجاجهم مما لا حجّة له، ينشأ عن ذلك التهديد بانتظار العذاب. وصيغة الأمر للتهديد مثل {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [فصلت: 40]. و**الانتظار** افتعال من النظر بمعنى الترقّب، كأن المخاطب أمر بالترقب فارتقب.

ومفعول: {فَانتظِرُوا} محذوف دل عليه قوله، أي فانتظروا عقابا.

{ **إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } وهذا مقام أدب مع الله تعالى كقوله تعالىذ، تلقينا لرسوله محمد ﷺ { وما أدري ما يفعل بي ولا بكم }. فهود يخاف أن يشمله العذاب النازل بقومه وذلك جائز كما في الحديث أنّ أم سلمة قالت: أنهلك وفينا الصالحون قال: " نعم إذا كثر الخبث " . وفي الحديث الآخر: "ثم يحشرون على نيّاتهم" .

ويجوز أن ينزل بهم العذاب ويراه هود ولكنّه لا يصيبه، وقد روي ذلك في قصّته. ويجوز أن يبعده الله، وقد روي أيضا في قصّته بأن يأمره بمبارحة ديار قومه قبل نزول العذاب.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ } [72].

الفاء للتعقيب، أي فعجّل الله استئصال عاد ونجّى هودا و المؤمنين من قومه، فالمعقّب به هو قطع دابر عاد، و جرى النظم على خلاف مقتضى الظاهر للاهتمام بتعجيل الإخبار بنجاة هود ومن آمن معه، على نحو ما قرّرته في قوله تعالى {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [64] في قصة نوح.

{ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ** } المعيّة هي المصاحبة في الدين، وهي معية مجازيّة. قيل إنّ الله تعالى أمر هودا ومن معه بالهجرة إلى مكّة قبل أن يحلّ العذاب بعاد، وإنّه توفي هنالك ودفن في الحجر، ولا أحسب هذا ثابتا لأنّ مكّة إنّما بناها إبراهيم، وظاهر ما في سورة هود أنّ بين عاد وإبراهيم زمنا طويلا، والأظهر أنّ النجاة كانت بالأمر بالهجرة إلى مكان بعيد عن العذاب، وروي عن علي أنّ قبر هود بحضر موت وهذا أقرب.

{ **بِرَحْمَةٍ مِنَّا** } الباء فيه للسببية، وتنكير {رَحْمَةٍ} للتعظيم، وكذلك وصفها بأنّها من الله للدلالة على كمالها. ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة، أي فأنجيناه ورحمناه، فكانت الرحمة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم، وموقع { مِنَّا } على هذا الوجه موقع رشيق جدا يؤذن بأن الرحمة غير منقطعة عنهم كقوله {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور: 48]

{ **وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } نظير قوله تعالى {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام:45]. وقد أرسل عليهم الريح الدبور فأفناهم جميعا ولم يبق منهم أحد. والظاهر أنّ الذين أنجاهم الله منهم لم يكن لهم نسل. وأمّا الآية فلا تقتضي إلّا انقراض نسل الذين كذّبوا ونزل بهم العذاب.

{ **وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ** } عطف على {كَذَّبُوا} فهو من الصلة، وفائدة عطفه الإشارة إلى أنّ كلتا الصلتين موجب لقطع دابرهم؛ وهما التكذيب والإشراك، تعريضا بمشركي قريش، ولموعظتهم ذكرت هذه القصص. وقد كان ما حل بعاد من الاستئصال تطهيرا أوّل لبلاد العرب من الشرك.

{ **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } [73].

{ **وَإِلَى ثَمُودَ** – إلى قوله - **مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } القول في تفسيرها مثل ما في قوله {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً} [65]. **ثمود**، أمّة عظيمة من العرب البائدة، وهم أبناء ثمود بن جاثر (بجيم ومثلثة كما في القاموس) ابن إرم بن سام بن نوح فيلتقون مع عاد في إرم، وكانت مساكنهم بالحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم) بين الحجاز والشام، وهو المكان المسمّى الآن مدائن صالح وسمي في حديث غزوة تبوك: حجر ثمود.

صالح، هو ابن عَبيل (بلام في آخره وبفتح العين) ابن آسف بن ماشج أو شالخ بن عبيل بن جاثر ويقال كاثر ابن ثمود.

وثمود هنا ممنوع من الصرف لأنّ المراد به القبيلة لا جدّها. وأسماء القبائل ممنوعة من الصرف على اعتبار التأنيث مع العلمية وهو الغالب في القرآن، وقد ورد في بعض آيات القرآن مصروفا كما في قوله تعالى {أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ} [هود: 68] على اعتبار الحي فينتفي موجب منع الصرف لأنّ الاسم عربي.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين، وقد صرّح بذلك في آيات سورة هود وغيرها. والظاهر أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد، لأنّ ثمود وعادا أبناء نسب واحد.

قال المفسرون: إنّ ثمود قامت بعد عاد فنمت وعظمت واتّسعت حضارتها، وكانوا موحّدين، ولعلّهم اتعظوا بما حلّ بعاد، ثم طالت مدّتهم ونعم عيشهم فعتوا ونسوا نعمة الله وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم صالحا رسولا يدعوهم إلى التوحيد فلم يتّبعه إلا قليل منهم مستضعفون، وعصاه سادتهم وكبراؤهم. وذكر في آية

سورة هود أنّ قومه لم يغلظوا له القول كما أغلظت قوم نوح وقوم هود لرسولهم، فقد {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [هود:62]. وتدلّ آيات القرآن وما فسرت به من القصص على أن صالحا أجّلهم مدّة للتأمّل وجعل الناقة لهم آية، وأنّهم تَارَكوها ولم يُهيجوها زمنا طويلا.

فقد أشعرت مجادلتهم صالحا في أمر الدين على أنّ التعقّل في المجادلة أخذ يدبّ في نفوس البشر، وأنّ علواءهم في المكابرة أخذت تقصر، وأنّ قناة بأسهم ابتدأت تلين، للفرق الواضح بين جواب قوم نوح وقوم هود، وبين جواب قوم صالح. ومن أجل ذلك أمهلهم الله لينظروا ويفكّروا فيما يدعوهم إليه نبيّهم، وليزنوا أمرهم، وجعل لهم الانكفاف عن مسّ الناقة بسوء علامة على امتداد الإمهال، لأنّ إنكفافهم ذلك علامة على أنّ نفوسهم لم تحنق على رسولهم، فرجاؤه إيمانهم مستمر، والإمهال لهم أقطع لعذرهم، وأنهض بالحجّة عليهم، فلذلك أخر الله العذاب عنهم إكراما لنبيّهم الحريص على إيمانهم بقدر الطاقة.

{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } هي من مقول صالح في وقت غير الوقت الذي ابتدأ فيه بالدعوة، لأنّه قد طوي هنا جواب قومه وسؤالهم إيّاه آية، كما دلّت عليه آيات سورة هود وسورة الشعراء، ففي سورة هود {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا} [هود: 62]، وفي سورة الشعراء {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [153] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [154] قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } [155].

أي اعبدوه وحده لأنّه جعل لكم آية على تصديقي فيما بلّغت لكم، وعلى انفراده بالتصرّف في المخلوقات.

{ **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً** } يقتضي أنّ الناقة كانت حاضرة عند قوله {قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} لأنّها نفس الآية.

البيّنة، الحجّة على صدق الدّعوى، فهي ترادف الآية.

{ **لَكُمْ** } أي هي آية مقنعة لكم، ومجعولة لأجلكم.

وإضافة ناقة إلى اسم الله تعالى تشريف لها، لأنّ الله أمر بالإحسان إليها وعدم التعرّض لها بسوء، وعظّم حرمتها، كما يقال: الكعبة بيت الله. أو لأنّها وجدت بكيفيّة خارقة للعادة، كما قيل: عيسى كلمة الله.

{ **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ** } وأمّا إضافة أَرْضِ إلى اسم الجلالة فالمقصود منه أنّ للناقة حقا في الأكل من نبات الأرض، لأنّ الأرض لله وتلك الناقة من مخلوقاته فلها الحقّ في الانتفاع بما يصلح لانتفاعها.

{ **وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** } أي بسوء يعوقها عن الرعي إما بموت أو بجرح.

وقد جعل الله سلامة تلك الناقة علامة على سلامتهم من عذاب الاستئصال للحكمة التي قدمتها آنفا، وأنّ ما

أوصى الله به في شانها شبيه بالحرم، وشبيه بحمى الملوك، لما فيه من الدلالة على تعظيم نفوس القوم لمن تنسب إليه تلك الحرمة.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }[74]

القول فيه كالقول في قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [69].

{ وَبَوَّأَكُمْ } معناه أنزلكم، مشتق من البَوْء وهو الرجوع، لأنّ المرء يرجع إلى منزله ومسكنه، وتقدّم في سورة آل عمران { تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } [121]

{ فِي الْأَرْضِ } يجوز أن يكون تعريف الأرض للعهد، أي في أرضكم هذه، وهي أرض الحجر، ويجوز أن يكون للجنس، لأنّه لما بوّأهم في أرض معينة فقد بوّأهم في جانب من جوانب الأرض.

السهول، جمع سهل، وهو المستوي من الأرض، وضدّه الجبل.

القصور، جمع قصر وهو المسكن، وهذا يدل على أنّهم كانوا يشيّدون القصور، وآثارهم تنطق بذلك.

النحت، بَرْي الحجر والخشب بآلة على تقدير مخصوص.

{ بُيُوتاً } انتصب على الحال من الجبال، أي صائرة بعد النحت بيوتا، كما يقال: خِطْ هذا الثوب قميصا، وابْرِ هذه القصبة قلما، لأنّ الجبل لا يكون حاله حال البيوت وقت النحت، ولكن يصير بيوتا بعد النحت.

قيل كانوا يسكنون في الصيف القصور، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال.

{ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } تفريع على قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } تفريع الأعمّ على الأخصّ، لأنّه أمرهم بذكر نعمتين، ثم أمرهم بذكر جميع النعم التي لا يحصونها، فكان هذا بمنزلة التذييل. وتذكّر الآلاء يبعث على الشكر والطاعة وترك الفساد، فلذلك عطف نهيهم عن الفساد في الأرض على الأمر بذكر آلاء الله.

{ وَلا تَعْثَوْا } معناه ولا تفسدوا، يقال: عَثِيَ كرَضِيَ، وهذا الأفصح، ويقال عثا يعثو عثوا. والعَثْيُ والعَثْوُ كلّه بمعنى أفسد أشدّ الإفساد.

{ مُفْسِدِينَ } حال مؤكدة لمعنى {تَعْثَوْا} .

{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ [75] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } [76]

عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح عليه السلام إلى اختبار تصلّب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشكّ في نفوسهم. ولمّا كان خطابهم للمؤمنين مقصودا به إفساد دعوة صالح عليه السلام كان خطابهم بمنزلة المحاورة مع صالح عليه السلام، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصل جمل حكاية المحاورات، كما قدّمناه غير مرة آنفا وفيما مضى.

{ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ } تقدّم تفسير الملأ قريبا. ووصفهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستذلالهم إيّاهم، وللتنبيه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه.

واختيار طريق الموصوليّة في وصفهم، ووصف الآخرين بالذين استضعفوا لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم، أي أنّ استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم، وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يسغ عندهم سبقهم إيّاهم إلى الخير والهدى.

{ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } هم عامة النّاس الذين أذلّهم عظماؤهم واستعبدوهم لأنّ زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيويّة الخالية عن خلال الفضيلة؛ من العدل والرأفة وحبّ الإصلاح، فلذلك وصف الملأ بالذين استكبروا، وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا.

{ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ } بدل من { لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } بإعادة حرف الجر الذي جرّ بمثله المبدل منه.

{ أَتَعْلَمُونَ } الاستفهام للتشكيك والإنكار، أي، ما نظنّكم آمنتم بصالح عن علم بصدقه، ولكنّكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين، وفي ذلك شَوب من الاستهزاء.

{ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ } جيء في الجواب بالجملة الاسمية للدلالة على أنّ الإيمان متمكّن منهم بمزيد الثبات، فلم يتركوا للذين استكبروا مطمعا في تشكيكهم، بله صرفهم عن الإيمان برسولهم.

وأكد الخبر بحرف (**إنّ**) لإزالة ما توهّموه من شك الذين استكبروا في صحة إيمانهم.

وهذا من بليغ الإيجاز المناسب لكون نسج هذه الجملة من حكاية القرآن لا من المحكي من كلامهم إذ لا يظنّ أن كلامهم بلغ من البلاغة هذا المبلغ.

{ إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } تدلّ على تصلّبهم في كفرهم وثباتهم فيه، إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة.

{ **فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** [77] **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** } [78]

الفاء للتعقيب، لحكاية قول الذين استكبروا {إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}، وذلك أنّهم حين قالوا ذلك كانوا قد صدعوا بالتكذيب، وصمّموا عليه، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال، فعزموا على المصير إلى النكاية والإغاظة لصالح عليه السلام ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة التي جعلها صالح عليه السلام لهم، وأقامها بيّنة.

{ **فَعَقَرُوا** } الضمير عائد إلى {الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحدا منهم لأنّه كان عن تمالئ ورضى من جميع الكبراء، كما دلّ عليه قوله تعالى {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}[القمر:29].

وفي حديث البخاري أنّ النبي ﷺ ذكر في خطبته الذي عقر الناقة فقال:" انبعث لها رجل عزيز عارم(جبّار) منيع في رهطه مثل أبي زمعة (هو الأسود بن المطلب القرشي مات كافرا).

العقر، حقيقته الجرح البليغ. ويطلق العقر على قطع عضو الحيوان، ومنه قولهم، عَقَرَ حمارَ وحش، أي ضربه بالرمح فقطع منه عضوا، وكانوا يعقرون البعير المراد نحره بقطع عضو منه حتى لا يستطيع الهروب عند النحر، فلذلك أطلق العقر على النحر على وجه الكناية.

العتو، تجاوز الحد في الكبر، وتعديته بـ (عن) لتضمينه معنى الإعراض.

{ **أَمْرِ رَبِّهِمْ** } ما أمرهم به على لسان صالح عليه السلام {وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ}، فعُبّر عن النهي بالأمر لأنّ النهي عن الشّيء مقصود منه الأمر بفعل ضدّه، ولذلك يقول علماء الأصول: إنّ النهي عن الشّيء يستلزم الأمر بضدّه الذي يحصل به تحقّق الكفّ عن المنهي عنه.

{ **بِمَا تَعِدُنَا** } العذاب الذي توعّدهم به مجملا.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** } معترضة بين جملة {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ} وبين جملة {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ} [79] أريد باعتراضها التعجّل بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم. أي لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمن طويل، كان بينهما ثلاثة أيام، كما ورد في سورة هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [65].

الأخذ، أصله تناول شئ باليد، ويستعمل مجازا في ملك الشيء، بعلاقة اللزوم، ويستعمل أيضا في القهر كقوله {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ} [الأنفال: 52].

ولا شك أن الله نجّى صالحا عليه السلام والذين آمنوا معه، كما في آية سورة هود. وقد روي أنّه خرج في مائة وعشرة من المؤمنين، فقيل: نزلوا رملة فلسطين، وقيل: تباعدوا عن ديار قومهم بحيث يرونها، فلمّا أخذتهم الرجفة وهلكوا عاد صالح عليه السلام ومن آمن معه فسكنوا ديارهم. ومن أهل الأنساب من يقول: إنّ

ثقيفا من بقايا ثمود، أي من ذريّة من نجا منهم من العذاب، ولم يذكر القرآن أنّ ثمودا انقطع دابرهم، فيجوز أن تكون منهم بقية.

الرجفة، اضطراب الأرض وارتجاجها، فتكون من حوادث سماوية كالرياح العاصفة والصواعق، وتكون من أسباب أرضية كالزلزال، فالرجفة اسم للحالة الحاصلة، وقد سمّاها في سورة هود بالصيحة فعلمنا أنّ الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضهم وأهلكتهم، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضيّة.

الجاثم، المكبّ على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثوا الأرنب، ولمّا كان ذلك أشدّ سكونا وانقطاعا عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثّة بالموت، ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوههم حين صعقوا بحالة الجاثم تفظيعا لهيئة ميتتهم، والمعنى أنّهم أصبحوا جثثا هامدة ميّتة على أبشع منظر لميت.

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}[79]

التولّي، الانصراف عن فراق وغضب، ويطلق مجازا على عدم الاكتراث بالشيء، وهو هنا يحتمل أن يكون حقيقة، فيكون المراد به أنّه فارق ديار قومه حين علم أنّ العذاب نازل بهم.

ويحتمل أن يكون مجازا بقرينة الخطاب أيضا، أي فأعرض عن النظر إلى القرية بعد أصابتها بالصاعقة، أو فأعرض عن الحزن عليهم.

{ **لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ** } تفسيره مثل تفسير قوله في قصّة نوح عليه السلام {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ } [لأعراف: 62].

{ **وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** } الاستدراك مستعمل في التبرؤ من التقصير في معالجة كفرهم، سواء كان بحيث هم يسمعونه أم كان قاله في نفسه.

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ [80] إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ } [81]

وتغيير الأسلوب في ابتداء قصّة لوط وقومه، إذ ابتدئت بذكر لوط كما ابتدئت قصة نوح بذكر نوح، لأنّه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به، كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به.

وقوم لوط كانوا خليطا من الكنعانيين وممن نزل حولهم. ولذلك لم يوصف بأنّه أخوهم إذ لم يكن من قبائلهم، وإنما نزل فيهم واستوطن ديارهم. ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام كما تقدّم في سورة

الأنعام.

والقوم الذين أرسل إليهم لوط عليه السلام هم أهل قرية سدوم و عمورة من أرض كنعان، وربما أطلق اسم سدوم وعمورة على سكّانها. وهم أسلاف الفينيقيين وكانتا على شاطئ السديم، وهو بحر الملح، كما جاء في التوراة(الاصحاح 14 من سفر التكوين) وهو البحر الميت، المدعو بحيرة لوط بقرب أرشليم.

وكانوا قد أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأمر الله لوطا عليه السلام لمّا نزل بقريتهم سدوم في رحلته مع عمّه إبراهيم عليه السلام أن ينهاهم ويغلظ عليهم.

{ **أَتَأْتُونَ** } الاستفهام إنكاري توبيخي، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبّس والعمل، أي أتعملون الفاحشة، وهي كناية مشهورة.

الفاحشة، الفعل الدنيء الذميم، وقد تقدّم عند تفسير قوله تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [الأعراف: 28]. والمراد هنا فاحشة معروفة، فالتعريف للعهد.

{ **مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ** } والسبق حقيقته وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره، ويستعمل مجازا في التقدّم في الزمان، أي الأوّليّة والابتداء، وهو المراد هنا، والمقصود أنّهم سبقوا النّاس بهذه الفاحشة.

{ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ** } مبيّنة لجملة {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} ، والتأكيد بـ (إنّ واللام) كناية عن التوبيخ.

الشهوة، الرغبة في تحصيل شيء مرغوب، وهي مصدر شَهِيَ كرَضِيَ.

{ **مِنْ دُونِ النِّسَاءِ** } زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيدا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقلّ من الآخر فظاعة، ولكن المراد أنّ إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء، كما قال في الآية الأخرى {وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} [الشعراء: 166].

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** } للانتقال من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير، والتنبيه إلى حقيقة حالهم.

الإسراف، مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي المسرفون في الباطل والجرم، وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً} [النساء:6] وعند قوله تعالى {وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام:141].

ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي أنتم قوم تمكّن منهم الإسراف في الشهوات فلذلك اشتهوا شهوة غريبة لمّا سئموا الشهوات المعتادة. وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء، ونحوه قوله عنهم في آية أخرى {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشعراء: 166].

ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافا أنّه يشتمل على مفاسد كثيرة: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتّى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي

وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع، ولأنه يغيّر خصوصية الرُجلة بالنسبة إلى المفعول به، إذ يُجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معا، ولأنه مفض إلى قطع النسل أو تقليله، ولأنّ ذلك الفعل يجلب أضرارا للفاعل والمفعول.

وحدثت هذه الفاحشة بين المسلمين في خلافة أبي بكر من رجل يسمى (الفجَاءة)، كتب فيه خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق أنّه عمل عمل قوم لوط، وإذ لم يحفظ عن النبي ﷺ فيها حدّ معروف جمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم فيه، فقال علي: أرى أن يحرق بالنار، فاجتمع رأي الصحابة على ذلك فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه فأحرقه، وكذلك قضى ابن الزبير في جماعة عملوا الفاحشة في زمانه، وهشام بن الوليد، وخالد القسري بالعراق، ولعله قياس على أن الله أمطر عليهم نارا كما سيأتي.

قال مالك: يرجم الفاعل والمفعول به، إذ أطاع الفاعل وكانا بالغين، رجم الزاني المحصن، سواء أحصنا أن لم يحصنا. وقاس عقوبتهم على عقوبة الله لقوم لوط إذ أمطر عليهم حجارة، والذي يؤخذ من مذهب مالك أنّه يجوز القياس على ما فعله الله تعالى في الدنيا.

قال أبو حنيفة: يعزّر فاعله ولا يبلغ التعزير حدّ الزنى، كذا عزا إليه القرطبي، والذي في كتب الحنيفة أنّ أبا حنيفة يرى فيه التعزير إلا إذا تكرر منه فيقتل، وقال أبو يوسف ومحمد: فيه حدّ الزنى، فإذا اعتاد ذلك ففيه التعزير بالإحراق، أو يهدم عليه جدار، أو ينكس من مكان مرتفع ويتبع بالأحجار، أو يسجن حتى يموت أو يتوب، وذكر الغزنوي في الحاوي أن الأصح عن أبي يوسف ومحمد التعزير بالجلد أي دون تفصيل بين الاعتياد وغيره وسياق كلامهم التسوية في العقوبة بين الفاعل والمفعول به.

قال الشافعي: يحدّ حدّ الزاني، فإن كان محصنا فحد المحصن، وإن كان غير محصن فحد غير المحصن. كذا حكاه القرطبي. وقال ابن هبيرة الحنبلي، في كتاب اختلاف الأئمة: إن للشافعي قولين: أحدهما هذا، والآخر أنه يرجم بكل حال، ولم يذكر له ترجيحا.

عن أحمد بن حنبل، كما جاء في كتاب اختلاف الأئمة لابن هبيرة الحنبلي: أن أظهر الرّوايتين عن أحمد أنّ في اللواط الرجم بكل حال، أي محصنا كان أو غير محصن، وفي رواية عنه أنّه كالزنى.

قال ابن حزم، في المحلَّى: إنّ مذهب داود وجميع أصحابه أنّ اللوطي يجلد دون الحدّ.

ولم يصرّح، فيما نقلوا عن أبي حنيفة وصاحبيه، ولا عن أحمد، ولا الشافعي بمساواة الفاعل والمفعول به في الحكم إلّا عند مالك، ويؤخذ من حكاية ابن حزم في المحلَّى: أنّ أصحاب المذاهب المختلفة في تعزير هذه الفاحشة لم يفرقوا بين الفاعل والمفعول إلّا قولا شاذا لأحد فقهاء الشافعية رأى أن المفعول أغلظ عقوبة من الفاعل.

وروى أبو داود والترمذي، عن عكرمة عن ابن عباس، والترمذي عن أبي هريرة، وقال في إسناده مقال،

عن النبي ﷺ أنّه قال: " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " وهو **حديث غريب** لم يرو عن غير عكرمة عن ابن عباس وقد علمت استشارة أبي بكر في هذه الجريمة، ولو كان فيها سند صحيح لظهر يومئذ.

{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [82]

المعنى، أنّهم أُفحموا عن ترويج شنعتهم والمجادلة في شانها، وابتدروا بالتآمر على إخراج لوط عليه السلام وأهله من القرية، لأنّ لوطا عليه السلام كان غريبا بينهم وقد أرادوا الاستراحة من إنكاره عليهم.

الجواب، الكلام الذي يقابل به كلام آخر، تقريرا أو ردا أو جزاء.

{ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } علّة للأمر بالإخراج، وذلك شأن (إنّ) إذا جاءت في مقام لا شكّ فيه ولا إنكار، بل كانت لمجرد الاهتمام، فإنّها تفيد مفاد فاء التفريع وتدلّ على الربط والتعليل.

التطهّر، تكلّف الطّهارة. وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة مجازا على تزكية النفس والحذر من الرذائل وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، لكن القوم لما تمرّدوا على الفسوق كانوا يعُدّون الكمال منافرا لطباعهم، فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال، ويذمّون ما لهم من الكمالات فيسمونها ثقلا، ولذا وصفوا تنزه لوط عليه السلام وآله تطهّرا، بصيغة التكلّف والتصنع.

ويجوز أن يكون حكاية لما في كلامهم من التهكّم بلوط عليه السلام وآله، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الذميمة، وأهل المجون والانخلاع، يسمّون المتعفّف عن سيرتهم بالتائب أو نحو ذلك، فقولهم {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} قصدوا به ذمّهم.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [83] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [84].

{فَأَنْجَيْنَاهُ} قدّم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام على الخبر بإمطارهم مطر العذاب، لقصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام، ولتعجيل المسرّة للسامعين من المؤمنين، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية، فيعلموا أنّ تلك سنة الله في عباده، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} [64].

أهل لوط عليه السلام، هم زوجه وابنتان له بكران، وكان له ابنتان متزوجتان كما ورد في التوراة امتنع زوجاهما من الخروج مع لوط عليه السلام فهلكتا مع أهل القرية.

وأمّا امرأة لوط عليه السلام فقد أخبر الله عنها هنا أنّ الله لم ينجها، فهلكت مع قوم لوط.

وذكر في سورة هود ما ظاهره أنّها لم تمتثل ما أمر الله لوطا عليه السلام أن لا يلتفت هو ولا أحد من أهله الخارجين معه إلى المدن حين يصيبها العذاب فالتفتت امرأته فأصابها العذاب.

وذكر في سورة التحريم أنّ امرأة لوط عليه السلام كانت كافرة. وقال المفسرون: كانت تسرّ الكفر وتظهر الإيمان، ولعلّ ذلك سبب التفاتها لأنّها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط، ويحتمل أنّها لم تخرج مع لوط عليه السلام وان قوله {إِلاَّ امْرَأَتَكَ} في سورة هود [81]، استثناء من {أَهْلِكَ} لا من {أَحَدٌ} .

ولعلّ امرأة لوط عليه السلام كانت من أهل سدوم تزوّجها لوط عليه السلام هنالك بعد هجرته، فإنّه أقام في سدوم سنين طويلة بعد أن هلكت أم بناته وقبل أن يرسل، وليست هي أم بنتيه فإن التوراة لم تذكر امرأة لوط عليه السلام إلا في آخر القصة.

{ **مِنَ الْغَابِرِينَ** } من الهالكين، والغابر يطلق على المنقضي، ويطلق على الآتي، فهو من أسماء الأضداد، وأشهر إطلاقيه هو المنقضي، ولذلك يقال: غبر بمعنى هلك، وهو المراد هنا، أي هلكت مع من هلك.

الإمطار، مشتق من المطر، والمطر اسم للماء النازل من السحاب، يقال: مطرتهم السماء بدون همزة بمعنى نزل عليهم المطر، كما يقال: غاثتهم ووبلتهم، ويقال: مكان ممطور، أي أصابه المطر، ولا يقال: ممطر، ويقال أمطروا بالهمزة بمعنى نزل عليهم من الجو ما يشبه المطر، وليس هو بمطر. قال الزمخشري: قد كثر الإمطار في معنى العذاب. وعن أبي عبيدة أن التفرقة بين مطر وأمطر أن مطر للرحمة وأمطر للعذاب.

وأما قوله تعالى في سورة الأحقاف: [24] {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} فهو يعكر على كلتا التفرقتين، ويعين أن تكون التفرقة أغلبية.

وكان الذي أصاب قوم لوط حجرا وكبريتا من أعلى القرى كما في التوراة وكان الدخان يظهر من الأرض مثل دخان الأتون. وقد ذكر في آية أخرى، في القرآن: أنّ الله جعل عالي تلك القرى سافلا، وذلك هو الخسف وهو من آثار الزلازل.

{ **مَطَراً** } التنكيرللتعظيم والتعجيب أي: مطرا عجيبا من شانه أن يهلك القرى.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** } الأمر للإرشاد والاعتبار. والخطاب يجوز أن يكون لغير معيّن بل لكل من يتأتّى منه الاعتبار، كما هو شان إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة، لأنّ المقصود بالخطاب كلّ من قصد بالموعظة، ويجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ تسلية له على ما يلاقيه من قومه، بأن لا ييأس من نصر الله، وأنّ شأن الرسل انتظار العواقب.

المجرمون، فاعلوا الجريمة، وهي المعصية والسيئة، وهذا ظاهر في أن الله عاقبهم بذلك العقاب على هذه الفاحشة، وأنّ لوطا عليه السلام أرسل لهم لنهيهم عنها، لا لأنّهم مشركون بالله، إذ لم يتعرّض له في القرآن بخلاف ما قصّ عن الأمم الأخرى، لكن تمالئهم على فعل الفاحشة واستحلالهم إيّاها يدلّ على أنّهم لم يكونوا

مؤمنين بالله. فيكون إرسال لوط عليه السلام بإنكار تلك الفاحشة ابتداء بتطهير نفوسهم، ثم يصف لهم الإيمان، إذ لا شك أنّ لوطا عليه السلام بلّغهم الرسالة عن الله تعالى، وذلك يتضمّن أنّه دعاهم إلى الإيمان، إلّا أنّ اهتمامه الأوّل كان بإبطال هذه الفاحشة، ولذلك وقع الاقتصار في إنكاره عليهم ومجادلتهم إيّاه على ما يخصّ تلك الفاحشة، وقد عُلم أنّ الله أصابهم بالعذاب، عقوبة على تلك الفاحشة، كما قال في سورة العنكبوت {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}[34] وأنّهم لو أقلعوا عنها لترك عذابهم على الكفر إلى يوم آخر أو إلى اليوم الآخر.

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [85] وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [86] وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } [87].

تفسير صدر هذه الآية هو كتفسير نظيرها في قصّة ثمود، سوى أن تجريد فعل { **قَالَ يَا قَوْمِ** } من الفاء هنا يترجّح أنّه للدلالة على أنّ كلامه هذا ليس هو الذي فاتحهم به في ابتداء رسالته بل هو مما خاطبهم به بعد أن دعاهم مرارا، وبعد أن آمن به من آمن منهم كما يأتي.

مدين، أمّة سمّيت باسم جدّها مَدْيَنَ بن إبراهيم الخليل عليه السلام، من زوجه الثالثة التي تزوّجها في آخر عمره وهي سريّة اسمها قَطُورَا. وتزوّج مدين ابنة لوط عليه السلام وولد له أبناء هم (**عيفة** و **عفر** و **حنوك** و **ابيداع** و **ألْدَعة**) وقد أسكنهم إبراهيم عليه السلام في ديارهم، وسطا بين مسكن ابنه إسماعيل عليه السلام ومسكن ابنه إسحاق عليه السلام، ومن ذريّتهم تفرعت بطون مدين، ومواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر، وقاعدة بلادهم (وَجّ)على البحر الأحمر وتنتهي أرضهم من الشمال إلى حدود مَعان من بلاد الشام، وإلى نحو تبوك من الحجاز، وتسمى بلادهم (**الأيكة**).

ويقال أنّ الأيكة هي تبوك، فعلى هذا هي من بلاد مدين، وكانت بلادهم قرى وبوادي، وكان شعيب عليه السلام من القرية وهي الأيكة، وقد تعرّبوا بمجاورة الأمم العربيّة وكانوا في مدة شعيب عليه السلام تحت ملوك مصر، وقد اكتسبوا، بمجاورة قبائل العرب ومخالطتهم، لكونهم في طريق مصر، عربيّة، فأصبحوا في

عداد العرب المستعربة، مثل بني إسماعيل عليه السلام.
شعيب عليه السلام، هو رسول لأهل مدين، وهو من أنفسهم، اسمه في العربية شعيب عليه السلام واسمه في التوراة، يشرون ويسمى أيضا رعوئيل وهو ابن نويلى أو نويب بن رعويل بن عيفا بن مدين. وكان موسى عليه السلام لمّا خرج من مصر نزل بلاد مدين وزوّجه شعيب ابنته المسماة (**صَفورَه**) وأقام موسى عليه السلام عنده عشر سنين أجيرا.
وقد خبط في نسب مدين ونسب شعيب عليه السلام جمع عظيم من المفسّرين والمؤرخين، فما وجدت مما يخالف هذه افانبذه. وعدّ الصفدي شعيبا في العميان، ولم أقف على ذلك في الكتب المعتمدة.
{ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** } ابتدأ الدعوة بالإيمان، لأنّ به صلاح الاعتقاد والقلب، وإزالة الزيف من العقل.
{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } بيّنة شعيب عليه السلام التي جاءت في كلامه، يجوز أن تكون أطلقت على الآية، لمعجزة أظهرها لقومه عرفوها ولم يذكرها القرآن، كما قال ذلك المفسرون. والأظهر عندي أن يكون المراد بالبيّنة حجّة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها، فقامت عليهم الحجّة مثل المجادلة التي حكيت في سورة هود، فتكون البيّنة أطلقت على ما يبيّن صدق الدعوى، لا على خصوص خارق العادة.
أو أن يكون أراد بالبيّنة ما أشار إليه بقوله {فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا} أي يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن لم يؤمنوا، كما في قوله {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الشعراء:187]، فيكون التعبير بالماضي {قَدْ جَاءَتْكُمْ} مرادا به المستقبل القريب، تنبيها على تحقيق وقوعه.
{ **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ** } الفاء للتفريع على مضمون معنى { بَيِّنَةٍ } لأنّ البيّنة تدل على صدقه، فلمّا قام الدليل على صدقه وكان قد أمرهم بالتوحيد بادئ بدء، لما فيه من صلاح القلب، شرع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان، كما دلّ عليه قوله {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، فتلك دعوة لمن آمن من قومه بأن يكملوا إيمانهم بالتزام الشرائع الفرعيّة، وإبلاغ لمن لم يؤمن بما يلزمهم بعد الإيمان بالله وحده.
وفي دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الأعمال الفرعيّة، بعد أن استقرت الدعوة إلى التوحيد، ما يؤذن بأنّ البشر في ذلك العصر قد تطورت نفوسهم تطوّرا هيّأهم لقبول الشرائع الفرعيّة، فإنّ دعوة شعيب عليه السلام كانت أوسع من دعوة الرسل من قبله هود وصالح عليهم السلام، وقد كان عصر شعيب عليه السلام قد أظل عصر موسى عليه السلام الذي جاء بشريعة عظيمة ماسّةٍ نواحيَ الحياة كلَّها.
البخس، فسّروه بالنقص، وزاد الراغب في المفردات قيدا، فقال: نقص الشيء على سبيل الظلم، وأحسن ما رأيت في تفسيره قول أبي بكر بن العربي في أحكام القرآن: البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب

والتزهيد أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيّد في الكيل والنقصان منه. لذلك نقول: البخس هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه. ففيه معنى الظلم والتحيّل.

فالبخس حدث يتّصف به فاعل وليس صفة للشيء المبخوس في ذاته، إلا بمعنى الوصف بالمصدر، كما قال تعالى: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} [يوسف: 20] أي دون قيمة أمثاله، أي تساهل بائعوه في ثمنه لأنّهم حصّلوه بغير عوض ولا كلفة.

وحاصل ما أمر به شعيب عليه السلام قومه، بعد الأمر بالتوحيد، ينحصر في ثلاثة أصول:

*/ هي حفظ حقوق المعاملة المالية، { فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ }

*/ وحفظ نظام الأمة ومصالحها، { وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا }

*/ وحفظ حقوق حرية الاستهداء، { وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }

الأصل الأول في قوله { **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ** } فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشترين، لأن الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حبّ الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء الناقص بثمن الشيء الوافي.

وأمّا النهي عن بخس النّاس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع، لأنّ المشتري هو الذي يبخس شيء البائع ليهيئه لقبول الغبن في ثمن شيئه. وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال.

الكيل، مصدر، ويطلق على ما يكال به، وهو المكيال كقوله تعالى {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ} [يوسف: 65] وهو المراد هنا: لمقابلته بالميزان، ولقوله في الآية الأخرى {وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} [هود: 84].

وإنّما خصّ هذين التحيلين بالأمر والنهي المذكورين، لأنّهما كانا شائعين عند مدين، ولأنّ التحيّلات في المعاملة المالية تنحصر فيهما، إذ كان التعامل بين أهل البوادي منحصرا في المبادلات بأعيان الأشياء، عرضا وطلبا.

الأصل الثاني، في قوله {**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**} للنهي عن كل ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصلاح في الأرض، وقد تقدّم القول في نظير هذا التركيب عند قوله تعالى {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً} [56].

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى مجموع ما تضمّنه كلامه، أي ذلك المذكور. والمذكور هو عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وتجنّب بخس أشياء النّاس، وتجنّب الفساد في الأرض، وقد أخبر عنه بأنه خير لهم، أي نفع وصلاح تنتظم به أمورهم. وإنما كان ما ذكر خيرا لأنّه يوجب هناء العيش واستقرار الأمن وصفاء الودّ بين الأمّة وزوال الإحن المفضية إلى الخصومات والمقاتلات، فإذا تمّ ذلك كثرت الأمّة وعزت وهابها أعداؤها وحسنت أحدوثتها وكثر مالها بسبب رغبة النّاس في التجارة والزراعة لأمن صاحب المال من ابتزاز ماله،

وفيه خير الآخرة لأن ذلك إن فعلوه امتثالا لأمر الله تعالى بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله، فنجوا من العذاب، وسكنوا دار الثواب.

{ **خَيْرٌ** } التنكير للتعظيم والكمال، لأنّه جامع خيري الدنيا والآخرة.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } شرط مقيّد لقوله {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ}. وهو رجوع إلى الدعوة للتوحيد، بمنزلة رد العجز على الصدر في كلامه، ومعناه أنّ حصول الخير من الأشياء المشار إليها لا يكون إلّا مع الإيمان. لأنّهم إذا فعلوها وهم مشركون لم يحصل منها الخير لأنّ مفاسد الشرك تفسد ما في الأفعال من الخير، أمّا في الآخرة فظاهر، وأمّا في الدنيا فإن الشرك يدعو إلى أضداد تلك الفضائل.

الأصل الثالث، في قوله { **وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** } وهو النهي عن التعرّض للناس دون الإيمان، أي أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يرغب في إصلاح نفسه. ذلك أنّهم كانوا يصدّون وفود النّاس عن الدخول إلى المدينة التي كان بها شعيب عليه السلام لئلا يؤمنوا به. فالمراد بالصراط الطريق الموصلة إلى لقاء شعيب عليه السلام.

القعود، مستعمل كناية عن لازمه وهو الملازمة والاستقرار، وقد تقدم عند قوله تعالى {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [16].

{ **تُوعِدُونَ** } حال من ضمير {وَلا تَقْعُدُوا}. و**الإيعاد**: الوعد بالشر. والمقصود من الإيعاد الصدّ.

{ **مَنْ آمَنَ** } قاصد الإيمان، فالتعبير عنه بالماضي لتحقيق عزم القاصد على الإيمان، فهو لولا أنّهم يصدونه لكان قد آمن.

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } الدين، لأنّه مثل الطريق الموصول إلى الله، أي إلى القرب من مرضاته.

{ **تَبْغُونَهَا عِوَجاً** } تبغون لسبيل الله عوجا، إذ كانوا يزعمون أنّ ما يدعوا إليه شعيب باطل.

العِوج، (بكسر العين) عدم الاستقامة في المعاني، وعَوج (بفتح العين)، عدم استقامة الذات.

والمعنى، تحاولون ان تصفوا دعوة شعيب المستقيمة، بأنّها باطل وضلال، كمن يحاول اعوجاج عود مستقيم.

وإنّما أخّر النهي عن الصدّ عن سبيل الله، بعد جملة {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ولم يجعله في نسق الأوامر والنواهي الماضية ثم يعقبه بقوله {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ} لأنه رتب الكلام على الابتداء بالدعوة إلى التوحيد، ثم إلى الأعمال الصالحة لمناسبة أنّ الجميع فيه صلاح المخاطبين، فأعقبها ببيان أنّها خير لهم إن كانوا مؤمنين، فأعاد تنبيههم إلى الإيمان وإلى أنّه شرط في صلاح الأعمال، وبمناسبة ذكر الإيمان عاد إلى النهي عن صد الراغبين فيه.

{ **وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ** } وذكّرهم شعيب عليه السلام عقب ذلك بتكثير الله إيّاهم بعد أن كانوا قليلا، وهي نعمة عليهم، إذ صاروا أمّة بعد أن كانوا معشرا. ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن

قوّى فيهم قوة التناسل، وحفظهم من أسباب الموتان، فصاروا عددا كثيرا في زمن لا يعهد في مثله مصير أمّة إلى عددهم، فيعدّ منعهم النّاس من الدخول في دين الله سعيا في تقليل حزب الله، وذلك كفران لنعمة الله عليهم بأن كثرهم، وليقابلوا اعتبار هذه النعمة باعتبار نقمته تعالى من الذين غضب عليهم، إذ استأصلهم بعد أن كانوا كثيرا فذلك من تمايز الأشياء بأضدادها.

{ **وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** } في هذا الكلام جمع بين طريقي الترغيب والترهيب.

{ **الْمُفْسِدِينَ** } الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشرك وبأعمال الضلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشرائع، وأفسدوا النّاس بإمدادهم بالضلال وصدّهم عن الهدى. وهذا الخطاب مقصود منه الكافرون من قومه ابتداء، وفيه تذكير للمؤمنين منهم بنعمة الله. وفيه تعريض بالوعد للمسلمين وبالتسلية لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهل الشرك، لانطباق حال الفريقين على حال الفريقين من قوم شعيب عليه السلام.

{ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا** }

الطَائِفَةُ، الجماعة ذات العدد الكثير وتقدّمت عند قوله تعالى {فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ} [النساء:102]

{ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ** } أفاد الشرط تعليق حصول مضمون الجزاء في المستقبل. فالمعنى: إن تبيّن أنّ طائفة آمنوا وطائفة كفروا، فاصبروا حتّى يحكم الله بيننا.

الصبر، حبس النفس في حال الترقّب، سواء كان ترقّب محبوب أم ترقب مكروه، وأشهر استعماله أن يطلق على حبس النفس في حال فقدان الأمر المحبوب، وقد جاء في هذه الآية مستعملا في القدر المشترك لأنّه خوطب به الفريقان: المؤمنون والكافرون، وصبر كلّ بما يناسبه. ولعله رجح فيه حال المؤمنين، ففيه إيذان بأن الحكم المترقب هو في منفعة المؤمنين، وقد قال بعض المفسرين: إنه خطاب للمؤمنين خاصة.

{ **حَتَّى** } تفيد غاية للصّبر، وهي مؤذنة بأن التقدير: وإن كان طائفة منكم آمنوا وطائفة لم يؤمنوا فسيحكم الله بيننا، فاصبروا حتى يحكم.

وحكم الله أريد به حكم في الدنيا بإظهار أثر غضبه على أحد الفريقين ورضاء على الذين خالفوهم، فيظهر المحقّ من المبطل، وهذا صدر عن ثقة شعيب عليه السلام بأنّ الله سيحكم بينه وبين قومه، استنادا لوعد الله إيّاه بالنصر على قومه، أو لعلمه بسنة الله في رسله ومن كذّبهم، بإخبار الله تعالى إيّاه بذلك.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } تذييل بالثناء على الله بأنّ حكمه عدل محض، لا يحتمل الظلم عمدا ولا خطأ، وغيره من الحاكمين يقع منه أحد الأمرين أو كلاهما.

{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } [88]

كان جوابهم عن حجة شعيب جواب مُفحم عن الحجّة الصائر إلى الشدّة، المزدهي بالقوة المتوقع أن يكثر معاندوه، فلذلك عدلوا إلى إقصاء شعيب وأتباعه عن بلادهم خشية ظهور دعوتهم بين قومهم، وببث أتباعه دعوته بين النّاس فلذلك قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا}

وتفسير صدر الآية هو كتفسير نظيره من قصة ثمود.

{ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } وإيثار وصفهم بالاستكبار هنا دون الكفر، مع أنّه لم يحك عنهم هنا خطاب المستضعفين، حتّى يكون ذكر الاستكبار، إشارة إلى أنّهم استضعفوا المؤمنين كما اقتضته قصّة ثمود، فاختير وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعيبا بالإخراج أو الإكراه على اتّباع دينهم، وذلك من فعل الجبّارين أصحاب القوة.

{ **لَنُخْرِجَنَّكَ** } وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متّبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك ويسمى هذا الإخراج عند العرب بالخلع. وأكّدوا التوعّد بلام القسم ونون التوكيد، ليوقن شعيب بأنّهم منجزو ذلك الوعيد.

{ **يَا شُعَيْبُ** } وخطابهم إيّاه بالنداء جار على طريقة خطاب الغضب، كما حكى الله قول آزر خطابا لإبراهيم عليه السلام {أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ} [مريم: 46]

القرية، المدينة لأنها يجتمع بها السكان. والتقرّي: الاجتماع. وقد تقدم عند قوله تعالى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ} [البقرة: 259]، والمراد بقريتهم هنا هي **الأيكة**، وهي تبوك.

{ **أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** } وقد رددوا أمر شعيب ومن معه بين أن يخرجوا من القرية وبين العود إلى ملة الكفر. والتوكيد مؤذن بأنّهم إن أبوا الخروج من القرية فإنّهم يُكرهون على العود إلى ملّة القوم، كما دلّ عليه قول شعيب في جوابهم {أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} ولما كان المقام للتوعّد والتهديد كان ذكر الإخراج من أرضهم أهم، فلذلك قدّموا القسم عليه ثم أعقبوه بالمعطوف بحرف (أو).

العَوْد: الرجوع إلى ما كان فيه المرء من مكان أو عمل، وجعلوا موافقة شعيب إيّاهم على الكفر عودا لأنّهم يحسبون شعيبا كان على دينهم. وشأن الذين أرادهم الله للنبوءة أن يكونوا غير مشاركين لأهل الضلال من قومهم ولكنّهم يكونون قبل أن يوحى إليهم في حالة خلو عن الإيمان حتى يهديهم الله إليه تدريجا، وقومهم لا يعلمون باطنهم فلا حيرة في تسمية قومه موافقته إياهم عودا.

وهذا بناء على أنّ الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوّة، وذلك قول جميع المتكلمين من المسلمين، وقد نبّه على ذلك عياض في الشفاء في القسم الثالث وأورد قول شعيب{إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ} [89] وتأوّل العود بأنّه المصير، وذلك تأويل كثير من المفسرين لهذه الآية. ودليل العصمة من هذا هو كمالهم، والدليل مبني على أن خلاف الكمال قبل الوحي يعد نقصا، وليس في الشريعة دليل قاطع على ذلك.

وقد تولى شعيب الجواب عمن معه من المؤمنين ليقينه بصدق إيمانهم.

الملة، الدين، وقد تقدم في قوله تعالى {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة:130].

{ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [89]

{ **قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب تعجبا من قولهم {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} المؤذن ما فيه من المؤكّدات بأنّهم يُكرهونهم على المصير إلى ملّة الكفر، وذلك التعجّب تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان، ليعلم قومه أنّه أحاط خبرا بما أرادوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين: الإخراج أو الرجوع إلى ملّة الكفر.

الكاره، مشتقّ من كَرِهَ الذي مصدره الكَرْه (بفتح الكاف وسكون الراء) وهو ضدّ المحبّة، فكاره الشيء لا يدانيه إلا مغصوبا، ويقال للغصب إكراه، وتقدّم في قوله {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:216]

{ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا** } واستأنف مرتقيا في الجواب، فبيّن استحالة عودهم إلى ملّة الكفر، بأنّ العود إليها يستلزم كذبه فيما بلّغه عن الله تعالى من إرساله إليهم بالتوحيد، ويستلزم كذب الذين آمنوا به على الله، حيث أيقنوا بأنّ شعيبا مبعوث من الله بما دلّهم على ذلك من الدلائل، ولذلك جاء بضمير المتكلّم المشارك في كل من قوله {افْتَرَيْنَا} و {عُدْنَا} و {نَجَّانَا} و {نَعُودَ} و {رَبُّنَا} و{تَوَكَّلْنَا}.

والربط بين الشرط وجوابه ربط التبيين والانكشاف، أي إن يقع عودنا في ملّتكم فقد تبيّن أنّنا افترينا على الله كذبا، فالماضي في قوله {افْتَرَيْنَا} ماض حقيقي كما يقتضيه دخول {قَدِ} عليه.

{ **بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا** } بعد إذ هدانا الله للدين الحقّ الذي اتّبعناه بالوحي فنجّانا من الكفر، فذكر هذا الإنجاء لدلالته على الاهتداء والإعلان بأنّ مفارقة الكفر نجاة، فيكون في الكلام إيجاز حذف أو كناية.

{ **بَعْدَ** } وهذه البعديّة يقصد منها تفظيع هذا العود وتأييس الكافرين من عود شعيب وأتباعه إلى ملّة الكفر.

{ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا** } أي لأنّ ذلك لا يقصده العاقل فيلقى نفسه في الظلال والتعرّض للعذاب.

فنفى العود نفيا مؤكّدا بلام الجحود. وقد تقدم بيان تأكيد النفي بلام الجحود في قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ} [آل عمران:79].

{ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** } تأدّب مع الله وتفويض أمر المؤمنين إليه، أي، إلّا أن يقدّر الله لنا العود في ملّتكم فإنه لا يُسأل عمّا يفعل. وهو يستلزم تقييد الدوام على الإيمان بمشيئة الله، لأنّ عدم العود إلى الكفر مساو

للثبات على الإيمان، وهو تقييد مقصود منه التأدّب وتفويض العلم بالمستقبل إلى الله، والكناية عن سؤال الدوام على الإيمان من الله تعالى كقوله {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [آل عمران: 8].

ومن هنا يُستدل لقولّ الأشعري وجماعة على رأسهم محمد بن عبدوس الفقيه المالكي الجليل أنّ المسلم يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لا يعلم ما يختم له بعد، ويضعف قول الماتريدي وطائفة من علماء القيروان على رأسهم محمد بن سحنون أن المسلم لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لأنّه متحقّق أنّه مؤمن فلا يقول كلمة تنبئ عن الشك في إيمانه.

وقد تطاير شرر الخلاف بين ابن عبدوس وأصحابه من جهة، وابن سحنون وأصحابه من جهة، في القيروان زمانا طويلا ورمى كل فريق الفريق الآخر بما لا يليق بهما، وكان أصحاب ابن سحنون يدعون ابن عبدوس وأصحابه الشكوكية وتلقفت العامة بالقيروان هذا الخلاف على غير فهم فربما اجترأوا على ابن عبدوس وأصحابه اجتراء وافتراء، كما ذكره مفصلا عياض في المدارك في ترجمة محمد ابن سحنون، وترجمة ابن النبّان، والذي حققه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد وعياض أن الخلاف لفظي: فإن كان يقول: إن شاء الله، وسريرته في الإيمان مثل علانيته فلا بأس بذلك، وإن كان شكا فهو شك في الإيمان، وليس ذلك ما يريده ابن عبدوس، وقد قال المحقّقون: أن الخلاف بين الأشعري والماتريدي في هذه المسألة من الخلاف اللفظي، كما حققه تاج الدين السبكي في منظومته النونية، وتبعه تلميذه نور الدين الشيرازي في شرحه.

{ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً** } تفويض لعلم الله، أي إلّا أن يشاء ذلك، فهو أعلم بمراده منّا.

السعة، مستعملة مجازا في الإحاطة بكل شئ، لأنّ الشيء الواسع يكون أكثر إحاطة.

وفي هذه المجادلة إدماج تعليم صفات الله لأتباعه وغيرهم على عادة الخطباء في انتهاز الفرصة.

{ **عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** } ثم أخبر بأنّه ومن تبعه قد توكّلوا على الله.

التوكّل، تفويض مباشرة صلاح المرء إلى غيره، وتقدم عند قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ } [آل عمران :159]، وهذا تفويض يقتضي طلب الخير، أي، رجونا أن لا يسلبنا الإيمان الحقّ، ورجونا أن يكفينا شرّ من يضمر لنا شرا، وهو الفتنة بالإخراج، وفي الدين بالإكراه على اتباع الكفر.

{ **رَبَّنَا افْتَحْ** } فسروا الفتح هنا بالقضاء والحكم وقالوا: هو لغة أزد عمان من اليمن، أي احكم بيننا وبينهم، وهي مأخوذة من الفتح بمعنى النصر، لأنّ العرب كانوا لا يتحاكمون لغير السيف، ويحسبون أن النصر حكم الله للغالب على المغلوب.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** } أي وأنت خير الناصرين، وخير الحاكمين هو أفضل أهل هذا الوصف، وهو الذي يتحقّق فيه كمال هذا الوصف فيما يقصد منه، وفي فائدته بحيث لا يشتبه عليه الحق بالباطل ولا تروج عليه الترهات.

{ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ [90] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [91] الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ } [92].

قول أنف وجه فيه الملأ خطابهم إلى عامة قومهم الباقين على الكفر تحذيرا لهم من اتباع شعيب خشية عليهم من أن تحيك في نفوسهم دعوة شعيب وصدق مجادلته، فلمّا رأوا حجّته ساطعة ولم يستطيعوا الفلج عليه في المجادلة، وصمّموا على كفرهم، أقبلوا على خطاب الحاضرين من قومهم ليحذّروهم من متابعة شعيب ويهددوهم بالخسارة.

{ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا } ووصفهم بالكفر لمناسبة الكلام المحكي عنهم، الدال على تصلّبهم في كفرهم، كما وصفوا في الآية السابقة بالاستكبار لمناسبة حال مجادلتهم شعيبا، فحصل من الآيتين أنهم مستكبرون كافرون.

{ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً } المخاطب هم عامة قوم شعيب الباقين على الكفر. و(اللام) موطّئة للقسم.

{ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ } جواب القسم. والخسران تقدّم عند قوله تعالى {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ} [الأنعام :40]. وهو مستعار لحصول الضرّ، والمراد به هنا التحذير من أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم.

{ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } تقدّم تفسيرها في نظيرها من قصة ثمود.

والرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلّة، وهي السحابة، قال تعالى {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [الشعراء:189]. ، وقد عبّر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق، فتكون الرجفة الزلزال والصيحة الصاعقة كما يدل عليه قوله {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا }.

{ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً } مستأنفة ابتدائية، والتعريف بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو أنّ اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيبا.

{ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا } تشبيه حالة استئصالهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم حياة. يقال: **غَنِيَ** بالمكان كرضي، أقام، ولذلك سمّي مكان القوم مغنى. وابن عطيّة يُرجّح أن يكون أصابهم زلزال مع الصواعق بحيث احترقت أجسادهم وخُسف لهم في الأرض وانقلبت ديارهم في باطن الأرض ولم يبق شيء، أو بقي شيء قليل. فهذا هو وجه التشبيه، وليس وجه التشبيه حالة موتهم، لأن ذلك حاصل في كل ميت ولا يختص بأمثال مدين، وهذا مثل قوله تعالى {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [الحاقة:8]

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** } والتكرير للتعديد، وإيقاظ السامعين، وهم مشركو العرب، ليتّقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب على طريقة التعريض.

{ **كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** } ضمير الفصل يفيد القصر وهو قصر إضافي، أي دون الذين اتبعوا شعيبا، وذلك لإظهار سفه قول الملأ للعامة {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ} توقيفا للمعتبرين بهم على تهافت أقوالهم وسفاهة رأيهم، وتحذيرا لأمثالهم من الوقوع في ذلك الضلال.

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}[93]

تقدّم تفسير نظير هذه الآية إلى قوله {وَنَصَحْتُ لَكُمْ} من قصة ثمود. وتقدّم وجه التعبير بـ {رِسَالاتِ} بصيغة الجمع في نظيرها من قصة قوم نوح.

{ **وَقَالَ يَا قَوْمِ** } ونداؤه قومه نداء تحسّر وتبرئ من عملهم، وهو مثل قول النبي ﷺ بعد وقعة بدر. حين وقف على القليب الذي ألقي فيه قتلى المشركين فناداهم بأسماء صناديدهم ثم قال: " لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ".

{ **فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ** } جاء بالاستفهام الإنكاري مخاطبا نفسه على طريقة التجريد، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنّهم لا يستحقّون أن يؤسف عليهم لأنّهم اختاروا ذلك لأنفسهم.

الأسى، شدّة الحزن، وفعله كرضي، و(آسى) مضارع مفتتح بهمزة التكلّم، فاجتمع همزتان.

وقد نجّى الله شعيبا ممّا حل بقومه بأن فارق ديار العذاب. قيل: إنّه خرج مع من آمن به إلى مكّة واستقروا بها إلى أن توفّوا، والأظهر أنّهم سكنوا محلّة خاصة بهم في بلدهم رفع الله عنها العذاب، فانّ بقية مدين لم يزالوا بأرضهم، وقد ذكرت التوراة أنّ شعيبا كان بأرض قومه حينما مرت بنو إسرائيل على ديارهم في خروجهم من مصر.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ [94] ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [95]

عطف الأعمّ على الأخصّ، لأنّ ما ذُكر من القصص ابتداء من قوله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ} [59] كلّه القصد منه العبرة بالأمم الخالية، موعظة لكفّار العرب، فلمّا تلا عليهم قصص خمس أمم جاء الآن بحكم كلّي يعمّ سائر الأمم المكذّبة على طريقة قياس التمثيل، أو قياس الاستقراء الناقص، وهو أشهر قياس يسلك

في المقامات الخطابية، وهذه الجمل إلى قوله {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى} [103] كالمعترضة بين القصص، للتنبيه على موقع الموعظة، وذلك هو المقصود من تلك القصص، فهو اعتراض ببيان المقصود من الكلام وهذا كثير الوقوع في اعتراض الكلام.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ }عدّي بـ (في) دون (إلى) لأنّ المراد بالقرية حقيقتها، وهي لا يرسل إليها وإنما يرسل فيها إلى أهلها، فالتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبي إلى أهلها إلّا أخذنا أهلها.

{ مِنْ نَبِيٍّ } للتنصيص على العموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي.

وتخصيص القرى بإرسال الرّسل فيها دون البوادي كما أشارت إليه هذه الآية وغيرها من آي القرآن، وشهد به تاريخ الأديان، ينبئ أنّ مراد الله تعالى من إرسال الرّسل هو بثّ الصلاح لأصحاب الحضارة التي يتطرّق إليها الخلل بسبب اجتماع الأصناف المختلفة، وأنّ أهل البوادي لا يخلون عن الانحياز إلى القرى، والإيواء في حاجاتهم المدنيّة إلى القرى القريبة. فأمّا مجيء نبي غير رسول لأهل البوادي فقد جاء خالد بن سنان نبيّا في بني عبس، وأمّا حنظلة بن صفوان نبي أهل الرسّ فالأظهر أنّه رسول لأنّ الله ذكر أهل الرس في عداد الأمم المكذّبة. وقد قيل: إنه ظهر بقرية الرسّ التي تسمّى أيضا، (**فتح** بالمهملة أو **فتَخ** بالمعجمة أو **فيْج** بتحتية وجيم أو **فلْج** بلام وجيم) من اليمامة.

{ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا } والاستثناء مفرغ من أحوال، أي ما أرسلنا نبيّا في قرية في حال من الأحوال إلّا في حال أننا أخذنا أهلها بالبأساء، وقد وقع في الكلام إيجاز حذف دلّ عليه قوله {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} فإنّه يدل على أنّهم لم يضرّعوا قبل الأخذ بالبأساء والضراء. فالتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبي إلّا كذّبه أهل القرية فخوفناهم لعلهم يذلّون لله ويتركون العناد.

الأخذ، هنا مجاز في التناول والإصابة بالمكروه الذي لا يستطاع دفعه، وهو معنى الغلبة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ } [الأنعام:42]

{ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } تقدم ما يفسّرها في قوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} في سورة الأنعام. أي ابتدأناهم بالتخويف والمصائب لتَفُلّ من حدّتهم وتصرف تأمّلهم إلى تطلّب أسباب المصائب فيعلموا أنّها من غضب الله عليهم فيتوبوا.

التبديل، التعويض. أي بدلناهم حسنة في مكان السيّئة.

{ حَتَّى عَفَوْا } كثروا. يقال: عفا النبات، اذا كثر ونما.

{ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ } السراء، النعمة ورخاء العيش، وهي ضدّ الضراء.

والمعنى أنّا نأخذهم بما يغيّر حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحّة عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم من جرّاء تكذيبهم رسولهم فلا يهتدون، ثم نردّهم إلى حالتهم الأولى إمهالا لهم

واستدراجا فيزدادون ضلالا، فإذا رأوا ذلك تعلّلوا لما أصابهم من البؤس والضرّ بأنّ ذلك التغيير إنّما هو عارض من عوارض الزمان وأنّه قد أصاب أسلافهم من قبلهم ولم يجئهم رسل.

وهذه عادة الله في تنبيه عباده فإنّه يحبّ منهم التوسّم في الأشياء والاستدلال بالعقل والنظر بالمسببات على الأسباب كما قال تعالى {أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة:126] لأن الله لمّا وهب الانسان العقل فقد أحبّ منه أن يستعمله فيما يبلغ به الكمال ويقيه الضلال.

وظاهر الآية أنّ هذا القول صادر بألسنتهم وهو يكون دائرا فيما بعضهم بعض في مجادلتهم لرسلهم حينما يعظونهم بما حلّ بهم ويدعوهم إلى التوبة والإيمان ليكشف عنهما الضر. ويجوز أن يكون هذا القول أيضا: يجيش في نفوسهم ليدفعوا بذلك ما يخطر ببالهم من توقّع أن يكون ذلك الضر عقابا من الله تعالى.

وحاصل ما دفعوا به دلالة الضراء على غضب الله أن مثل ذلك قد حل بآبائهم الذين لم يدعهم رسول إلى توحيد الله.

{ **فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } الفاء للتعقيب عن قوله {عفوا} {وَقَالُوا} باعتبار كونهما غاية لإبدال الحسنة مكان السيئة، ولا إشعار فيه بأنّ قولهم ذلك هو سبب أخذهم بغتة، ولكنّه دلّ على إصرارهم، أي: فحصل أخذنا إيّاهم عقب تحسّن حالهم وبطرهم النعمة.

والأخذ هنا بمعنى الإهلاك كما في قوله تعالى { أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [الأنعام [44].

البغتة، الفجْأة، وتقدّمت عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [الأنعام: 31].

{ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } حال مؤكّدة لمعنى { بَغْتَةً }

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [96] أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ [97] أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ [98] أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [99].

أي لو أنّ أهل تلك القرى المهلَكة آمنوا بما جاءهم به رسولهم واتقوا ربّهم لما أصبناهم بالبأساء ولأحييناهم حياة البركة. وشرط (لو) الامتناعية يحصل في الزمن الماضي. والمعنى: لو حصل إيمانهم فيما مضى لفتحنا عليهم بركات.

التقوى، هي تقوى الله بالوقوف عند حدوده وذلك بعد الإيمان.

وفي الآية تعريض بإنذار الذين كذّبوا محمدا ﷺ من أهل مكّة، وتعريض ببشارة أهل القرى الذين يؤمنون كأهل المدينة، وقد مضى في صدر تفسير هذه السورة ما يقرب أنّها من آخر ما نزل بمكّة، وقيل، إن آيات منها

نزلت بالمدينة كما تقدّم، وبذلك يظهر موقع التعريض بالنذارة والبشارة للفريقين من أهل القرى.

الفتح، الفتح هنا استعارة للتمكين، كما تقدّم في قوله تعالى {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام:44]. وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه. فهنا استعارتان مكنية وتبعية.

البركات، جمع بركة، والمقصود من الجمع تعدّدها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة. وتقدّم تفسيرها عند قوله تعالى {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام:92]. وجماع معناها هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة. فهو أحسن أحوال النعمة. ولذلك عبّر في جانب المغضوب عليهم المستدرجين بلفظ {الْحَسَنَةَ} بصيغة الإفراد في قوله {مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ} [95]، وفي جانب المؤمنين بالبركات مجموعة.

{ **مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } مراد به حقيقته. لأنّ ما يناله النّاس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئا من الأرض، وذلك معظم المنافع. أو من السماء، مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء والرياح الصالحة.

{ **وَلَكِنْ كَذَّبُوا** } استثناء لنقيض شرط (لو) فإنّ التكذيب هو عدم الإيمان فهو قياس استثنائي.

{ **فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } متسبّبة على جملة {وَلَكِنْ كَذَّبُوا} وهو مثل نتيجة القياس. لأنّه مساوي نقيض التالي، لأنّ أخذهم بما كسبوا فيه عدم فتح البركات عليهم. والمراد بالأخذ هنا الاستئصال.

والباء للسببيّة أي بسبب ما كسبوه من الكفر والعصيان.

{ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى** } الفاء عاطفة، أفادت الترتّب الذكري. فانّه لمّا ذكر من أحوال جميعهم ما هو مثار التعجيب من حالهم أعقبه بما يدلّ عليه معطوفا بفاء الترتّب. ومحلّ التعجيب هو تواطؤهم على هذا الغرور. أي يترتّب على حكاية تكذيبهم وأخذهم استفهام التعجيب من غرورهم وأمنهم غضب القادر العليم.

وقد تقدّم الكلام على مثل هذا التركيب عند قوله تعالى {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ} [البقرة:87]

{ **يَأْتِيَهُمُ** } جيء بصيغة المضارع لأنّ المراد حكاية أمنهم الذي مضى من إتيان بأس الله في مستقبل ذلك الوقت.

{ **أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ** }

قرأه نافع، وابن كثير. وابن عامر، وأبو جعفر بسكون الواو على أنه عطف بحرف (أو) الذي هو لأحد الشيئين عطفا على التعجيب، أي: هو تعجيب من أحد الحالين. وقرأه الباقون بفتح الواو على أنه عطف بالواو مقدّمة عليه همزة الاستفهام، فهو عطف استفهام ثان بالواو المفيدة للجمع، فيكون كلا الاستفهامين مدخولا لفاء التعقيب، على قول جمهور النحاة. وأمّا على رأي الزمخشري فيتعين أن تكون الواو للتقسيم، أي تقسيم الاستفهام إلى استفهامين.

{ **بَيَاتاً** } تقدّم معناه ووجه نصبه عند قوله تعالى {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً}[4]
الضُحى، (بالضم مع القصر) هو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرق وارتفع، وفسّره الفقهاء بأن ترتفع الشمس قيد رمح، ويرادفه الضحوة والضّحْوُ. والضحى يذكّر ويؤنّث، وشاع التوقيت به عند العرب ومن قبلهم، قال تعالى حكاية عن موسى {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاس ضُحىً} [طه:59].
وتقييد التعجيب من أمنهم مجيء البأس، بوقتي البيات والضحى، لأنّهما وقتان للدعة، فالبيات للنوم بعد الفراغ من الشغل. والضحى للعب قبل استقبال الشغل، فكان شأن أولي النهى المعرضين عن دعوة رسل الله أن لا يأمنوا عذابه، بخاصة في هذين الوقتين والحالين.
{ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ** } تكرير لقوله {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} قصد منه تقرير التعجيب من غفلتهم، وتقرير معنى التعريض بالسامعين من المشركين. مع زيادة التذكير بأنّ ما حلّ بأولئك من عذاب الله يماثل هيئة مكر الماكر بالممكور فلا يحسبوا الإمهال إعراضا عنهم، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكر بعدوّه.
المكر، حقيقته فعل يقصد به ضرّ أحد في هيئة تخفى أو هيئة يحسبها منفعة. وهو هنا استعارة للإمهال والإنعام في حال الإمهال، فهي تمثيليّة، شبّه حال الإنعام مع الإمهال وتعقيبه بالانتقام بحال المكر، وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[آل عمران:54]
{ **فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** } مترتّب ومتفرّع عن التعجيب في قوله {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ}، لأنّ المقصود منه تفريع أنّ أهل القرى المذكورين خاسرون لثبوت أنّهم أمنوا مكر الله.
وإنما صيغ هذا التفريع بصيغة تعمّ المخبر عنهم وغيرهم، ليجري مجرى المثل ويصير تذييلا للكلام، ويدخل فيه المعرّض بهم في هذه الموعظة وهم المشركون الحاضرون.
الخسران هنا هو إضاعة ما فيه نفعهم بسوء اعتقادهم، شبه ذلك بالخسران، وهو إضاعة التاجر رأس ماله بسوء تصرّفه، لأنّهم باطمئنانهم إلى السلامة الحاضرة، وإعراضهم عن التفكّر فيما يعقبها من الأخذ الشبيه بفعل الماكر، قد خسروا الانتفاع بعقولهم وخسروا أنفسهم.
واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذّبين، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر الرّسول، وعن الغرور بأنّ دين الشرك هو الحقّ، فهو أمن ناشئ عن كفر. والمأمون منه هو وعيد الرسل إيّاهم وما أطلق عليه أنّه مكر الله.

{ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ }[100]

عطفت على جملة {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} [97] لاشتراك مضمون الجملتين في الاستفهام التعجيبي، فانتقل عن التعجيب من حال الذين مضوا إلى التعجيب من حال الأمّة الحاضرة، وهي الأمّة العربية الذين ورثوا ديار الأمم الماضية فسكنوها، مثل(**أهل نجران**، و**أهل اليمن**)، ومن سكنوا ديار ثمود مثل (**بليّ**، و**كعب**، و**الضجاغم**، و**بهراء**)، ومن سكنوا ديار مدين مثل (**جُهيْنة**، و**جَرْم**)، وكذلك من صاروا قبائل عظيمة فنالوا السيادة على القبائل مثل (**قريش**، و**طي**، و**تميم**، و**هُذَيْل**).

وقد يقصد بالذين يرثون الأرض كل أمّة خلفت أمة قبلها.

{ **أَوَلَمْ يَهْدِ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب، مثل الذي في قوله {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} [97]، تعجيبا من شدّة ضلالتهم، إذ عدموا الاهتداء والاتعاظ بحال من قبلهم من الأمم، ونسوا أنّ الله قادر على استئصالهم إذا شاء.

الإرث، مصير مال الميّت إلى من هو أولى به، ويطلق مجازا على مماثلة الحيّ ميّتا في صفات كانت له، من عزّة وسيادة، كما فسّر به قوله تعالى حكاية عن زكرياء {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي} [مريم: 5، 6] أي يخلفني في النبوءة، وقد يطلق على القدر المشترك بين المعنيين. وهو مطلق خلافة المنقرض، وهو هنا محتمل للإطلاقين، لأنّه إن أريد بالكلام أهل مكّة فالإرث بمعناه المجازي، وإن أريد أهل مكّة والقبائل التي سكنت بلاد الأمم الماضية فهو مستعمل في القدر المشترك.

والمراد تذكير السامعين بما كان فيه أهل الأرض الموروثة من بحبوحة العيش، ثم ما صاروا إليه من الهلاك الشامل العاجل، تصويرا للموعظة بأعظم صورة، فهو كقوله تعالى {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 129].

الهداية، أصلها تبيين الطريق للسائر، واشتهر استعمالهم في مطلق الإرشاد مجازا أو استعارة، كقوله تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة:6] وتقدّم أن فعلها يتعدّى إلى مفعولين، وأنّه يتعدى إلى الأول منهما بنفسه وإلى الثاني تارة بنفسه وأخرى بالحرف؛ بـ (اللام) أو(إلى)، فلذلك كانت تعديته إلى المفعول الأوّل باللام في هذه الآية إما لتضمينه معنى يبين، وإما لتقوية تعلق معنى الفعل بالمفعول.

{ **أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ** } وهؤلاء هم الذين أشركوا بالله وكذّبوا محمدا ﷺ.

الإصابة، نوال الشيء المطلوب بتمكن فيه، فالمعنى، أن نأخذهم أخذا لا يفلتون منه. والباء في {بِذُنُوبِهِمْ} للسببية، وليست لتعدية فعل {أَصَبْنَاهُمْ }.

انتفى أخذنا إيّاهم في الماضي بذنوب تكذيبهم، لأجل انتفاء مشيئتنا ذلك، لحكمة إمهالهم لا لكونهم أعزّ من الأمم البائدة أو أفضل حالا منهم. وفي هذا تهديد بأنّ الله قد يصيبهم بذنوبهم في المستقبل، إذ لا يصدّه عن ذلك غالب. والمعنى: أغرّهم تأخّر العذاب مع تكذيبهم فحسبوا أنفسهم في منعة منه، ولم يهتدوا إلى أنّ انتفاء نزوله بهم معلّق على انتفاء مشيئتنا وقوعه لحكمة.

{ **وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } ليست معطوفة على جملة {أَصَبْنَاهُمْ} حتّى تكون في حكم جواب (لو) لأنّ هذا يفسد المعنى، فإن هؤلاء الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها فقد طبع على قلوبهم فلذلك لم تجد فيهم دعوة محمد ﷺ منذ بُعث إلى زمن نزول هذه السورة، فلو كان جوابا لـ (لو) لصار الطبع على قلوبهم ممتنعا وهذا فاسد.

فتعيّن، إمّا أن تكون جملة { وَنَطْبَعُ } معطوفة على جملة الاستفهام برمّتها فلها حكمها من العطف على أخبار الأمم الماضية والحاضرة. والتقدير: وطبعنا على قلوبهم، ولكنّه صيغ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار هذا الطبع وازدياده آنا فآنا.

وإمّا أن تُجعل (الواو) للاستئناف والجملة مستأنفة، أي: ونحن نطبع على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي. ويعرف الطبع عليها في الماضي بأخبار أخرى، فتكون الجملة تذييلا لتنهية القصّة.

ولكن موقع (الواو) في أوّل الجملة يرجّح الوجه الأوّل.

وتقدم معنى الطبع عند قوله تعالى {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [النساء:155].

{ **فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** } معطوفة بالفاء على {وَنَطْبَعُ} متفرّعا عليه، والمراد بالسماع، فهم مغزى المسموعات لا استكاك الآذان، بقرينة قوله {وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}.

{ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [101] وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } [102].

{ **تِلْكَ الْقُرَى** } لمّا تكرّر ذكر القرى التي كذّب أهلها رسل الله بالتعيين وبالتعميم، صارت للسامعين كالحاضرة المشاهدة الصالحة لأن يشار إليها، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السامعين من قوم محمد ﷺ، ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى، فيروا أنّهم سواء فيفيئوا إلى الحقّ.

{ **نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا** } الامتنان بذكر قصصها، والاستدلال على نبوءة محمد ﷺ، إذ علّمه الله من علم الأوّلين ما لم يسبق له علمه، والوعد بالزيادة من ذلك، لما دل عليه قوله {نَقُصُّ} من التجدّد والاستمرار، والتعريض بالمعرضين عن الاتعاظ بأخبارها.

الأنباء، الأخبار، وقد تقدم في قوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام:34].

والمراد بالقرى وضمير أنبائها، أهلها، كما دلّ عليه الضمير في قوله { رُسُلُهُمْ }.

{ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** }

البيّنات، الدلائل الدالة على الصدق وقد تقدمت في قصة ثمود، عند قوله تعالى {قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}.

والجمع يشير إلى تكرّر البيّنات مع كل رسول.

{ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا } الفاء لترتيب الإخبار بانتفاء إيمانهم عن الإخبار بمجيء الرسل إليهم بما من شأنه أن يحملهم على الإيمان. والصيغة تفيد مبالغة النفي بلام الجحود الدالة على أنّ حصول الإيمان كان منافيا لحالهم من التصلّب في الكفر. والمعنى: فاستمر عدم إيمانهم وتمكّن منهم الكفر في حين كان الشأن أن يقلعوا عنه.

{ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ } أي، فما كانوا ليؤمنوا بشيء كذّبوا به من قبل، ممّا دُعوا إلى الإيمان به من التوحيد والبعث.

{ بِمَا } وشأن (ما) أن يراد بها غير العاقل، فلا يكون ما صدق (ما) هنا الرّسل، بل ما جاءت به الرّسل.

والمعنى: ما أفادتهم البينات أن يؤمنوا بشيء كان بدر منهم التكذيب به في ابتداء الدعوة.

وأسند نفي الإيمان إلى ضمير جميع أهل القرى باعتبار الغالب، وهو استعمال كثير.

{ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } وتقدم معنى الطبع عند قوله تعالى { بل طبع الله عليها بكفرهم } [النساء :155]. وإظهار المسند إليه في جملة {يَطْبَعُ اللَّهُ} دون الإضمار، لما في إسناد الطبع إلى الاسم العلم من صراحة التنبيه على أنّه طبع رهيب لا يغادر للهدى منفذا إلى قلوبهم، ولهذا اختير له الفعل المضارع الدال على استمرار الختم وتجدّده.

القلوب، العقول. والقلب في لسان العرب من أسماء العقل.

{ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ } تنبيها على رسوخ الكفر من نفوسهم بحيث لم يقلعه منهم لا ما شاهدوه من البيّنات، ولا ما وضعه الله في فطرة الإنسان من اعتقاد وجود إله واحد وتصديق الرّسل الداعين إليه، ولا الوفاء بما عاهدوا عليه الرسل عند الدعوة، إنهم إن أتوهم بالبيّنات يؤمنون بها.

الوجدان، في الموضعين مجاز في العلم، فصار من أفعال القلوب، ونفيه في الأول كناية عن انتفاء العهد بالمعنى المقصود، أي وفائه، لأنّه لو كان موجودا لعلمه من شأنه أن يعلمه ويبحث عنه عند طلب الوفاء به، لا سيما والمتكلم هو الذي لا تخفى عليه خافية.

العهد، الالتزام والوعد المؤكّد وقوعه، والموثّق بما يمنع من إخلافه، من يمين، أو ضمان، أو خشية مسبّة.

وهو مشتق من عَهِد الشيء، بمعنى عرفه. ويسمى إيقاع ما التزمه الملتزم من عهده الوفاء بالعهد.

فالعهد هنا يجوز أن يراد به الوعد الذي حققه الأمم لرسلهم مثل قولهم: فأتنا بآية إن كنت من الصادقين، فإنّ معنى ذلك: إن أتيتنا بآية صدقناك.

ويجوز أن يراد به وعد وثّقه أسلاف الأمم من عهد آدم أن لا يعبدوا إلا الله وهو المذكور في قوله تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} [يّس: 60]، فكان لازما لأعقابهم.

ويجوز أن يراد به ما وعدت به أرواح البشر خالقها في الأزل المحكي في قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف: 172]. وهو عبارة

عن خلق الله فطرة البشريّة معتقدة وجود خالقها ووحدانيّته، ثم حرّفتها النزعات الوثنية والضلالات الشيطانية.

ومعنى انتفاء وجدانه، هو انتفاء الوفاء به، لأن أصل الوعد ثابت موجود، ولكنّه لمّا كان تحقّقه لا يظهر إلا في المستقبل، وهو الوفاء، جعل انتفاء الوفاء بمنزلة انتفاء الوقوع، والمعنى على تقدير مضاف، أي ما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد.

{ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } إخبار بأنّ عدم الوفاء بالعهد من أكثرهم، كان منهم عن عمد ونكث، ولكون ذلك معنى زائدا على ما في الجملة التي قبلها عطفت ولم تجعل تأكيدا للتي قبلها أو بيانا، لأنّ الفسق هو عصيان الأمر، وذلك أنّهم كذبوا فيما وعدوا عن قصد للكفر.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [103]

انتقال من أخبار الرسالات السابقة إلى أخبار رسالة عظيمة لأمّة باقية إلى وقت نزول القرآن فضّلها الله بفضله فلم توف حقّ الشكر وتلقّت رسولها بين طاعة وإباء وانقياد ونفار. فلم يعاملها الله بالاستئصال ولكنّه أراها جزاء مختلف أعمالها، جزاء وفاقا، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشر.

وخصّت بالتفضيل قصّة إرسال موسى لما تحتوي عليه من الحوادث العظيمة، والأنباء القيّمة. ولأنّ رسالته جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام، وأرسل رسولها هاديا وشارعا تمهيدا لشريعة تأتي لأمّة أعظم منها تكون بعدها.

{ ثُمَّ } دلّت على المهلة، والمهلة باعتبار مجموع الأمم المحكي عنها قبل، فإن منها ما بينه وبين موسى قرون، مثل قوم نوح، ومثل عاد وثمود، وقوم لوط، فهي متفاوتة المقدار.

{ مِنْ بَعْدِهِمْ } الضمير يعود إلى القرى، باعتبار أهلها.

{ بِآيَاتِنَا } للملابسة، وهي في موضع الحال من موسى، أي مصحوبا بآيات منّا.

الآيات، الدلائل على صدق الرسول، وهي المعجزات.

{ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ }

فِرْعَوْنَ، علم جنس لملك مصر في القديم، أي قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط. قيل أصله في القبطية (**فاراه**) ولعلّ الهاء فيه مبدلة عن العين فإن (رع) اسم الشمس، فمعنى (فاراه) نور الشمس، لأنّهم كانوا يعبدون الشمس، فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور الشمس، لأنّه يصلح النّاس.

نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود وانتقل عنهم إلى العربية، ولعله مما أدخله الإسلام. وهذا الاسم نظير **كسرى** لملك ملوك الفرس القدماء، و**قيصر** لملك الروم، و**نمروذ** لملك كنعان، و**النجاشي** لملك الحبشة، و**تُبّع** لملك ملوك اليمن، و**خان** لملك الترك.

واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه (**منفطاح الثاني**) ، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، على ترتيب المؤرّخين من الإفرنج وذلك في سنة (1491 ق م).

الملأ، الجماعة من علْية القوم، وتقدّم قريبا. وهم وزراء فرعون وسادة أهل مصر من الكهنة وقوّاد الجند.

وإنّما خصّ فرعون وملأه لأنهم أهل الحلّ والعقد الذين يأذنون في سراح بني إسرائيل، فإنّ موسى بعثه الله إلى بني إسرائيل ليحرّرهم من الرق الذي كانوا فيه بمصر، ولمّا كان خروجهم من مصر متوقّفا على أمر فرعون وملئه، بعثه الله إليهم ليعلموا انّ الله أرسل موسى بذلك، وفي ضمن ذلك تحصل دعوة فرعون للهدى، لأنّ كل نبيء يعلن التوحيد ويأمر بالهدى، وإن كان المأمور من غير المبعوث إليهم حرصا على الهدى إلّا أنّه لا يقيم فيهم ولا يكرّر ذلك.

{ **فَظَلَمُوا** } الفاء للتعقيب، أي فبادروا بالتكذيب.

الظلم، الاعتداء على حقّ الغير. والمعنى، فظلموا كلّ من له حقّ في الانتفاع بالآيات. أي منعوا النّاس من التصديق بها، وآذوا الذين آمنوا بموسى لمّا رأوا آياته.

وظلموا أنفسهم إذ كابروا ولم يؤمنوا، فكان الظلم بسبب الآيات أي بسبب الاعتراف بها.

ويجوز أن يكون ضمن {ظَلَمُوا} معنى كفروا فعدي إلى الآيات بالباء، والتقدير: فظلموا إذ كفروا بها، لأنّ الكفر بالآيات ظلم حقيقة، إذ الظلم الاعتداء على الحق، فمن كفر بالدلائل الواضحة المسماة آيات فقد اعتدى على حق التأمل والنظر.

{ **فَانْظُرْ** } الفاء لتفريع الأمر على هذا الإخبار، أي لا تتريّث عند سماع خبر كفرهم عن أن تبادر بالتدبّر فيما سنقص عليك من عاقبتهم.

والخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو ومن يبلغه، أو المخاطب غير معيّن وهو كلّ من يتأتى منه النظر والاعتبار عند سماع هذه الآيات. فالتقدير، فانظر أيها الناظر، وهذا استعمال شائع في كل كلام موجه لغير معين.

العاقبة، آخر الأمر ونهايته، وقد تقدم عند قوله تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام:11]

المفسدين، فرعون وملأه، فهو من الإظهار في مقام الإضمار تنبيها على أنّهم أصيبوا بسوء العاقبة لكفرهم وفسادهم، والكفر أعظم الفساد لأنّه فساد القلب ينشأ عنه فساد الأعمال. وفي الحديث: " ألا وإنّ في الجسد

مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ".

{ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [104] حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائيلَ [105] قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [106] فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [107] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ } [108].

{ **يَا فِرْعَوْنُ** } خطاب إكرام لأنّه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمّته، فليس هو بمترفّع عليه، لأنّ الله تعالى قال له ولهارون { فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً } [طه:44]. والظاهر أيضا أنّ قول موسى هذا هو أول ما خاطب به فرعون.

{ **إِنِّي** } وصوغ حكاية كلام موسى بصيغة التأكيد بحرف (إنّ) لأنّ المخاطب مظنّة الإنكار أو التردد القوي في صحة الخبر.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } واختيار هذه الصفة في الإعلام بالمرسل إبطال لاعتقاد فرعون أنّه ربّ مصر وأهلها فإنّه قال لهم {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات:24].

{ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ }

حقيق، فعيل بمعنى فاعل، وهو مشتق من (حَقّ) وجب وثبت، أي متعيّن وواجب عليّ قول الحق على الله، و(على) الأولى للاستعلاء المجازي و(على) الثانية بمعنى (عن).

قرأه نافع بالياء في آخر { عليّ } فهي ياء المتكلّم دخل عليها حرف (على) وتعدية حقيق بحرف (على) معروفة. و{حَقِيقٌ} خبر ثان عن {إِنِّي} ، فليس في ضمير المتكلم من قوله {عليّ} على قراءة نافع التفات. بخلاف ما لو جعل قوله {حَقِيقٌ} صفة لـ {رَسُولٌ} فحينئذ يكون مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الغائب، فيقول: حقيق عليه، فيكون العدول إلى التكلم التفاتا. وفاعل {حَقِيقٌ} هو المصدر المأخوذ من قوله {أَنْ لا أَقُولَ}، أي حقيق علي عدم قولي على الله غير الحق.

وقرأ الجمهور (على) بألف بعد اللام، وهي (على) الجارة. ففي تعلق (على) ومجرورها الظاهر بـ {حَقِيقٌ} تأويل بوجوه، أحسنها قول الفراء، وأبي علي الفارسي: أن (على) هنا بمعنى (**الباء**) وأنّ {حَقِيقٌ} فعيل بمعنى مفعول، أي محقوق بأنّ لا أقول على الله إلّا الحق.

{ **قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ مقام الإنكار مما يثير سؤال سائل أن يقول: هذه دعوى غريبة تحتاج إلى بيّنة.

البينة، الحجّة. وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [الأنعام:57]. والحجّة هنا

يجوز أن يكون المراد بها البراهين العقليّة على صدق ما جاء به موسى من التوحيد والهدى، ويجوز أن تكون المعجزة الدالة على صدق الرّسول، ويحتمل المعنى الأعمّ الشامل للنوعين على ما يحتمله كلام موسى المترجم عنه هنا.

{ **فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ** } الفاء لتفريع طلب تسريح بني إسرائيل على تحقّق الرسالة عن رب العالمين، والاستعداد لإظهار البيّنة على ذلك، لأنّ شأن الرّسل أن لا يبتدئوا بإظهار المعجزات صونا لمقام الرسالة.

الإرسال، الإطلاق والتخلية، وهو هنا مجاز لغوي في الإذن لبني إسرائيل بالخروج.

{ **مَعِيَ** } لأنّ المقصود من إخراجهم من مصر أن يكونوا مع الرسول ليرشدهم ويدبّر شؤونهم.

{ **قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } متعيّن لأن يكون معناه، إن كنت جئت بمعجزة فأظهرها. فإنّ أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحجّة.

{ **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** }

الإلقاء، الرمي على الأرض أو في الماء أو نحو ذلك، أي فرمى عصاه من يده.

{ **فإذا** } للمفاجأة وهي حدوث الحادث عن غير ترقب.

{ **ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** } الحيّة العظيمة، ومبين الظاهر الذي لا شك فيه ولا تخيّل.

{ **وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** } المعنى هنا أنّه أخرج يده من جيب قميصه بعد أن أدخلها فيه، كما في سورة النمل وسورة القصص، فلمّا أخرجها صارت بيضاء، أي بياضا من النور.

{ **لِلنَّاظِرِينَ** } ، أي بياضا يراه الناظرون رؤية تعجّب من بياضها.

{ قَالَ الْمَلَأُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [109] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ [110] قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [111] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}[112]

{ **قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ** } تقدّم الكلام على الملإ آنفا في القصص الماضية. فملأ قوم فرعون هم سادتهم، وهم أهل مجلس فرعون ومشورته. وقد كانت دعوة موسى أوّل الأمر قاصرة على فرعون في مجلسه، فلم يكن بمرأى ومسمع من العامة، لأنّ الله تعالى قال في آية أخرى {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه:43] وقال في هذه الآية {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ} [103] وإنّما أشهرت دعوته بعد اجتماع السحرة.

وإنّما قالوا هذا الكلام على وجه الشورى مع فرعون واستنباط الاعتذار لأنفسهم عن قيام حجّة موسى.

{ **يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ** } يعنون أنّه ما أظهر إخراج بني إسرائيل إلّا ذريعة لإخراج كلّ من يؤمن به ليتّخذهم تبعا ويقيم بهم ملكا خارج مصر، فزعموا أنّ تلك مكيدة من موسى لتثلم ملك فرعون.

وإمّا أنّهم علموا أنّه إذا شاع في الأمّة ظهور حجّة موسى وعجز فرعون وملئه أدخل ذلك فتنة في عامة الأمّة، فآمنوا بموسى وأصبح هو الملك على مصر فأخرج فرعون وملأه منها.

{ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** } المقصود من (الأمر) الطلب على وجه الإفتاء والاشتوار، لأنّ أمرهم لا يتعيّن العمل به. فإذا كان المخاطب فرعون على ما تقدّم، كان مرادا من الأمر الطلب الذي يجب امتثاله كما قال ملأ بلقيس {فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} [النمل:33].

الساحر، فاعل السحر. وتقدّم الكلام على السحر عند قوله تعالى {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [البقرة:102].

{ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** } جواب القوم المستشارين، فتجريدها من حرف العطف لجريانها في طريق المحاورة.

الإرجاء، هو التأخير. والمعنى، أخّر المجادلة مع موسى إلى إحضار السحرة الذين يدافعون سحره.

وحكى القرآن ذكر الأخ هنا للإشارة إلى أنّه طوي ذكره في أوّل القصة، وقد ذكر في غير هذه القصة ابتداء.

{ **وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** } عدي فعل الإرسال بـ (في) دون (إلى) لأنّ الفعل هنا غير مقصود تعديته إلى المرسل إليهم بل المقصود منه المرسلون خاصة، وهو المفعول الأول، إذ المعنى: وأرسل حاشرين في المدائن يأتوك بالسحرة، فعلم أنّهم مرسلون للبحث والجلب، لا للإبلاغ.

المدائن، جمع مدينة، وهي بوزن فعيلة، مشتقّة من مَدَن بالمكان إذا أقام. قيل أرادوا مدائن الصعيد، وكانت مقرّ العلماء بالسحر. ومدائن مصر في ذلك الزمن كثيرة وسنذكر بعضها عند قوله تعالى {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الشعراء:53].

الحاشرون، الذين يحشرون النّاس ويجمعونهم.

{ **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** } جزم (يَأْتُوكَ) على جواب الأمر، للدلالة على شدّة اتصال السببيّة بين الإرسال والإتيان، فالتقدير، إن ترسل يأتوك.

{ **بِكُلِّ** } مستعمل في معنى الكثرة، أي بجمع عظيم من السحرة.

{ **عَلِيمٍ** } الذي هو من أمثلة المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر، وحذف متعلقه لأنّه صار بمنزلة أفعال السجايا.

{ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ [113] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [114] قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ [115] قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } [116]

{ **السَّحَرَةُ** } التعريف للعهد، أي السّحرة المذكورون، وكان حضور السّحرة عند فرعون في اليوم الذي عيّنه موسى للقاء السحرة، وهو المذكور في سورة طه.

{ **قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً** } قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر {إِنَّ لَنَا لَأَجْراً} ابتداء بحرف (إنّ) دون همزة استفهام، وقرأه الباقون بهمزة استفهام قبل (إنّ)، وعلى القرائتين فالمعنى على الاستفهام، فهمزة الاستفهام محذوفة تخفيفا على القراءة الأولى.

{ **أَجْراً** } تنكير تعظيم بقرينة مقام الملك وعظم العمل.

{ **إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ** } ضمير {نَحْنُ} تأكيد لضمير {كُنَّا} إشعارا بجدارتهم بالغلب، وثقتهم بأنّهم أعلم النّاس بالسحر، فأكدوا ضميرهم لزيادة تقرير مدلوله.

{ **قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** } إجابة عما استفهموا، أو تقريرا لما توسّموا: على الاحتمالين المذكورين.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ** } فصلت لوقوعها في طريقة المحاورة بينهم وبين فرعون وموسى، لأنّ هؤلاء هم أهل الكلام في ذلك المجمع.

{ **إِمَّا** } حرف يدل على الترديد بين أحد شيئين أو أشياء، ولا عمل له ولا هو معمول، وما بعده يكون معمولا للعامل الذي في الكلام. ويكون {إِمَّا} بمنزلة جزء كلمة مثل أل المعرفة.

وذلك هو التخيير، أي إمّا أن تبتدئ بإلقاء آلات سحرك وإمّا أن نبتدئ، فاختر أنت أحد أمرين.

ووجه دلالة التخيير على أنّ التقدّم في التخييلات والشعوذة أنجح للبادئ لأنّ بديهتها تمضي في النفوس وتستقرّ فيها، فتكون النفوس أشدّ تأثرا بها من تأثرها بما يأتي بعدها، ولعلّهم مع ذلك أرادوا أن يسبروا مقدار ثقة موسى بمعرفته مما يبدو منه من استواء الأمرين عنده أو من الحرص على أن يكون هو المقدّم.

ولذلك كان في جواب موسى إيّاهم بقوله {أَلْقُوا} استخفاف بأمرهم إذ مكّنهم من مبادأة إظهار تخييلاتهم وسحرهم، لأنّ الله قوّى نفس موسى بذلك الجواب لتكون غلبته عليهم، بعد أن كانوا هم المبتدئين، أوقع حجّة وأقطع معذرة.

وفي هذا دليل على جواز الابتداء بتقرير الشبهة للذي يثق بأنّه سيدفعها.

{ **فَلَمَّا أَلْقَوْا** } عطف على محذوف للإيجاز، أي ألقوا آلات سحرهم.

{ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ** } جعلوها متأثّرة بالسحر بما ألقوا من التخييلات والشعوذة.

وفي الكلام مجازعقلي، لأنّ الأعين آلة إيصال التخييلات إلى الإدراك، وهم إنّما سحروا العقول، ولذلك لو قيل: سحروا النّاس لأفاد ذلك، ولكن تفوت نكتة التنبيه على أنّ السحر إنّما هو تخيلات مرئيّة.

الاسترهاب، طلب الرهب أي الخوف، وذلك أنّهم عزّزوا تخيلات السحر بأمور أخرى تثير خوف الناظرين، لتزداد تمكّن التخيلات من قلوبهم، وتلك الأمور، أقوال وأفعال توهم أن سيقع شيء مخيف كأن يقولوا للنّاس: خذوا حذركم، وحاذروا، ولا تقتربوا، وسيقع شيء عظيم، وسيحضر كبير السحرة، ونحو ذلك.

ولك أن تجعل (السين والتاء) في { وَاسْتَرْهَبُوهُمْ } للتأكيد، أي أرهبوهم رهبا شديدا، كما يقال استكبر

واستجاب.

{ **وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** } ووصف السحر بالعظيم لأنّه من أعظم ما يفعله السحرة، إذ كان مجموعا ممّا تفرّق بين سحرة المملكة.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ [117] فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [118] فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ } [119]

{ وَأَوْحَيْنَا } جملة في حيّز جواب لمّا، أي لمّا ألقوا سحروا، وأوحينا إلى موسى أن الق لهم عصاك.

{ **فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** } الفاء للتعقيب الدال على سرعة مفاجأة شروعها في التلقّف بمجرد إلقائها، وقد دل السياق على جملتين محذوفتين، إذ التقدير، فألقاها فدبت فيها الحياة وانقلبت ثعبانا، فإذا هي تلقف.

التلقّف، قرأ الجمهور { تلقّف} (بقاف مشددة) وأصله تتلقف مبالغة في اللقف وهو الابتلاع والازدراد، وقراحفص عن عاصم بسكون اللام و تخفيف القاف على صيغة المجرّد.

الإفك، الصرف عن الشيء، ويسمّى الزور إفكا، والكذب المصنوع إفكا، لأنّ فيه صرفا عن الحق وإخفاء للواقع، فلا يسمى إفكا إلا الكذب المصطنع المموّه، وإنما جعل السحر إفكا لأن ما يظهر منه مخالف للواقع فشبّه بالخبر الكاذب. وتسمية سحرهم إفكا دليل على أنّ السحر لا معمول له وأنّه مجرد تخييلات وتمويهات.

{ **فَوَقَعَ الْحَقُّ** } تفريع على {تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} . والوقوع حقيقته سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض، واستعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر، لأنّ ظهوره كان بتأييد الهي، فشبه بشيء نزل من علو، وقد يطلق الوقوع على الحصول، لأنّ الشيء الحاصل يشبه النازل على الأرض، وهي استعارة شائعة قال تعالى {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذريات:6] أي حاصل وكائن، والمعنى فظهر الحق وحصل.

ولعل في اختيار لفظ (وقع)، هنا دون (نزل) مراعاة لفعل الإلقاء، لأنّ الشيء الملقى يقع على الأرض فكان وقوع العصا على الارض وظهور الحق مقترنين.

الْحَقُّ، هو الأمر الثابت الموافق للبرهان، وضدّه الباطل. أريد به هنا صدق موسى وصحة معجزته وكون ما فعلته العصا هو من صنع الله تعالى، وأثر قدرته.

{ **وَبَطَلَ** }حقيقته اضمحلّ. والمراد، اضمحلال المقصود منه وانتفاء أثر مزعوم لشيء. يقال: بطل سعيه، أي لم يأت بفائدة، ويقال: بطل عمله، أي: ذهب ضياعا وخسر بلا أجر، ومنه سمّي ضد الحق باطلا، لأنّه شيء لا يحصل منه الأثر المرجو، وهو القبول لدى العقول المستقيمة.

{ **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } هو السحر، أي بطلت تخيّلات النّاس أنّ عِصِيّ السحرة وحبالهم تسعى كالحيّات.

{ **فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ** } انقلب من الأفعال التي تجيء بمعنى (صار) وهو المراد هنا، أي صاروا صاغرين، واختيار لفظ {وَانْقَلَبُوا} دون (رجعوا) أو (صاروا) لمناسبته للفظ غلبوا في الصيغة، ولما يُشعر به أصل اشتقاقه من الرجوع إلى حال أدون، فكان لفظ انقلبوا أدخل في الفصاحة.

الصغار، المذلّة، وهي مذلة ظهور عجزهم، ومذلّة خيبة رجائهم ما أملوه من الأجر والقرب عند فرعون.

{ **وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ [120] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [121] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [122] قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [123] لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [124] قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [125] وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** } [126]

عطف على {فَغُلِبُوا} و {وَانْقَلَبُوا}، فهو في حيّز فاء التعقيب، أي حصل ذلك كلّه عقب تلقّف العصا ما يأفكون بدون مهلة، وتعقيب كل شيء بحسبه، فسجود السحرة متأخر عن مصيرهم صاغرين، ولكنه متأخر بزمن قليل وهو زمن انقداح الدليل على صدق موسى في نفوسهم، فإنّهم كانوا أعلم النّاس بالسحر فلا يخفى عليهم ما هو خارج عن الأعمال السحريّة، ولذلك لمّا رأوا تلقّف عصا موسى لحبالهم وعصيّهم جزموا بأنّ ذلك خارج عن طوق الساحر، فعلموا أنّه تأييد من الله لموسى وأيقنوا أنّ ما دعاهم إليه موسى حقّ، فلذلك سجدوا، وكان هذا خاصا بهم دون بقيّة الحاضرين، فلذلك جيء بالاسم الظاهر دون الضمير لئلا يلتبس بالضمير الذي قبله الذي هو شامل للسحرة وغيرهم.

الإلقاء، مستعمل في سرعة الهُوِي إلى الأرض، أي لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريّث ولا تردّد.

{ **سَاجِدِينَ** } حال، والسجود هيئة خاصة لإلقاء المرء نفسه على الأرض يقصد منها الإفراط في التعظيم، وسجودهم كان لله الذي عرفوه حينئذ بظهور معجزة موسى عليه السلام.

{ **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** [121] **رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** } قصدوا من قولهم ذلك، الإعلان بإيمانهم بالله لئلّا يظنّ النّاس أنّهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادة القبط السجود لفرعون، ولذلك وصفوا الله بأنّه رب العالمين بالعنوان الذي دعا به موسى عليه السلام، وزادوا هذا القصد بيانا بالإبدال {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}.

{ **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** } فصلت الجملة لوقوعها في طريق المحاورة.

{ **آمَنْتُمْ** } قرأه الجمهور بصيغة الاستفهام بهمزتين فمنهم من حقّقها، وهم: حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وروح عن يعقوب، وخلف، ومنهم من سهّل الثانية مَدَّة، فصار بعد الهمزة الأولى مدتان، وهؤلاء

هم: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وقرأه حفص عن عاصم بهمزة واحدة فيجوز أن يكون إخبارا، ويجوز أن تكون همزة الاستفهام محذوفة وما ذلك ببدع. والاستفهام للإنكار والتهديد مجازا مرسلا مركّبا.

{ **قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** } ترقّ في موجب التوبيخ، أي لم يكفكم أنّكم آمنتم بغيري حتّى فعلتم ذلك عن غير استئذان. وفصلها عمّا قبلها لأنّها تعداد للتوبيخ.

{ **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا**} خبر مراد به لازم الفائدة، أي ولقد علمتُ مرادكم.

المكر، تقدّم عند قوله تعالى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ} [آل عمران:54].

{ **فِي الْمَدِينَةِ** } ظرفية مجازية، أي أردتم إضرار أهلها.

وقول فرعون هذا يحتمل أنّه قاله موافقا لظنّه على سبيل التهمة لهم، لأنّه لم يكن له علم بدقائق علم السحر حتّى يفرّق بينه وبين المعجزة الخارقة للعادة، فظن أنّها مكيدة دبّرها موسى مع السحرة، كما في قوله تعالى {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [طه: 71].

ويحتمل أنّه قاله تمويها وبهتانا ليصرف النّاس عن اتباع السحرة، وعن التأثّر بغلبة موسى إياهم، فيدخل عليهم شكا في دلالة الغلبة واعتراف السحرة بها.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } فرع على الإنكار والتوبيخ الوعيد ، وحذف مفعول {تَعْلَمُونَ} لقصد الإجمال في الوعيد لإدخال الرعب.

{ **لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ** } بيان الوعيد. ووقوع الجمع معرّفا بالإضافة يكسبه العموم، فيعمّ كل يد وكل رجل من أيدي وأرجل السحرة. وقد تقدّم بيان نظيرها عند قوله تعالى {أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ} [المائدة: 33]. فالمعنى، أنّه يقطع من كل ساحر يدا ورجلا متخالفتي الجهة غير متقابلتيها.

{ **ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** } المعروف أنّ الصلب أن يقتل المرء مشدودا على خشبة، كما تقدّم في قوله {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} [النساء:157]، وعلى هذا يكون توعّدهم بنوعين من العذاب، والوعيد موجّه إلى جماعتهم فعلم أنّه جعلهم فريقين: فريق يعذّب بالقطع من خلاف، وفريق يعذّب بالصلب والقتل، فعلى هذا ليس المعنى على أنّه يصلبهم بعد أن يقطعهم.

ويحتمل أن يراد بالصلب، الصلب دون قتل، فيكون أراد صلبهم بعد القطع ليجعلهم نكالا ينذعر بهم النّاس، كيلا يقدم أحد على عصيان أمره من بعد، فتكون {ثُمَّ} دالة على الترتيب والمهلة، وهذا هو المناسب لظاهر قوله { **أَجْمَعِينَ** } المفيد أنّ الصلب ينالهم كلّهم.

{ **قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ** } فصلت لوقوعها في سياق المحاورة. و**الانقلاب**، الرجوع، وقد تقدّم قريبا. وهذا جواب عن وعيد فرعون بأنّه وعيد لا يضيرهم، لأنّهم يعلمون أنّهم صائرون إلى الله ربّ الجميع، وقد

جاء هذا الجواب موجزا إيجازا بديعا، لأنّه يتضمّن أنّهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم، ويرجون العقاب لفرعون على ذلك.

{ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا } ثمّ بيّنوا أنّ عقاب فرعون لا غضاضة عليهم منه، لأنّه لم يكن عن جناية بل كان على الإيمان بآيات الله لمّا ظهرت لهم.

النقْم، (بسكون القاف وبفتحها) الإنكار على الفعل، وكراهة صدوره وحقد على فاعله، ويكون باللسان وبالعمل.

{ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } من تمام كلامهم، وهي انتقال من خطابهم فرعون إلى التوجّه إلى دعاء الله تعالى، ولذلك فصلت عن الجملة التي قبلها. والمعنى، اجعل لنا طاقة لتحمّل ما توعّدنا به فرعون.

الإفراغ، صب جميع ما في الإناء، تشبيه المعقول بالمحسوس، على طريقة الاستعارة المكنيّة. والمقصود من ذلك، الكناية عن قوّة الصبر، لأنّ إفراغ الإناء يستلزم أنّه لم يبق فيه شيء مما حواه، فاشتملت هذه الجملة على مكنية وتخييلية وكناية. وتقدم نظيره في قوله تعالى {قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً} [البقرة:250].

ولعلّه لم يحقّق ما توعّدهم به، فالقرآن لم يتعرّض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه، للإخبار عن وقوع ما توعّدهم به فرعون، لأنّ غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلّبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنة.

والظاهر أنّ فرعون أفحم لمّا رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يُرد جوابا.

وذكرهم الإسلام في دعائهم يدلّ على أنّ الله ألهمهم حقيقته التي كان عليها النبيون والصديقون من عهد إبراهيم عليه السلام.

{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [127] قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [128]

محاورة بين ملإ فرعون وبينه في وقت غير وقت المحاورة التي جرت بين فرعون والسحرة، فإنّهم لمّا رأوا قلّة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون، ورأوا نهوض حجّتهم على فرعون وإفحامه، وأنّه لم يَحرْ جوابا، راموا إيقاظ ذهنه، وإسعار حميّته، فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون، ولعلّهم رأوا منه تأثّرا بمعجزة موسى وموعظة الذين آمنوا من قومه وتوقعوا عدوله عن تحقيق وعيده.

{ أَتَذَرُ مُوسَى } الاستفهام مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه، والإنكار على الإبطاء بإتلافهم.

والكلام على فعل {تَذَرُ} تقدم في قوله { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً } [الأنعام:70]

قوم موسى، هم من آمن به. وأولئك هم بنوا إسرائيل كلّهم ومن آمن من القبط.

{ **لِيُفْسِدُوا** } لام التعليل وهو مبالغة في الإنكار، إذ جعلوا ترك موسى وقومه معللا بالفساد، وهذه اللام تسمى لام العاقبة. وليست العاقبة معنى من معاني اللام حقيقة ولكنّها مجاز.

والإفساد عندهم هو إبطال أصول ديانتهم وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة وحثّ بني إسرائيل على الحرية. ومغادرة أرض الاستعباد.

{ **فِي الْأَرْضِ** } مملكة فرعون وهي قطر مصر.

{ **وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ** } داخل في التعليل المجازي، لأنّ هذا حاصل في بقائهم دون شك، ومعنى تركهم فرعون، تركهم تأليهه وتعظيمه، ومعنى ترك آلهته نبذهم عبادتها ونهيهم النّاس عن عبادتها.

الآلهة، جمع آله. وكان القبط مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر وصوّروا لها صورا عديدة مختلفة باختلاف العصور والأقطار، أشهرها (**فتاح**) وهو أعظمها عندهم وكان يّعبد بمدينة (**مَنْفيس**)، ومنها (**رع**) وهو الشمس، وتتفرّع عنه آلهة باعتبار أوقات شعاع الشمس، ومنها (**ازبريس** و**إزيس** و**هوروس**) وهذا عندهم ثالوث مجموع من أب وأم وابن. ومنها (**توت**) وهو القمر وكان عندهم ربّ الحكمة. ومنها (**أمون رع**). فهذه الأصنام المشهورة عندهم وهي أصل إضلال عقولهم. وكانت لهم أصنام فرعيّة صغرى عديدة مثل العجل (**إيبيس**) ومثل الجعران وهو الجُعل.

وكان أعظم هذه الأصنام هو الذي ينتسب فرعون إلى بُنوّته وخدمته، وكان فرعون معدودا ابن الآلهة وقد حلّت فيه الإلهيّة على نحو عقيدة الحلول، ففرعون هو المنقّذ للدين، وكان يعدّ إله مصر.

{ **قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** } توعّد فرعون موسى وقومه بالاستئصال بقتل الأبناء، والمراد الرجال بقرينة مقابلته بالنساء.

الاستحياء، مبالغة في الإحياء، (فالسين والتاء فيه للمبالغة) والغرض من استبقاء النساء أن يتخذوهن سراري وخدما.

{ **وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** } اعتذار من فرعون للملإ من قومه عن إبطائه باستئصال موسى وقومه، أي هم لا يقدرون أن يفسدوا في البلاد ولا أن يخرجوا عن طاعتي.

القاهر: الغالب بإذلال.

{ **فَوْقَهُمْ** } مستعمل مجازا في التمكّن من الشيء، لأن الاعتلاء على الشيء أقوى أحوال التمكّن من قهره.

{ **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا** } خاطب موسى قومه بذلك تطمينا لقلوبهم، وتعليما لهم بنصر الله إيّاهم، لأنّه علم ذلك بوحي الله إليه.

{ **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } تذييل وتعليل للأمر بالاستعانة بالله والصبر، كناية عن ترقّب

زوال استعباد فرعون إيّاهم، قصد منها صرف اليأس عن أنفسهم الناشئ عن مشاهدة قوّة فرعون وسلطانه، بأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه.
فالمراد من الأرض هنا الدنيا لأنّه أليق بالتذييل وأقوى في التعليل، فهذا إيماء إلى أنّهم خارجون من مصر وسيملكون أرضا أخرى.
{ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } تذييل، فيجوز أن تكون الواو اعتراضية.
العاقبة، حقيقتها نهاية أمر من الأمور وآخره، وتقدّم ذكرها عند قوله تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام:11].
فإذا عرّفت العاقبة باللام كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أولّه، كما قال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 132]. وفي حديث أبى سفيان قول هرقل " وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ".
فلا تطلق المعرّفة على عاقبة السوء.
المتقون، المؤمنون العاملون.

{ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [129]
حكاية جواب قوم موسى إيّاه، فلذلك فصلت جملة القول على طريقة المحاورة، وهذا الخبر مستعمل في الشكاية واستئثارتهم موسى ليدعو ربه أن يفرّج كربهم.
الإيذاء، الإصابة بالأذى، والأذى ما يؤلم ويحزن من قول او فعل. و تقدّم عند قوله تعالى {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً} [آل عمران:111]. وهو يكون ضعيفا وقويّا، ومرادهم هنا القويّ منه، وهو ما لحقهم من الاستعباد وتكليفهم الأعمال الشاقة عليهم في خدمة فرعون، وما توعّدهم به فرعون بعد بعثة موسى من القطع والصلب وقتل الأبناء. وكأنّهم أرادوا التعريض بنفاد صبرهم، وأنّ الأذى الذي مسّهم بعد بعثة موسى لم يكن بداية الأذى.
وقد توهّم بعض المفسرين أنّ هذا امتعاض منهم مما لحقهم بسبب موسى وبواسطته مستندا إلى أن قتل الذكور منهم كان قبل مجيء موسى بسبب توقع ولادة موسى، وكان الوعيد بمثله بعد مجيئه بسبب دعوته، وليس ذلك بمتجه.
{ **قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ** } أجابهم موسى بتقريب أن يكونوا هم الذين يرثون ملك الأرض والذين تكون لهم العاقبة.
{ **عَسَى** } جاء بفعل الرجاء دون الجزم تأدّبا مع الله تعالى، وإقصاء للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى

والتعرّض إلى رضى الله تعالى ونصره.
عَدُوَّكُمْ، فرعون وحزبه.
الاستخلاف، إقامة الخليفة، فالسين والتاء لتأكيد الفعل، أي جعلهم أحرارا غالبين ومؤسّسين ملكا في الأرض المقدّسة.
{ **فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** } التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله تعالى، والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المتقين، تذكيرا لهم بأنّه عليم بما يعملونه.

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [130] فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [131]

هذا انتقال إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه، وجعلها آيات لموسى، ليلجئ فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج، وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة، ويظهر أن فرعون أغضى عن تحقيق وعيده، إبقاء على بني إسرائيل، لأنّهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون.
ويؤخذ من التوراة أن موسى بقي في قومه مدّة يعيد محاولة فرعون أن يطلق بني إسرائيل، وفرعون يعد ويخلف، ولم تضبط التوراة مدة مقام موسى كذلك، وظاهرها أنّ المدة لم تطل، وليس قوله تعالى {بِالسِّنِينَ} دليل على أنّها طالت أعواما، لأن السنين هنا جمع سنة بمعنى الجدب لا بمعنى الزمن المقدّر من الدهر، فالسنة في كلام العرب إذا عرّفت باللام يراد بها سنة الجدب والقحط. فالمعنى، ولقد أخذناهم بالقحوط العامة في كلّ أرض.
الأخذ، هنا مجاز في القهر والغلبة. ويصحّ أن يكون هنا مجازا في الإصابة بالشدائد، وتعدّدت إطلاقاته، فأطلق كناية عن الملك، وأطلق استعارة للقهر والغلبة وللإهلاك.
نقص الثمرات، قلّة إنتاجها قلة غير معتادة لهم. فالسنون تنتاب المزارع والحقول، ونقص الثمرات ينتاب الجنّات.
{ **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** } للرجاء، أي مرجوّا تذكّرهم، لأنّ المصائب والأضرار المقارنة لتذكير موسى إيّاهم بربّهم، وتسريح عبيده، من شأنها أن يكون أصحابها مرجوّا منهم أن يتذكّروا بأنّ ذلك عقاب على إعراضهم وعلى عدم تذكّرهم.
وفي هذه الآية تنبيه للأمّة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله، فإنّ سلب النعمة للمنعم عليهم تنبيه لهم

على استحقاقهم إعراض الله تعالى عنهم.

{ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ }

المجيء، الحصول والإصابة. وإنّما عبّر في جانب الحسنة بالمجيء لأنّ حصولها مرغوب، فهي بحيث تُترقّب كما يُترقّب الجائي، وعبّر في جانب السيئة بالإصابة لأنّها تحصل فجأة عن غير رغبة ولا ترقّب.

وجيء في جانب الحسنة بإذا الشرطية لأنّ الغالب في (إذا) الدلالة على اليقين بوقوع الشرط أو ما يقرب من اليقين. وجيء في جانب السيّئة بحرف (إن) لأنّ الغالب أن تدلّ على التردّد في وقوع الشرط، أو على الشكّ، ولكون الشيء النادر الحصول غير مجزوم بوقوعه، ومشكوكا فيه.

وفي ذلك تعريض بأنّ نعم الله كانت متكاثرة لديهم وأنّهم كانوا معرضين عن الشكر، وتعريض بأنّ إصابتهم بالسيّئات نادرة، وهم يعدّون السيئات من جراء موسى ومن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة وظالمين لموسى ومن معه.

و**الحسنة** و**السيئة** هنا مراد بهما الحالة الحسنة والحالة السيئة.

{ **لَنَا** } لام الاستحقاق، أي هذه الحسنة حقّ لنا، لأنّهم بغرورهم يحسبون أنّهم أحرياء بالنعم، فلا يرون تلك الحسنة فضلا من الله ونعمة.

{ **يَطَّيَّرُوا** } أصله يتطيّروا، وهو تفعّل، مشتق من اسم الطير، كأنّهم صاغوه على وزن التفعّل لما فيه من تكلّف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير. وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة، نظروا إلى ما يلاقيهم أوّل سيرهم من طائر، فكانوا يزعمون أن في مروره علامات يمن وعلامات شؤم، فالذي في طيرانه علامة يمن في اصطلاحهم يسمونه (**السانح**)، وهو الذي ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر، والذي علامته الشؤم هو (**البارح**) وهو الذي يمر على اليسار، وإذا وجد طيرا جاثما أثاره لينظر أي جهة يطير، وتسمى تلك الإثارة (**زجرا**)، فمن الطير ميمون ومنه مشؤوم. والعرب يدعون للمسافر بقولهم على الطائر الميمون، ثم غلب استعمال لفظ التطير في معنى التشاؤم خاصة.

وفي الحديث " لا طيرة وإنما الطيرة على من تطيّر"، أي الشؤم يقع على من يتشاءم، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا لسوء ظنه بالله. وتأويل حديث " الطيرة شرك "(رواه أصحاب السنن)، أنّها من بقايا دين الشرك.

{ **وَمَنْ مَعَهُ** } من آمنوا به، لأنّ قوم فرعون يعدّون موجب شؤم موسى هو ما جاء به من الدين.

{ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }

{ **أَلَا** } حرف استفتاح يفيد الاهتمام بالخبر الوارد بعده. تعليما للأمّة، وتعريضا بمشركي العرب.

الطائر، اسم للطير الذي يثار ليتيمن به أو يتشاءم.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } أي سوء حالهم عقاب من الله، لا من عند موسى ومن معه. ، وهذا كما وقع في الحديث "ولا

طير إلا طيرك" ، فعبّر عمّا قدّره الله للنّاس (بطير) مشاكلة لقوله (ولا طير) ومن فسر الطائر بالحظ فقد أبعد عن السياق.

{ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [132] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ}[133]

فهم قابلوا المصائب التي أصابهم الله بها، ليذكّروا، بازدياد الغرور، وعاندوا موسى حين تحداهم بها فقالوا: مهما تأتنا به من أعمال سحرك العجيبة فما نحن لك بمؤمنين.

{ **مَهْمَا** } اسم مضمّن معنى الشرط، أي أيّما شيء تأتينا به فما نحن لك بمؤمنين.

الآية، العلامة الدالة، وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} [البقرة:39]، وفي قوله تعالى {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الأنعام:37].

وهم لا يعدّونها آية ولكنهم جاروا موسى في التسمية بقرينة قولهم {لِتَسْحَرَنَا بِهَا} ، وفي ذلك استهزاء.

{ **فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** } مفيدة المبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى، لأنّهم جاءوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية، التي حكته، من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه، وبما تفيده الباء من توكيد النفي، وما يفيده تقديم متعلق مؤمنين من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به المنفي باسمه.

{ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ** } الفاء لتفريع إصابتهم بهذه المصائب على عتوّهم وعنادهم.

الإرسال، حقيقته توجيه رسول أو رسالة فيعدّى إلى المفعول الثاني بـ (إلى) ويضمن معنى الإرسال من فوق، فيعدّى إلى المفعول الثاني بـ (على)، قال تعالى: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل:3].

فحرف (على) دل على أنّ{ **فَأَرْسَلْنَا** } مفرعة تفريع العقاب لا تفريع زيادة الآيات.

الطوفان، السَّيْح الغالب من الماء الذي يغمر جهات كثيرة ويطغى على المنازل والمزارع.

الجراد، الحشرة الطائرة من فصيلة الصرصر والخنافس له أجنحة ستة ذات ألوان صفر وحمر تنتشر عند طيرانه، يكون جنودا كثيرة يسمى الجند منها رِجْلا. وهو مهلك للزرع والشجر، يأكل الورق والسنبل وورق الشجر وقشره، فهو من أسباب القحط. أصاب أرض قوم فرعون ولم يصب أرض بني إسرائيل.

القُمّل، (بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة) اسم نوع من القراد عظيم يسمى (الحُمّنان بضم الحاء المهملة وميم ساكنة ونونين) واحدته حُمنانة وهو يمتص دم الإنسان، وهو غير **القَمْل** (بفتح القاف وسكون الميم) الذي هو من الحشرات الدقيقة التي تكون في شعر الرأس وفي جلد الجسد يتكون من تعفّن الجلد لوسخه

ودسومته، ومن تعفّن جلد الرأس كثيرا، أصاب القبط عسر الاحتراز عنه، ولعلّه أصاب مواشيهم.

الضفادع، جمع ضفدع وهو حيوان يمشي على أرجل أربع ويسحب بطنه على الأرض ويسبح في المياه، ويكون في الغدران ومناقع المياه، صوته مثل القراقر يسمى نقيقا. كان يقع في طعامهم يرتمي إلى القدور، ويقع في في العيون والأسقية وفي البيوت فيفسد ما يقع فيه وتطؤه أرجل النّاس فتتقذّر به البيوت، وقد سلمت منه بلاد جاسان منزل بني إسرائيل.

الدم، قيل: أصابهم رعاف متفشّ فيهم، وقيل: صارت مياه القبط كالدم في اللون، كما في التوراة، ولعلّ ذلك من حدوث دود أحمر في الماء فشبّه الماء بالدم، وسلمت مياه جاسان قرية بني إسرائيل.

وسمى الله هاته { **آيَاتٍ** } لأنّها دلائل على صدق موسى لاقترانها بالتحدي، ولأنّها دلائل على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمّموا الكفر والعناد.

{ **مُفَصَّلاتٍ** } اسم مفعول من فصّل المضاعف الدال على قوّة الفصل. والفصل حقيقته التفرقة بين شيئين بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر، ويستعار الفصل لإزالة اللبس والاختلاط، أي هي آيات لا شبهة في كونها كذلك لمن نظر نظر اعتبار.

وقيل: المراد أنّها مفصول بعضها عن بعض في الزمان، أي لم تحدث كلّها في وقت واحد، وعلى هذا فصيغة التفعيل للدلالة على تراخي المدة بين الواحدة والأخرى. ويجيء على هذا أنّ العذاب كان أشدّ وأطول زمنا كما دل عليه قوله تعالى { وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}[الزخرف: 48]، قيل: كان بين الآية منها والأخرى مدة شهر أو مدة ثمانية أيام، وكانت تدوم الواحدة منها مدة ثمانية أيام وأكثر، وعلى هذا الوجه فالأنسب أن يجعل {مُفَصَّلاتٍ} حالا ثانية من الطوفان والجراد، وأن لا يجعل صفة { آيَاتٍ }.

{ **فَاسْتَكْبَرُوا** } الفاء للتفريع والترتّب، أي: فتفرّع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم، كما تفرّع على أخذهم بالسنين غرورهم بأنّ ذلك من شؤم موسى ومن معه، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان.

الاستكبار، شدّة التكبّر كما دلت عليه السين والتاء، أي تعاظمهم عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذ أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات المفصّلات.

{ **وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ** } معطوفة على جملة {فَاسْتَكْبَرُوا} ، فالمعنى، فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا، وإنّما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكّنه منهم.

الإجرام، فعل الجرم وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [40].

{ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ [134] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ } [135]

الرجز، العذاب فالتعريف باللام هنا للعهد أي العذاب المذكور وهو ما في قوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ}، والرجز من أسماء الطاعون، وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة:59]. أي أصابهم طاعون ألجأهم إلى التضرّع بموسى عليه السلام، فطوي ذكره للإيجاز. وإنّما لم يذكر الرجز في عداد الآيات تخصيصا له بالذكر، لأنّ له نبأ عجيبا، فإنّه كان ملجئهم إلى الاعتراف بآيات موسى ووجود ربه تعالى.

وهذا الطاعون هو الموتان الذي حكي في الإصحاح الحادي عشر من سفر الخروج: " هكذا يقول الربّ إنّي أخرج نحو نصف الليل في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكلّ بكر بهيمة ". قيل مات سبعون ألف رجل في ذلك اليوم من القبط خاصة، ولم يصب بني إسرائيل منه شيء.

{ **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** } وليس هذه قولهم عن إيمان بالله ورسالة موسى، ولكنّهم كانوا مشركين وكانوا يجوّزون تعدّد الآلهة واختصاص بعض الأمم وبعض الأقطار بآلهة لهم، فهم قد خامرهم من كثرة ما رأوا من آيات موسى أن يكون لموسى ربّ له تصرف وقدرة، وأنّه أصابهم بالمصائب لأنّهم أضرّوا عبيده، فسألوا موسى أن يكفّ عنهم ربّه ويكون جزاؤه الإذن لبني إسرائيل بالخروج من مصر ليعبدوا ربّهم، كما حكت التوراة في الإصحاح الثاني عشر عن فرعون.

فقد التبس حال موسى على فرعون فلم يدر أهو رسول من إله غير آلهة القبط، فلذلك قال له بما عهد عندك، أي بما عرّفك وأودع عندك من الأسرار، وهذه عبارة متحيّر في الأمر ملتبسة عليه الأدلة.

{ **لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ طلبهم من موسى الدعاء بكشف الرجز عنهم مع سابقية كفرهم به يثير سؤال موسى أن يقول: فما الجزاء على ذلك. واللام موطئة للقسم، و{لَنُؤْمِنَنَّ} جواب القسم.

{ **لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ** } ووعدهم بالإيمان لموسى، وعد بالإيمان بأنّه صادق في أنّه مرسل من ربّ بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر، وليس وعدا باتباع الدين الذي جاء به موسى عليه السلام، وقد جاء هذا الوعد على حسب ظنّهم أنّ الربّ الذي يدعو إليه موسى هو ربّ خاص به وبقومه، كما دلّ عليه قوله {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ} وقد وضّحوا مرادهم بقولهم {وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ }.

{ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ** } دالة على أنّ موسى دعا الله برفع الطاعون فارتفع، وقد جاء ذلك صريحا في التوراة، وحذف هنا للإيجاز.

{ **إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ** } وهو الأجل الذي قدّره الله لهلاكهم، فالغاية منظور فيها إلى فعل الكشف لا إلى مفعوله، وهو الرجز.

{ **إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** } جواب (لمّا). وهذا وصف لهم بإضمار الكفر بموسى وإضمار النكث لليمين.

النكث، حقيقته نقض المفتول من حبل أو غزل، قال تعالى {وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً} [النحل: 92] واستعير النكث لعدم الوفاء بالعهد، كما استعير الحبل للعهد في قوله تعالى {إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: 112]، ففي قوله {يَنْكُثُونَ} استعارة تبعيّة.

وهذا النكث هو أن فرعون بعد أن أذن لبني إسرائيل بالخروج، وخرجوا من أرض جاسان ليلا قال لفرعون بعض خاصته: ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا فندم فرعون وجهز جيشا للالتحاق ببني إسرائيل ليردّوهم إلى منازلهم، كما هو في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج.

{ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ }[136]

هذا محلّ العبرة من القصّة، فهو مفرع عليها تفريع النتيجة على المقدّمات والفذلكة على القصّة، فإنّه بعد أن وصف عناد فرعون وملئه وتكذيبهم رسالة موسى واقتراحهم على موسى أن يجيء بآية ومشاهدتهم آية انقلاب العصا ثعبانا، وتغيير لون يده، ورميهم موسى بالسحر، وسوء المقصد، ومعارضة السحرة معجزة موسى وتغلّب موسى عليهم، وكيف أخذ الله آل فرعون بمصائب جعلها آيات على صدق موسى، وكيف كابروا وعاندوا، حتى ألجئوا إلى أن وعدوا موسى بالإيمان وتسريح بني إسرائيل معه وعاهدوه على ذلك، فلما كشف عنهم الرجز نكثوا، فأخبر الله بأن ذلك ترتّب عليه استئصال المستكبرين المعاندين، وتحرير المؤمنين الذين كانوا مستضعفين.

الانتقام، افتعال، وهو العقوبة الشديدة الشبيهة بالنَقْم. وتقدّم الكلام على المجرّد من هذا الفعل عند قوله تعالى {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا} [126].

وكان إغراقهم انتقاما من الله لذاته لأنّهم جحدوا انفراد الله بالإلهيّة، أو جحدوا إلهيّته أصلا، وانتقاما أيضا لبني إسرائيل لأنّ فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلّوهم واستعبدوهم باطلا.

الإغراق، الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر الملقى فلا يترك له تنفّسا، وهو بيان للانتقام وتفصيل لمجمله.

اليم، البحر والنهر العظيم، قيل هو كلمة عربية، وقال بعض اللغويين: هو معرب عن السريانية وأصله فيها

يما وقال شَيْذَلَةُ: هو من القبطية، وقال ابن الجوزي: هو من العبرية، ولعله موجود في هذه اللغات. والمراد به هنا بحر القلزم، المسمّى في التوراة بحر سُوف، وهو البحر الأحمر.

وقد أطلق اليمّ على نهر النيل في قوله تعالى {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ} [طه: 39] وقوله {فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ} [القصص: 7].

وقد أُغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدهم عن الخروج من أرض مصر وتقدّمت الإشارة إلى ذلك في سورة البقرة وسيأتي تفصيله عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ} [يونس:90].

{ **بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** }الباء للسببية، أي أغرقناهم جزاء على تكذيبهم بالآيات.

الغفلة، ذهول الذهن عن تذكّر شيء، وتقدّمت في قوله تعالى {وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [الأنعام:156] وأريد بها التغافل عن عمد، وهو الإعراض عن التفكّر في الآيات، وإباية النظر في دلالتها على صدق موسى، فإطلاق الغفلة على هذا مجاز.

وهذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التفكّر في صدق الرسول ﷺ، ودلالة معجزة القرآن.

وقد صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على أنّ هذا الاعراض ثابت لهم، وراسخ فيهم، وأنه هو علة التكذيب، المصوغ خبره بصيغة الجملة الفعلية لإفادة تجدّده عند تجدد الآيات.

{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } [137]

{ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** }

عطف على {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}، والمعنى، فأخذناهم بالعقاب الذي استحقّوه، وجازينا بني إسرائيل بنعمة عظيمة.

{ **أَوْرَثْنَا** } تقدم عند قوله تعالى {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا} [الأعراف: 100]، والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدّسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم.

الذين كانوا يستضعفون، هم بنو إسرائيل كما وقع في قوله {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء:59].

وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين:

الأولى: الإيماء إلى علّة الخبر، أي أنّ الله ملّكهم الأرض وجعلهم أمّة حاكمة جزاء لهم على ما صبروا على الاستعباد، غيرة من الله على عبيده.

الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد ﷺ بأنّهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، جزاء

على صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم.

يستضعفون، يستعبدون ويهانون.

المشارق والمغارب، المراد بهما إحاطة الأمكنة.

{ **الْأَرْضَ** } أرض الشام، وهي الأرض المقدّسة وهي تبتديء من السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر وتنتهي إلى سواحل بحر الروم (البحر المتوسط) وإلى حدود العراق وحدود بلاد العرب وحدود بلاد الترك.

{ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** } صفة للأرض أو لمشارقها ومغاربها، لأنّ ما صدقيهما متحدان، أي قدرنا لها البركة. وقد مضى الكلام على البركة عند قوله تعالى {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ} [96].

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** } التنويه بفضيلة الصبر وحسن عاقبته.

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى** } هي القول، وهو هنا يحتمل أن يكون المراد به اللفظ الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ} [129]، أو على لسان إبراهيم، وهي وعد تمليكهم الأرض المقدسة. وتمام الكلمة تحقّق وعدها، شبّه تحققها بالشيء إذا استوفى أجزاءه.

ويحتمل أنّها كلمة الله في علمه وقدره، وهي إرادة الله إطلاقهم من استعباد القبط وإرادته تمليكهم الأرض المقدسة كقوله {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} [النساء: 171]، وتمام الكلمة بهذا المعنى ظهور تعلقها التنجيزي في الخارج على نحو قول موسى {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة: 21]، وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً} [الأنعام:115].

{ **الْحُسْنَى** } صفة تشريف، كما يقال الأسماء الحسنى، أي كلمة ربك المنزّهة عن الخلف. ويحتمل أن يكون المراد حسنها لبني إسرائيل، وإن كانت سيّئة على فرعون وقومه.

والخطاب في قوله { **رَبِّكَ** } للنبي ﷺ، أدمج في ذكر القصة إشارة إلى أنّ الذي حقّق نصر موسى وأمّته على عدوّهم هو ربك، فسينصرك وأمّتك على عدوّكم لأنّه ذلك الرب الذي نصر المؤمنين السابقين، وتلك سنته وصنعه، وليس في الخطاب التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف المراد من الضمائر.

{ **عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا** } الإشارة إلى تضمين {تَمَّتْ} معنى الإنعام، أو معنى حقّت.

{ **بِمَا صَبَرُوا** } الباء للسببية، أي بصبرهم على الأذى في ذات الإله.

{ **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** }

التدمير، التخريب الشديد وهو مصدر دمّر الشيء إذا جعله دامرا.

{ **مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ** } ما شاده من المصانع، وإسناد الصنع إليه مجاز عقلي لأنّه الآمر بالصنع، وأمّا إسناده إلى قوم فرعون فهو على الحقيقة العقلية بالنسبة إلى القوم لا بالنسبة إلى كل فرد على وجه التغليب.

{ **وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** } ينشئون من الجنات ذات العرايش.

العريش، ما يرفع من دوالي الكروم، ويطلق أيضا على النخلات العديدة تربى في أصل واحد، ولعل جنّات القبط كانت كذلك، كما تشهد به بعض الصور المرسومة على هياكلهم نقشا ودهنا، وتقدّم في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام:141].

وذلك أن الله خرّب ديار فرعون وقومه المذكورين، ودمر جناتهم بما ظلموا بالاهمال، أو بالزلزال، أو على أيدي جيوش أعدائهم الذين ملكوا مصر بعدهم.

ويجوز أن يكون {يَعْرِشُونَ} بمعنى يرفعون، أي يشيّدون من البناء مثل مباني الاهرام والهياكل وهو المناسب لفعل {وَدَمَّرْنَا}.

{ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [138] إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [139] قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** } [140]

لمّا تمت العبرة بقصة بعث موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، وكيف نصره الله على عدوّه، ونصر قومه وأهلك عدوّهم، كشأن سنّة الله في نصر الحقّ على الباطل، استرسل الكلام إلى وصف تكوين أمّة بني إسرائيل وما يحقّ أن يعتبر به من الأحوال العارضة لهم في خلال ذلك مما فيه طمأنينة نفوس المؤمنين الصالحين في صالح أعمالهم، وتحذيرهم مما يرمي بهم إلى غضب الله فيما يحقّرون من المخالفات، لما في ذلك كله من التشابه في تدبير الله تعالى أمور عبيده، وسنّته في تأييد رسله وأتباعهم، وإيقاظ نفوس الأمّة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم في شكر النعمة ودحض الكفران.

المجاوزة، البعد عن المكان عقب المرور فيه، يقال: جاوز بمعنى جاز.

البحر، هو بحر القلزم المعروف اليوم بالبحر الأحمر، وهو المراد باليمّ في الآية السابقة، واختلاف اللفظ تفنن، تجنبا للإعادة. والمعنى، أنهم قطعوا البحر وخرجوا على شاطئه الشرقي.

{ **أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ** } معناه أتوا قوما، ولمّا ضمّن معنى مروا عدي بـ (على)، لأنّهم لم يقصدوا الإقامة في القوم، ولكنّهم ألفوهم في طريقهم.

القوم، هم الكنعانيّون ويقال لهم عند العرب العمالقة، ويعرفون عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين.

الأصنام، كانت صور البقر، وقد كان البقر يعبد عند الكنعانيين(الفنيقيين) باسم **(بعل)**. وتقدّم بيان ذلك عند

قوله تعالى {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ} [البقرة:51]

العكوف، الملازمة بنيّة العبادة. و تقدّم عند قوله تعالى {وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [البقرة:187].

واختير طريق التنكير في أصنام ووصفه بأنّها لهم، للتحقير، لأنّ التنكير يستلزم خفاء المعرفة.

وقال ابن عرفة التونسي بأنّه زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنّهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلاههم.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** } ونداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه، إظهارا لرغبتهم فيما سيطلبون، وسمّوا الصنم إلها لجهلهم، فهم يحسبون أنّ اتخاذ الصنم يجدي صاحبه، كما لو كان آلهه معه، وهذا يدل على أنّ بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفيّة إبراهيم ويعقوب، لأنّهم لمّا كانوا في حال ذلّ واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم فلم تبق لهم ميزة تميّزهم إلّا أنهم خدمة وعبيد.

{ **كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** } التشبيه أرادوا به حضّ موسى على إجابة سؤالهم، وابتهاجا بما رأوا من حال القوم الذين حلوا بين ظهرانيهم. وكفى بالأمّة خسّة عقول أن تعد القبيح حسنا، وأن تتخذ المظاهر المزيّنة قدوة لها، وأن تنخلع عن كمالها في اتباع نقائص غيرها.

{ **قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** } كان جواب موسى عليه السلام بعنف وغلظة لانّ ذلك هو المناسب لحالهم.

الجهل، انتفاء العلم، أو تصوّر الشيء على خلاف حقيقته. وتقدّم في قوله تعالى {لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} [النساء:17]. والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام.

{ **إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ** }

المتبّر، المدمّر، والتَّبار (بفتح التاء) الهلاك {وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً} [نوح: 28]. يقال **تَبَرَ** الشيء كضرب وقتل، و**تبّره** تضعيف للتعدية، أي أهلكه. والتتبير مستعار هنا لفساد الحال.

ويجوز أن يكون التتبير مستعار لسوء العاقبة.

{ **مَا هُمْ فِيهِ** } عبادة الأصنام وما تقتضيه من الضلالات والسيئات، ولذلك اختير في تعريفها طريق الموصولية، لأنّ الصلة تحيط بأحوالهم التي لا يحيط بها المتكلّم ولا المخاطبون.

{ **قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً** } يعاد لفظ { قَالَ} في حكاية الأقوال إذا طال المقول، أو لأنّه انتقال من غرض التوبيخ على سؤالهم إلى غرض التذكير بنعمة الله عليهم، وأنّ شكر النعمة يقتضي زجرهم عن محاولة عبادة غير المنعم.

والاستفهام للإنكار والتعجّب من طلبهم أن يجعل لهم إلها غير الله.
{ أَبْغِيكُمْ } همزة المتكلّم للفعل المضارع، وهو مضارع بغَى بمعنى طلب، ومصدره البُغاء (بضم الباء).
وفعله يتعدى إلى مفعول واحد، ومفعوله هو {أَغَيْرَ اللَّهِ} لأنّه هو الذي ينكر موسى أن يكون يبغيه لقومه.
{ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } في موضع الحال. وظاهر صوغ الكلام على هذا الاسلوب أنّ تفضيلهم على العالمين كان معلوما عندهم لأنّ ذلك هو المناسب للانكار، ويحتمل أنّه أراد إعلامهم بذلك وأنّه أمر محقّق.
على العالمين، أمم عصرهم. وتفضيلهم عليهم بأنّهم ذريّة رسول وأنبياء، وبأنّ منهم رسلا وأنبياء، وبأنّ الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبّطوا فيه، وبأنّه جعلهم أحرارا بعد أن كانوا عبيدا، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيّدهم بنصره وآياته، وبعث فيهم رسولا ليقيم لهم الشريعة. وهذه الفضائل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذ.

{ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }[141]

من تتمّة كلام موسى عليه السلام كما يقتضيه السياق، ويعضده قراءة ابن عامر {وَإِذْ أَنْجَاكُمْ}.
ويجوز أن يكون هذا امتنانا من الله، انتقالا من الخبر والعبرة إلى النعمة والمنة.
واختار الطبري وجماعة أن يكون قوله {وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ} خطابا لليهود الموجودين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يستقيم لأنّ سورة الأعراف مكيّة ولم يكن في المكّي من القرءان هو مجادلة مع اليهود.
{ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } إلى آخر الآية تقدّم تفسير مشابهتها في سورة البقرة.

{ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ }[142]

{ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً }
عود إلى بقية حوادث بني إسرائيل، بعد مجاوزتهم البحر.
المواعدة، تقدّم الكلام على معناها في نظير هذه الآية في سورة البقرة، وقرأ أبو عمرو(ووعدنا).
والموعود به هو الحضور لتلقي الشريعة.
وقد جعل الله مدّة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقا ورغبة في مناجاة

الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال، لم تصح.

ولم يزده على أربعين ليلة، إمّا لأنّه قد بلغ أقصى ما تحتمله قوته البشريّة، فباعده الله من أن تعرض له السآمة في عبادة ربه، وقد قال النبي ﷺ: " عليكم من الأعمال بما تطيقون فان الله لا يملّ حتّى تملّوا" .

وإمّا لأنّ زيادة مغيبه عن قومه تفضي إلى إضرار، فقد قيل إنّهم عبدوا العجل في العشر الليالي الأخيرة من الأربعين ليلة،.

{ **وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ** } سمّيت زيادة الليالي العشر إتماما إشارة إلى أنّ الله تعالى أراد أن تكون مناجاة موسى أربعين ليلة، ولكنّه لمّا أمره بها أمره بها مفرّقة، إمّا لحكمة الاستيناس، وإمّا لتكون تلك العشر عبادة أخرى فيتكرّر الثواب.

والمراد الليالي بأيامها فاقتصر على الليالي لأن المواعدة كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة.

على أنّ الغالب في الكلام العربي التوقيت بالليالي، ويريدون أنّها بأيّامها، لأنّ الأشهر العربية تبتدأ بالليالي إذ هي منوطة بظهور الأهلّة.

{ **فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** } فذلكة الحساب كما في قوله {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: 196]، فالفاء للتفريع.

التمام، مستعمل في معنى النماء والتفوّق، فكان ميقاتا أكمل وأفضل، إشارة إلى أنّ زيادة العشر كانت لحكمة عظيمة تكون مدة الثلاثين بدونها غير بالغة أقصى الكمال، وأنّ الله قدّر المناجاة أربعين ليلة، ولكنّه أبرز الأمر لموسى مفرّقا تيسيرا عليه، وليكون إقباله على إتمام الأربعين باشتياق وقوة.

الميقات، قيل مرادف للوقت، وقيل هو وقت قدّر فيه عمل ما، وتقدم في قوله تعالى {قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة:189]

{ **رَبِّهِ** } للتشريف، وللتعريض بتحميق بعض قومه حين تأخّر مغيب موسى عنهم في المناجاة بعد الثلاثين، فزعموا أنّ موسى هلك في الجبل كما رواه ابن جريج، ويشهد لبعضه كلام التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج.

{ **وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** }

عند العزم على الصعود إلى الجبل للمناجاة فإنه صعد وحده ومعه غلامه يوشع بن نون.

{ **اخْلُفْنِي** } كن خلفا عني وخليفة، وهو الذي يتولى عمل غيره عند فقده فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلف، فالخلافة وكالة.

{ **وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** } جمع له في وصيّته ملاك السياسة، فانّ سياسة الأمّة تدور حول محور

الاصلاح ، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة، وفيه تحذير من الفساد بأبلغ صيغة. وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى، أو أعلمه، ما يقتضي أن في رعيّة هارون مفسدين، وانه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسايرهم عليه، لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته.

الإتباع، هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد. ففي هذا النهي سد ذريعة الفساد، وسد ذرائع الفساد من أصول الاسلام، وقد عني بها مالك بن أنس وكرّرها في كتابه واشتهرت هذه القاعدة في أصول مذهبه.

{ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [143] قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [144]

جعل مجيء موسى للميقات وتكليم الله إيّاه شرطا لحرف { **لَمَّا** } لأنّه كالمعلوم، وجعل الإخبار متعلقا بما بعد ذلك، وهو اعتبار بعظمة الله وجلاله.

المجيء، انتقاله من بين قومه إلى جبل سينا المعيّن فيه مكان المناجاة.

{ **وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** } التكليم حقيقته النطق بالألفاظ المفيدة معاني بحسب وضع مصطلح عليه، وهذه الحقيقة مستحيلة على الله تعالى لانّها من أعراض الحوادث، فتعيّن أن يكون إسناد التكليم إلى الله مجازا مستعملا في الدلالة على مراد الله تعالى بألفاظ من لغة المخاطب به، بكيفية يوقن المخاطب به أنّ ذلك الكلام من أثر قدرة الله على وفق الإرادة ووفق العلم. وهو تعلّق تنجيزي بطريق غير معتاد، فيجوز أن يخلق الله الكلام في شيء حادث سمعه موسى كما روي أن الله خلق الكلام في الشجرة التي كان موسى حذوها، وذلك أوّل كلام كلّمه الله موسى في أرض مدين في جبل حوريب، ويجوز أن يخلق الله الكلام من خلال السحاب وذلك الكلام الواقع في طور سينا وهو المراد هنا، وهو المذكور في الإصحاح 19 من سفر الخروج.

والكلام بهذه الكيفية كان يسمعه موسى حين يكون بعيدا عن النّاس في المناجاة أو نحوها، وهو أحد الأحوال الثلاثة التي يكلم الله بها أنبياءه كما في قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً} [الشورى :51].

وهو حادث لا محالة ونسبته إلى الله أنّه صادر بكيفيّة غير معتادة لا تكون إلّا بإرادة الله أن يخالف به المعتاد تشريفا له، وهو المعبّر عنه بقوله {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشورى: 51].

وقد كلم الله تعالى محمدا ﷺ ليلة الإسراء، وأحسب الأحاديث القدسيّة كلّها أو معظمها مما كلّم الله به محمدا ﷺ.

وأمّا إرسال الله جبريل بكلام إلى أحد أنبيائه فهي كيفيّة أخرى، وذلك بإلقاء الكلام في نفس الملك الذي يبلّغه إلى النبي، والقرآن كلّه من هذا النوع، وقد كان الوحي إلى موسى بواسطة الملك في أحوال كثيرة وهو الذي

يعبّر عنه في التوراة بقولها: قال الله لموسى.

{ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ } سؤال موسى رؤية الله تعالى تطلّع إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهي، لأنّه لمّا كانت المواعدة تتضمن الملاقاة، وكانت الملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث، وحصل لموسى أحد ركني الملاقاة وهو التكليم، أطمعه ذلك في الركن الثاني وهو المشاهدة، ومما يؤذن بأنّ التكليم هو الذي أطمع موسى في حصول الرؤية جعل جملة {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} شرطا لحرف (لمّا)، لأنها تدلّ على شدة الارتباط بين شرطها وجوابها.

{ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي }

{ لَنْ } نفت رؤية موسى ربّه نفيا لا طمع بعده للسائل في الإلحاح والمراجعة، بحيث يعلم أنّ طلبته متعذّرة الحصول، وإنّما يتعلّق ذلك كلّه بهذه الحياة المعبّر عنها بالأبد، فلا دلالة في هذا النفي على استمراره في الدار الآخرة.

{ لَكِنِ } الاستدراك لرفع توهّم المخاطب الاقتصار على نفي الرؤية بدون تعليل ولا إقناع، أو أن يتوهّم أنّ هذا المنع لغضب على السائل ومنقصة فيه. وذلك أنّه أمره بالنظر إلى الجبل الذي هو فيه، هل يثبت في مكانه، وهذا يعلم منه أنّ الجبل سيتوجه إليه شيء من شأن الجلال الإلهي، وأنّ قوة الجبل لا تستقر عند ذلك التوجه العظيم، فيعلم موسى أنّه أحرى بتضاؤل قواه الفانية لو تجلى له شيء من سبحات الله تعالى.

{ فَسَوْفَ تَرَانِي } ليس بوعد بالرؤية، ولكنّه إيذان بأنّ المقصود من نظره إلى الجبل أن يرى رأي اليقين عجز القوّة البشريّة عن رؤية الله تعالى.

{ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً }

التجلّي، حقيقة الظهور وإزالة الحجاب، وهو هنا مجازا، ولعلّه أريد به إزالة الحوائل المعتادة التي جعلها الله حجابا بين الموجودات الأرضية وبين قوى الجبروت التي استأثر الله تعالى بتصريفها على مقادير مضبوطة ومتدرّجة في عوالم مترتّبة ترتيبا يعلمه الله.

الدكّ، مصدر وهو والدقّ مترادفان وهو الهدّ، وتفرّق الأجزاء كقوله {وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً} [مريم: 90]، وقد أخبر عن الجبل بأنّه جعل دكا للمبالغة، والمراد أنه مدكوك أي: مدقوق مهدوم.

وقرأ الكسائي، وحمزة، وخلف { **دكّاء** } (بمد بعد الكاف وتشديد الكاف) والدكّاء الناقة التي لا سنام لها، فهو تشبيه بليغ، أي كالدكاء أي ذهبت قُنته.

{ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }

الخرور، السقوط على الأرض.

الصعق، وصف بمعنى المصعوق، ومعناه المغشي عليه من صيحة ونحوها، مشتق من اسم الصاعقة وهي

القطعة النارية التي تبلغ إلى الأرض من كهرباء البرق، فإذا أصابت جسما أحرقته، وإذا أصابت الحيوان من قريب أماتته، أو من بعيد غشي عليه من رائحتها.

الإفاقة، رجوع الإدراك بعد زواله بغشي، أو نوم، أو سكر، أو تخبّط جنون.

{ **قَالَ سُبْحَانَكَ** } مصدر جاء عوضا عن فعله، أي اسبّحك، وهو هنا إنشاء ثناء على الله وتنزيه عما لا يليق به، لمناسبة سؤاله منه ما تبيّن له أنّه لا يليق به .

{ **تُبْتُ إِلَيْكَ** } إنشاء لتوبة من العود إلى مثل ذلك دون إذن من الله، وهذا كقول نوح عليه السلام {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} [هود:47]

{ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** } إطلاق الأوّل على المبادر مجاز شائع مساو للحقيقة، والمراد به هنا وفي نظائره الكناية عن قوة إيمانه، فهو للمبالغة وتقدّم نظيره في قوله تعالى {وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} [البقرة:41].

{ **قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** }

فصلت لوقوع القول في طريق المحاورة والمجاوبة، والنداء للتأنيس وإزالة الروع.

{ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ** } تأكيد الخبر للاهتمام به إذ ليس محلا للانكار.

الاصطفاء، افتعال مبالغة في الاصفاء وهو مشتق من الصّفْو، وهو الخلوص ممّا يكدّر، وتقدّم عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً} [آل عمران:33]. وضمن اصطفيتك معنى الإيثار والتفضيل فعدي بعلى.

{ **عَلَى النَّاسِ** } جميع النّاس، أي الموجودين في زمنه، فالاستغراق عرفي، أي هو مفضّل على النّاس يومئذ لأنه رسول، ولتفضيله بمزيّة الكلام.

{ **فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** }

الإيتاء، مجاز أطلق على التعليم والإرشاد، و**الأخذ** مجاز في التلقي والحفظ، والأظهر ان يكون { **مَا آتَيْتُكَ** } إعطاء الألواح بقرينة قوله {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ} [الأعراف: 145] وقد فسّر بذلك. فالإيتاء حقيقة، والأخذ كذلك، وهذا أليق بنظم الكلام.

{ **وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } أبلغ من أن يقال كن شاكرا.

{ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } [145]

الألواح، جمع لَوح (بفتح اللام) وهو قطعة مربعة من الخشب، وكانوا يكتبون على الألواح، أو لأنّها ألواح معهودة للمسلمين الذين سيقت إليهم تفاصيل القصّة.

وتسمية الألواح التي أعطاها الله موسى ألواحا مجاز بالصورة، لأنّ الألواح التي أعطيها موسى كانت من حجارة، كما في التوراة في الإصحاح [24] من سفر الخروج. فتسميتها الألواح لأنّها على صورة الألواح.
وأسندت الكتابة إلى الله تعالى لأنّها كانت مكتوبة نقشا في الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى، كما يفهم من الإصحاح [32].
{ **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } (من) تبعيضيّة متعلّقة بـ {كَتَبْنَا}، ومفعول {كَتَبْنَا} محذوف دلّ عليه فعل كتبنا اي مكتوبا، ويجوز جعل (من) اسما بمعنى بعض، فيكون منصوبا على المفعول به بكتبنا، اي كتبنا له بعضا من كلّ شيء، وهذا كقوله تعالى { وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ }[النمل:16]
وكلّ شيء عام عموما عرفيّا، أي كلّ شيء تحتاج إليه الأمّة في دينها على طريقة قوله تعالى {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38].
والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليّات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام وهي ما في الإصحاح [20] من سفر الخروج ونصّها:
" أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من ارض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك، آلهة أخرى أمامي، لا تصنع تمثالا منحوتا، ولا صورة ما ممّا في السماء، من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنّي أنا الربّ إلهك غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي واضع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلا لانّ الربّ لا يبرئ من نطق باسمه باطلا. اذكر يوم السبت لتقدّسه، ستّة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأمّا اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأختك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأنّ في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسه، أكرم أباك وأمّك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك ".
واشتهرت عند بني إسرائيل بالوصايا العشر، وبالكلمات العشر، اي الجمل العشر.
الموعظة، اسم مصدر الوعظ، وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر في العاقبة أو بتحريض على جلب نفع، مغفول عنه، وتقدّم عند قوله تعالى {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ} [البقرة:275]
التفصيل، التبيين للمجملات، ولعلّ الموعظة هي الكلمات العشر والتفصيل ما ذكر بعدها من الأحكام في الإصحاحات التي ذكرناها.
{ **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ** } بدل من قوله {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ}، بدل اشتمال، لأنّ الأخذ بقوّة يشتمل عليه الأخذ المطلق، وقد

اقتضاه العود إلى ما خاطب الله به موسى اثر صعقته إتماما لذلك الخطاب، فأعيد مضمون ما سبق ليتصل ببقيته، فيكون بمنزله أن يقول فخذ ما آتيتك بقوة وكن من الشاكرين، ويكون ما بينهما بمنزلة اعتراض.

القوّة هنا، تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الالواح، بمنتهى الجدّ والحرص دون تأخير ولا تساهل ولا انقطاع عند المشقة ولا ملل، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عمل يريده. ومنه قوله تعالى {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم:12]

{ **وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** } تعريج على ما هو حظّ عموم الأمّة من الشريعة، وهو التمسّك بها. فهذا الأخذ مجاز في التمسّك والعمل، ولذلك عدي بالباء الدالة على اللصوق، يقال: أخذ بكذا إذا تمسّك به.

{ **بِأَحْسَنِهَا** } وصف مسلوب المفاضلة مقصود به المبالغة في الحسن، فإضافتها إلى ضمير الألواح على معنى اللام، أي بالأحسن الذي هو لها وهو جميع ما فيها، لظهور أنّ ما فيها من الشرائع ليس بينه تفاضل بين أحسن ودون الأحسن، بل كلّه مرتبة واحدة فيما عين له، ولظهور أنّهم لا يؤمنون بالأخذ ببعض الشريعة وترك بعضها، فقرائن سلب صيغة التفضيل عن المفاضلة قائمة واضحة، فلا وجه للتردد في تفسير الأحسن في هذه الآية. وهذه نظير قوله تعالى {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [الزمر: 55].

والمعنى: وأمر قومك يأخذوا بما فيها لحسنها.

{ **سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** } كلام موجّه إلى موسى عليه السلام، فيجوز ان يكون منفصلا عن الكلام الذي قبله فيكون استئنافا ابتدائيا. وهو وعد له بدخولهم الأرض الموعودة.

ويجوز أن تكون الجملة متصلة بما قبلها فتكون من تمام جملة {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} على أنّها تحذير من التفريط في شيء مما كتب له في الألواح، والمعنى سأبين لكم عقاب الذين لا يأخذون بها.

الدار، المكان الذي تسكنه العائلة، والمكان الذي يحلّه الجماعة من حي أو قبيلة كما قال تعالى {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: 91] وقد تقدم. وتطلق الدار على ما يكون عليه النّاس أو المرء من حالة مستمرة ومنه قول تعالى {فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 24].وقد يراد بها مآل المرء ومصيره، لأنّه بمنزلة الدار يأوي إليه في شأنه، وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} [الأنعام:135].

الإراءة، من رأى البصريّة لأنها عدّيت إلى مفعولين فقط.

وأوثر فعل {أُرِيكُمْ} دون (سأدخلكم) ، لأنّ الله منع معظم القوم الذين كانوا مع موسى من دخول الأرض المقدّسة لمّا امتنعوا من قتال الكنعانيين كما تقدم في قوله تعالى {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} [المائدة:26].

وفي الإصحاح [34]: " وصعد موسى إلى الجبل (نبو) فأراه الله جميع الأرض وقال له هذه الأرض التي أقسمت لإبراهيم قائلا لنسلك أعطيهما قد أريتك إياها بعينيك ولكنك لا تعبر".

ويجوز أن يكون فعل أريكم كناية عن الحلول في دار الفاسقين، والحلول في ديار قوم لا يكون إلا بالفتح والغلبة، فالإراءة رمز إلى الوعد بفتح بلاد الفاسقين، والمراد بالفاسقين المشركون.

{ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ }[146]

يجوز أن تكون هذه الآية تكملة لما خاطب الله به موسى وقومه، فتكون استئنافا بيانيّا، لأنّ بني إسرائيل كانوا يهابون أولئك الأقوام، وقد حكي ذلك في الإصحاح [14] من سفر العدد، فأجيبوا بأنّ الله سيصرف أولئك عن آياته.

الصرف، الدفع أي سأصدّ عن آياتي، أي عن تعطيلها وإبطالها. و**الآيات**، الشريعة.

ووعد الله أهلها بان يورثهم ارض الشام، فالصرف، على هذا الوجه، عناية من الله بموسى وقومه بما يهيّء لهم من أسباب النصر على أولئك الأقوام الأقوياء، كإلقاء الرعب في قلوبهم، وتشتيت كلمتهم، وإيجاد الحوادث التي تفتّ في ساعد عدتهم.

التكبّر، الاتصاف بالكبر. وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلّف، وقد بيّنّا ذلك عند قوله تعالى {أَبَى وَاسْتَكْبَرَ}[البقرة: 34].

{ **فِي الْأَرْضِ** } لتفضيح تكبّرهم، والتشهير بهم، أي ليس هو خفيّا مقتصرا على انفسهم، بل هو مبثوث في الأرض، أي مبثوث اثره. فهو تكبّر شائع في بقاع الأرض كقوله تعالى { يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [يونس: 23]

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } زيادة لتشنيع التكبّر بذكر ما هو صفة لازمة له، وهو مغايرة الحقّ، أي باطل، وهي حال لازمة للتكبّر، كاشفة لوصفه، إذ التكبّر لا يكون بحقّ في جانب الخلق، وإنّما هو وصف لله بحق لأنّه العظيم على كل موجود، وليس تكبر الله بمقصود أن يحترز عنه هنا حتّى يُجعل القيد {بِغَيْرِ الْحَقِّ} للاحتراز عنه، كما في الكشاف.

{ **وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا** } عطف على قوله {يَتَكَبَّرُونَ} فهو في حكم الصلة، والقول فيه كالقول في قوله {لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس:96، 97].

{ **كلّ**} مستعملة في معنى الكثرة، كما في قوله تعالى {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ} [البقرة:145]

{ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً }

السبيل، مستعار لوسيلة الشيء، بقرينة إضافته إلى الرشد وإلى الغيّ. و**الرؤية،** مستعارة للإدراك.
الاتخاذ، حقيقته مطاوع أخّذه (بالتشديد)، إذا جعله آخذا، ثم أطلق على أخذ الشيء ولو لم يعطه إياه غيره، وهو هنا مستعار للملازمة، أي لا يلازمون طريق الرشد، ويلازمون طريق الغيّ.
الرُّشد، الصلاح وفعل النافع، و تقّدم في قوله تعالى {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً} [النساء:6] والمراد به هنا، الشيء الصالح كلّه، من الإيمان والأعمال الصالحة.
الغيّ، الفساد والضلال، وهو ضدّ الرشد بهذا المعنى، كما أنّ السّفه ضد الرشد بمعنى حسن النظر في المال.
فالمعنى، إن يدركوا الشيء الصالح لم يعملوا به، لغلبة الهوى على قلوبهم. وإنّ يدركوا الفساد عملوا به.
وقرا الجمهور الرشد (بضم فسكون)، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بفتحتين، وهما لغتان فيه.
{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } مستأنفة استئنافا بيانيا، أي كبرهم، وعدم إيمانهم، وأتّباعهم سبيل الغيّ، وإعراضهم عن سبيل الرشد سببه تكذيبهم بالآيات. والمعنى، أنّهم ابتدأوا بالتكذيب، ولم ينظروا، ولم يهتمّوا بالتأمّل في الآيات فداموا على الكبر وما معه، فصرف الله قلوبهم عن الانتفاع بالآيات.
{ **وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** } **الغفلة،** انصراف العقل والذهن عن تذكّر شيء بقصد أو بغير قصد، وأكثر استعماله في القرآن فيما كان عن قصد بإعراض وتشاغل. والمذموم منها ما كان عن قصد وهو مناط التكليف والمؤاخذة، فأمّا الغفلة عن غير قصد فلا مؤاخذة عليها. وهي المقصود من قول علماء أصول الفقه: يمتنع تكليف الغافل.
وصيغة الكلام دالة على استمرار غفلتهم، وكونها دأبا لهم، وإنّما تكون كذلك إذا كانوا قد التزموها..

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[147]

أزيل التوهّم بأنّ الأعمال الصالحة لا تنفع مع التكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة. وأشير إلى أنّ التكذيب هو سبب حبط الأعمال بتعريفهم بطريق الموصولية.
الحبط، فساد الشيء الذي كان صالحا، وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} [المائدة:5]
{ **هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، جوابا عن سؤال ينشأ عن قوله {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} إذ قد يقول سائل: كيف تحبط أعمالهم الصالحة؟ فأجيب بأنّهم جوزوا كما كانوا يعملون، لأنّ الجزاء إنّما يظهر في الآخرة، وهم قد كذّبوا بلقاء الآخرة، فقد قطعوا الصلة بينهم وبين الجزاء، فكان حبط أعمالهم الصالحة وفاقا لاعتقادهم.
{ **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } ما كانوا يعتقدون، فأطلق على التكذيب بالآيات وبلقاء الآخرة فعل {يَعْمَلُونَ} لأنّ آثار

الاعتقاد تظهر في الأقوال والافعاله.

{ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ }[148]

عطف قصّة على قصّة، فذكر فيما تقدّم قصّة المناجاة وما حصل فيها من الآيات والعبر، وذكر في هذه الآية ما كان من قوم موسى، في مدّة مغيبه من الإشراك.

{ **مِنْ بَعْدِهِ** } أي من بعد مغيبه، كما هو معلوم من قوله { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا }[143].

{ **مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ** } (من) للتبعيض. و**الحُلِيّ** (بضم الحاء وكسر اللام وتشديد المثناة التحتية)، جمع **حَلْي** (بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف التحتية)، اي اتخذوا من مصوغهم. وفي التوراة أنّهم اتخذوه من ذهب، نزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائهم وبناتهم وبنيهم.

وذكر في سورة طه أنّ صانع العجل رجل يقال له السامري، وفي التوراة أنّ صانعه هو هارون، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه الواقع في التوراة بعد موسى، ولم يكن هارون صائغا. ونسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي لأنّهم الآمرون باتخاذه، والحريصون عليه، وهذا مجاز شائع في كلام العرب.

{ **عِجْلاً جَسَداً** } المراد أنّه كجسم العجل في الصورة والمقدار، إلّا أنّه ليس بحيّ، وما وقع في القصص، أنّه كان لحما ودما يأكل ويشرب، فهو من وضع القصّاصين.

الخوار (بالخاء المعجمة) صوت البقر، وقد جعل صانع العجل في باطنه تجويفا على تقدير من الضيق مخصوص واتخذ له آلة نافخة خفية فإذا حركت آلة النفخ انضغط الهواء في باطنه، وخرج من المضيق، فكان له صوت كالخوار، وهذه صنعة كصنعة الصفارة والمزمار، وكان الكنعانيون يجعلون مثل ذلك لصنعهما المسمّى بعلا.

{ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لبيان فساد نظرهم في اعتقادهم. والاستفهام للتقرير وللتعجيب من حالهم، ولذلك جعل الاستفهام عن نفي الرؤية. والرؤية بصرية لأنّ عدم تكليم العجل إيّاهم مشاهد لهم. وقد سفّه رأي الذين اتخذوا العجل إلها بأنّهم يشاهدون أنّه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا. وليس المقصود من هذا الاستدلال على الإلوهية بالتكليم والهداية، وإلّا للزم إثبات الإلهية لحكماء البشر.

{ **اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** } مؤكدة لجملة {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى} فلذلك فصلت، والتكرير لأجل التعجيب.

{ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[149]

كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} عن قوله {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً} [150]، لأنّهم ما سقط في أيديهم إلّا بعد أن رجع موسى ورأوا فرط غضبه وسمعوا توبيخه أخاه وإيّاهم، وإنّما خولف مقتضى الترتيب تعجيلا بذكر ما كان لاتخاذهم العجل من عاقبة الندامة وتبيّن الضلالة، موعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التحول عن سنتهم، حتّى يتبيّنوا عواقب ما هم متحوّلون إليه.

{ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ } مبني للمجهول، كلمة أجراها القرآن مجرى المثل إذ انظمّت على إيجاز بديع وكناية واستعارة، فإنّ اليد تستعار للقوة والنصرة، إذ بها يضرب بالسيف والرمح، ولذلك حين يدعون على أنفسهم بالسوء يقولون شلّت من يدي الأنامل، وهي آلة القدرة قال تعالى {ذَا الْأَيْدِ} [صّ: 17]، ويقال: ما لي بذلك يد، أو ما لي بذلك يدان، أي لا أستطيعه. والمرء إذا حصل له شلل في عضد، ولم يستطع تحريكه يحسن أن يقال سقط في يده ساقط، أي نزل به نازل.

وقد استعمل في الآية في معنى الندم وتبيّن الخطإ لهم، فهو تمثيل لحالهم بحال من سقط في يده حين العمل.

فالمعنى أنّهم تبيّن لهم خطأهم وسوء معاملتهم ربهم ونبيّهم. فالندامة هي معنى التركيب كلّه.

وقال الزجّاج هو نظم لم يسمع قبل القرآن ولم تعرفه العرب. قلت وهو القول الفصل فإنّي لم أره في شيء من كلامهم قبل القرآن .

{ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } توبة وإنابة، وقد علموا أنّهم أخطأوا خطيئة عظيمة ولذلك أكدوا التعليق الشرطي بالقسم الذي وطأته اللام. وقدموا الرحمة على المغفرة لأنّها سببها.

{ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [150] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [151]

فرجوع موسى معلوم من تحقّق انقضاء المدّة الموعود بها، وكونه رجع في حالة غضب مشعر بأنّ الله أعلمه بما صنع قومه في مغيبه، وقد صرّح بذلك في سورة طه [85] { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ }

الغضب، تقدّم في قوله { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ } [71].
{ **أَسِفاً** } (بدون مد) صيغة مبالغة للآسف بالمد، الذي هو اسم فاعل للذي حل به الأسف، وهو الحزن الشديد، أي رجع غضبان من عصيان قومه حزينا على فساد أحوالهم.
{ **قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي** }
بئسما، ضد نعمّا، وقد مضى القول عليه في قوله تعالى {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ} [البقرة :93].
والمعنى بئست خلافة خلفتونيها خلافتكم. وتقدّم الكلام على فعل خلف في قوله {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي} قريبا.
وهذا خطاب لهارون ووجوه القوم لأنّهم خلفاء موسى في قومهم، فيكون خلفتموني مستعملا في حقيقته، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع القوم، فأمّا هارون فلأنّه لم يحسن الخلافة بسياسة الأمّة كما كان يسوسها موسى، وأمّا القوم فلأنّهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى.
{ **أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ** } **عَجِلَ**، بمعنى فعل العجلة أي السرعة، وقد يتعدى إلى المعمول بـ (عن) فيقال: عجل عن كذا، بمعنى لم يتمّه بعد أن شرع فيه، وضدّه (تمّ على الأمر) إذا شرع فيه فأتمّه، ويستعمل عَجِلَ مضمّنا معنى سبق، فعدى بنفسه على اعتبار هذا المعنى، وهو استعمال كثير.
ومعنى عجل هنا يجوز أن يكون بمعنى لم يتمّ.
الأمر، يكون بمعنى التكليف، وهو ما أمرهم الله به من المحافظة على الشريعة، وانتظار رجوعه، فلم يتمّوا ذلك واستعجلوا فبدلوا وغيروا.
ويجوز أن يكون بمعنى سبق، أي بادرتم فيكون الأمر بمعنى الشأن، أي الغضب والسخط، كقوله {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: 1]. فالأمر هو الوعيد، فإنّ الله حذّرهم من عبادة الأصنام، وتوعّدهم، فكان الظنّ بهم إن وقع منهم ذلك أن يقع بعد طول المدّة، فلمّا فعلوا ما نهوا عنه بحدثان عهد النهي، جعلوا سابقين له على طريقة الاستعارة، وهذا هو المعنى الأوضح، ويوضّحه قوله، في نظير هذه القصة في سورة طه، حكاية عن موسى { قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } .
{ **وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ** } تقدّم بيان الإلقاء آنفا، وذلك يؤذن بأنّه لمّا نزل من المناجاة كانت الألواح في يده، كما صرّح به في التوراة. ثم إنّ إلقاءه إيّاها إنّما كان إظهارا للغضب، أو أثرا من آثار فوران الغضب لمّا شاهدهم على تلك الحالة، وما ذكر القرآن ذلك الإلقاء إلّا للدلالة على هذا المعنى، إذ ليس فيه من فوائد العبرة في القصة إلّا ذلك.
وروي أنّ موسى عليه السلام كان في خلقه ضيق، وكان شديدا عند الغضب، ولذلك وكز القبطي فقضى عليه، ولذلك أخذ برأس أخيه يجرّه إليه، فهو دليل على فظاعة الفعل الذي شاهده من قومه، وذلك علامة على

الفظاعة، وتشنيع عليهم، وليس تأديبا لهم، لأنّه لا يكون تأديبهم بإلقاء ألواح كتب فيها ما يصلحهم، لأن ذلك لا يناسب تصرف النبوءة.

ولذلك جزمنا بأنّ إعراض رسول الله ﷺ عن كتابة الكتاب الذي همّ بكتابته قبيل وفاته لم يكن تأديبا للقوم على اختلافهم عنده، كما هو ظاهر قول ابن عباس، بل إنّما كان ذلك لمّا رأى من اختلافهم في ذلك، فرأى أنّ الأولى ترك كتابته، إذ لم يكن الدين محتاجا إليه.

ووقع في التوراة أن الألواح تكسرت حين ألقاها، وليس في القرآن ما يدل على ذلك سوى أن التعبير بالإلقاء الذي هو الرمي، وما روى من أن الألواح كانت من حجر، يقتضي أنّها اعتراها انكسار، ولكن ذلك الانكسار لا يذهب ما احتوت عليه من الكتابة. وأمّا ما روي أنّها لما تكسّرت ذهب ستة اسباعها، أو ذهب تفصيلها وبقيت موعظتها، فهو من وضع القصاصين، والله تعالى يقول {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف:154]

{ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } أي إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه. فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدّة على عبدة العجل واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول. وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلّا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنّما كان هارون رسولا مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلّا الاعتذار والاستصفاح منه.

وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد.

{ قَالَ ابْنَ أُمَّ } فصلت لوقوعها جوابا لحوار مقدّر دل عليه قوله {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} لأنّ الشأن أنّ ذلك لا يقع إلّا مع كلام توبيخ، وهو ما حكي في سورة طه بقوله { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه:92، 93] على عادة القرآن في توزيع القصّة، واقتصارا على موقع العبرة ليخالف أسلوب قصصه، الذي قصد منه الموعظة، أساليب القصّاصين الذين يقصدون الخبر بكل ما حدث.

والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع، وحذف حرف النداء لإظهار ما صاحب هارون من الرعب والاضطراب، أو لأنّ كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في سورة طه [94] { قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي} ثم قال، بعد ذلك {ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي} فهما كلامان متعاقبان.

ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني وأنّ ما في سورة طه هو الذي ابتدأ به هارون، لأنّه كان جوابا عن قول موسى {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ} [طه:92، 93]

{ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي } تأكيد الخبر بـ {إِنَّ} لتحقيقه لدى موسى. والسين والتاء في {اسْتَضْعَفُونِي} للحسبان أي حسبوني ضعيفا لا ناصر لي. لأنّهم تمالؤوا على عبادة العجل ولم يخالفهم إلّا هارون في شرذمة قليلة.

{ **وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** } يدلّ على أنّه عارضهم معارضة شديدة ثم سلّم خشية القتل.
{ **فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ** } تفريع على تبيّن عذره في إقرارهم على ذلك، فطلب من أخيه الكفّ عن عقابه الذي يشمت به الأعداء لأجله، ويجعله مع عداد الظالمين.
الشماتة، سرور النفس بما يصيب غيرها من الأضرار، وإنّما تحصل من العداوة والحسد.
الأعداء، الذين دعوا إلى عبادة العجل، لأنّ هارون أنكره عليهم فكرهوه لذلك.
{ **وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } لا تحسبني واحدا منهم. والقوم الظالمون هم الذين أشركوا بالله عبادة العجل، ويجوز أن يكون المعنى، ولا تجعلني في العقوبة معهم، لأنّ موسى قد أمر بقتل الذين عبدوا العجل.
{ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ** } جواب عن كلام هارون، فلذلك فصلت، وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدّبا مع الله فيما ظهر عليه من الغضب، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عبدة العجل.
والإدخال في الرحمة استعارة لشمول الرحمة لهما في سائر أحوالهما.
{ **وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } تذييل، والواو للحال أو اعتراضية، و{أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} الأشدّ رحمة من كل راحم.

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [152] وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [153]

يجوز أن قوله { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ - إلى قوله – الدُّنْيَا } من تمام كلام موسى، فبعد أن دعا لأخيه بالمغفرة أخبر أنّ الله غضب على الذين عبدوا العجل، وأنّه سيظهر إثر غضبه عليهم، وستنالهم ذلّة في الدنيا وذلك بوحي تلقاه، وأنّ جملة { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } خطاب من جانب الله في القرآن، فهو اعتراض، ذيّل الله به حكاية كلام موسى، فأخبر بأنّه يجازي كل مفتر بمثل ما أخبر به موسى عن مفتري قومه. وأنّ جملة {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ} إلى آخر الآية تكملة للفائدة ببيان حالة أضداد المتحدث عنهم وعن أمثالهم.
ويجوز أن تكون الجملة إلى آخرها خطابا من الله لموسى، جوابا عن دعائه لأخيه بالمغفرة.
النَّوْل و**النَّيْل**، الأخذ، وهو هنا استعارة للإصابة والتلّبس كما في قوله تعالى {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ}[37].
والمراد بالغضب ظهور أثره من الخذلان ومنع العناية، وأمّا نفس الغضب فهو حاصل في الحال.
الذلّة، خضوع في النفس واستكانة من جرّاء العجز عن الدفع، فمعنى نيل الذلة إيّاهم أنّهم يصيرون مغلوبين لمن يغلبهم، فقد يكون ذلك بتسليط العدو عليهم، أو بسلب الشجاعة من نفوسهم، بحيث يكونون خائفين العدو

ولو لم يسلّط عليهم، أو ذلّة الاغتراب إذ حرمهم الله ملك الأرض المقدّسة فكانوا بلا وطن طول حياتهم حتى انقرض ذلك الجيل كلّه.

وهذه الذلّة عقوبة دنيوية قد لا تمحوها التوبة، فإن التوبة إنّما تقتضي العفو عن عقاب التكليف، ولا تقتضي ترك المؤاخذة بمصائب الدنيا، لأنّ العقوبات الدنيويّة مسبّبات تنشأ عن أسبابها، فلا يلزم أن ترفعها التوبة إلّا بعناية إلهية خاصة، هذا وقد يمحو الله العقوبة الدنيوية إذا رضي عن الجاني، والله ذو فضل عظيم.

الافتراء، الكذب الذي لا شبهة لكاذبه في اختلاقه. والمراد بالافتراء هنا، الاختلاق في أصول الدين(عبادة العجل)، فإنّ موسى عليه السلام كان حذّرهم من عبادة الأصنام كما حكاه الله فيما مضى.

ويؤخذ من هذه الآية ان الكذّاب يرمى بالمذّلة.

{ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا** } اعتراض بأنّهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم بذنوبهم في عقاب الآخرة، وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل، والمراد **بالسيئات** ما يشمل الكفر وهو أعظم السيئات.و**التوبة** منه هي الإيمان.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } تأكيد لمفاد المهلة التي أفادها حرف (ثمّ) وهذا تعريض للمشركين بأنّهم إن آمنوا يغفر لهم ولو طال أمد الشرك عليهم، ولئلا يظن أنّ الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة.

{ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } الخطاب لمحمد ﷺ على الوجه الأظهر، أو لموسى عليه السلام.

وفي تعريف المسند إليه بالإضافة توسّل إلى تشريف المضاف إليه بأنّه مربوب لله تعالى، وفي ذكر وصف الربوبية هنا تمهيد لوصف الرحمة.

وتأكيد الخبر بـ (**إنّ** و**لام** التوكيد) وصيغتي المبالغة في { غَفُورٌ رَحِيمٌ } لمزيد الاهتمام به، ترغيبا للعصاة في التوبة، وطردا للقنوط من نفوسهم، وإن عظمت ذنوبهم، فلا يحسبوا تحديد التوبة بحد إذا تجاوزتْه الذنوب بالكثرة أو العظم لم تقبل منه توبة.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } الثاني مبالغة في الامتنان بقبول توبتهم بعد التملي من السيئات.

{ **غَفُورٌ رَحِيمٌ** } حذف المتعلّق لظهوره من السياق، والتقدير: لغفور رحيم لهم، أو لكل من عمل سيّئة وتاب منها.

{ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }[154]

السكوت، مستعار لذهاب الغضب عنه، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري.

{ وَفِي نُسْخَتِهَا } النسخة بمعنى المنسوخ كالخطبة والقبضة، والنسخ هو نقل مثل المكتوب في لوح أو صحيفة أخرى، وهذا يقتضي أنّ هذه الألواح أخذت منها نسخة، لأنّ النسخة أضيفت إلى ضمير الألواح، وهذا يشير إلى ما في التوراة في الإصحاح [34] من سفر الخروج: " ثم قال الربّ لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأوّلين اللذين كسرتهما ".

وقد قيل أن رضاض الألواح الأصلية وضعه في تابوت العهد الذي أشار إليه قوله تعالى { أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى} [البقرة:248].

{ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } يتنازع تعلقه كل من {هُدىً} و {رَحْمَةً}.

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [155] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [156] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [157]

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [155] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ }

عطفت {وَاخْتَارَ مُوسَى} على {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى} [148] عطف القصّة على القصّة، لأنّ هذه القصّة أيضا من مواقع الموعظة والعبرة بين العبر المأخوذ من قصّة موسى مع بني إسرائيل، فإن في هذه عبرة بعظمة الله تعالى ورحمته، ودعاء موسى بما فيه جماع الخيرات والبشارة بمحمد ﷺ وملاك شريعته.

الاختيار، تمييز المرغوب من بين ما هو مخلوط من مرغوب وضدّه.

{ **سَبْعِينَ رَجُلاً** } بدل من { قَوْمَهُ } بدل بعض من كل. والتقدير، اختار من قومه.
وهذا الاختيار وقع عندما أمره الله بالمجيء للمناجاة التي تقدم ذكرها في قوله تعالى {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً} [142] ، فقد جاء في التوراة في الإصحاح [24] من سفر الخروج، أنّ الله أمر موسى أن يصعد طور سينا هو وهارون و (ناداب) و (أبيهو) و (يشوع) وسبعون من شيوخ بني إسرائيل، ويكون شيوخ بني إسرائيل في مكان معين من الجبل ويتقدّم موسى حتّى يدخل في السحاب ليسمع كلام الله، وأنّ الله لما تجلّى للجبل ارتجف الجبل ومكث موسى أربعين يوما.
والحاصل أن موضع العبرة في هذه القصّة هو التوقّي من غضب الله، وخوف بطشه، ومقام الرسل من الخشية، ودعاء موسى.
{ **فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** } **الأخذ**، مجاز في الإصابة الشديدة المتمكّنة تمكّن الآخذ من المأخوذ.
{ **قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** }
يجوز أن يكون حرف (لو) مستعملا في معناه الأصلي، من امتناع جوابه لامتناع شرطه، فيتجه أن يتساءل عن موجب حذف اللام من جواب (لو) ولم يقل: (لأهلكتهم) مع أنّ الغالب في جوابها الماضي المثبت أن يقترن بـ (اللام). فحذف اللام هنا لنكتة أنّ التلازم بين شرط (لو) وجوابها هنا قوي، لظهور أنّ الإهلاك من فعل الله وحده، فهو كقوله تعالى {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً[الواقعة:70]. ويكون المعنى اعترافا بمنّة العفو عنهم فيما سبق، وتمهيدا للتعريض بطلب العفو عنهم الآن، وهو المقصود من قوله {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ} أي إنّك لم تشأ إهلاكهم حين تلبّسوا بعبادة العجل فلا تهلكهم الآن.
{ **أَتُهْلِكُنَا** } الاستفهام مستعمل في التفجع أي أخشى ذلك، لأنّ القوم استحقّوا العذاب ويخشى أن يشمل عذاب الله من كان مع القوم المستحقين وإنّ لم يشاركهم في سبب العذاب.
{ **إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ** } ضميرراجع إلى ما فعل السفهاء، لأنّ ما صدق ما فعل السفهاء هو الفتنة. والخبر مستعمل في إنشاء التمجيد بسعة العلم والقدرة، والتعريض بطلب استبقائهم وهدايتهم، وليس مستعملا في الاعتذار لقومه. ثم عرّض بطلب الهداية لهم بقوله {وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ}.
الفتنة، ما يقع به اضطراب الاحوال، ومرجها، وتشتّت البال، وقد مضى تفسيرها عند قوله تعالى { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ} [البقرة:102].
{ **أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** } الاعتراف بالانقطاع لعبادة الله تعالى، تمهيدا لمطلب المغفرة والرحمة، لأنّ شأن الوليّ أن يرحم مولاه وينصره.
الوليّ، الذي له ولاية على أحد، والولاية حلف أو عتق يقتضي النصرة والإعانة، فان كان من جانبين متكافئين فكلا المتعاقدين يقال له مولى، وإنّ كان أحد الجانبين أقوى قيل للقوي وليّ وللضعيف مولى.

والمعنى عدم الانتصار بغير الله، وفي صريحه صيغة قصر.
{ **فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا** } تفريع كلام على كلام، وليس المراد أنّ الوليّ يتعين عليه الغفران.
وقدّم المغفرة على الرحمة لأنّ المغفرة سبب لرحمات كثيرة، فإنّ المغفرة تنهية لغضب الله المترتّب على الذنب، فإذا انتهى الغضب تسنّى أن يخلفه الرضا، والرضا يقتضي الإحسان.
{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** } الذي يغفر كثيرا.
{ **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ** } مستعار لمعنى العطاء المحقّق حصوله، المجدّد مرة بعد مرة، لأنّ الذي يريد تحقيق عقد، أو عطاء، وتعلّقه بالتجدد في المستقبل يكتب به في صحيفة، فلا يقبل النكران، ولا النقصان، ولا الرجوع، وتسمّى تلك الكتابة عهدا.
فالمعنى، آتنا الحسنة تلو الحسنة في أزمان حياتنا وفي يوم القيامة.
الحسنة، الحالة الحسنة، وتقدّمت في قوله تعالى {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} [البقرة:201]
{ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** } مسوقة مساق التعليل للطلب والاستجابة، ولذلك فصلت، ولأنّ موقع حرف التأكيد في أوّلها موقع الاهتمام، فيفيد التعليل والربط، ويغني غناء فاء السببيّة كما تقدّم غير مرة.
{ **هُدْنَا** } معناه تبنا، يقال: هاد يهود، إذا رجع وتاب.

{ **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [156] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } [157]
جواب لكلام موسى عليه السلام، فلذلك فصلت لوقوعها على طريقة المحاورة، وكلام موسى، وان كان طلبا، وهو لا يستدعي جوابا، فإنّ جواب الطالب عناية به وفضل.
{ **عَذَابِي** } المراد بالعذاب هنا عذاب الدنيا، لأنّ الكلام جواب لقول موسى {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} .
والإهلاك عذاب، فبيّن الله له أنّ عذاب الدنيا يصيب الله به من يشاء من عباده، وقد اجمل الله سبب المشيئة وهو اعلم به، وموسى يعلمه إجمالا، فالكلام يتضمّن طمأنة موسى من أن يناله العذاب هو والبرآء من قومه.
{ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** } وعد تعريض بحصول الرحمة المسؤولة له ولمن معه من المختارين، لأنّها لمّا وسعت كل شيء فهم أرجى النّاس بها، وأنّ العاصين هم أيضا مغمورون بالرحمة، فمنها رحمة الإمهال والرزق، ولكن رحمة الله عباده ذات مراتب متفاوتة.

{ **وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** } تقدّم في قوله تعالى {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} [89]

{ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** } تفريع على سعة الرحمة، لأنّها لمّا وسعت كل شيء كان منها ما يكتب أي يعطى في المستقبل للذين أجريت عليهم الصفات، ويتضمّن ذلك وعدا لموسى ولصلحاء قومه لتحقّق تلك الصلات فيهم.

والمعنى، أنّ الرحمة التي سألها موسى له ولقومه، وعد الله بإعطائها لمن كان منهم متصفا بأنّه من المتقين والمؤتين الزكاة، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله.

فتشمل هذه الرحمة من اتقى وآمن وآتى الزكاة من بني إسرائيل قبل بعثة محمد ﷺ.

وتشمل الرحمة أيضا الذين يؤمنون بآيات الله، والمعني بها الآيات التي ستجيء في المستقبل، لأنّ آيات موسى قد استقرّ الإيمان بها يومئذ، وهذا موجب إعادة اسم الموصول في ذكر أصحاب هذه الصلة، للإشارة إلى أنّهم طائفة أخرى، وهم من يكون عند بعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

{ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** } هو إشارة إلى اليهود والنصارى الكائنين في زمن البعثة وبعدها وفي هذه الآية بشارة ببعثة محمد ﷺ.

فهذه الرحمة العظيمة تختصّ بالذين آمنوا بالنبي محمد ﷺ من اليهود والنصارى، وتشمل الرسل والأنبياء الذين اخذ الله عليهم العهد بالإيمان بمحمد ﷺ فكانوا عالمين ببعثته يقينا، فهم آمنوا به، وتنزّلوا منزلة من اتبع ما جاء به، لأنّهم استعدّوا لذلك، وتشمل المسلمين من العرب وغيرهم.

{ **النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** } وتقديم وصف الرسول لأنّه الوصف الأخصّ الأهم، ولأنّ في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقا بمن أتى بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل. ولأنّ محمدا ﷺ اشتهر بوصف النبي الأمّيّ، فصار هذا المركب كاللقب له، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن.

الأمّيّ، الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، قيل هو منسوب إلى الأمّ أي هو أشبه بأمّه منه بأبيه، لأنّ النساء في العرب ما كنّ يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمنها إلّا في الإسلام. أمّا الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب.

وقيل منسوب إلى الأمّة أي الذي حاله حال معظم الأمّة، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلّا النادر منهم، ولذلك يصفهم أهل الكتاب بالأميين، لما حكى الله تعالى عنهم في قوله {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران:75]

والأمّيّة وصف خصّ الله به من رسله محمدا ﷺ، إتماما للإعجاز العلمي العقلي الذي أيّده الله به، فجعل الأمّيّة وصفا ذاتيا له ليتمّ بها وصفه الذاتي وهو الرسالة، ليظهر أنّ كماله النفساني كمال لدنيّ الهيّ، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمّيّة وصف كمال فيه، مع أنّها في غيره وصف نقصان، لأنّه لمّا

حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ، وكان على يقين من علمه، وبيّنة من أمره، ما هو اعظم مما حصل للمتعلمين، صارت أمّيّته آية على كون ما حصل له إنّما هو من فيوضات إلهيّة.

{ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ } وجدان صفاته ونعوته، التي لا يشبهه فيها غيره، وهو كونه أمّيّا، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلّ الطيّبات، ويحرّم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، وشدة شريعتهم.

وذكر الإنجيل هنا لأنّه منزّل لبني إسرائيل، وقد آمن به جمع منهم ومن جاء بعدهم من خلفهم، وقد أعلم الله موسى بهذا.

والمكتوب في الإنجيل بشارات جمّة بمحمد ﷺ، وفي بعضها التصريح بأنه يبعث بعثة عامة، ففي إنجيل متي في الإصحاح [24]: " ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرون ولكن الذي يصبر إلى المنتهى أي يدوم شرعه إلى نهاية العالم فهذا يخلص ويكرّز [**يتنبّأ**، ولا أعرف لها أصلا في العربية] ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى " (منتهى الدنيا).

وفي إنجيل يوحنا في الإصحاح [14]: " وأمّا المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم".

{ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ }

ولا شك أن المقصود من هذه الصفات تعريفهم بها لتدلّهم على تعيين الرسول الأمّيّ عند مجيئه بشريعة هذه صفاتها.

وقد جعل الله المعروف والمنكر، والطيبات، والخبائث، والإصر والأغلال متعلّقات لتشريع النبي الأمّيّ وعلامات، فوجب أن يكون المراد منها ما يتبادر من معاني ألفاظها للأفهام المستقيمة.

المعروف، شامل لكلّ ما تقبله العقول والفطر السليمة، و**المنكر** ضدّه، وتقدم بيانهما عند قوله تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:104]

ويجمعها معنى **الفطرة**، التي هي قوام الشريعة المحمديّة كما قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: 30]، وهذه اوضح علامة لتعرف أحكام الشريعة المحمديّة.

الطيبات، جمع طيّبة، وقد روعي في التأنيث معنى الأكيلة، أو معنى الطعمة، تنبيها على أنّ المراد الطيبات من المأكولات، كما دل عليه قوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً} [البقرة: 168].

وليس المراد الأفعال الحسنة لأنّ الأفعال عرفت بوصف المعروف والمنكر، والمأكولات لا تدخل في المعروف والمنكر، إذ ليس للعقل حظّ في التمييز بين مقبولها ومرفوضها، بما تمتلك النّاسَ فيها عوائدُهم، ولما كان الإسلام دين الفطرة ولا اعتداد بالعوائد فيه، ناط حال المأكولات بالطيب وحرمتها بالخبث.

فالطيب، ما لا ضر فيه ولا وخامة ولا قذارة، **والخبيث**، ما اضرّ، أو كان وخيم العاقبة، أو كان مستقذرا لا يقبله العقلاء، كالنجاسة. وهذا ملاك المباح والمحرّم من المآكل، فلا تدخل العادات إلا في اختيار أهلها ما شاءوا من المباح، فقد كانت قريش لا تأكل الضبّ، وقد وضع على مائدة رسول الله ﷺ فكره أن يأكل منه، وقال: "ما هو بحرام ولكنه لم يكن من طعام قومي فأجدني أعافه".

ولهذا فالوجه أنّ كلّ ما لا ضرّ فيه ولا فساد ولا قذارة فهو مباح، وقد يكون مكروها اعتبارا بمضرة خفيفة، فلذلك ورد النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع، ومحمله عند مالك في اشهر الروايات عنه، على الكراهة، وهو الذي لا ينبغي التردد فيه، واي ضرّ في أكل لحم الأسد وكذلك إباحة أكل الخشاش والحشرات والزواحف البرية والبحرية لاختلاف عوائد الناس في أكلها وعدمه، فقد كانت (جَرْم) لا يأكلون الدجاج، و(فَقعس) يأكلون الكلب. وقد تقدم شيء من هذا في آية سورة المائدة.

{ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** } ووضع الإصر إبطال تشريعه، أي بنسخ ما كان فيه شدة من الشرائع الإلهية السابقة، وحقيقة **الوضع** الحطّ من علو إلى سفل، وهو هنا مجاز في إبطال التكليف بالأعمال الشاقة.

الإصر، ظاهر كلام الزمخشري في (الكشاف) و(الأساس) أنّه حقيقة في الثِّقل الحسي، بحيث يصعب معه التحرّك، والمراد به هنا التكاليف الشّاقة والحرج في الدين.

وقد كانت شريعة التوراة مشتملة على أحكام كثيرة شاقة مثل العقوبة بالقتل على معاص كثيرة، ومثلُ تحريم مأكولات كثيرة طيّبة، وتغليظ التحريم في أمور هيّنة، كالعمل يوم السبت، وأشد ما في شريعة التوراة من الإصر أنّها لم تشرّع فيها التوبة من الذنوب، ولا استتابة المجرم.

والإصر تقدم في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} [البقرة:286].

{ **الأَغْلالَ** } جمع غُل (بضم الغين) وهو إطار من حديد يجعل في رقبة الأسير والجاني ويمسك بسير من جلد أو سلسلة من حديد بيد الموكل بحراسته. قال تعالى {إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ} [غافر:71].

ويستعار الغُلّ للتكليف والعمل الذي يؤلم ولا يطاق، فتعيّن أن وضع الأغلال، استعارة لما يعانيه اليهود من المذلّة بين الأمم الذين نزلوا في ديارهم بعد تخريب بيت المقدس، وزوال ملك يهوذا، فإنّ الإسلام جاء بتسوية اتباعه في حقوقهم في الجامعة الإسلامية، فلا يبقى فيه مَيز بين أصيل ودخيل، وصميم ولصيق، كما كان الأمر في الجاهلية.

وهذان الوصفان لهما مزيد اختصاص باليهود، المتحدث عنهم في خطاب الله تعالى لموسى، ولا يتحققان في غيرهم ممن آمن بمحمد ﷺ، لأنّ اليهود قد كان لهم شرع، وكان فيه تكاليف شاقة، بخلاف غير اليهود من العرب والفرس وغيرهم، ولذلك أضاف الله الإصر إلى ضميرهم، ووصف الأغلال بما فيه ضميرهم.

على أنّك إذا تأمّلت في حال الأمم كلّهم قبل الإسلام لا تجد شرائعهم وقوانينهم وأحوالهم خالية من إصر عليهم مثل تحريم بعض الطيبات في الجاهلية، ومثل تكاليف شاقة عند النصارى والمجوس لا تتلاقى مع السماحة الفطرية، وكذلك لا تجدها خالية من رهق الجبابرة، وإذلال الرؤساء، وشدّة الأقوياء على الضعفاء، وما كان يحدث بينهم من التقاتل والغارات، والتكايل في الدماء، وأكلهم أموالهم بالباطل، فارسل الله محمدا ﷺ بدين من شأنه أن يخلّص البشر من تلك الشدائد، كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الانبياء:107]. ولذلك فسّرنا الوضع بما يعم النسخ وغيره، وفسّرنا الأغلال بما يخالف المراد من الإصر، ولا يناكد هذا ما في أديان الجاهلية والمجوسية وغيرها من التحلل في أحكام كثيرة، فإنّه فساد عظيم لا يخفّف وطأة ما فيها من الإصر.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } الفاء فاء الفصيحة، والمعنى، إذا كان هذا النبي كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوءته، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم، علمتم أنّ الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا هديه، هم المفلحون.

والقصر المستفاد من تعريف المسند ومن ضمير الفصل قصر إضافي، أي هم الذين أفلحوا أي دون من كفر به بقرينة المقام.

{ **عَزَّرُوهُ** } أيّدوه وقووه، وذلك بإظهار ما تضمّنته كتبهم من البشارة بصفاته، وصفات شريعته، وإعلان ذلك بين النّاس، وذلك شيء زائد على الإيمان به، كما فعل عبد الله بن سلام، وكقول ورقة بن نوفل: " هذا الناموس الذي انزل على موسى". وهو أيضا مغاير للنصر، لأنّ **النصر**، هو الإعانة في الحرب بالسلاح، ومن اجل ذلك عطف عليه {وَنَصَرُوهُ}

اتباع النور، تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن: شبّه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال الساري في الليل إذا رأى نورا يلوح له اتّبعه لعلمه بأنّه يجد عنده منجاة من المخاوف وأضرار السير.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } للتنويه بشأنهم، وللدلالة على أنّ المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أحرياء بما يخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.

وفي هذه الآية تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم، ويلحق بهم من نصر دينه بعدهم.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [158]

هذه الجملة معترضة بين قصص بني إسرائيل، جاءت مستطردة لمناسبة ذكر الرّسول الأمّيّ، تذكيرا لبني

إسرائيل بما وعد الله به موسى عليه السلام، وإيقاظا لإفهامهم بأنّ محمدا ﷺ هو مصداق الصفات التي علّمها الله موسى. والخطاب بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } لجميع البشر، وضمير التكلّم ضمير الرسول محمد ﷺ.

وتأكيد الخبر بـ (إنّ) باعتبار أنّ في جملة المخاطبين منكرين ومتردّدين، استقصاء في إبلاغ الدعوة إليهم.

{ جَمِيعاً } لرفع احتمال تخصيص رسالته بغير بني إسرائيل، فإنّ من اليهود فريقا كانوا يزعمون أنّ محمدا ﷺ نبيّ، ويزعمون أنّه نبيّ العرب خاصة، ولذلك لمّا قال رسول الله لابن صيّاد، وهو يهودي، أتشهد أنّى رسول الله، قال ابن صيّاد: اشهد أنّك رسول الأمّيين" . وقد ثبت من مذاهب اليهود مذهب فريق من يهود أصفهان يدعون بالعيسوية وهم اتباع أبي عيسى الأصفهاني اليهودي القائل بأنّ محمدا رسول الله إلى العرب خاصة لا إلى بني إسرائيل. لأنّ اليهود فريقان: فريق يزعمون أنّ شريعة موسى لا تنسخ بغيرها. وفريق يزعمون أنّها لا تنسخ عن بني إسرائيل، ويجوز أن يبعث رسول لغير بني إسرائيل.

{ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } نعت لاسم الجلالة، دال على الثناء. وتقديم المجرور للقصر، أي لا لغيره مما يعبده المشركون، فهو قصر إضافي للردّ على المشركين.

{ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } قصر حقيقي لتحقيق صفة الوحدانيّة، لا لقصد الردّ على المشركين.

{ يُحْيِي وَيُمِيتُ } حال.

والمقصود من ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، تذكير اليهود، ووعظهم، حيث جحدوا نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم، وزعموا أنّه لا رسول بعد موسى، واستعظموا دعوة محمد، فكانوا يعتقدون أنّ موسى لا يشبهه رسول. فذُكّروا بأنّ الله مالك السماوات والأرض، وهو واهب الفضائل، فلا يستعظم أن يرسل رسولا ثم يرسل رسولا آخر، لان الملك بيده، وبأن الله هو الذي لا يشابهه أحد في الوهيّته، وأمّا مرتبة الرسالة فهي قابلة للتعدّد.

{ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ } وقد انتظم أن يفرّع على هذه الصفات الثلاث الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرّسول، والمقصود طلب الإيمان بالنبيّ الأمّيّ لأنّه الذي سيق الكلام لأجله.

ولكن لمّا صدر الأمر بخطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن بالله، وفيهم من يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبيّ الأمّيّ، جمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبيّ الأمّيّ في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجّها للفرق كلّهم، مع قضاء حقّ التأدّب مع الله بجعل الإيمان به مقدّما على طلب الإيمان بالرّسول ﷺ.

{ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ } التفات من التكلّم إلى الغيبة، لقصد إعلان تحقّق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ.

{ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ } ووصف النبيّ الأمّيّ بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وانه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب، لأن هذا الرسول يؤمن بالله

وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق. وهذا نظير قوله تعالى، في تفضيل المسلمين {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [آل عمران: 119].

كلمات، جمع كلمة بمعنى الكلام مثل قوله تعالى {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} [المؤمنون: 100]. فكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرّسل. وأوثر هنا التعبير بكلماته، دون كتبه، لأنّ المقصود الإيماء إلى إيمان الرّسول عليه الصلاة والسلام بأنّ عيسى كلمة الله، أي أثر كلمته، وهي أمر التكوين.

{ **وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } والقول في معنى الاتباع تقدّم، وكذلك القول في نحو { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

{ **وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** } [159]

هذا تخصيص لظاهر العموم الذي في قوله { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى } قصد به الاحتراس لئلا يتوهّم أنّ ذلك قد عمله قوم موسى كلّهم. وللتنبيه على دفع هذا التوهم قدّم {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى} على متعلّقه.

قوم موسى، هم أتباع دينه من قبل بعثة محمد ﷺ، فمن بقي متمسّكا بدين موسى، بعد بلوغ دعوة الإسلام إليه، فليس من قوم موسى، ولكن يقال هو من بني إسرائيل أو من اليهود، لأنّ الإضافة في { قَوْمِ مُوسَى } تؤذن بأنّهم متبعو دينه، الذي من جملة أصوله ترقّب مجيء الرسول الأمّيّ ﷺ.

{ **أُمَّةٌ** } جماعة كثيرة متفقة في عمل يجمعها، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى {أُمَّةً وَاحِدَةً} [البقرة:213]، والمراد أنّ منهم في كل زمان قبل الإسلام.

{ **يَهْدُونَ بِالْحَقِّ** } أي يهدون النّاس من بني إسرائيل أو من غيرهم ببث فضائل الدين الإلهي، وهو الذي سماه الله بالحقّ.

{ **وَبِهِ يَعْدِلُونَ** } وتقديم المجرور للاهتمام به ولرعاية الفاصلة، إذ لا مقتضي لإرادة القصر، والمعنى، أنّهم يحكمون بالعدل على بصيرة وعلم، أي يحكمون حكما لا جور فيه.

{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [160]

{ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً** }

التقطيع، شدّة في القطع وهو التفريق، والمراد به التقسيم، وليس المراد بهذا الخبر الذمّ، ولا بالتقطيع العقاب.لأنّ ذلك التقطيع منّة من الله، وهو من محاسن سياسة الشريعة الموسويّة، ومن مقدّمات نظام الجماعة

كما فصّله السفر الرابع، وهو سفر عدد بني إسرائيل وتقسيمهم، وهو نظير ما فعل عمر بن الخطاب من تدوين الديوان.

وهم كانوا منتسبين إلى أسباط اسحاق، ولكنّهم لم يكونوا مقسّمين عشائر لمّا كانوا في مصر، فكان التقسيم بعد اجتيازهم البحر الأحمر، وقبل انفجار العيون. وهو ظاهر القرآن في سورة البقرة وفي هذه السورة لقوله فيهما {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} وذكره هنا الاستسقاء عقب الانقسام إلى اثنتي عشرة أمّة. وذلك ضروري أن يكون قبل الاستسقاء، لأنّه لو وقع السقي قبل التقسيم لحصل التزاحم.

وظاهر التوراة أنّهم لمّا مرّوا بحوريب، وجاء شعيب للقاء موسى، أنّ شعيبا أشار على موسى أن يقيم لهم رؤساء ألوف، ورؤساء مئات، ورؤساء خماسين، ورؤساء عشرات، حسب الإصحاح [18] من الخروج.

وذلك يقتضي أنّ الأمّة كانت منتسبة قبائل من قبل، ليسهل وضع الرؤساء على الأعداد، ووقع في السّنة الثانية من خروجهم أنّ الله أمر موسى أن يحصي جميع بني إسرائيل، وأنّ موسى وهارون جمعا جميع بني إسرائيل فانتسبوا إلى عشائرهم وبيوت آبائهم، كما في الإصحاح الأوّل من سفر العدد.

الأسباط، تقدم ذكرهم عند قوله تعالى {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة:136]. و{أَسْبَاطاً} حال من الضمير المنصوب في {وَقَطَّعْنَاهُمُ} ولا يجوز كونه تمييزا لأن تمييز اثنتي عشرة ونحوه لا يكون إلا مفردا. وقوله {أُمَماً} بدل من {أَسْبَاطاً} أو من {اثْنَتَيْ عَشْرَةَ}.

وفي اللفظة تذكير ومنّة، التذكير بأنّهم أسباط إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، والمنّة التكثير، لأنّ كل سبط من أولئك قد صار أمّة قال تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ } [الأعراف:86].

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ }

لم يعطف هذا الخبر بالفاء لإفادة أنّه منّة مستقلة. وتفسير هذه الآية مضى عند قوله { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ} [البقرة:60]

{ **فَانْبَجَسَتْ** } مطاوع بجس إذا شقّ.

{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

هذه الآية نظير ما في سورة البقرة سوى اختلاف بضميري الغيبة هنا وضميري الخطاب هناك لأنّ ما هنالك قصد به التوبيخ.

{ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [161] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ } [162]

هذه الآية أيضا نظير ما في سورة البقرة إلّا أنّه عبّر في هذه الآية بقوله {اسْكُنُوا} وفي سورة البقرة بقوله {ادْخُلُوا}[58] لأنّ القولين قيلا لهم، أي قيل لهم: ادخلوا واسكنوها، ففرّق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استجدادا لنشاط السامع.

وكذلك اختلاف التعبير في قوله هنا {وَكُلُوا} وقوله في سورة البقرة {فكلوا}، فإنّه قد قيل لهم بما يرادف فاء التعقيب، كما جاء في سورة البقرة، لأنّ التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف، واقتصر هنا على حكاية أنّه قيل لهم. وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلت عليه فاء التعقيب، لأنّ آية البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدلّ على المنة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية. وآيات الأعراف سيقت لمجرّد العبرة بقصة بني إسرائيل.

ولأجل هذا الاختلاف ميزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً} وعوض عنه هنا بضمير الذين ظلموا لأنّ القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين، أشير إلى أولاهما بما يومئ إليه الموصول من علة الحكم، والى الثانية بحرف السببيّة، واقتصر هنا على الثاني.

وقد وقع في سورة البقرة لفظ {فَأَنْزَلْنَا} ووقع هنا لفظ {فَأَرْسَلْنَا} ولمّا قيّد كلاهما بقوله {مِنَ السَّمَاءِ} كان مفادهما واحدا، فالاختلاف لمجرّد التفنن بين القصتين.

وعبر هنا {بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} وفي البقرة {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} لأنّه لمّا اقتضى الحال في القصتين تأكيد وصفهم بالظلم وأدي ذلك في البقرة بقوله {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} ، استثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة، فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضا أعمّ، فهو انسب بتذييل التوبيخ، وجيء هنا بلفظ {يَظْلِمُونَ} لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليط في ذمّهم لأنّ مقام التوبيخ يقتضيه.

ووقع في هذه الآية {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} ولم يقع لفظ {مِنْهُمْ} في سورة البقرة، ووجه زيادتها هنا التصريح بأنّ تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة لأنّ آية البقرة لمّا سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أنّ الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم لأنّ تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها.

وقدم في سورة البقرة قوله{ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً } على قوله {وَقُولُوا حِطَّةٌ} وعكس هنا وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنّن، فانّ كلا القولين واقع قدّم أو أخر.

وذكر في البقرة {فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً} ولم يذكر وصف رغدا هنا وإنما حكي في سورة البقرة لأنّ زيادة المنّة ادخل في تقوية التوبيخ.

{ **سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ قوله {نَغْفِرْ لَكُمْ} في مقام الامتنان بإعطاء نعم كثيرة.

وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة ذكرت جملة {وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} معطوفة بالواو على تقدير: قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين، فالواو هنالك لحكاية الاقوال، فهي من الحكاية.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب {تُغْفِرْ} بمثناة فوقية مبنيا للمجهول، و {خَطِيئَاتِكُمْ} بصيغة جمع السلامة للمؤنث وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف {نَغْفِرْ} بالنون مبنيا للفاعل وخطيئاتكم بصيغة جمع المؤنث السالم أيضا وقرأه أبو عمرو {نَغْفِرْ} بالنون و {خَطَايَاكُمْ} بصيغة جمع التكسير، مثل آية البقرة، وقرأ ابن عامر: {تُغْفِرْ} بالفوقية وخطيئتكم بالإفراد.

{ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [163]

غُيّر أسلوب الخبر عن بني إسرائيل هنا، فنعلم من ذلك أنّ لهذه القصص الآتية شأنا غير شأن القصص الماضية، ولا أحسب ذلك إلّا من أجل أنّ هذه القصّة ليست مما كتب في توراة اليهود ولا في كتب أنبيائهم، ولكنّها مما كان مرويا عن أحبارهم، ولذلك افتتحت بالأمر بسؤالهم عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأنّ الله أطلع نبيّه عليه الصلاة والسلام، عليها، وهم كانوا يكتمونها.

وذلك أنّ الحوادث التي تكون مواعظ للأمّة فيما اجترحته من المخالفات والمعاصي تُبقي لها عقب الموعظة أثرا قد تعيّر الأمّة به. وكذلك كان شأن اليهود، لمّا أضاعوا ملكهم ووطنهم وجاوروا أمما أخرى فأصبحوا يكتمون عن أولئك الجيرة مساوي تاريخهم، حتى أرسل الله محمدا ﷺ فعلّمه من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم، وما بقي معرّة لأخلافهم، وذلك تحد لهم، ووخز على سوء تلقّيهم الدعوة المحمديّة بالمكر والحسد.

والسؤال في كلام العرب على نوعين اشهرهما أن يسأل السائل عمّا لا يعلمه ليعلمه، والآخر أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أنّ السائل عالم وأنّه إنما سأله ليقرّره.

القرية، تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ } [البقرة:65]

وهذه القرية قيل (**أيْلة**) وهي المسماة اليوم (**العقبة**) وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب شبه جزيرة طورسينا، وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر، وكانت من مملكة إسرائيل في زمان داود عليه السلام.

حاضرة البحر، بمعنى الاتصال بالبحر والقرب منه، لأنّ الحضور يستلزم القرب، وكانت (أيْلة) متّصلة

بخليج من البحر الأحمر وهو القلزم. وقيل هي طبريّة، وكانت طبرية تدعى بحيرة طبرية، وقد قال المفسرون: إنّ هذه القصّة التي أشير إليها في هذه الآية كانت في مدة داود.

وأطلقت القرية على أهلها بقرينة قوله { **إِذْ يَعْدُونَ** }

العدوان، الظلم ومخالفة الحقّ، وهو مشتقّ من العدو بسكون الدال وهو التجاوز. واختيار صيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم.

{ **فِي السَّبْتِ** } مؤذن بأنّ العدوان لأجل يوم السبت، نظرا إلى ما دلّت عليه صيغة المضارع من التكرير المقتضي أنّ عدوانهم يتكرّر في كلّ سبت، فيعلم أن الاعتداء كان منوطا بحق خاص بيوم السبت، وذلك هو حقّ عدم العمل فيه، إذ ليس ليوم السبت حقّ في شريعة موسى سوى أنّه يحرم العمل فيه.

{ **إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ** } أي يعدون حين تأتيهم حيتانهم.

الحيتان، جمع حوت، وهو السمكة، ويطلق الحوت على الجمع فهو مما استوى فيه المفرد والجمع مثل فلك، وأكثر ما يطلق الحوت على الواحد، والجمع حيتان.

{ **شُرَّعاً** } وهو جمع شارع، صفة للحوت الذي هو المفرد، قال ابن عباس: " ظاهرة على الماء "، يعني أنّها قريبة من سطح البحر آمنة من أن تصاد، أي أنّ الله ألهمها ذلك لتكون آية لبني إسرائيل على أنّ احترام السبت من العمل فيه هو من أمر الله.

وقال الضحّاك: " متتابعة مصطفّة "، أي فهو كناية عن الكثرة.

وأحسب أن ذلك وصف من شرعت الإبل نحو الماء أي دخلت لتشرب، وهي إذا شرعها الرعاة تسابقت إلى الماء فاكتظت وتراكمت وربما دخلت فيه، فمثلت هيئة الحيتان، في كثرتها في الماء، بالنعم الشارعة إلى الماء وحسّن ذلك وجود الماء في الحالتين وهذا أحسن تفسيرا.

{ **يَوْمَ سَبْتِهِمْ** } يجوز أن يكون لفظ سبت مصدر سبت إذا قطع العمل بقرينة ظاهر قوله {وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ} فإنّه مضارع سبت، فيتطابق المثبت والمنفي فيكون المعنى، أنّهم إذا حفظوا حرمة السبت، فأمسكوا عن الصيد، جاءت الحيتان يومئذ شرّعا آمنة، وإذا بعثهم الطمع في وفرة الصيد فأعدّوا له آلاته وعزموا على الصيد لم تأتهم.

ويجوز أن يكون لفظ {سَبْتِهِمْ} بمعنى الاسم العلم لليوم المعروف بهذا الاسم من أيام الاسبوع، وأضافته إلى ضميرهم اختصاصه بهم بما أنهم يهود، تعريضا بهم لاستحلالهم حرمة السبت.

{ **وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ** } وعلى الوجهين يجوز أن يكون المعنى، والأيام التي لا يحرم العمل فيها، أي أيام الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتان.

فالمقصود من الآية الموعظة والعبرة وليست منّة عليهم، وقرينته قوله تعالى

{ **كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** } أي نمتحن طاعتهم بتعريضهم لداعي العصيان، وهو وجود المشتهى الممنوع.

البلوى، الاختبار والبلوى إذا أسندت إلى الله تعالى كانت مجازا عقليا أي ليبلو الناس تمسكهم بشرائع دينهم.

{ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [164] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [165] فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [166]

عطف على قوله {إِذْ يَعْدُونَ}، والتقدير، واسأل بني إسرائيل إذ قالت أمّة منهم. والمقصود توبيخ بني إسرائيل كلّهم، لأنّ القصّة مظهر آخر من مظاهر عصيانهم وعتوّهم وقلة جدوى الموعظة فيهم، وأنّ ذلك شأن معلوم منهم عند علمائهم وصلحائهم، ولذلك لمّا عطفت هذه القصة أعيد معها لفظ اسم الزمان فقيل { وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ } ولم يقل: وقالت أمّة.

{ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ** } **الأمّة**، الجماعة من النّاس المشتركة في هذا القول. قال المفسّرون: إنّ أمّة من بني إسرائيل كانت دائبة على القيام بالموعظة والنهي عن المنكر. وقد أجملت الآية ممّا كان من الأمّة القائلة إيجازا في الكلام، اعتمادا على القرينة.

{ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً** } للتعليل، والاستفهام إنكاري في معنى النفي، فيدلّ على انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يوعظ لتحصيلها. وذلك يفضي إلى اليأس من حصول اتعاظهم، والمخاطب أمّة أخرى.

الوعظ، تقدّم ذكره عند قوله آنفا {مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ} [145]، وعند قوله تعالى {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ} [النساء:63].

{ **اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً** } ووصف القوم بأنّ الله مهلكهم مبني على أنّهم تحققت فيهم الحال التي اخبر الله بأنّه يهلك أو يعذب من تحققت فيه، وقد أيقن القائلون بأنّها قد تحققت فيهم، وأيقن المقول لهم بذلك. واسما الفاعل مستعملان في معنى الاستقبال بقرينة المقام، وبقرينة التردّد بين الإهلاك والعذاب.

{ **قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ** } فصلت لوقوعها في سياق المحاورة.

المَعْذِرة، (بفتح الميم وكسر الذال) مصدر ميمي لفعل اعتذر على غير قياس. ومعنى اعتذر اظهر العُذر (بضم العين وسكون الذال) والعذر السبب الذي تبطل به المؤاخذة بذنب أو تقصير، فهو بمنزلة الحجّة التي يبديها المؤاخذ بذنب ليظهر أنّه بريء مما نسب إليه، أو متأول فيه، ويقال: عذره، إذا قبل عذره.

{ **وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } علّة ثانية للاستمرار على الموعظة، أي رجاء لتأثير الموعظة فيهم بتكرارها.

فالمعنى، أن صلحاء القوم كانوا فريقين، فريق منهم أيس من نجاح الموعظة وتحقّق حلول الوعيد بالقوم، لتوغّلهم في المعاصي، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار، فأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة، واعتذر الفريق الثاني بقولهم {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

{ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ** } الضمير عائد إلى {قَوْماً} والنسيان مستعمل في الإعراض المفضي إلى النسيان كما تقدّم عند قوله تعالى {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} [الأنعام:44]

{ **أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ** } هم الفريقان المذكوران في قوله آنفا { وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً - إلى قوله - وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }.

{ **وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ** } هم القوم المذكورون في قوله {قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ}.

الظلم، هنا بمعنى العصيان، وهو ظلم النفس وظلم حقّ الله تعالى في عدم الامتثال لأمره.

{ **بَئِيسٍ** } المعنى، على جميع القراءات: أنّه عذاب شديد الضرّ.

{ **بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** } تقدّم القول في نظيره قريبا.

وقد أجمل هذا العذاب هنا، فقيل هو عذاب غير المسخ المذكور بعده، أي أنّ الله اعذر إليهم فابتدأهم بعذاب الشدّة فلمّا لم ينتهوا وعتوا سلط عليهم عذاب المسخ.

وقيل العذاب البئس هو المسخ، فيكون قوله { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ } بيانا لإجمال العذاب البئس، ويكون قوله {فَلَمَّا عَتَوْا} بمنزلة التأكيد لقوله {فَلَمَّا نَسُوا} صيغ بهذا الأسلوب لتهويل النسيان والعتو.

العتوّ، تقدم عند قوله تعالى {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ} [77].

{ **قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** } تقدم القول في نظيره عند قوله تعالى {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة:65]. ولأجل التشابه بين الآيتين، وذكر العدو في السبت فيهما، وذكره هنا في الأخبار عن القرية، جزم المفسرون بأنّ الذين نسوا ما ذكروا به وعتوا عما نهوا عنه هم أهل هذه القرية، وبأنّ الأمّة القائلة {لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً} هي أمّة من هذه القرية، فجزموا بأن القصة واحدة.

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [167]

عطف على {وَاسْأَلْهُمْ} [163] بتقدير اذكر، وضمير {عَلَيْهِمْ} عائد إلى اليهود، فالمتحدّث عنهم بهذه الآية لا علاقة لهم بأهل القرية الذين عدوا في السبت.

{ **تَأَذَّنَ** } مشتق من الإذن وهو العلم، يقال أذن أي علم، فقيل هو هنا بمعنى أفعل، فمعنى {تَأَذَّنَ رَبُّكَ} أعْلم

وأخْبر ليبعثن. وقال في (الكشاف) معناه عزم ربّك. وعن ابن عباس {تَأَذَّنَ رَبُّكَ} أعلن ذلك على لسان رسله. وحاصل المعنى، أنّ الله أعلمهم بذلك وتوعّدهم به، وهذا كقوله تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم:7]

البعث، الإرسال، وهو هنا مجاز في التقييض والإلهام، وهو يؤذن بأنّ ذلك في أوقات مختلفة وليس ذلك مستمرا يوما فيوما، وضُمّن معنى التسليط فعدّي بـ (على) كقوله {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا} [الاسراء:5].

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } غاية لما في القسم من معنى الاستقبال، وهي غاية مقصود منها جعل أزمنة المستقبل كلّه ظرفا للبعث، أي أنّ الله يسلط عليهم ذلك في خلال المستقبل كلّه.

{ **يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** } يفرض عليهم، وحقيقة السوم أنّه تقدير العوض الذي يستبدل به الشيء، واستعمل مجازا في المعاملة اللازمة بتشبيهها بالسوم المقدر للشيء، وتقدّم في هذه السورة نظيره، وفي قوله تعالى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [البقرة:49]. فالمعنى يجعل سوء العذاب كالقيمة لهم، فهو حظّهم.

سوء العذاب، أشدّه، لأنّ العذاب كلّه سوء فسوءه الأشدّ فيه.

والآية تشير إلى وعيد الله إيّاهم بأن يسلّط عليهم عدوّهم كلّما نقضوا ميثاق الله تعالى، وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى عليه السلام. وأوّل من سُلّط عليهم بختنصر ملك بابل، ثم توالت عليهم المصائب فكان أعظمها خراب أرشليم في زمن ادريانوس امبراطور روما، ولم تزل المصائب تنتابهم وينفّس عليهم في فترات معروفة في التاريخ.

{ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ** } أي لهم، والسرعة تقتضي التحقّق، أي أنّ عقابه واقع وغير متأخّر، لأنّ التأخر تقليل في التحقق.

{ **وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } وعد بالإنجاء من ذلك إذا تأبوا واتبعوا الإسلام، أي لغفور لمن تاب ورجع إلى الحقّ. وفيه إيماء إلى أنّ الله قد ينفّس عليهم في فترات من الزمن، لأنّ رحمة الله سبقت غضبه.

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [168].

عطف قصة على قصة وهو عود إلى قصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوز أن يكون الكلام إشارة إلى تفرّقهم بعد الاجتماع، والتقطيع التفريق، فيكون محمودا مثل {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً} [160]، ويكون مذموما، فالتعويل على القرينة لا على لفظ التقطيع.

{ **أُمَماً** } جمع أمّة بمعنى الجماعة، فيجوز أن يكون المراد هنا تقطيعا مذموما أي تفريقا بعد اجتماع أمتهم فيكون إشارة إلى اسر بني إسرائيل عندما غزا مملكة إسرائيل (شلمناصر) ملك بابل، ونقلهم إلى جبال أنشور وارض بابل سنة (721 ق م).ثم أسر بختنصر مملكة يهوذا وملكها سنة (578 ق م)، ونقل اليهود من ارشليم ولم يبق إلّا الفقراء والعجز. ثم عادوا إلى ارشليم سنة (530 ق م) وبنوا البيت المقدس إلى أن أجلاهم طيطوس الروماني وخرّب بيت المقدس في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، فلم تجتمع أمتهم بعد ذلك.

{ **مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ** } إيذان بأنّ التفريق شمل المذنبين وغيرهم، وأنّ الله جعل للصالحين منزلة إكرام عند الأمم التي حلوا بينها كما دل عليه قوله. {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}. و{الصَّالِحُونَ} هم المتمسّكون بشريعة موسى والمصدّقون للأنبياء المبعوثين من بعده، والمؤمنون بعيسى بعد بعثته. وأن بني إسرائيل كانوا بعد بعثة عيسى غير صالحين إلّا قليلا منهم، الذين آمنوا به. وزادوا بعد بعثة محمد ﷺ وعدم إيمانهم به، بعدا عن الصلاح إلّا نفرا قليلا منهم، مثل عبد الله بن سلام، ومخيريق.

{ **وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ** } شمل كل من لم يكن صالحا على اختلاف مراتب فقدان الصلاح منهم.

{ **وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** } أي أظهرنا مختلف حال بني إسرائيل في الصبر والشكر، أو في الجزع والكفر، بسبب الحسنات والسيئات، فهي جمع حسنة وسيئة بمعنى التي تحسن والتي تسوء، كما تقدّم في قوله {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} [131].

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } استئناف بياني، أي رجاء أن يتوبوا حين يرون حسن حال الصالحين وسوء حال من هم دون ذلك.

الرجوع هنا، الرجوع عن نقض العهد وعن العصيان، وهو معنى التوبة.

ويجوز عندي أن يكون قوله {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً} ، عودا إلى أخبار المنن عليهم، فيكون كالبناء على قوله { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } [160]، فيكون تقطيعا محمودا. والمراد بالأرض، أرض القدس الموعودة لهم، أي لكثّرناهم فعمروها جميعها، فيكون ذكر الأرض هنا للدلالة على أنّهم عمروها كلّها، ويكون قوله {مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ} إنصافا لهم بعد ذكر أحوال عدوان جماعاتهم وصمّ آذانهم عن الموعظة، وقوله {وَبَلَوْنَاهُمْ} إشارة إلى أنّ الله عاملهم مرة بالرحمة ومرة بالجزاء على أعمال دهمائهم.

{ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** [169] **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** } [170]

جملة {فَخَلَفَ} تفريع على قوله {وَقَطَّعْنَاهُمُ} إن كان المراد تقطيعهم في بلاد أعدائهم وإخراجهم من مملكتهم، فتكون الآية مشيرة إلى عودة بني إسرائيل إلى بلادهم في عهد الملك كورش ملك الفرس في حدود سنة (530 ق م). فإنّه لمّا فتح بلاد آشور أذن لليهود الذين أسرهم بختنصر أن يرجعوا إلى بلادهم فرجعوا وبنوا بيت المقدس بعد خرابه، كما تضمّنه سفر (نحميا) وسفر (عزرا)، وكان من جملة ما احيوه أنّهم أتوا بسفر شريعة موسى الذي كتبه (عزرا) وقرأوه على الشعب في أورشليم. فيكون المراد بالخلف الذين رجعوا من اسر الآشوريين. والمراد بـ { **وَرِثُوا الْكِتَابَ** } إعادة مزاولتهم التوراة التي أخرجها إليهم (عزرا) المعروف عند أهل الإسلام باسم (**عُزَيْر**)، ويكون { **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى** } اخذ بعض الخلف لا جميعه، لأنّ صدر ذلك الخلف كانوا تائبين وفيهم أنبياء وصالحون.

وإن كان المراد من تقطيعهم في الأرض أمما تكثيرهم والامتنان عليهم، كان قوله {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} تفريعا على جميع القصص المتقدّمة التي هي قصص أسلافهم، فيكون المراد بالخلف من نشأ من ذريّة أولئك اليهود بعد زوال الأمّة وتفرّقها. منهم الذين كانوا عند ظهور الإسلام وهم اليهود الذين كانوا بالمدينة وإلى هذا المعنى في (الخلْف) نحا المفسرون.

الخلْف، (بسكون اللام) من يأتي بعد غيره في مكان أو عمل أو نسل. وهو مصدر أريد به اسم الفاعل، ولا حد لآخر الخلف، بل يكون تحديده بالقرائن، فلا ينحصر في جيل ولا في قرن، بل قد يكون الخلف ممتدا. قال تعالى بعد ذكر الأنبياء {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} [مريم: 59]

{ **وَرِثُوا** } مجاز في القيام مقام الغير، كما تقدّم في قوله تعالى {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا} [43]. فهو بمعنى الخليفة، والمعنى، فخلف من بعدهم خلف في إرث الكتاب.

{ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى** } حال، والمقصود هو ذمّ الخلْف بأنّهم يأخذون عرض الأدنى ويقولون سيغفر لنا، ومهّد لذلك بأنّهم ورثوا الكتاب ليدلّ على أنّهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل، وذلك أشدّ مذمة.

الأخذ هنا، الملابسة والاستعمال فهو مجاز، أي يلابسونه، ويجوز كونه حقيقة كما سيأتي.

العَرَض، (بفتح العين وفتح الراء) الأمر الذي يزول ولا يدوم، ويراد به المال، ويراد به أيضا ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع.

الأدنى، الأقرب من المكان، والمراد به هنا الدنيا. وفيه إيماء إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه.

و قيل: أريد به ملابسة الذنوب، وبذلك فسّر سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والطبري، فيشمل كل ذنب. ويكون الأخذ مستعملا في المجاز وهو الملابسة.

وقيل: هو الرشا، وبه فسّر السدي، ومعظم المفسرين، فيكون الأخذ مستعملا في حقيقته وهو التناول، وقد يترجّح هذا التفسير بقوله {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ} كما سيأتي.

{ **وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** } هو الكلام اللساني، يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات، ويجوز أن يكون الكلام النفساني، لأنّه فرع عنه، أي قولهم في أنفسهم يعلّلونها به حين يجيش فيها وازع النهي، وذلك من غرورهم في الدين.

{ **وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** } معطوفة على التي قبلها، واستعير إتيان العرض لبذله لهم إن كان المراد بالعرض المال، وقد يراد به خطور شهوته في نفوسهم إن كان المراد بالعرض جميع الشهوات والملاذ المحرّمة. والمعنى، أنّهم يعصون، ويزعمون أنّ سيّئاتهم مغفورة، ولا يقلعون عن المعاصي.

{ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ** } جواب عن قولهم {سَيُغْفَرُ لَنَا} إبطالا لمضمونه. والمقصود من هذه الجملة إعلام النبي ﷺ ليحجّهم بها، فهم المقصود بالكلام، كما تشهد به قراءة {أَفَلا تَعْقِلُونَ} بتاء الخطاب.

والاستفهام للتقرير المقصود منه التوبيخ، وهذا التقرير لا يسعهم إلّا الاعتراف به لأنّه صريح كتابهم. ففي الإصحاح [4] من السفر [5]: " لا تزيدوا على الكلام الذي أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب ".

الميثاق، العهد، وهو وصيّة موسى التي بلّغها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة.

الكتاب، توراة موسى.

{ **أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** } هو مضمون ميثاق الكتاب. والتقدير، ميثاق الكتاب عدم قولهم على الله إلاّ الحقّ.

{ **وَدَرَسُوا مَا فِيهِ** } عطف على {يُؤْخَذْ} ، لأنّ (يؤخذ) في معنى المضي، لأجل دخول (لم) عليه. والتقدير، ألم يؤخذ ويدرسوا، لأنّ المقصود تقريرهم بأنّهم درسوا الكتاب، لا الإخبار عنهم بذلك.

والمعنى، أنّهم قد أُخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلّا الحقّ، وهم عالمون بذلك الميثاق، لأنّهم درسوا ما في الكتاب، فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجّة.

{ **وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** } حالية من ضمير {يَأْخُذُونَ}، وفي جعل الجملة في موضع الحال تعريض بأنّهم يعلمون ذلك أيضا، فهم قد خيّروا عليه عرض الدنيا قصدا، وليس ذلك عن غفلة صادفتهم فحرمتهم من خير الآخرة، بل هم قد حرموا أنفسهم، وقرينة ذلك قوله { أَفَلا تَعْقِلُونَ } بتاء الخطاب،

على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم مواجهة.

وفي جعل الآخرة خير للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتّقين، **{ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ }** مضمونها مقابل حكم التي قبلها، إذ حصل من التي قبلها أنّ هؤلاء الخلف الذين أخذوا عرض الأدنى قد فرّطوا في ميثاق الكتاب، ولم يكونوا من المتّقين، فعُقب ذلك ببشارة من كانوا ضدّ أعمالهم، وهم الآخذون بميثاق الكتاب والعاملون ببشارته بالرّسل، وآمنوا بمحمد ﷺ، فأولئك يستكملون أجرهم لأنّهم مصلحون.

ويحتمل أن المراد بالذين يمسّكون بالكتاب، المسلمون، ثناء عليهم بأنّهم الفائزون في الآخرة وتبشيرا لهم بأنّهم لا يسلكون بكتابهم مسلك اليهود بكتابهم.

{ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } والتقدير، إنّا لا نضيع أجرهم لأنّهم مصلحون، ثناء عليهم على طريقة الإيجاز البديع.

{ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [171]

عاد الكلام إلى العبرة بقصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، لأنّ قصّة رفع الطور عليهم من أمّهات قصصهم، وليست مثل قصّة القرية الذين اعتدوا في السبت، ولا مثل خبر إيذانهم بمن يسومهم سوء العذاب.

فضمائر الجمع كلها هنا مراد بها بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى، بقرينة المقام.

{ **إِذْ** } متعلّقة بمحذوف تقديره، واذكر إذ نتقنا الجبل فوقهم.

النتق، الفصل والقلع.

وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفا لهم، لتكون مذكّرة لهم. فكان رفع الطور معجزة لموسى عليه السلام تصديقا له فيما سيبلّغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة. والقصّة تقدّمت عند قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ }[البقرة:63]

الظلة، السحابة.

{ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ }عدي بالباء للدلالة على أنّهم كانوا مستقرّين في الجبل، فهو إذا ارتفع وقع ملابسا لهم ففتنتهم، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه.

{ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } مقول قول محذوف، وتقدّم تفسير نظيرها في سورة البقرة.

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [147]

انتقال بالكلام إلى محاجّة المشركين من العرب، وهو المقصود من السورة ابتداء ونهاية، فكان هذا الانتقال بمنزلة ردّ العجز على الصدر. جاء هذا الانتقال بمناسبة ذكر العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل في وصيّة موسى، وهو ميثاق الكتاب، وفي يوم رفع الطور.

وهو عهد حصل بالخطاب التكويني، أي بجعل معناه في جبلّة كلّ نسمة وفطرتها، فالجملة معطوفة على الجمل السابقة عطف القصّة على القصّة. فهذا ابتداء لتقريع المشركين على الإشراك، وما ذكر بعده إلى آخر السورة مناسب لأحوال المشركين.

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }

(**إذْ**) اسم للزمن الماضي، وهو هنا مجرّد عن الظرفية، فهو مفعول به لفعل (اذكر) محذوف.

الذرّيّات، جمع ذرّيّة، والذرّيّة اسم جمع لما يتولّد من الإنسان، وجمعه هنا للتنصيص على العموم.

وأخذ العهد على الذرّيّة المخرجين من ظهور بني آدم يقتضي أخذ العهد على الذرّيّة الذين في ظهر آدم بدلالة الفحوى، وإلّا لكان أبناء آدم الأدنون ليسوا مأخوذا عليهم العهد مع أنّهم أولى بأخذ العهد عليهم في ظهر آدم. ومما يثبت هذه الدلالة أخبار كثيرة رويت عن النبي ﷺ وعن جمع من أصحابه، متفاوتة في القوة غير خال واحد منها عن متكلّم، غير أنّ كثرتها يؤيد بعضها بعضا، وأوضحها ما روى مالك في الموطأ في ترجمة النهي عن القول بالقدر بسنده إلى عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عن هذه الآية { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتَهُمْ} فقال: " إنّ الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرّيّة، فقال خلقت هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرّيّة، فقال خلقت هؤلاء للنّار وبعمل أهل النّار يعملون". وساق الحديث بما لا حاجة إليه في غرضنا ومحمل هذا الحديث على أنه تصريح بمدلول الفحوى المذكور، وليس تفسيرا لمنطوق الآية.

وجاء في الآية أن الله أخذ على الذرّيّات العهد بالإقرار بربوبيّة الله، ولم يتعرض لذلك في الحديث. وذكر فيه أنّه ميّز بين أهل الجنّة وأهل النار منهم. ولعلّ الحديث اقتصار على بيان ما سأل عنه السائل فيكون تفسيرا للآية تفسير تكميل لما لم يذكر فيها، أو كان في الحديث اقتصار من أحد روّاته على بعض ما سمعه.

الأخذ، مجاز في الإخراج والانتزاع قال الله تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ} [الأنعام:46]

{ **مِنْ ظُهُورِهِمْ** } بدل {مِنْ بَنِي آدَمَ} أبدل بعض من كل.

الإشهادعلى الأنفس، يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستعير لحالة مغيّبة تتضمّن هذا الإقرار يعلمها الله لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم.

{ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** } مقول لقول محذوف هو بيان لجملة {أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} أي قرّرهم بهذا القول وهو من أمر التكوين. والمعنى واحد، لأن الذرّيّة لمّا أضيف إلى ضمير بني آدم كان على معنى التوزيع.

والاستفهام تقريري، ومثله يقال في تقرير من يُظنّ به الإنكار أو ينزل منزلة ذلك، فلذلك يقرّر على النفي استدراجا له. وقد تقدّم عند قوله تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام:130]

والكلام تمثيل حال من أحوال الغيب، من تسلّط أمر التكوين الإلهي على ذوات الكائنات وأعراضها عند إرادة تكوينها، لا تبلغ النفوس إلى تصوّرها بالكنه، لأنّها وراء المعتاد المألوف، فيراد تقريبها بهذا التمثيل.

وحاصل المعنى: أنّ الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلّة الوحدانيّة، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلّع إلى إدراك ذلك وتحصيل إدراكه إذا جرّد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها.

{ **قَالُوا بَلَى** } جواب عن الاستفهام التقريري، وفصّلت لأنّها جاءت على طريقة المحاورة.

وأطلق القول إمّا حقيقة فذلك قول خارق للعادة، وإمّا مجازا على دلالة حالهم على أنّهم مربوبون لله تعالى، كما أطلق القول على مثله في قوله تعالى { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:11] أي ظهرت فيهما آثار أمر التكوين. فهو من المجاز الذي كثر في كلام العرب.

{ **بَلَى** } حرف جواب لكلام فيه معنى النفي، فيقتضي إبطال النفي وتقرير المنفي، ولذلك كان الجواب بها بعد النفي أصرح من الجواب بحرف (نعم)، لأنّ نعم تحتمل تقرير النفي وتقرير المنفي.

{ **شَهِدْنَا** } تأكيد لمضمون { بَلَى } والشهادة هنا أيضا بمعنى الإقرار.

{ **أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** } في موقع التعليل لفعل الأخذ والإشهاد. والمقصود التعليل بنفي أن يقولوا {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} لا بإيقاع القول، فحذف حرف النفي جريا على شيوع حذفه مع القول. أو هو تعليل بأنّهم يقولون ذلك، إن لم يقع إشهادهم على أنفسهم.

وقرأ الجمهور، { **أن تقولوا**} بتاء الخطاب، وقد حوّل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب، ثم من خطاب الرسول إلى خطاب قومه، تصريحا بأنّ المقصود من قصّة أخذ العهد تذكير المشركين بما أودع الله في الفطرة من التوحيد. وهذا الأسلوب هو من تحويل الخطاب عن مخاطب إلى غيره، وليس من الالتفاف لاختلاف المخاطبين. وقرأه أبو عمرو، وحده بياء الغيبة، والضمير عائد إلى ذريات بني آدم.

والمعنى: أن ذلك لمّا جُعل في الفطرة، عند التكوين، كانت عقول البشر منساقة إليه، فلا يغفل عنه أحد منهم فيعتذر يوم القيامة، إذا سئل عن الإشراك، بعذر الغفلة، فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة، ولذلك وقع تقدير حرف نفي أي أن لا تقولوا.

{ **أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** } وعطف عليه الاعتذار بالجهل دون الغفلة بأن يقولوا: إننا اتبعنا آباءنا وما ظننا الإشراك إلا حقا، فلما كان في أصل الفطرة العلم بوحدانية الله بطل الاعتذار بالجهل به، وكان الإشراك إمّا عن عمد وإمّا عن تقصير، وكلاهما لا ينهض عذرا، وكلّ هذا إنما يصلح لخطاب المشركين دون بني إسرائيل.

{ **وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ** } كنا على دينهم تبعا لهم لأنّنا ذرّيّة لهم، وشأن الذرّيّة الاقتداء بالآباء وإقامة عوائدهم فوقع إيجاز في الكلام وأقيم التعليل مقام المعلّل.

{ **أَفَتُهْلِكُنَا** }الاستفهام إنكاري، والإهلاك هنا مستعار للعذاب.

المبطلون، الآخذون بالباطل، وهو في هذا المقام الإشراك.

وفي هذه الآية دليل على أنّ الإيمان بالإله الواحد مستقر في فطرة العقل، لو خلي ونفسه، وتجرّد من الشبهات الناشئة فيه من التقصير في النظر، أو الملقاة إليه من أهل الضلالة المستقرّة فيهم الضلالة، بقصد أو بغير قصد.

ولذلك قال الماتريدي والمعتزلة: إنّ الإيمان بالإله الواحد واجب بالعقل، ونُسب إلى أبي حنيفة والى الماوردي وبعض الشافعية من أهل العراق، وعليه انبتت مؤاخذة أهل الفترة على الإشراك، وقال الأشعري: " معرفة الله واجبة بالشرع لا بالعقل"، تمسكا بقوله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الاسراء: 15] ولعلّه أرجع مؤاخذة أهل الفترة على الشرك إلى التواتر بمجيء الرسل بالتوحيد.

{ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ** } معترضة بين القصّتين، وتسمّى (واو) الاستئناف، أي مثل هذا التفصيل نفصل الآيات، أي آيات القرآن، وتقدّم نظير هذا عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55]. وتفصيلها بيانها وتجريدها من الالتباس.

{ **وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } وهذا إنشاء ترجّي رجوع المشركين إلى التوحيد، وقد تقدم القول في تأويل معنى الرجاء بالنسبة إلى صدوره من جانب الله تعالى عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:21]

الرجوع، مستعار للإقلاع عن الشرك، شبّه الإقلاع عن الحالة التي هم متلبسون بها بترك من حل في غير مقرّه ليرجع إلى مقرّه. وهذا التشبيه يقتضي تشبيه حال الإشراك بموضع الغربة، لأنّ الشرك ليس من مقتضى الفطرة، فالتلبس به خروج عن أصل الخلقة كخروج المسافر عن موطنه.

ويقتضي أيضا تشبيه حال التوحيد بمحل المرء وحيّه الذي يأوي إليه، وقد تكرر في القرآن. وهو تعريض بالعرب لأنّهم المشركون من عقب إبراهيم.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ [175] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[176]

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ [175] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ }
أعقب ما يفيد أنّ التوحيد جعل في الفطرة بذكر حالة اهتداء بعض النّاس إلى نبذ الشرك في مبدأ أمره ثم تعرض وساوس الشيطان له بتحسين الشرك. ومناسبتها للتي قبلها، إشارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله، وأمدّه الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة، ثم لم ينفعه ذلك كلّه حين لم يقدّر الله له الهدى المستمر.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ } وشأن القصص المفتتحة بهذا القول أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصّة.

ومناسبة فعل التلاوة لهم أنّهم كانوا قوما تغلب عليهم الأمّية فأراد الله أن يبلّغ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب في التلاوة.

النبأ، الخبر المروي.

{ الَّذِي } وظاهر اسم الموصول المفرد أنّ صاحب الصلة واحد معيّن، وأنّ مضمون الصلة حال من أحواله التي عرف بها، والأقرب أن يكون صاحب هذا النبإ ممن للعرب إلمام بمجمل خبره. فقيل المعني به (**أمية بن أبي الصلت الثقفي**)، وروي هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، بأسانيد كثيرة عند الطبري، وعن زيد بن أسلم، وقال القرطبي في التفسير: "هو الأشهروهو قول الأكثر". ذلك أنّ أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممن أراد اتباع دين غير الشرك طالبا دين الحقّ، ونظر في التوراة والإنجيل فلم ير النجاة في اليهودية ولا النصرانية، وتزهّد وتوخّى الحنيفيّة دين إبراهيم، وأُخبر أنّ الله يبعث نبيّا في العرب، فطمع أن يكونه، ورفض عبادة الأصنام وحرّم الخمر وذكر في شعره أخبارا من قصص التوراة، ويروى أنّه كانت له إلهامات ومكاشفات وكان يقول: كل دين يوم القيامة عند ... الله إلا دين الحنيفيّة زور

وله شعر كثير في أمور الإلهية، فلما بُعث محمد ﷺ أسف أن لم يكن هو الرسول المبعوث في العرب، وقد اتفق أن خرج إلى البحرين قبل البعثة وأقام هنالك ثمان سنين ثم رجع إلى مكّة فوجد البعثة وتردد في الإسلام، ثم

خرج إلى الشام ورجع بعد وقعة بدر فلم يؤمن بالنبي ﷺ حسدا، ورثى من قتل من ا لمشركين يوم بدر. وخرج إلى الطائف بلاد قومه فمات كافرا. وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب واسم الله وأسماء الأنبياء، وقد قال فيه النبي ﷺ: " كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم ". وروي عن أمّية أنّه قال لما مرض مرض موته: " أنا أعلم أنّ الحنيفيّة حق ولكن الشك يداخلني في محمد"

{ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا } أنّ الله ألهم أميّة كراهية الشرك، وألقى في نفسه طلب الحقّ، ويسّر له قراءة كتب الانبياء، وحبّب إليه الحنيفيّة، فلمّا انفتح له باب الهدى وأشرق نور الدعوة المحمديّة كابر وحسد وأعرض عن الإسلام، فلا جرم أن كانت حاله أنّه انسلخ عن جميع ما يُسّر له، ولم ينتفع به عند إبّان الانتفاع، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى فكان من الغاوين، إذ مات على الكفر بمحمد ﷺ.

الإيتاء هنا، مستعار للإطلاع وتيسير العلم مثل قوله { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ } [البقر251]

الآيات، دلاءل الوحدانيّة التي كرّهت إليه الشرك وبعثته على تطلّب الحنيفيّة بالنسبة لأمية بن أبي الصلت.

الانسلاخ، حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ، والسَّلْخُ فعل ذلك. واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبّس بالشيء أو عدم العمل به. ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه، وذلك أنّ الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية.

{ **فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** } بمعنى لحقة غير مفلت، كقوله { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات: 10] { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ } [طه: 78] وهذا أخصّ من (اتّبعه) بتشديد المثناة ووصل الهمزة.

الغاوين، المتّصفين بالغيّ، وهو الضلال. والتركيب أشد مبالغة في الاتصاف بالغواية من أن يقال: وغوى أو كان غاويا، كما تقدّم عند قوله تعالى {قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [الأنعام [56].

{ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** } أفاد أنّ تلك الآيات شأنها أن تكون سببا للهداية والتزكية، لو شاء الله له التوفيق وعصمه من كيد الشيطان وفتنته فلم ينسلخ عنها، وهذه عبرة للموفّقين ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم.

الرفعة، مستعارة لكمال النفس وزكائها، لأنّ الصفات الحميدة تخيّل صاحبها مرتفعا على من دونه، أي ولو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلا وزكاء وتميزا.

{ **وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } وقد وقع الاستدراك على مضمون قوله {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتنعة، أي ركن ومال إلى الأرض. والكلام تمثيل لحال المتلبّس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى، بحال من كان مرتفعا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل. فبذكر الأرض عُلم أنّ الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي تلبّس بالنقائص والمفاسد.

اتباع الهوى، ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحقّ والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبّة المذمومة الخاسرة عاقبتها.

{ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** }

واستعمال القرآن لفظ المثل بعد كاف التشبيه مألوف بأنّه يراد به تشبيه الحالة بالحالة، وتقدّم قوله تعالى {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [البقرة:17]، فلذلك تعين أنّ التشبيه هنا لا يخرج عن المتعارف في التشبيه المركّب.

فهذا الضال تحمّل كلفة اتباع الدين الصالح وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك في زمن الفترة فلقي من ذلك نصبا وعناء، فلما حان حين اتباع الحق ببعثة محمد ﷺ تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديرا فيه بان يستريح من عنائه لحصول طلبته فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث، فهو يلهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة وهي حالة الحمل عليه، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب وهي حالة تركه في دعة ومسالمة.

{ **إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ** } أن تطارده وتهاجمه، مشتق من الحمل الذي هو الهجوم على أحد لقتاله، يقال حمل فلان على القوم حملة شعواء أو حملة منكرة، وقد أغفل المفسرون توضيحه وأغفل الراغب في مفردات القرآن هذا المعنى لهذا الفعل.

اللهث، سرعة التنفّس مع امتداد اللسان لضيق النفس، وفعله بفتح الهاء وبكسرها.

{ **ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** }

أي ذلك التمثيل مثل للمشركين المكذّبين بالقرآن، تشبيه بليغ. لأنّهم شابهوه في أنّهم أوتوا القرآن فكذّبوا به، فكانت حالهم كحال ذلك المكذّب.

والأظهر أن تكون الإشارة إلى {كَمَثَلِ الْكَلْبِ} أي حال الكلب المذكورة كحال المشركين المكذّبين في أنّهم كانوا يودّون معرفة دين إبراهيم، ويتمنّون مساواة أهل الكتاب في العلم والفضل، فكانوا بذلك في عناء وحيرة في الجاهلية فلمّا جاءهم رسول منهم بكتاب مبين انتقلوا إلى عناء معاندته. وهذا تأويل ما روي عن عبادة ابن الصامت أن آية {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} إلى آخرها نزلت في قريش.

{ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** } فإنّ في القصص تفكّرا وموعظة فيرجى منه تفكّرهم وموعظتهم. لأنّ للأمثال واستحضار النظائر شانا عظيما في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفيّة إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصّة المخصوصة من تذكّر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس.

{ **سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** }[177]

جملة مستأنفة لأنّها جعلت إنشاء ذمّ لهم بأن كانوا في حالة شنيعة وظلموا أنفسهم.

الظلم هنا، على حقيقته فإنّهم ظلموا أنفسهم بما أحلّوه بها من الكفر الذي جعلهم مذمومين في الدنيا ومعذّبين في الآخرة.

وتقديم المفعول للاختصاص، أي ما ظلموا إلّا أنفسهم، وفيه إزالة تبجّحهم بأنّهم لم يتّبعوا محمدا ﷺ ظنّا منهم أنّ ذلك يغيظه ويغيظ المسلمين.

{ **وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** } تذييل للجملة التي قبلها إخبارا عنهم بأنّهم في تكذيبهم، وانتفاء تفكّرهم من القصص ما ظلموا إلّا أنفسهم.

{ **كَانُوا يَظْلِمُونَ** } أقوى في إفادة وصفهم بالظلم.

{ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }[178]

هذه الجملة تذييل للقصّة والمثل وما أعقبا به من وصف حال المشركين، فإنّ هذه الجملة تُحصّل ذلك كلّه وتجري مجرى المثل، وذلك أعلى أنواع التذييل، وفيها تنويه بشأن المهتدين، وتلقين للمسلمين للتوجّه إلى الله تعالى بطلب الهداية منه والعصمة من مزالق الضلال، أي فالذين لم يهتدوا إلى الحقّ بعد أن جاءهم دلّت حالهم على أنّ الله غضب عليهم فحرمهم التوفيق.

الهداية، حقيقتها إبانة الطريق، وتطلق على مطلق الإرشاد لما فيه النفع سواء اهتدى المهدي إلى ما هدي إليه أم لم يهتد، قال تعالى { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } [الانسان:3].

ثم قد عُلم أنّ الفعل الذي يسند إلى الله تعالى إنّما يراد به أتقن أنواع تلك الماهية وأدومها، ما لم تقم القرينة على خلاف ذلك، فقوله {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ} يعنى به من يقدّر الله اهتداءه. وليس المعنى من يرشده الله بالأدلة أو بواسطة الرسل، وقد استفيد ذلك من قصة {الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} فإنّ الله أرشده، ولم يقدّر له الاهتداء، فالحالة التي كان عليها قبل أن يخلد إلى الأرض ليست حالة هدى، ولكنها حالة تردّد وتجربة.

فتعيّن أن يكون المعنى هنا، من يقدّر الله له أن يكون مهتديا فهو المهتدي.

{ **فَهُوَ الْمُهْتَدِي** } قصر حقيقي ادعائي باعتبار الكمال واستمرار الاهتداء إلى وفاة صاحبه، وهي مسألة الموافاة عند الأشاعرة.

{ **وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } زيد في جانب الخاسرين الفصل باسم الإشارة لزيادة الاهتمام بتمييزهم بعنوان الخسران، تحذيرا منه. فالقصر فيه مؤكّد.

الخسران، استعير لتحصيل ضدّ المقصود من العمل، كما يستعار الربح لحصول الخير من العمل، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } [9].

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }[179]

تأكيد الخبر بـ (لام القسم) وبـ (قد) لقصد تحقيقه، لأنّ غرابته تنزل سامعه منزلة المتردّد في تأويله. والمعني بهم المشركون، وهم ينكرون أنّهم في ضلال ويحسبون أنّهم يحسنون صنعا، وكانوا يحسبون أنّهم أصحاب أحلام وأفهام، ولذلك قالوا للرّسول ﷺ في معرض التهكّم { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} [فصلت: 5].

الذرء، الخلق، وتقدّم في قوله {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً} [الأنعام:136].

{ **لِجَهَنَّمَ** } اللام للتعليل. فدلائل الحقّ قائمة في نفوسهم ولكنّهم ينصرفون عنها لغلبة الهوى عليهم. فبحسب خلقه نفوسهم غير ذات عزيمة على مقاومة الشهوات جعلوا كأنهم خلقوا لجهنم، وكأنّهم لم تخلق فيهم دواعي الحقّ في الفطرة.

الجنّ، خلق غير مرئي لنا، وظاهر القرآن أنّهم عقلاء وأنّهم مطبوعون على ما خلقوا لأجله من نفع أو ضرّ، وخير أو شرّ، ومنهم الشياطين، وهذا الخلق لا قبل لنا بتفصيل نظامه، ولا كيفيّات تلقيه لمراد الله تعالى منه.

{ **لَهُمْ قُلُوبٌ** } حال أو صفة لخصوص الإنس، لأنّهم الذين لهم قلوب وعقول وعيون وآذان، ولم يعرف للجنّ مثل ذلك. وقدّم الجنّ على الإنس في الذكر، ليتعيّن كون الصفات الواردة من بعد صفات للإنس وبقرينة قوله: { أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ }.

{ **الْقُلُوبُ** } اسم لموقع العقول في اللغة العربية، وتقدّم عند قوله تعالى {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [البقرة:7]

الفقه، تقدّم عند قوله {لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام:65].

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم، أنّهم عطّلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له، وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضرّ الأبدي، لأنّ آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار، فلمّا لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة. فالنفي استعارة بتشبيه بعض الموجود بالمعدوم كله.

{ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ** } مستأنفة لابتداء كلام بتفظيع حالهم، فجعل ابتداء كلام ليكون أدعى للسامعين. وعرّفوا بالإشارة لزيادة تمييزهم بتلك الصفات، وللتنبيه على أنّهم بسببها أحرياء بما سيذكر من تسويتهم بالأنعام أو جعلهم أضل منها.

{ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ** } للانتقال والترقّي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع بما يمكن الانتفاع به، ولمّا كان وجه الشبه المستفاد من قوله {كَالأَنْعَامِ} يؤول إلى معنى الضلال، كان الارتقاء في التشبيه بطريقة اسم التفضيل في الضلال.

ووجه كونهم أضلّ من الأنعام، أنّ الأنعام لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها في مهاوي الشقاء الأبدي لأنّ لها إلهاما تتفصّى به عن المهالك، كالتردي من الجبال والسقوط في الهوات، هذا إذا حمل التفضيل في الضلال على التفضيل في جنسه وهو الأظهر. وإن حمل على التفضيل في كيفيّة الضلال ومقارناته كان وجهه أنّ الأنعام قد خلق إدراكها محدودا لا يتجاوز ما خلقت لأجله، فنقصان انتفاعها بمشاعرها ليس عن تقصير منها، فلا تكون بمحلّ الملامة، وأمّا أهل الضلالة فإنّهم حجزوا أنفسهم عن مدركاتهم، بتقصير منهم وإعراض عن النظر والاستدلال، فهم أضلّ سبيلا من الأنعام.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } تعليل لكونهم أضلّ من الأنعام، وهو بلوغهم حدّ النهاية في الغفلة، وبلوغهم هذا الحدّ أفيد بصيغة القصر الادعائي.

الغفلة، عدم الشعور بما يحقّ الشعور به، وأطلق على ضلالهم لفظ الغفلة بناء على تشبيه الإيمان بأنّه أمر بيّن واضح يعدّ عدم الشعور به غفلة.

وقد وقع التدرّج في وصفهم بهذه الأوصاف من نفي انتفاعهم، بمداركهم ثم تشبيههم بالانعام، ثم الترقّي إلى أنهم أضل من الأنعام، ثم قصر الغفلة عليهم.

{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [180]

هذا خطاب للمسلمين، عقّبت الآيات التي وصفت ضلال المشركين، بتنبيه المسلمين للإقبال على دعاء الله بأسمائه الدالة على عظيم صفات الإلهيّة، والدوام على ذلك وأن يعرضوا عن شغب المشركين وجدالهم في أسماء الله تعالى.

وقد كان من جملة ما يتورّك به المشركون على النبي ﷺ والمسلمين، أن أنكروا اسمه تعالى الرحمان، وهو إنكار لم يُقدمهم عليه جهلهم بأنّ الله موصوف بما يدلّ عليه وصف (رحمان) من شدّة الرحمة، وإنّما أقدمهم عليه ما يقدّم كل معاند من تطلّب التغليظ والتخطئة للمخالف، ولو فيما يعرف أنّه حقّ.

وذكر ابن عطية، وغيره، أنّ أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءته ومرة يقرأ فيذكر الرحمان فقال أبو جهل: " محمد يزعم أنّ الإله واحد وهو إنّما يعبد آلهة كثيرة " فنزلت هذه الآية.

وتقديم المجرور المسند على المسند إليه لمجرد الاهتمام المفيد تأكيد استحقاقه إيّاها، المستفاد من اللام، والمعنى أن اتّسامه بها أمر ثابت، وقد التزم مثل هذا التقديم في جميع الآي التي في هذا الغرض مثل قوله {فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء:110] وقوله {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[طه:8] وقوله {لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الحشر:24] ، وكل ذلك تأكيد للردّ على المشركين بتخييلهم أنّ تعدّد الاسم تعدّد للمسمّى، تمويها على

الدهماء.

الأسماء، هي الألفاظ المجعولة أعلاما على الذات بالتخصيص أو بالغلبة، فاسم الجلالة وهو(**الله**) علم على ذات الإله الحقّ بالتخصيص، شأن الإعلام. و(الرحمان) و(الرحيم) اسمان لله بالغلبة، وكذلك كل لفظ مفرد دلّ على صفة من صفات الله، وأطلق إطلاق الأعلام نحو الربّ، والخالق، والعزيز، والحكيم، والغفور، ولا يدخل في هذا ما كان مركبا إضافيا نحو ذو الجلال، ورب العرش، فان ذلك بالأوصاف أشبه، وأن كان دالا على معنى لا يليق إلّا بالله نحو {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

الحسنى مؤنّث الأحسن، وهو المتّصف بالحسن الكامل في ذاته، المقبول لدى العقول السليمة المجرّدة عن الهوى. وليس المراد بالحسن الملائمة لجميع النّاس لأنّ الملائمة وصف إضافي نسبي، فقد يلائم زيدا ما لا يلائم عمرا، فلذلك فالحسن صفة ذاتية للشيء الحسن.

{ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } لأنّها دالة على ثبوت صفات كمال حقيقي، أمّا بعضها فلأنّ معانيها الكاملة لم تثبت إلّا لله نحو الحي، والعزيز، والحكيم، والغنيّ. وأمّا البعض الآخر فلأنّ معانيها مطلقا لا يحسن الاتصاف بها إلّا في جانب الله نحو المتكبر والجبّار، لأنّ معاني هذه الصفات وأشباهها كانت نقصا في المخلوق من حيث أنّ المتسم بها لم يكن مستحقا لها لعجزه أو لحاجته، بخلاف الإله لأنّه الغني المطلق، فكان اتّصاف المخلوق بها منشأ فساد في الأرض وكان اتصاف الخالق بها منشأ صلاح، لأنّها مصدر العدالة والجزاء القسط.

{ **فَادْعُوهُ بِهَا** } تفريع عن كونها أسماء له، وعن كونها حسنى، أي فلا حرج في دعائه بها لأنّها أسماء متعدّدة لمسمّى واحد، لا كما يزعم المشركون، ولأنّها حسنى فلا ضير في دعاء الله تعالى بها. وذلك يشير إلى أن الله يُدعى بكل ما دل على صفاته وعلى أفعاله.

وقد دلت الآية على أنّ كلّ ما دلّ على صفة لله تعالى وشأن من شؤونه على وجه التقريب للأفهام بحسب المعتاد يسوغ أن يطلق منه اسم لله تعالى ما لم يكن مجيئه على وجه المجاز نحو {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: 15] أو يوهم معنى نقص في متعارف النّاس نحو الماكر من قوله {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54].

وليست أسماء الله الحسنى منحصرة في التسعة والتسعين الواردة في الحديث الصحيح عن الأعرج، وعن أبي رافع، وعن همام بن منبه، عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: " إنّ لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ". لأنّ الحديث الصحيح ليس فيه ما يقتضي حصر الأسماء في ذلك العدد، ولكن تلك الأسماء ذات العدد لها تلك المزية، وقد ثبت أنّ النبي ﷺ دعا فقال (**يا حنّان، يا منّان**) ولم يقع هذان الاسمان فيما روي من التسعة والتسعين، وليس في الحديث المروي بأسانيد صحيحة مشهورة تعيين الأسماء التسعة والتسعين.

ووقع في جامع الترمذي من رواية شعيب بن أبي حمزة، عن الأعرج، عن أبي هريرة بعد قوله: " دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمان الرحيم"، إلى آخرها فعيّن صفات لله تعالى تسعا وتسعين وهي

المشهورة بين الذين تصدوا لبيانها. قال الترمذي هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث ولا نعلم في شيء من الروايات لها إسناد صحيح ذكر الأسماء إلّا في هذا الحديث.

وقد عدّ ابن بَرَّجان الأشبيلي في كتابه في أسماء الله الحسنى (مائة واثنين وثلاثين) اسما مستخرجة من القرآن والأحاديث المقبولة. وذكر القرطبي أنّ له كتابا سماه (الأسنى في شرح الأسماء الحسنى) ذكر فيه من الأسماء ما ينيف على مائتي اسم.

والصواب أن لا يسمّى الله تعالى إلّا باسم قد أطلقته الشريعة، وأن يكون مدحا خالصا لا شبهة فيه.

{ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } الإمساك عن الاسترسال في محاجّتهم لظهور أنّهم غير قاصدين معرفة الحقّ. أو ترك الإصغاء لكلامهم لئلا يفتنوا عامة المؤمنين بشبهاتهم، أي اتركوهم ولا تُلغبوا أنفسكم في مجادلتهم فإني سأجزيهم.

ذرّ، تقدم عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].

الإلحاد، الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقّاته كلّها، ولمّا كان وسط الشيء يشبّه به الحقّ والصواب، استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد، ويعدّى حينئذ بـ (في) لتنزيل المجرور بها منزلة المكان للالحاد، والاكثر أن يكون ذلك عن تعمّد للإفساد، ويقال لحد وألْحد والأشهر ألحد.

{ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } جعلها مظهرا من مظاهر الكفر، وذلك بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له، وهو الأحق بكمال مدلولها. فإنّهم أنكروا الرحمان، كما تقدّم، وجعلوا تسميته به في القرآن وسيلة للتشنيع ولمز النبيّ عليه الصلاة والسلام بأنّه عدد الآلهة. ولا أعظم من هذا البهتان والجور في الجدال فحقّ بان يسمّى إلحادا، لأنّه عدول عن الحقّ بقصد المكابرة والحسد.

وهذا يناسب أن يكون حرف (في) من قوله {فِي أَسْمَائِهِ} مستعملا في معنى التعليل، كقول النبي ﷺ " دخلت امرأة النار في هرة ".

{ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } تتنزل منزلة التعليل للأمر بترك الملحدين، أي لا تهتموا بإلحادهم ولا تحزنوا له، لأنّ الله سيجزيهم بسوء صنيعهم، وسُمّي إلحادهم عملا لأنّه من أعمال قلوبهم وألسنتهم.

{ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [181] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ [182] وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [183].

عطف على { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ } [179]، والمقصود، التنويه بالمسلمين في هديهم واهتدائهم، وذلك مقابلة لحال المشركين في ضلالهم. أي أعرض عن المشركين فإنّ الله أغناك عنهم

بالمسلمي.
روى الطبري عن قتادة قال بلغنا أنّ النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ الآية " هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها"، ريد قوله تعالى {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} . وبقية ألفاظ الآية تقدّم تفسيرها في هذه السورة.
{ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } هم المشركون الذين كذّبوا بالقرآن.ووجه تعدية فعل التكذيب بـ (الباء) ليدلّ على معنى الإنكار.
الاستدراج، مشتق من الدَّرَجة (بفتحتين) وهي طبقة من البناء مرتفعة من الأرض بقدر ما ترتفع الرجل للارتقاء منها إلى ما فوقها تيسيرا للصعود في مثل العلو أو الصومعة أو البرج، وهي أيضا واحدة الأعواد المصفوفة في السلم يرتقى منها إلى التي فوقها، وتسمّى هذه الدرجة مرقاة.
والسين والتاء في فعل الاستدراج للطلب، أي طلب منه أن يتدرّج، أي صاعدا أو نازلا. والكلام تمثيل لحال القاصد إبدال حال أحد إلى غيرها بدون إشعاره، بحال من يطلب من غيره أن ينزل من درجة إلى أخرى.
{ **مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** } لتضمّن الاستدراج معنى الإيصال إلى مكان لا يعلمون ما يفضي إليه.
الإملاء، إفعال وهو الإمهال، يقال أملاه وملّاه إذا أمهله وأخّره.
{ **إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** } في موضع العلة للجملتين قبلها، فإنّ الاستدراج والإملاء ضرب من الكيد، وكيد الله متين أي قوي لا انفلات منه للمكيد.
الكيد، لم يضبط تحديد معناه في كتب اللغة، وظاهرها أنّه يرادف المكر والحيلة، وقال الراغب ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموما وممدوحا. وهو أخصّ من الحيلة ومن الاستدراج. وإطلاقه هنا جاء على طريقة التمثيلية.
المتين، القوي، وحقيقته القوي المتْن أي الظهر، لأن قوة متنه تمكنه من الأعمال الشديدة، ومتن كل شيء عموده وما يتماسك به.

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ }[184]

لمّا كان تكذيبهم بالآيات منبعثا عن تكذيبهم من جاء بها، وناشئا عن ظنّ أنّ آيات الله لا يجيء بها البشر وأنّ من يدعي أنّه مرسل من الله مجنون، عقب الإخبار عن المكذبين، ووعيدهم بدعوتهم للنظر في حال الرّسول، وانه ليس بمجنون كما يزعمون.
والجملة مستأنفة، وهي ابتداء كلام في محاجّتهم وتنبيههم، بعد الإخبار عنهم، بأنّهم مستدرجون ومملى لهم.
{ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا** } أي ألم يكونوا من المفكرين أهل النظر.

الصاحب، حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفر أو نحوه، وسميت الزوجة صاحبة، ويطلق مجازا على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر، تنزيلا لملازمة الذكر منزلة ملازمة الذات.
فوصف الرسول ﷺ بأنّه صاحب الذين كذبوا بالآيات: هو بمعنى الذي اشتغلوا بشأنه ولزموا الخوض في أمره، وقد تكرّر ذلك في القرآن كقوله تعالى {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} [التكوير:22]
الجِنّة، (بكسر الجيم) اسم للجنون وهو الخبال الذي يعتري الإنسان من اثر مس الجنّ إيّاه في عرف النّاس.
{ **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } استئناف بياني لجواب سائل منهم يقول: فماذا شأنه؟
النذير، المحذّر من شيء يضرّ، وأصله الذي يخبر القوم بقدوم عدوّهم.
المبين، اسم فاعل من أبان إذا أوضح، ووقوع هذا الوصف عقب الإخبار بنذير يقتضي أنّه وصف للخبر.
فالغرض من اتباع {النذير} بوصف {المبين} التعريض بالذين لم ينصاعوا لنذارته، ولم يأخذوا حذرهم من شرّ ما حذرهم منه، وذلك يقطع عذرهم.
ويجوز جعل{ مُبِينٌ } خبرا ثانيا عن ضمير صاحبهم، والمعنى أنّه نذير وأنّه مبين فيما يبلغه.
وفي هذا استغباء أو تسفيه لهم بأنّ حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البيّنة وحال هذيان المجنون. فدعواهم جنونه، إمّا غباوة منهم بحيث التبست عليهم الحقائق المتمايزة، وإمّا مكابرة وعناد وافتراء على الرسول.

{ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }[185]

ترق في الإنكار والتعجيب من حالهم في إعراضهم عن النظر في حال رسولهم، إلى الإنكار والتعجيب من إعراضهم عن النظر فيما هو أوضح من ذلك وأعمّ، وهو ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء ممّا هو آيات من آيات وحدانية الله تعالى التي دعاهم الرّسول ﷺ إلى الإيمان بها. والمناسبة بين الكلامين، أنّ دعوة الرّسول إلى التوحيد وإبطال الشرك هو من أكبر بواعثهم على تكذيبه { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [صّ:5]
{ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } المراد التأمّل بتدبّر، وهو التفكّر كقوله تعالى {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ} [الذريات:21]. تقول: نظرت في شأني، فدلّ بحرف الظرفية (في) على أنّ هذا التفكّر عميق متغلغل في أصناف الموجودات، وهي ظرفية مجازية.
الملكوت، الملك العظيم، وقد مضى عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [الأنعام:75]. وأضافته إلى السماء والأرض بيانيّة، أي الملك الذي هو السماوات والأرض أي ملك الله لهما.

فالمراد السماء بمجموعها، والأرض بمجموعها الدالين على عظم ملك الله تعالى.

{ **وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } عطف على {مَلَكُوتِ} فقسّم النظر إلى نظر في عظيم ملك الله تعالى، وإلى نظر في مخلوقاته ودقائق أحوالها الدالة على عظيم قدرة الله تعالى. فالنظر إلى عظمة السماوات والأرض دليل على عظم ملك الله تعالى فهو الحقيق بالإلهيّة دون غيره، والنظر إلى المخلوقات دليل على عظم قدرته تعالى، وأنّه المنفرد بالصنع فهو الحقيق بالإلهيّة.

{ **وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ** } صيغ الكلام على هذا النظم لإفادة تهويل الأمر عليهم وتخويفهم، بجعل متعلّق النظر من معنى الإخبار، للدلالة على أنّه أمر من شأنه أن يخطر في النفوس، وأن يتحدّث به النّاس، وأنّه قد صار حديثا وخبرا فكأنّه أمر مسلّم مقرّر.

ومعنى النظر في توقع اقتراب الأجل، التخوّف من ذلك.

الأجل المضاف إلى ضمير المكذّبين هو أجل الأمّة لا أجل الأفراد، لأنّ الكلام تهديد بأجل غير متعارف، نبّههم إلى التفكّر في توقّع حلول الاستئصال بهم وإهلاكهم كما هلك المكذّبون من قبلهم.

ويجوز أن يكون المراد بالأجل مجيء الساعة، وانقراض هذا العالم، فهو أجلهم وأجل غيرهم من النّاس فيكون تخويفا من يوم الجزاء.

{ **فَبِأَيِّ** } اسم أشرب معنى الاستفهام، فقوله { **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ** } سؤال عن الحديث المجهول المماثل للحديث المعروف بين السائل والمسؤول. وسيأتي الكلام على (أي) عند قوله تعالى {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ}[القلم:5، 6]. والاستفهام هنا مستعمل في الإنكار، أي لا يؤمنون بشيء من الحديث بعد هذا الحديث.

الحديث، الخبر والقصة الحادثة {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} [الذريات: 24]، ويطلق مجازا على الأمر الذي من شأنه أن يصير حديثا، وهو أعم من المعنى الحقيقي.

جاز هنا أن يراد به القرآن كما في قوله تعالى {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ} [الطور: 34] فيكون الضمير في قوله {بَعْدَهُ} أي بعد نزوله. وجاز أن يراد به دعوى محمد ﷺ الرسالة من عند الله. وكلا الاحتمالين يناسب قوله {أو لم يتفكروا ما بصاحبكم من جنة } [الأعراف: 184].

{ **بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** } مستعارة لمعنى (غير) لأنّ الظروف الدالة على المباعدة والمفارقة تستعمل استعمال المغاير قال تعالى {فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ} [الجاثية: 23]، وحمل بعد على حقيقتها هنا يحوج إلى تأويل، ويخرج الكلام عن سواء السبيل.

{ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }[186]

لإفادة أنّ ضلالهم أمر قدّر الله دوامه فلا طمع لأحد في هديهم.

وعطف جملة { وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } على جملة { مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ } للإشارة إلى استمرار ضلالهم وانتفاء هديهم في المستقبل كما وقع في الماضي.

{ وَيَذَرُهُمْ } تقدم عند قوله تعالى {وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا} في سورة الأنعام.

{ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} تقدم عند نظيره في سورة البقرة [15]

{ يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [187]

استئناف ابتدائي يُذكر به شيء من ضلالهم ومحاولة تعجيزهم النبي ﷺ بتعيين وقت الساعة.

ومناسبة هذا الاستئناف هي التعرّض لتوقّع اقتراب أجلهم في قوله {وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ} [185] سواء أفسر الأجل بأجل إذهاب أهل الشرك من العرب في الدنيا، وهو الاستئصال، أمّ فسّر بأجلهم وأجل بقية النّاس وهو قيام الساعة، فإنّ للكلام على الساعة مناسبة لكلا الأجلين.

فالسائلون هم المشركون، وروي ذلك عن قتادة. والضمير يعود إلى الذين كذبوا بآياتنا، وقد حكي عنهم مثل هذا السؤال في مواضع من القرآن، كقوله تعالى {يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [النازعات:42] وقوله {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} [النبأ:1، 3] يعنى البعث والساعة.

الساعة، معرّفة باللام علم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء هذا العالم الدنيوي والدخول في العالم الأخروي، وتسمى، يوم البعث، ويوم القيامة.

{ أَيَّانَ } اسم يدلّ على السؤال عن الزمان، وهو جامد غير متصرّف مركب من (أي) الاستفهامية و(آن) وهو الوقت، ثم خفّفت (أي) وقلبت همزة (آن) ياء ليتأتى الإدغام فصارت أيّان بمعنى، **أي زمان.**

المرسى، مصدر ميمي من الإرساء وهو الإقرار، يقال رسا الجبل ثبت وأرساه أثبته وأقرّه، والإرساء الاستقرار بعد السير. ومرسى السفينة استقرارها، قال تعالى {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود: 41].

{ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } أمر الله رسوله بجوابهم جواب جدّ وإغضاء عن سوء قصدهم بالسؤال، إظهارا لنفي الوصمة عن وصف النبوءة من جرّاء عدم العلم بوقت الساعة، وتعليما للذين يترقّبون أن يحصل من جواب الرسول عن سؤال المشركين علم للجميع بتعيين وقت الساعة فإذا أمر الساعة مما تتوجه النفوس إلى تطلبه، فقد ورد في الصحيح أنّ رجلا من المسلمين سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

الله متى الساعة فقال رسول الله: " ماذا أعددت لها "، فقال: " ما أعددت لها كبير عمل، إلّا أنّي أحبّ الله ورسوله" فقال ﷺ: " أنت مع من أحببت".

علم الساعة، أي علم وقتها.

{ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي** } الحصر حقيقي، لأنّه الاصل، لأنّ علم الساعة بالتحديد مقصور على الله تعالى.

التجلية، الكشف، والمراد بها ما يشمل الكشف بالإخبار والتعيين، والكشف بالإيقاع، وكلاهما منفي الإسناد عن غير الله تعالى، فهو الذي يعلم وقتها، وهو الذي يظهرها إذا أراد، فإذا أظهرها فقد أجلاها.

{ **لِوَقْتِهَا** } اللام للتوقيت كالتي في قوله تعالى {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} [الاسراء: 78] ومعنى التوقيت، قريب من معنى (عند).

{ **ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } معترضة لقصد الإفادة بهولها، والإيماء إلى حكمة إخفائها.

{ **ثَقُلَتْ** } يجوز أن يكون لمجرد الإخبار بشدّة أمرها كقوله {وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً}. ويجوز أن يكون تعجيبا بصيغة فعُل (بضم العين)، فتقدّر الضمة ضمة تحويل الفعل للتعجيب.

الثقل، مستعار للمشقّة كما يستعار العظم والكبر، لأنّ شدة وقع الشيء في النفوس ومشقته عليها تخيل لمن حلت به، أنّه حامل شيئا ثقيلا. ومنه قوله تعالى {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} [المزمل:5] أي شديدا تلقّيه، وهو القرآن.

ووصف الساعة بالثقل باعتبار ما هو مظروف في وقتها من الحوادث، فوصفها بذلك مجاز عقلي، والقرينة واضحة، وهي كون الثقل بمعنى الشدّة لا يكون وصفا للزمان، ولكنه وصف للأحداث فإذا أسند إلى الزمان، فإسناده إليه إنما هو باعتباره ظرفا للأحداث، كقوله {وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} [هود: 77]

وثقل الساعة هو عظم ما يحدث فيها من الحوادث المهولة في السماوات والأرض، من تصادم الكواكب، وانخرام سيرها، ومن زلازل الأرض وفيضان البراكين والبحار وجفاف المياه، ونحو ذلك مما ينشأ عن اختلال النظام الذي كان عليه سير العالم، وذلك كله يُحدث شدّة عظيمة على كل ذي إدراك من الموجودات.

{ **لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً** } مستأنفة جاءت تكملة للإخبار عن وقت حلول الساعة، لأنّ الإتيان بغتة يحقّق مضمون الإخبار عن وقتها بأنّه غير معلوم إلّا لله وبأنّ الله غير مظهره لأحد. وأمّا ما ذكر لها من أمارات في حديث سؤال جبريل عن أماراتها فلا ينافي إتيانها بغتة، لأنّ تلك الأمارات ممتدة الأزمان بحيث لا يحصل معها تهيؤ للعلم بحلولها.

البغتة، مصدر من البغْت وهو المفاجأة أي الحصول بدون تهيؤ له، وقد مضى القول فيها عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [الأنعام:31].

{ **يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا** } مؤكّدة لجملة {يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} ومبيّنة لكيفية سؤالهم فلذينك فصلت.

{ **حَفِيٌّ** } فعيل فيجوز أن يكون بمعنى فاعل مشتقا من (حَفِيَ به)إذا أكثر السؤال عن حاله تلطفا.

ويكون المعنى، كأنّك اكثرت السؤال عن وقتها حتّى علمته. فيكون وصف (حفيّ) كناية عن العالم بالشيء لأنّ كثرة السؤال تقتضي حصول العلم بالمسؤول عنه، وبهذا المعنى فسّر في الكشاف.

ويجوز أن يكون {حَفِيٌّ} مشتقا من حفي به كرضي به بمعنى بالغ في الإكرام فيكون مستعملا في صريح معناه، والتقدير كأنك حفي بهم أي مكرم لهم وملاطف، فيكون تهكما بالمشركين، أي يظهرون لك أنّك كذلك ليستنزلوك للخوض معهم في تعيين وقت الساعة، روي عن ابن عباس: " كأنك صديق لهم" . وقال قتادة: قالت قريش لمحمد: إنّ بيننا قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة فقال الله تعالى {يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}.

{ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ** } أكدت جملة الجواب الأولى تأكيدا لمعناها ليعلم أن ذلك الجواب لا يرجى غيره وأنّ الحصر المشتمل عليه قوله {إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} حصر حقيقي. وإبطالا لظن الذين يحسبون أن شان الرسل أن يكونوا عالمين بكل مجهول.

{ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }[188]

الجملة مستأنفة ابتدائية قصد من استئنافها الاهتمام بمضمونها، كي تتوجه الأسماع إليها، ولذلك أعيد الأمر بالقول مع تقدّمه مرتين. وخصّ هذا المقول بالإخبار عن حال الرّسول عليه الصلاة والسلام نحو معرفة الغيب ليقلع من عقول المشركين توهّم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوّة، وأنّ ذلك ليس بطاعن في نبوّته حتّى يستيئسوا من تحدّيه بذلك. وإعلاما للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوّة وما لا تقتضيه.

في تفسير البغوي، عن ابن عباس، أنّ أهل مكّة قالوا: " يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري فتربح عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجدب فترتحل منها إلى التي قد أخصبت" ، فأنزل الله تعالى: { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ }.

{ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً** } ومعنى الملك هنا الاستطاعة والتمكّن، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً} [المائدة: 76]، والمقصود منه هنا، ما يشمل العلم بالنفع والضر لأنّ المقام لنفي معرفة الغيب، ولأنّ العلم بالشيء هو موجب توجّه النفس إلى عمله.

وقدّم النفع في الذكر هنا، لأنّ النفع أحبّ إلى الإنسان، وعكس في آية المائدة لأنّ المقصود تهوين أمر معبوداتهم، وأنّها لا يخشى غضبها. وإنما عطف { وَلا ضَرّاً } مع أن المرء لا يتطلب إضرار نفسه، لأنّ

المقصود تعميم الأحوال. وجعل نفي أن يملك لنفسه نفعا أو ضرّا مقدّمة لنفي العلم بالغيب.
{ **إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** } والاستثناء من مجموع النفع والضرّ، أي إلّا ما شاء الله ان يُعْلمنيه ويقدّرني عليه.
وهذا يناسب ثبوت قدرة للعبد بجعل الله تعالى، وهي المسماة بالكسب. فإذا أراد الله أن يوجّه نفس الرسول عليه الصلاة والسلام إلى معرفة شيء مغيّب اطلعه عليه لمصلحة الأمة أو لإكرام الأمّة له، كقوله تعالى {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ - إلى قوله - لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [الأنفال: 44]
{ **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ** } تكملة للتبرؤ من معرفة الغيب. فحصل من مجموع الجملتين أنّه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب.
{ **إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } من تمام القول المأمور به وهي مستأنفة استئنافا بيانيا، ناشئا عن التبرؤ من أن يملك لنفسه نفعا أو ضرا، فبيّن لهم أنّ الرسالة منحصرة في النذارة على المفاسد وعواقبها والبشارة بعواقب الانتهاء عنها واكتساب الخيرات. وتقدّم الكلام على النذير البشير عند قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً} [البقرة:119]
{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يتنازع تعلقه كل من نذير وبشير، لأنّ الانتفاع بالأمرين يختصّ بالذين تهيّئوا إلى الإيمان بأن يتأمّلوا في الآيات وينهوا من أنفسهم ويقولوا الحق على آبائهم، دون الذين جعلوا ديدنهم التكذيب والإعراض والمكابرة،. فالمضارع مراد به الحال والاستقبال كما هو شأنه، ليشمل من تهيأ للإيمان حالا ومالا، وأما شموله لمن آمنوا فيما مضى فهو بدلالة فحوى الخطاب إذ هم أولى، وهذا على حد قوله تعالى {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا} [النازعات:45]

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [189] فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }[190]

جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، عاد بها الكلام إلى تقرير دليل التوحيد وإبطال الشرك من الذي سلف ذكره في قوله {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [172]. فالمناسب أن يكون الغرض الآخر كلاما موجّها من الله تعالى إلى المشركين لإقامة الحجّة عليهم بفساد عقولهم في إشراكهم وإشراك آبائهم.
وقد صدر ذلك بالتذكير بنعمة خلق النوع المبتدأ بخلق أصله وهو آدم وزوجه حواء تمهيدا للمقصود.
{ **مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** } جعل كثير من المفسرين النفس الواحدة آدم، وبعض المحقّقين منهم جعلوا الأب لكلّ أحد، وهو المأثور عن الحسن، وقتادة، ومشى عليه الفخر، والبيضاوي وابن كثير.
ووصفت النفس بواحدة على أسلوب الإدماج بين العبرة والموعظة، لأنّ كونها واحدة أدعى للاعتبار، إذ

ينسل من الواحدة أبناء كثيرون حتّى ربما صارت النفس الواحدة قبيلة أو أمّة ففي هذا الوصف تذكير بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظم القدرة وسعة العلم حيث بثه من نفس واحدة رجالا كثيرا ونساء.

{ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } عبّر في جانب الأنثى بفعل (جعل) لأنّ المقصود جعل الأنثى زوجا للذكر، لا الإخبار عن كون الله خلقها، لأنّ ذلك قد علم من قوله {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}.

السكون، مجاز في الاطمئنان والتأنّس، أي جعل من نوع الرجل زوجة ليألفها ولا يجفو قربها، ففي ذلك منّة الإيناس بها، وكثرة ممارستها لينساق إلى غشيانها.

{ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ } فإنّ الحمل في مبدئه لا تجد منه الحامل ألما، وليس المراد هنا حملا خاصا، ولكنّه الخبر عن كل حمل في أوّله، لأنّ المراد بالزوجين جنسهما، فهذه حكاية حالة تحصل منها عبرة أخرى، وهي عبرة تطوّر الحمل كيف يبتدئ خفيفا كالعدم، ثم يتزايد رويدا رويدا حتى يثقل.

{ فَمَرَّتْ بِهِ } حقيقة المرور، الاجتياز، ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء كقوله تعالى { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس: 12] أي نسي دعاءنا، وأعرض عن شكرنا لأنّ المار بالشيء لا يقف عنده ولا يسائله. فالمعنى لم تتفطن له، ولم تفكّر في شأنه، وكل هذا حكاية للواقع، وهو إدماج.

الإثقال، ثِقْل الحمل وكلفته، يقال أثقلت الحامل فهي مثقل وأثقل المريض فهو مثقل، والهمزة للصيرورة مثل أورق الشجر، فهو كما يقال أقربت الحامل فهي مقرب إذا قرب وضعها.

{ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا } إن حُمل على ظاهره، قلنا لا يخلو أبوان مشركان من أن يتمنّيا أن يكون لهما من الحمل مولود صالح، سواء نطقا بذلك أم أضمراه في نفوسهما، فإنّ مدّة الحمل طويلة، لا تخلو أن يحدث هذا التمنّي في خلالها، وإنّما يكون التمنّي منهم على الله، فإن المشركين يعترفون لله بالربوبيّة، وبأنّه هو خالق المخلوقات ومكوّنها، ولا حظ للآلهة إلّا في التصرّفات في أحوال المخلوقات، كما دلت عليه محاجات القرآن لهم نحو قوله تعالى {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس: 34].

وإن حُمل {دَعَوَا} على غير ظاهره، فتأويله أنّه مخصوص ببعض الأزواج الذين يخطر ببالهم الدعاء.

{ رَبَّهُمَا } المؤذنة بالرفق والإيجاد، للإشارة إلى استحضار الأبوين هذا الوصف عند دعائهما الله، أي يذكرانه باللفظ أو ما يفيد مفاده، ولعلّ العرب كانوا إذا دعوا بصلاح الحمل قالوا: ربنا آتانا صالحا.

{ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } مبيّنة لجملة {دَعَوَا اللَّهَ }

{ صَالِحاً } وصف جرى على موصوف محذوف، وظاهر التذكير أنّ المحذوف تقديره (ذكرا) وكان العرب يرغبون في ولادة الذكور. فالدعاء بأن يؤتيا ذكرا، وأن يكون صالحا، أي نافعا.

{ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا }

الشِّرك، مصدر شَرَكه في كذا، أي جعلا لله شركة، أي جعلا لله شريكا فيما آتاهما الله، والخبر مراد منه مع

الإخبار التعجيب من سفه آرائهم.
وهذا الشرك لا يخلو عنه أحد من الكفّار في العرب، وبخاصة أهل مكّة، فإنّ بعض المشركين يجعل ابنه سادنا لبيوت الأصنام، وبعضهم يحجر ابنه إلى صنم ليحفظه ويرعاه، وخاصة في وقت الصبا، وكل قبيلة تنتسب إلى صنمها الذي تعبده، وبعضهم يسمى ابنه: عبد كذا، مضافا إلى اسم صنم كما سموا عبد العزى، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد ياليل، وعبد ضخم، وكذلك امرؤ القيس، وزيد مناءة، لأنّ الإضافة على معنى التمليك والتعبيد.

{ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } أي تنزّه الله عن إشراكهم كله، ما ذكر منه آنفا من إشراك الوالدين مع الله فيما آتاهما، وما لم يذكر من أصناف إشراكهم. فهو متعال عن إشراكهم لا يليق به ذلك، وليس له شريك بحقّ. وهو إنشاء تنزيه غير مقصود به مخاطب.

وقد روى والترمذي وأحمد حديثا عن سمرة بن جندب، في تسويل الشيطان لحواء أن تسمي ولدها عبد الحارث، والحارث اسم إبليس، قال الترمذي حديث حسن غريب، ووسمه ابن العربي في أحكام القرآن بالضعف.

وقال بعض المفسّرين: الخطاب في {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} لقريش خاصة، والنفس الواحدة هو قصي بن كلاب تزوّج امرأة من خزاعة فلمّا آتاهما الله أولادا أربعة ذكورا سمى ثلاثة منهم عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وسمى الرابع (عبدا) بدون إضافة وهو الذي يدعى بعبد قصي.

{ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [191] وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [192]

هذه الآيات الثلاث كلام معترض بين الكلامين المسوقين لتوبيخ المشركين وإقامة الحجّة عليهم، مخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون، للتعجيب من عقول المشركين، وفيه تعريض بالرد عليهم لأنّه يبلغ مسامعهم. والاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار. وصيغة المضارع في {يُشْرِكُونَ} دالة على تجدّد هذا الإشراك منهم.

{ **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } ضمير الغيبة يجوز عندي أن يكون عائدا إلى ما عاد إليه ضمير {يُشْرِكُونَ}، أي والمشركون يُخلقون. ومعنى الحال زيادة تفظيع التعجيب من حالهم لإشراكهم بالله أصنافا لا تخلق شيئا في حال أنّ المشركين يتجدّد خلقهم، وهم يشاهدون الأصنام جاثمة لا تصنع شيئا.

والمفسّرون أعادوا ضمير {وَهُمْ يُخْلَقُونَ} على { مَا لا يَخْلُقُ} ، أي الأصنام، ولم يبيّنوا معنى كون الأصنام

مخلوقة وهي صور نحتها النّاس، فيتعيّن أنّ المراد أن مادتها مخلوقة وهي الحجارة.

{ **وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً** } الضمير المجرور باللام عائد إلى المشركين.

{ **وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** } تقديم المفعول للاهتمام بنفي هذا النصر عنهم، لأنّه أدلّ على عجز تلك الآلهة.

والظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيّلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم، إذ كان النصر أشدّ مرغوب لهم، فقد كانوا أهل غارات وقتال، فالانتصار من أهم الأمور لديهم.

{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ }[193]

يجوز أن يكون عطفا على جملة {أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً} [191] زيادة في التعجيب من حال المشركين بذكر تصميمهم على الشرك على ما فيه من سخافة العقول ووهن الدليل، بعد ذكر ما هو كاف لتزييفه.

فضمير الخطاب المرفوع في {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ} موجه إلى المسلمين مع الرسول ﷺ، وضمير جمع الغائب المنصوب عائد إلى المشركين كما عاد ضمير {أَيُشْرِكُونَ} فبعد أن عجّب الله المسلمين من حال أهل الشرك أنبأهم بأنّهم لا يقبلون الدعوة إلى الهدى، وذلك بالنظر إلى الغالب منهم، وإلّا فقد آمن بعضهم بعد حين وتلاحقوا بالإيمان.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** } مؤكدة لجملة {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ} فلذلك فصلت.

{ **سَوَاءٌ** } اسم للشيء المساوي غيره، أي سواء دعوتكم إيّاهم وصمتكم عن الدعوة.

(**عَلَيْكُمْ**) للاستعلاء المجازي وهي بمعنى العندية أي سواء عندهم.

{ **أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** } معادل { أَدَعَوْتُمُوهُمْ } مع اختلاف الأسلوب بين الجملتين بالفعلية والاسمية، فلم يقل أم صمتم، ففي تفسير القرطبي، عن ثعلب: أنّ ذلك لأنّه رأس آية، أي لمجرد الرعاية على الفاصلة. قال: وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد، أي الفعل والوصف المشتق منه سواء، يريد لا تفاوت بينهما في أصل المعنى لأنّ ما بعد همزة التسوية لما كان في قوة المصدر لم يكن فيه اثر للفرق بين الفعل والاسم. فيكون العدول إلى الجملة الاسمية ليس له مقتض من البلاغة بل هما عند البليغ سيّان، ولكن العدول إلى الاسمية من مقتضى الفصاحة، لأنّ الفواصل والأسجاع من أفانين الفصاحة، وفيهما تظهر براعة الكلام إذ يكون فيه إيفاء بحقّ الفاصلة مع السلامة من التكلّف، كما تظهر براعة الشاعر في توفيته بحق القافية إذا سلم مع ذلك من التكلف.

{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[194]

انتقال إلى مخاطبة المشركين، ولذلك صدر بحرف التوكيد، لأنّ المشركين ينكرون مساواة الأصنام إيّاهم في العبوديّة، وفيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } الأصنام، فتعريفها بالموصول لتنبيه المخاطبين على خطإ رأيهم في دعائهم إيّاها من دون الله.

العبد، اصله المملوك، ضد الحرّ، وقد أطلق في اللسان على المخلوق كما في قوله تعالى {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً} [مريم:93] ولذلك يطلق العبيد على النّاس.

والمشهور أنّه لا يطلق إلّا على المخلوقات من الآدميين، فيكون إطلاق العباد على الأصنام كإطلاق ضمير جمع العقلاء عليها بناء على الشائع في استعمال العرب يومئذ من الإطلاق. وجعله صاحب الكشاف إطلاق تهكّم واستهزاء بالمشركين. والأحسن عندي أن يكون إطلاق العباد عليهم مجازا بعلاقة الإطلاق عن التقييد روعي في حسنة المشاكلة التقديريّة، لأنّه لمّا ماثلهم بالمخاطبين في المخلوقيّة وكان المخاطبون عباد الله أطلق العباد على مماثليهم مشاكلة.

{ فَادْعُوهُمْ } الأظهر أنّ المراد بالدعوة المأمور بها الدعوة للنصر والنجدة. وبهذا يظهر أنّ أمر التعجيز كناية عن ثبوت عجز الأصنام عن إجابتهم، وعجز المشركين عن إظهار دعاء للأصنام تعقبه الاستجابة.

{ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ } أمر تعجيز للأصنام، وهذا أيضا كناية عن عجز الأصنام عن الاستجابة لعجزها عن تلقي التبليغ من عبدتها.

{ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ }[195]

تأكيد لما تضمّنته الجملة قبلها من أمر التعجيز وثبوت العجز، لأنّه إذا انتفت عن الأصنام أسباب الاستجابة تحقق عجزها عن الإجابة وتأكد معنى أمر التعجيز المكنى به عن عجز الأصنام وعجز عبدتها، والاستفهام إنكاري وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بانتفاء الملك الذي دلت عليه اللام.

ووصف الأرجل بـ **{يَمْشُونَ}** والأيدي بـ **{يَبْطِشُونَ}** والأعين بـ **{يُبْصِرُونَ}** والآذان بـ **{يَسْمَعُونَ}**، إمّا لزيادة تسجيل العجز عليهم فيما يحتاج إليه الناصر، وإمّا لأنّ بعض تلك الأصنام كانت مجعولة على صور الآدميين مثل هبل، وذي الكفين، وكعيب في صور الرجال، ومثل سواع كان على صورة امرأة.

فإذا كان لأمثال أولئك صور أرجل وأيد وأعين وآذان فإنها عديمة العمل الذي تختص به الجوارح، فلا يطمع طامع في نصرها. وخصّ الأرجل والأيدي والأعين والآذان، لأنّها آلات العلم والسعي والدفع للنصر، ولهذا لم يذكر الألسن لما علمت من أن الاستجابة مراد بها النجدة والنصرة.

{ **قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ** } إذن من الله لرسوله بأن يتحدّاهم بأنّهم إن استطاعوا استصرخوا أصنامهم لتتألّب على الكيد للرسول عليه السلام.

الكيد، الإضرار الواقع في صورة عدم الإضرار، كما تقدم عند قوله تعالى آنفا {وأملي لهم أن كيدي متين}.

{ **فَلا تُنْظِرُونِ** } تفريع على الأمر بالكيد، أي فإذا تمكنتم من إضراري فأعجلوا ولا تؤجّلوني.

وفي هذا التحدي تعريض بأنه سيبلغهم وينتصر عليهم ويستأصل آلهتهم وقد تحداهم بأتم أحوال النصر وهي الاستنصار بأقدر الموجودات في اعتقادهم.

{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [196] وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [197]

هذا من المأمور بقوله، وفصلت عن { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } لوقوعها موقع العلّة لمضمون التحدي { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } الذي هو تحقّق عجزهم عن كيده. فهذا تعليل لعدم الاكتراث بتألّبهم عليه واستنصارهم بشركائهم، ولثقته بأنّه منتصر عليهم.

الوليّ، الناصر والكافي، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام: 14]

{ **الْكِتَابَ** } التعريف للعهد، أي الكتاب الذي عهدتموه وسمعتموه وعجزتم عن معارضته وهو القرآن، أي المقدار الذي نزل منه إلى حد نزول هذه الآية.

{ **وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** } معترضة والواو اعتراضية. ومجيء المسند فعلا مضارعا لقصد الدلالة على استمرار هذا التولّي وتجدّده وأنّه سنّة إلهيّة، فكما تولّى النبيّ يتولى المؤمنين أيضا، وهذه بشارة للمسلمين المستقيمين على صراط نبيّهم ﷺ بأنّ ينصرهم الله كما نصر نبيّه وأولياءه.

الصالحون، هم الذين صلحت أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح.

{ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ** } سلوك طريق الموصوليّة في التعبير عن الأصنام للتنبيه على خطإ المخاطبين في دعائهم إيّاها من دون الله مع ظهور عدم استحقاقها للعبادة، بعجزها عن نصر اتباعها وعن نصر أنفسها.

{ **لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** } أعيد لأنّه هنا خطاب للمشركين، وهنالك حكاية عنهم للنبيّ والمسلمين، و إبانة المضادة بين شأن ولي المؤمنين وحال أولياء المشركين.

{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ }[198]

عطف على {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ}، أي قل للمشركين، وإن تدعوا الذين تدعون من دون الله إلى الهدى لا يسمعوا .فالضمير المرفوع للمشركين، والضمير المنصوب عائد إلى الأصنام.

{ إِلَى الْهُدَى} لتحقيق عدم سماع الأصنام، وعدم إدراكها، لأنّ عدم سماع دعوة ما ينفع لا يكون إلّا لعدم الإدراك. و الهدى على هذا الوجه ما فيه رشد ونفع للمدعو.

{ لا يَسْمَعُوا } خولف هناعن قوله في الآية السابقة { لا يَتَّبِعُوكُمْ }، لأنّ الأصنام لا يتأتّى منها الاتّباع، إذ لا يتأتّى منها المشي الحقيقي ولا المجازي أي الامتثال.

{ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ } الخطاب لمن يصلح أن يخاطب فهو من خطاب غير المعين. ومعنى ينظرون إليك على التشبيه البليغ، أي تراهم كأنهم ينظرون إليك. لأنّ صور كثير من الأصنام كان على صور الأناسيّ وقد نحتوا لها أمثال الحدق الناظرة إلى الواقف أمامها.

{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }[199]

أشبعت هذه السورة من أفانين قوارع المشركين وعظتهم وإقامة الحجّة عليهم، وبعثتهم على التأمّل والنظر في دلائل وحدانية الله وصدق رسوله ﷺ وهدى دينه وكتابه، وفضح ضلال المشركين وفساد معتقدهم والتشويه بشركائهم. وقد تخلّل ذلك كلّه التسجيل بمكابرتهم، والتعجيب منهم كيف يركبون رؤوسهم، وكيف ينأون بجانبهم، وكيف يصمّون أسماعهم، ويغمضون أبصارهم عمّا دعوا إلى سماعه وإلى النظر فيه.

ونُظرت أحوالهم بأحوال الأمم الذين كذّبوا من قبلهم، وكفروا نعمة الله فحلّ بهم ما حلّ من أصناف العذاب. وأنذر هؤلاء بأن يحلّ بهم ما حل بأولئك، ثم أعلن باليأس من ارعوائهم، وبانتظار ما سيحلّ بهم من العذاب بأيدي المؤمنين. وبتثبيت الرسول والمؤمنين وتبشيرهم والثناء على ما هم عليه من الهدى، فكان من ذلك كله عبرة للمتبصّرين، ومسلاة للنبي وللمسلمين، وتنويه بفضلهم.

وإذ قد كان من شأن ذلك أن يثير في أنفس المسلمين كراهية أهل الشرك وتحفّزهم للانتقام منهم ومجافاتهم والإعراض عن دعائهم إلى الخير، لا جرم شرع في استئناف غرض جديد، يكون ختاما لهذا الخوض البديع، وهو غرض أمر الرسول والمؤمنين بقلّة المبالاة بجفاء المشركين وصلابتهم، وبأن يسعوهم من عفوهم والدأب على محاولة هديهم والتبليغ إليهم بقوله {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}.

الأخذ، حقيقته تناول شيء للانتفاع به أو لاضراره، كما يقال: أخذت العدو من تلابيبه، ولذلك يقال في الأسير أخيذ. واستعمل هنا مجازا للتلبّس بالوصف.

خذ العفو، عامل به واجعله وصفا ولا تتلبّس بضدّه. وأحسب استعارة الأخذ للعفو من مبتكرات القرآن.
العفو الصفح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته بذنبه، وتقدّم عند قوله تعالى {وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة: 219]. والمراد به هنا ما يعمّ العفو عن المشركين وعدم مؤاخذتهم بجفائهم ومساءتهم الرّسول والمؤمنين. وقد عمت الآية صور العفو كلّها، لأنّ التعريف في العفو تعريف الجنس فهو مفيد للاستغراق.
فأُمر الرسول ﷺ بأن يعفو ويصفح وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال تعالى {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [آل عمران: 159]. ولا يخرج عن هذا العموم من أنواع العفو أزمانه وأحواله إلّا ما أخرجته الأدلة الشرعية مثل العفو عن القاتل غيلة، ومثل العفو عن انتهاك حرمات الله، والرّسول أعلم بمقدار ما يخصّ من هذا العموم وقد يبيّنه الكتاب والسنّة، وألحق به ما يقاس على ذلك المبيّن. وفي قوله {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} ضابط عظيم لمقدار تخصيص الأمر بالعفو.
عن عبد الله بن الزبير قال: " ما أنزل الله ذلك إلّا في أخلاق النّاس، ومن قال إنّ هذه الآية نسختها آيات القتال فقد وهم، لأنّ العفو باب آخر، وأمّا القتال فله أسبابه".
{ **الْعُرْفِ** } اسم مرادف للمعروف من الأعمال وهو الفعل الذي تعرفه النفوس، أي لا تنكره إذا خليت وشأنها بدون غرض لها في ضدّه. و تقدم بيانه عند قوله تعالى {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران :110].
{ **وَأْمُرْ** } والأمر يشمل النهي عن الضدّ، فإنّ النهي عن المنكر أمر بالمعروف، والأمر بالمعروف نهي عن المنكر، لأنّ الأمر بالشيء نهي عن ضده، فالاجتزاء بالأمر بالعرف عن النهي عن المنكر من الإيجاز، وإنّما اقتصر على الأمر بالعرف هنا: لأنه الأهم في دعوة المشركين لأنه يدعوهم إلى أصول المعروف واحدا بعد واحد، كما ورد في حديث معاذ بن جبل حين أرسله إلى أهل اليمن فإنّه أمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله ثم قال فإّن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات. ولو كانت دعوة المشركين مبتدأه بالنهي عن المنكر لنفروا ولملّ الداعي، لأنّ المناكير غالبة عليهم ومحدّقة بهم.
الإعراض، إدارة الوجه عن النظر للشيء، مشتق من العارض وهو الخد، فإنّ الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء. وقد فسّر ذلك في قوله تعالى {أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} [الاسراء: 83] وهو هنا مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد.
الجهل، هنا ضدّ الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلّهم، لأنّ التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلها سفاهة لا تعدلها سفاهة. ثم يشمل كل سفيه رأي.

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوا عن اعتداء فتدخل في {خُذِ الْعَفْوَ} ، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} ، أو فعل خير واتساما بفضيلة فتدخل في {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: " في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها". وهي صالحة لأن يبيّن بعضها بعضا فإنّ الأمر بأخذ العفو يتقيّد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيّد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو النّاس إلى الخير بلين ورفق.

{ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[200]

وهذا الأمر مراد به رسول الله ﷺ ابتداء وهو شامل لأمّته.

{ إمّا } هذه (إن) الشرطية اتصلت بها (ما) الزائدة التي تزاد على بعض الأسماء غير أدوات الشروط فتصيّرها أدواتها، نحو (مهما) فإنّ أصلها ما، ونحو (إذ ما) و (أينما) و (أيا نما) و (حيثما) و (كيفما).

النزغ، النخس والغرز، كذا فسّره في الكشاف وهو التحقيق. وقال ابن عطية: " وقلما يستعمل في غير فعل الشيطان" {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف: 100]

وإطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة، شبّه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي، وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرءان حتّى صارت كالحقيقة.

والمعنى، إن ألقى إليك الشيطان ما يخالف هذا الأمر، بأن سوّل لك الأخذ بالمعاقبة أو سوّل لك ترك أمرهم بالمعروف غضبا عليهم أو يأسا من هداهم، فاستعذ بالله منه ليدفع عنك حرجه ويشرح صدرك لمحبة العمل بما أمرت به.

الاستعاذة، مصدر طلب العوذ فالسين والتاء فيها للطلب، والعوذ الالتجاء إلى شيء يدفع مكروها عن الملتجئ، يقال: عاذ بفلان، وعاذ بالحرم، وأعاذه إذا منعه من الضر الذي عاذ من أجله.

والعوذ بالله هو الالتجاء إليه بالدعاء بالعصمة، أو استحضار ما حدّده الله له من حدود الشريعة. وهذا أمر لرسول الله ﷺ على الالتجاء إلى الله فيما عسر عليه، فإنّ ذلك شكر على نعمة الرسالة والعصمة، فإنّ العصمة من الذنوب حاصلة له، ولكنّه يشكر الله بإظهار الحاجة إليه لإدامتها عليه. وهذا مثل استغفار الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله في حديث صحيح مسلم: " إنه ليُغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة". فالشيطان لا ييأس من إلقاء الوسوسة للأنبياء لأنّها تنبعث عنه بطبعه، وإنّما يترصّد لهم مواقع خفاء مقصده طمعا في زلّة تصدر عن أحدهم، وإن كان قد علم أنّه لا يستطيع إغواءهم، ولكنّه لا

يفارق رجاء حملهم على التقصير في مراتبهم، ولذلك علّم الله رسوله عليه الصلاة والسلام الاستعانة على دفعها بالله تعالى.

روى الدارقطني أنّ النبي ﷺ قال: " ما منكم من أحد إلّا وقد وكلّ به قرينه من الجنّ وقرينه من الملائكة" قالوا وأنت يا رسول الله، قال " وأنا ولكن الله أعانني عليه فأسلم ". روي قوله فأسلم بفتح الميم بصيغة الماضي والهمزة أصلية، أي صار الشيطان المقارن له مسلما، وهي خصوصية للنبي ﷺ، وروي بضم الميم بصيغة المضارع، والهمزة للمتكلم، أي فأنا أسلمُ من وسوسته.

وهذا الأمر شامل للمؤمنين وحظ المؤمنين منه أقوى لأن نزغ الشيطان إيّاهم أكثر.

{ **إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } في موقع العلّة للأمر بالاستعاذة من الشيطان بالله، على ما هو شأن حرف (إنّ) إذا جاء في غير مقام دفع الشك أو الإنكار. أي أمرناك بذلك لأنّه يعصمك من وسوسته لأنّ الله سميع عليم.

السميع، العالم بالمسموعات، وهو مراد منه معناه الكنائي، أي عليم بدعائك مستجيب قابل للدعوة.

{ **عَلِيمٌ** } زيادة في الإخبار بعموم علمه تعالى بالأحوال كلّها.

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ }[201]

هذا تأكيد وتقرير للأمر بالاستعاذة من الشيطان، فتتنزّل الآية منزلة التعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان إذا أحسّ بنزغه. ولذلك افتتحت بـ (إنّ) التي هي لمجرد الاهتمام لا لرد تردّد أو إنكار.

فيكون الأمر بالاستعاذة حينئذ قد علّل بعلّتين، أولاهما أنّ الاستعاذة بالله منجاة للرسول عليه الصلاة والسلام من نزغ الشيطان، والثانية أنّ في الاستعاذة بالله من الشيطان تذكّرا لواجب مجاهدة الشيطان والتيقّظ لكيده، وأنّ ذلك التيقّظ سنّة المتّقين. وقد جاءت العلّة هنا أعم من المعلّل، لأنّ التذكّر أعمّ من الاستعاذة.

ولعل الله ادخر خصوصية الاستعاذة لهذه الأمّة، فكثر في القرآن الأمر بالاستعاذة من الشيطان وكثر ذلك في أقوال النبي، ﷺ، كما ادخر لنا يوم الجمعة.

التَّقْوَى، تقدّم بيانها عند قوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:2]، والمراد بهم، الرسل وصالحو أممهم، لأنّه أريد جعلهم قدوة وأسوة حسنة.

المسّ، حقيقته وضع اليد على الجسم، واستعير للإصابة أو لأدنى الإصابة.

الطائف، هو الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له، أطلق هنا على الخاطر الذي يخطر في النفس يبعث على فعل شيء نهى الله عن فعله، شبه ذلك الخاطر في مبدإ جولاته في النفس بحلول الطائف قبل أن يستقر.

وكانت عادة العرب أنّ القادم إلى أهل البيت، العائذ برب البيت، المستأنس للقرى يستأنس، فيطوف بالبيت، ويستأذن.

{ **إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا** } (إذا) مع التعبير بفعل {مَسَّهُمْ } الدال على إصابة غير مكينة، إشارة إلى الفزع إلى الله من الشيطان، عند ابتداء إلمام الخواطر الشيطانية بالنّفس، لأنّ تلك الخواطر إذا أُمهلت لم تلبث أن تصير عزما ثم عملا.

التذكّر، استحضار المعلوم السابق. والمراد، تذكّروا أوامر الله ووصاياه، كقوله {ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}[آل عمران: 135] ويشمل التذكّر، تذكّر الاستعاذة.

{ **فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** } الفاء لتفريع الإبصار على التذكّر. وأكد معنى فاء التعقيب بـ (إذا) الفجائيّة الدالة على حصول مضمون جملتها دفعة بدون تريّث. أي تذكّروا تذكّر ذوي عزم، فلم تتريّث نفوسهم أن تبيّن لها الحقّ الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية، فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكّرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم.

وقد استعير الإبصار للاهتداء كما يستعار العمى للضلال، أي فإذا هم مهتدون ناجون من تضليل الشيطان، لأنّ الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك. ووصفهم باسم الفاعل دون الفعل للدلالة على أنّ الإبصار ثابت لهم من قبل، وليس شيئا متجدّدا، ولذلك اخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات.

{ وَإِخْوَانُـهُمْ يَمُدُّونَـهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ } [202]

عطف الضدّ على ضدّه، فلمّا ذكر شأن المتّقين في دفعهم طائف الشياطين، ذكر شأن أضدادهم من أهل الشرك والضلال.

الإخوان، جمع أخ على وزن فعلان. وحقيقة الأخ المشارك في بنوة الأم والأب أو في بنوة أحدهما ويطلق الأخ مجازا على الصديق الودود، ومنه ما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وقول أبي بكر للنبيّ ﷺ لما خطب النبي منه عائشة إنما أنا أخوك فقال له النبي ﷺ: " أنت أخي وهي حلال لي". ويطلق الأخ على القرين كقولهم أخو الحرب، وعلى التابع الملازم.

{ **وَإِخْوَانِهِمْ** } الضمير عائد إلى غير مذكور في الكلام، إذ لا يصح أن يعود إلى المذكور قبله قريبا، لان الذي ذكر قبله {الذين اتقوا} فلا يصح أن يكون الخبر، فيحتمل أن يكون الضمير عائدا على معلوم من السياق وهم الجماعة المتحدّث عنهم في هذه الآيات أعني المشركين، ولهذا قال الزجاج: " هذه الآية متصلة في المعنى بقوله {وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [192] "، أي وإخوان المشركين، أي أقاربهم ومن هو من قبيلتهم وجماعة دينهم، أي يمدّ المشركون بعضهم بعضا في الغي ويتعاونون عليه فلا مخلص لهم من الغي.

ويجوز أن يعود الضميران إلى الشيطان المذكور آنفا باعتبار إرادة الجنس أو الأتباع.

{ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ } فالمعنى: وإخوانهم يمدون لهم في الغي، من مدّ للبعير في الطول. أي يطيلون لهم الحبل في الغيّ، تشبيها لحال أهل الغواية وازديادهم فيها بحال النعم المطال لها الطول في المرعى.

الغي، الضلال وقد تقدّم آنفا.

ويجوز أن يكون المراد من الإخوان الأولياء، ويكون الضميران للمشركين أيضا، أي وإخوان المشركين وأوليائهم، فيكون { الإخوان } صادقا بالشياطين كما فسر قتادة، لأنّه إذا كان المشركون إخوان الشياطين، كما هو معلوم، كان الشياطين إخوانا للمشركين، لأن نسبة الإخوة تقتضي جانبين، وصادقا بعظماء المشركين، فالخبر جار على من هو له، وقد كانت هذه المعاني مجتمعة في هذه الآيات بسبب هذا النظم البديع.

{ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ } للترتيب الرتبي أي وأعظم من الإمداد لهم في الغي أنّهم لا يألونهم جهدا في الازدياد من الإغواء، فلذلك تجد إخوانهم اكبر الغاوين.

{ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [203]

معطوفة على جملة {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [199] والمناسبة أنّ مقالتهم هذه من جهالتهم.

الآية، يجوز أن يراد بها خارق العادة، أي هم لا يقنعون بمعجزة القرآن فيسألون آيات كما يشاءون، مثل قولهم: فجر لنا من الأرض ينبوعا. وهذا المعنى هو الذي شرحناه عند قوله تعالى {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [الأنعام:109].وروي هذا المعنى عن مجاهد، والسدّي، والكلبي.

ويجوز أن يراد آية من القرآن يقترحون فيها مدحا لهم ولأصنامهم. روي عن جابر بن زيد وقتادة: " كان المشركون إذا تأخّر الوحي يقولون للنبيّ هلا أتيت بقرآن من عندك يريدون التهكّم".

{ لَوْلا } حرف تحضيض مثل (هلّا).

الاجتباء، الاختيار، والمعنى، هلا اخترت آية وسألت ربك أن يعطيكها.

{ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي } الجواب الذي أمر الرسول ﷺ بأن يجيب به صالح للمعنيين.

الاتباع، مستعمل في معنى الاقتصار والوقوف عند الحدّ، أي لا اطلب آية غير ما أوحى الله إليّ، ويعضد هذا ما في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: " ما من الأنبياء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".

{ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

مستأنفة لابتداء كلام في التنويه بشأن القرآن. منقطعه عن المقول، للانتقال من غرض إلى غرض بمنزلة التذييل لمجموع أغراض السورة، والخطاب للمسلمين.

ويجوز أن تكون من تمام القول المأمور بأن يجيبهم به، فيكون الخطاب للمشركين ثم وقع التخلص لذكر المؤمنين بقوله { وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

{ **هَذَا بَصَائِرُ** }الإشارة إلى القرآن، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما تقدّم من السورة أو من المحاجّة الأخيرة منها.

البصائر، جمع بصيرة وهي ما به اتّضاح الحقّ، وقد تقدّم عند قوله تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأنعام:104]. وهذا تنويه بشأن القرآن وأنّه خير من الآيات التي يسألونها، لأنّه يجمع بين الدلالة على صدق الرسول بواسطة دلالة الإعجاز وصدوره عن الأمّيّ، وبين الهداية والتعليم والإرشاد، والبقاء على العصور.

وإنّما جمع { البصائر} لأنّ في القرآن أنواعا من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها، من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد، وتسديد الفهم في الدين، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين النّاس، والدلالة على طرق النجاح والنجاة في الدنيا، والتحذير من مهاوي الخسران.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } ترغيب للمؤمنين وتخويف للكافرين.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةٌ** } أفردا لأنّهما جنسان عامان يشملان أنواع البصائر، فالهدى يقارن البصائر والرحمة غاية.

الرحمة، ما يشمل رحمة الدنيا وهي استقامة أحوال الجماعة وانتظام المدنية، ورحمة الآخرة وهي الفوز بالنعيم الدائم كقوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل:97].

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يتنازعه (بصائر) و(هدى) و(رحمة)، لأنه إنّما ينتفع به المؤمنون،وهو تعريض بان غير المؤمنين ليسوا أهلا للانتفاع به وأنّهم لهوا عن هديه بطلب خوارق العادات.

{ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }[204]

يؤذن العطف بأنّ الخطاب بالأمر في قوله{فَاسْتَمِعُوا - وَأَنْصِتُوا} وفي قوله {لَعَلَّكُمْ} تابع للخطاب في قوله {هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ}. فقوله {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ} من جملة ما أُمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم، وذلك إعادة تذكير للمشركين تصريحا أو تعريضا بأن لا يعرضوا عن استماع القرآن، وبأن يتأمّلوه ليعلموا أنّه آية عظيمة، وأنّه بصائر وهدى ورحمة، لمن يؤمن به ولا يعاند. وقد علم من أحوال المشركين أنّهم كانوا يتناهون عن الإنصات إلى القرآن {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَغْلِبُونَ} [فصلت:26].

{ **الْقُرْآنُ** } ذكر اسم القرآن إظهار في مقام الإضمار، لأنّ القرآن تقدّم ذكره بواسطة اسم الإشارة فنكتة هذا الإظهار التنويه بهذا الأمر، وجعل جملته مستقلّة بالدلالة غير متوقفة على غيرها، وهذا من وجوه الاهتمام بالكلام.

الاستماع، الإصغاء وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل.

الإنصات، الاستماع مع ترك الكلام، فهذا مؤكد لا تسمعوا. مع زيادة معنى.

ويجوز أن يكون الاستماع مستعملا في معناه المجازي، وهو الامتثال للعمل بما فيه، كما تقدّم آنفا في قوله {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا} [198] ويكون الإنصات جامعا لمعنى الإصغاء وترك اللغو.

وهذا الخطاب شامل للكفّار على وجه التبليغ، وللمسلمين على وجه الإرشاد، لأنّهم أرجى للانتفاع بهديه.

فالاستماع والإنصات المأمور بهما، هما المؤدّيان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول ﷺ المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين.

وقد اتفق علماء الأمّة على أن ظاهر الآية بمجرّده في صور كثيرة مؤوّل. فلا يقول أحد منهم بأنّه يجب على كلّ مسلم إذا سمع أحدا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله، ولكنّهم اختلفوا في محمل تأويلها؛

فمنهم من خصّها بسبب رأوا أنّه سبب نزولها، فرووا عن أبي هريرة أنّها نزلت في قراءة الإمام في الجهر.

وما قالوه في ذلك إنّما هو تفسير وتأويل وليس فيه شيء مأثور عن النبي ﷺ.

ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنّهم تأولوه على أمر الندب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية.

{ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ }[205]

إقبال بالخطاب على النبي ﷺ فيما يختصّ به، بعد أن أُمر بما أُمر بتبليغه من الآيات المتقدّمة، والمناسبة في هذا الانتقال أنّ أمر النّاس باستماع القرآن يستلزم أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن عليهم قراءة جهريّة يسمعونها. فلما فرغ الكلام من حظّ النّاس نحو قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام، أقبل على الكلام في حظّ الرسول ﷺ من القرآن وغيره، وهو التذكّر الخاص به. فأُمر بأن يذكر الله ما استطاع وكيفما

تسنّى له وفي أوقات النهار المختلفة.

النفس، اسم للقوّة التي بها الحياة، فهي مرادفة الروح، وتطلق على الذات المركّبة من الجسد والروح. ولكون مقر النفس في باطن الإنسان أطلقت على أمور باطن الإنسان من الإدراك والعقل كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي} [المائدة: 116]. ومن ذلك يتطرق إلى إطلاقها على خويصة المرء، ومنه قوله في الحديث القدسي في صحيح البخاري: " وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم"، فقابل قوله في نفسه بقوله في ملإٍ.

والمعنى، اذكر ربك وأنت في خلوتك كما تذكره في مجامع النّاس.

الذكر، حقيقة في ذكر اللسان، وهو المراد هنا، ويعضده قوله {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ} وذلك يشمل قراءة القرآن وغير القرآن من الكلام الذي فيه تمجيد الله وشكره ونحو ذلك، مثل كلمة التوحيد والحوقلة والتسبيح والتكبير والدعاء.

التضرّع، التذلّل، ولمّا كان التذلّل يستلزم الخطاب بالصوت المرتفع في عادة العرب، كني بالتضرع عن رفع الصوت مرادا به معناه الأصلي والكنائي، ولذلك قوبل بالخفية في قوله {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً}[55].

وقوبل التضرع هنا بـ { **خِيفَةً** } وهي اسم مصدر الخوف، فهو من المصادر التي جاءت على صيغة الهيئة وليس المراد بها الهيئة، مثل الشدّة. لأنّه لمّا كانت الخيفة انفعالا نفسيا يجده الإنسان في خاصة نفسه كانت مستلزمة للتخافت بالكلام خشية أن يشعر بالمرء من يخافه، فلذلك **كني بها هنا عن الإسرار بالقول مع الخوف من الله**، فمقابلتها بالتضرّع طباق في معنيي اللفظين الصريحين ومعنييهما الكناءين، فكأنه قيل تضرعا وإعلانا وخيفة وإسرارا.

{ **وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ** } هو مقابل لكلّ من التضرّع والخيفة، وهو الذكر المتوسّط بين الجهر والإسرار. والمقصود من ذلك استيعاب أحوال الذكر باللسان، لأنّ بعضها قد تكون النفس أنشط إليه منها إلى البعض الآخر.

الغدو، اسم لزمن الصباح وهو النصف الأوّل من النّهار.

الآصال، جمع أصيل وهو العشي وهو النصف الثاني من النّهار إلى الغروب.

والمقصود استيعاب أجزاء النهار بحسب المتعارف.

{ **وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ** } التحذير من الغفلة عن ذكر الله، ولا حدّ للغفلة، فإنها تحدّد بحال الرسول، ﷺ وهو أعلم بنفسه، فإنّ له أوقاتا يتلقى فيها الوحي وأوقات شؤون جبليّة كالطعام. وهذا الأمر خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، وكل ما خص به الرسول عليه الصلاة والسلام من الوجوب يُستحسن للأمّة اقتداؤهم به فيه إلّا ما نهوا عنه مثل الوصال في الصوم.

وقد تقدم أن هذا التركيب أشد في الانتفاء وفي النهي من نحو، (ولا تغفل)، لأنّه يفرض جماعة يحقّ عليهم وصف الغافلين، فيحذر من أن يكون في زمرتهم، وذلك أبين للحالة المنهي عنها.

{ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [206]

تتنزل منزلة العلّة للأمر بالذكر، ولذلك صدرت {إِنَّ} التي هي لمجرد الاهتمام بالخبر، لا لرد تردد أو إنكار، لأن المخاطب منزه عن أن يتردد في خبر الله تعالى، فحرف التوكيد في مثل هذا المقام يغني غناء فاء التفريع، ويفيد التعليل كما تقدم غير مرة.

المعنى، الحث على تكرر ذكر الله في مختلف الأحوال، لأن المسلمين مأمورون بالاقتداء بأهل الكمال من الملإ الأعلى، وفيها تعريض بالمشركين المستكبرين عن عبادة الله بأنّهم منحطّون عن تلك الدرجات.

{ **الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ** } الملائكة، ووجه جعل حال الملائكة علة لأمر النبي ﷺ بالذكر، أنّ مرتبة الرسالة تلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة.

فليس في هذا التعليل ما يقتضي أن يكون الملائكة افضل من الرسل، كما يتوهمه المعتزلة لأنّ التشبّه بالملائكة من حيث كان الملائكة أسبق في هذا المعنى لكونه حاصلا منهم بالجبلة فهم مثل فيه، ولا شبهة في أنّ الفريق الذين لم يكونوا مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة، إذا تخلقوا بمثل خلق الملائكة، كان سموّهم إلى تلك المرتبة أعجب، واستحقاقهم الشكر والفضل له أجدر.

{ **عِنْدَ** } مستعمل مجازا في رفعة المقدار، والحظوة الإلهية.

{ **لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** } ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنما أريد به التعريض بالمشركين وأنّهم على النقيض من أحوال الملائكة المقرّبين، فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة.

{ **وَيُسَبِّحُونَهُ** } أي ينزّهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص، وهذه الصلة هي المقصودة من التعليل للأمر بالذكر.

{ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره، وهذا أيضا تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره، والمضارع يفيد الاستمرار أيضا.

وهنا موضع سجود من سجود القرآن، وهو أولها في ترتيب الصحف، وهو من المتفق على السجود فيه بين علماء الأمّة، ومقتضى السجدة هنا أن الآية جاءت للحضّ على التخلّق بأخلاق الملائكة في الذكر، فلما أخبرت عن حالة من أحوالهم في تعظيم الله وهو السجود لله، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبادر

بالتشبه بهم تحقيقا للمقصد الذي سبق هذا الخبر لأجله.

وقد دل استقراء مواقع سجود القرآن أنّها لا تعدو أن تكون إغاظة للمشركين، أو اقتداء بالأنبياء أو المرسلين كما قال ابن عباس في سجدة، {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ} [صّ: 24] أن الله تعالى قال: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]، فداود ممن أمر محمد ﷺ بأن يقتدي به.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنفال

روى الواحدي في (أسباب النزول) عن سعد بن أبي وقاص قال: " لمّا كان يوم بدر، قُتل أخي عمير وقتلتُ سعيد بن العاصي فأخذت سيفه فأتيت به النبي ﷺ فقال: " اذهب القَبَض " (بفتحتين، الموضع الذي تجمع فيه الغنائم)، فرجعت في ما لا يعلمه إلّا الله، قُتل أخي وأُخذ سلبي فما جاوزت قريبا حتّى نزلت سورة الأنفال" .

وأخرج البخاري، عن سعيد بن جبير، قال: " قلت لابن عباس: سورة الأنفال، قال : نزلت في بدر".

فباسم الأنفال عرفت بين المسلمين وبه كتبت تسميتها في المصحف حين كتبت أسماء السور في زمن الحجّاج، ولم يثبت في تسميتها حديث. وتسميتها سورة الأنفال من أنّها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال، ومن أجل أنّها ذُكر فيها حكم الأنفال كما سيأتي. وتسمّى أيضا سورة بدر لحديث سعيد بن جبير السابق.

وقد اتفق رجال الأثر كلّهم على أنّها نزلت في غزوة بدر. قال ابن إسحاق: " أنزلت في أمر بدر سورة الأنفال بأسرها، وكانت غزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة بعد عام ونصف من يوم الهجرة، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين، وكان ابتداء نزولها قبل الانصراف من بدر، فإنّ الآية الأولى منها نزلت والمسلمون في بدر قبل قسمة مغانمها، كما دلّ عليه حديث سعد بن أبي وقاص".

والظاهر أنّها استمر نزولها إلى ما بعد الانصراف من بدر.

وفي كلام أهل أسباب النزول ما يقتضي أنّ آية { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً - إلى- مَعَ الصَّابِرِينَ} [66] نزلت بعد نزول السورة بمدة طويلة، كما روي عن ابن عباس، وسيأتي تحقيقه هنالك.

وقال جماعة من المفسرين إنّ آيات {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ – إلى - لا يَفْقَهُونَ} [64، 65] نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل ابتداء القتال، فتكون تلك الآية نزلت قبل نزول أوّل السورة.

نزلت هذه السورة بعد سورة البقرة، أي هي الثانية نزولا بالمدينة، وقيل نزلت البقرة ثم آل عمران ثم الأنفال، والأصحّ أنّها ثانية السور بالمدينة نزولا، بعد سورة البقرة.

وقد بيّنت في المقدّمات أنّ نزول سورة بعد أخرى لا يفهم منه أنّ التالية تنزل بعد انقضاء نزول التي قبلها، بل قد يبتدأ نزول سورة قبل انتهاء السورة التي ابتدئ نزولها قبل. ولعلّ سورة الأنفال قد انتهت قبل انتهاء نزول سورة البقرة، لأنّ الأحكام التي تضمنتها سورة الأنفال من جنس واحد وهي أحكام المغانم والقتال، وتفننت أحكام سورة البقرة أفانين كثيرة.

وقد عدّت السورة التاسعة والثمانين في عداد نزول سور القرآن.

وعدد آيها، في عدّ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة، ست وسبعون، وفي عدّ أهل الشام سبع وسبعون، وفي عد أهل الكوفة خمس وسبعون.

أغراض السورة

ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها.

والأمر بتقوى الله في ذلك وغيره.

والأمر بطاعة الله ورسوله، في أمر الغنائم وغيرها.

وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم، وأنّ ذلك من مقوّمات معنى الإيمان الكامل.

وذكر الخروج إلى غزوة بدر، وخوفهم من قوة عدد الأعداء وما لقوا فيها من نصر. وتأييد الله لهم ولطفه بهم، وامتنان الله عليهم بان جعلهم أقوياء، ووعدهم بالنصر إن اتقوا بالثبات للعدو، والصبر.

والأمر بالاستعداد لحرب الأعداء.

والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع.

والأمر بان يكون قصد النصرة للدين نصب أعينهم.

ووصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر.

وذكر مواقع الجيشين، وصفات ما جرى من القتال.

وتذكير النبي ﷺ بنعمة الله عليه إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكّة وخلّصه من عنادهم، وأنّ مقامه بمكة كان أمانا لأهلها فلمّا فارقهم فقد حقّ عليهم عذاب الدنيا بما اقترفوا من الصدّ عن المسجد الحرام.

ودعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام، وإيذانهم بالقتال.

والتحذير من المنافقين.

وضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله ولم يشكروا نعمة الله.

وأحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتّب على نقضهم العهد، ومتى يحسن السلم.

وأحكام الأسرى.

وأحكام المسلمين الذين تخلّفوا في مكّة بعد الهجرة. وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية.

{ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [1]

{ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ } مؤذن بأنّ المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن المسمّى عندهم {الأَنْفَالِ} وكان ذلك يوم بدر، وأنّهم حاوروا رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك، فمنهم من يتكلم بصريح السؤال، ومنهم من يخاصم أو يجادل غيره بما يؤذن حاله بأنّه يتطلّب فهما في هذا الشأن، وقد تكرّرت الحوادث يومئذ. ففي صحيح مسلم، وجامع الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: " لما كان يوم بدر أصبت سيفا

لسعيد بن العاصي فأتيت به النبي فقلت نفّلْنيه فقال "ضعه في القَبَض" ، ثم قلت نفلنيه فقال "ضعه حيث أخذته"، ثم قلت نفلنيه فقال "ضعه من حيث أخذته" ، فنزلت {يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ} ".

وفي (أسباب النزول) للواحدي، و(سيرة ابن إسحاق) عن عبادة بن الصامت، أنّه سئل عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا فردّه على رسوله فقسّمه بيننا على بواء يقول على السواء.

وروى أبو داود، عن ابن عباس، قال: " لمّا كان يوم بدر ذهب الشبان للقتال وجلس الشيوخ تحت الرايات فلمّا كانت الغنيمة جاء الشبّان يطلبون نفلهم فقال الشيوخ لا تستأثرون علينا فإنّا كنا تحت الرايات، ولو انهزمتم لكنّا ردءا لكم، واختصموا إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ} ".

السؤال، حقيقته الطلب، فإذا عدّي بـ (عن) فهو طلب معرفة المجرور بـ (عن)، وإذا عدي بنفسه فهو طلب إعطاء الشيء. فالمعنى هنا، يسألونك معرفة الأنفال، أي معرفة حقّها.

{ **يَسْأَلُونَكَ** } مجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرّر السؤال، إمّا بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعدّدين، وإمّا بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد.

واللفظة مؤذنة بتنازع بين الصحابة في استحقاق الأنفال، فقد كانت لهم عوائد متبعة في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا في شأنها فسألوا.

الأنفال، جمع نفل (بالتحريك) والنفل مشتق من النافلة وهي الزيادة في العطاء. وقد أطلق العرب في القديم الأنفال على الغنائم في الحرب كأنّهم اعتبروها زيادة على المقصود من الحرب لأنّ المقصود الأهم من الحرب هو إبادة الأعداء، ولذلك ربما كان صناديدهم يأبون أخذ الغنائم كما قال عنترة

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ويقولون نفلني كذا يريدون أغنمني، حتى صار النفل يطلق على ما يعطاه المقاتل من المغنم زيادة على قسطه من المغنم لمزيّة له في البلاء والغناء، أو على ما يعثر عليه من غير قتيله وهذا صنف من المغانم.

فالمغانم، إذن، تنقسم إلى: ما قصد المقاتل أخذه من مال العدو مثل نعمهم، ومثل ما على القتلى من لباس وسلاح بالنسبة إلى القاتل، وفيما ما لم يقصده المقاتلون مما عثروا عليه مثل لباس قتيل لم يعرف قاتله.

فاحتملت الأنفال في هذه الآية أن تكون بمعنى المغانم مطلقا، وأن تكون بمعنى ما يزاد للمقاتل على حقّه من المغنم. فحديث سعد بن أبي وقاص كان سؤالا عن تنفيل بمعنى زيادة. وحديث ابن عباس حكى وقوع اختلاف في قسمة المغنم بين من قاتل ومن لم يقاتل، على أنّ طلب من لم يقاتلوا المشاركة في المغنم يرجع إلى طلب تنفيل، فيبقى النفل في معنى الزيادة.

وقد أطلقوا النفل أيضا على ما صار في أيدي المسلمين من أموال المشركين بدون انتزاع ولا افتكاك. فيدخل

بهذا الإطلاق تحت جنس الفيء كما سمّاه الله تعالى في سورة الحشر[6، 7] بقوله {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ - إلى قوله - بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } وذلك مثل أموال بني النضير التي سلّموها قبل القتال وفروا.

وبهذا تتحصّل في أسماء الأموال المأخوذة من العدو في القتال ثلاثة أسماء: المغنم، والفيء وهما نوعان والنفل وهو صورة من صور القسمة وكانت متداخلة.

والذي استقر عليه مذهب مالك أنّ النفل ما يعطيه الإمام من الخمس لمن يرى إعطاءه إيّاه، ممن لم يغنم ذلك بقتال.

قال الجمهور: المراد بها ما كان زائدا على المغنم، فيكون النظر فيه لأمير الجيش يصرفه لمصلحة المسلمين، أو يعطيه لبعض أهل الجيش لإظهار مزيّة البطل، أو لخصلة عظيمة يأتي بها، أو للتحريض على النكاية في العدو.

وقال مالك والجمهور:لا نفل إلّا من الخمس على الاجتهاد من الإمام وقال مالك: " إعطاء السلب من التنفيل" وقال مجاهد: " الأنفال هي خمس المغانم وهو المجعول لله والرسول ولذي القربى ".

{ **لِلَّهِ** } على القول الأوّل في معنى الأنفال: لام الملك، لأنّ النفل لا يحسب من الغنائم، وليس هو من حق الغزاة فهو بمنزلة مال لا يعرف مستحقّه، فيقال هو ملك لله ولرسوله، فيعطيه الرسول لمن شاء بأمر الله أو باجتهاده، وهذا ظاهر حديث سعد بن أبي وقاص في الترمذي، إذ قال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: سألتني هذا السيف (السيف الذي تقدم ذكره في حديث مسلم) ولم يكن لي وقد صار لي فهو لك".

وأمّا على القول الثاني، الجامع لجميع المغانم، فاللام للاختصاص، أي الأنفال تختص بالله والرسول، أي حكمها وصرفها، فهي بمنزلة (إلى). تقول هذا لك أي إلى حكمك مردود. وأصحاب هذا القول رأوا أنّ المغانم لم تكن في أوّل الأمر مخمّسة بل كانت تقسم باجتهاد النبي ﷺ ثم خمّست بآية {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال: 41].

{ **وَالرَّسُولِ** } عطف على اسم الله، لان المقصود، الأنفال للرّسول ﷺ يقسمها بإذن الله توفيقا أو تفويضا.

وتشمل الآية تصرّف أمراء الجيوش في غيبة الرسول أو بعد وفاته ﷺ، لأنّ ما كان حقّا لله كان التصرف فيه لخلفائه.

واختلف الفقهاء في حكم الأنفال اختلافا ناشئا عن اختلاف اجتهادهم في المراد من الآية، وهو اختلاف يعذرون عليه لسعة الإطلاق في أسماء الأموال الحاصلة للغزاة :

فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وسعيد بن المسيب: النفل إعطاء بعض الجيش أو جميعه زيادة على قسمة أخماسهم الأربعة من المغنم، فإنّما يكون ذلك من خمس المغنم المجعول للرسول ﷺ ولخلفائه وأمرائه جمعا

بين هذه الآية وبين قوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال: 41]. فلا نفل إلّا من الخمس المجعول لاجتهاد أمير الجيش. وعلّة ذلك تجنّب إعطاء حقّ أحد لغيره ولأنّه يفضي إلى إيقاد الإحن في نفوس الجيش وقد يبعث الجيش على عصيان الأمير، ولكن إذا رأى الإمام مصلحة في تنفيل بعض الجيش ساغ له ذلك من الخمس الذي هو موكول إليه كما سيأتي في آية المغانم. لذلك قال مالك لا يكون التنفيل قبل قسمة المغنم، وجعل ما صدر من النبي ﷺ يوم حنين من قوله : " من قتل قتيلا فله سلبه " خصوصيه للنبي ﷺ، وهو ظاهر، لأنّ طاعة الناس للرّسول أشد من طاعتهم لمن سواه، لأنّهم يؤمنون بأنّه معصوم عن الجور وبأنّه لا يتصرف إلّا بإذن الله. قال مالك في الموطأ: " ولم يبلغنا أنّ رسول الله فعل ذلك غير يوم حنين ولا أنّ أبا بكر وعمر فعلاه في فتوحهما ".

وقال جماعة يجوز التنفيل من جميع المغنم وهؤلاء يخصّصون عموم آية {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ} [41] بآية {قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}، أي فالمغانم المخمسة ما كان دون النفل.

والقول الأوّل أسد وأجرى على الأصول وأوفق بالسنة، والمسألة تبسط في الفقه وليس من غرض المفسر إلا الإلمام بمعاقدها من الآية.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ** } فلمّا حكم بأنّها ملك لله ورسوله، أو بأنّ أمر قسمتها موكول لله، فقد وقع ذلك على كراهية كثير منهم ممن كانوا يحسبون أنّهم أحقّ بتلك الأنفال ممن أعطيها، تبعا لعوائدهم السالفة في الجاهلية فذكّرهم الله بأن قد وجب الرضى بما يقسّمه الرسول منها. وقدم الأمر بالتقوى لأنّها جامع الطاعات.

{ **وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** } عطف الأمر بإصلاح ذات البين لأنّهم اختصموا واشتجروا في شأنها كما قال عبادة بن الصامت: " اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا "، فأمرهم الله بالتصافح.

الإصلاح، جعل الشيء صالحا، وهو مؤذن بأنّه كان غير صالح، فالأمر بالإصلاح دل على فساد ذات بينهم، وهو فساد التنازع والتظالم.

{ **ذَاتَ** } يجوز أن تكون مؤنث (ذو) الذي هو بمعني صاحب فتكون ألفها مبدلة من الواو. ووقع في كلامهم مضافا إلى الجهات وإلى الأزمان وإلى غيرهما، يجرونه مجرى الصفة لموصوف يدل عليه السياق كقوله تعالى {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ} [الكهف:18]، على تأويل جهة . وتقول: لقيته ذات ليلة، ولقيته ذات صباح، على تأويل المقدّر ساعة أو وقت. وجرت مجرى المثل في ملازمتها هذا الاستعمال.

ويجوز أن تكون أصلية الألف، كما يقال: أنا أعرف ذات فلان، فالمعنى حقيقة الشيء وماهيته. وكذا فسّرها الزجاج والزمخشري. فتكون كلمة مقحمة لتحقيق الحقيقة، جعلت مقدّمة، وحقّها التأخير لأنّها للتأكيد مثل المعنى في قولهم جاءني بذاته. فالمعنى: أصلحوا بينكم.

{ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** } وختم بالأمر بالطاعة، والمراد بها هنا الرضى بما قسّم الله ورسوله، أي الطاعة التامة كما قال تعالى {ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ} [النساء: 65]

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } واجتلاب {إن} في هذا الشرط للتحريض على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان، وهي التقوى الجامعة لخصال الدين، وإصلاح ذات بينهم، والرضى بما فعله الرّسول. فالمقصود التحريض على أن يكون إيمانهم في أحسن صوره ومظاهره.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }[2]

موقع هذه الجملة وما عطف عليها موقع التعليل لوجوب تقوى الله وإصلاح ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله. لأنّ ما تضمّنته هذه الجمل التي بعد { **إِنَّمَا** } من شأنه أن يحمل المتّصفين به على الامتثال لما تضمّنته جمل الأمر الثلاث السابقة، وقد اقتضى ظاهر القصر المستفاد من {إِنَّمَا} أنّ من لم يَجِلْ قلبه إذا ذكر الله، ولم تزده تلاوة آيات الله إيمانا مع إيمانه، ولم يتوكل على الله، ولم يقم الصلاة، ولم ينفق، لم يكن موصوفا بصفة الإيمان. فهذا ظاهر مؤوّل بما دلّت عليه أدلة كثيرة من الكتاب والسنّة، من أنّ الإيمان لا ينقضه الإخلال ببعض الواجبات كما سيأتي عند قوله تعالى {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} [4].

فيكون التأويل، إنّما المؤمنون الكاملون الإيمان، وحرف (أل) فيه هو ما يسمى بالدالة على معنى الكمال.

الذكر، حقيقته التلفّظ باللسان، وإذا علق بما يدلّ على ذات فالمقصود من الذات أسماؤها، فالمراد من قوله {إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ} إذا نطق ناطق باسم من أسماء الله أو بشأن من شؤونه، مثل أمره ونهيه.

الوجل، خوف مع فزع، فيكون لاستعظام الموجول منه. وقد جاء فعل وَجِلَ في الفصيح بكسر العين في الماضي على طريقة الأفعال الدالة على الانفعال الباطني مثل فرح، وصدي، وهوي، وروي.

وأسند الوجل إلى القلوب لأنّ القلب يكثر إطلاقه في كلام العرب على إحساس الإنسان وقرارة إدراكه.

وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالا بديعا ليناسب معنى الوجل، فذكر الله يكون بذكر اسمه، وبذكر عقابه، وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكلّ ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كمل المؤمنين، لأنّه يحصل معه استحضار جلال الله وشدّة بأسه وسعة ثوابه، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقّع حلول بأسه، وتوقّع انقطاع بعض ثوابه أو رحمته، وهو وجل يبعث المؤمن إلى الاستكثار من الخير وتوقّي ما لا يرضي الله تعالى، وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره ونهيه، ولذلك روي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: " أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه".

{ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا }

التلاوة، القراءة واستظهار ما يحفظه التالي من كلام له أو لغيره يحكيه لسامعه، وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة:102]

آيات الله: القرآن، سمّيت آيات لأنّ وحيها إلى النبيّ الأمّيّ ﷺ وعجز قومه، خاصتهم وعامتهم، عن الإتيان بمثلها، وفيها دلالة على صدق من جاء بها فلذلك سمّيت آيات. ويسمّى القرآن كلّه آية أيضا باعتبار دلالة جملته على صدق محمد ﷺ، وقد تقدّم ذلك في المقدّمة الثامنة من مقدّمات هذا التفسير.

وإسناد فعل زيادة الإيمان إلى آيات الله لأنّها سبب تلك الزيادة. وهذا الإسناد من المجاز العقلي إذ جعلت الآيات بمنزلة فاعل الزيادة في الإيمان.

الإيمان، تصديق النفس بثبوت نسبة شيء لشيء، أو بانتفاء نسبة شيء عن شيء، تصديقا جازما لا يحتمل نقيض تلك النسبة، وقد اشتهر اسم الإيمان شرعا في اليقين بالنسبة المقتضية وجود الله ووجود صفاته التي دلّت عليها الأدلة العقلية أو الشرعيّة، والمقتضية مجيء رسول الله مخبرا عن الله الذي أرسله وثبوت صفات الرسول عليه الصلاة والسلام التي لا يتمّ معنى رسالته عن الله بدونها: مثل الصدق فيما يبلغ عن الله، والعصمة عن اقتراف معصية الله تعالى.

زيادة الإيمان، قوّة اليقين في نفس الموقن على حسب شدّة الاستغناء عن استحضار الأدلة في نفسه، وعن إعادة النظر فيها، ودفع الشك العارض للنفس، فإنّه كلما كانت الأدلة أكثر وأقوى وأجلى مقدّمات، كان اليقين أقوى، فتلك القوّة هي المعبر عنها بالزيادة، وتفاوتها تدرج في الزيادة. ويجوز أن تسمى قلة التدرج في الأدلة نقصا لكنه نقص عن الزيادة، وذلك مع مراعاة وجود أصل حقيقة الإيمان، لأنّها لو نقصت عن اليقين لبطلت ماهية الإيمان، وقد أشار البخاري إلى هذا بقوله: " باب زيادة الإيمان ونقصانه فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص" فلو أن نقص الأدلة بلغ بصاحبه إلى انخرام اليقين لم يكن العلم الحاصل له إيمانا، حتى يوصف بالنقص، فهذا هو المراد من وصف الإيمان بالزيادة، في القرآن وكلام الرسول ﷺ، وهو بيّن.

ولم يرد عن الشريعة ذكر نقص الإيمان، وذلك هو الذي يريده جمهور علماء الأمّة إذا قالوا الإيمان يزيد، كما قال مالك بن أنس: " الإيمان يزيد ولا ينقص "، وهي عبارة كاملة.

وقد يطلق الإيمان على الأعمال التي تجب على المؤمن وهو إطلاق باعتبار كون تلك الأعمال من شرائع الإيمان، كما أطلق على الصلاة اسم الإيمان في قوله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة:143].

ولكن الاسم المضبوط لهذا المعنى هو اسم (الإسلام) كما يفصح عنه حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فالإيمان قد يطلق على الإسلام وهو بهذا الاعتبار يوصف بالنقص والزيادة باعتبار

الإكثار من الأعمال والإقلال، ولكنه ليس المراد في هذه الآية ولا في نظائرها من آيات الكتاب وأقوال النبي ﷺ.

وقد يريده بعض علماء الأمة فيقول: الإيمان يزيد وينقص، ولعلّ الذي ألجأهم إلى وصفه بالنقص هو ما اقتضاه الوصف بالزيادة. وهذا مذهب أشار إليه البخاري في قوله " باب من قال إن الإيمان هو العمل".

وقال الشيخ ابن أبي زيد: " وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقص الأعمال فيكون فيها النقص وبها الزيادة". وهو جار على طريقة السلف من إقرار ظواهر ألفاظ القرآن والسنة، في الأمور الاعتقادية ولكن وصف الإيمان بالنقص لا داعي إليه لعدم وجود مقتضيه لعدم وصفه بالنقص في القرآن والسنة ولهذا قال مالك الإيمان يزيد ولا ينقص.

وحظ المقام المتعلّق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة، هو أنّ سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوّة، بنبذ الشقاق والتشاجر الطارئ بينهم في أنفس الأموال عندهم، وهو المال المكتسب من سيوفهم، فإنّه أحبّ أموالهم إليهم. وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر حكم الأنفال، وتعقيبه بالأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين والطاعة، ثم تعليل ذلك بأنّ شأن المؤمنين ازدياد إيمانهم عند تلاوة آيات الله.

{ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }

صلة ثالثة ل { الْمُؤْمِنُونَ } أو حال منه، وجعلت فعلا مضارعا للدلالة على تكرّر ذلك منهم، ووصفهم بالتوكّل على الله، وهو الاعتماد على الله في الأحوال والمساعي. وتقدم تفسير **التوكّل** عند قوله {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159]

ومناسبة هذا الوصف للغرض، أنّهم أُمروا بالتخلّي عن الأنفال، والرضى بقسمة الرسول ﷺ فيها، فمن كان قد حرم من نفل قتيله يتوكّل على الله في تعويضه بأحسن منه.

وتقديم المجرور إمّا للرعاية على الفاصلة، فهو من مقتضيات الفصاحة مع ما فيه من الاهتمام باسم الله، وإمّا للتعريض بالمشركين، لأنّهم يتوكلون على إعانة الأصنام. فيكون الكلام مدحا للمؤمنين، وتعريضا بذم المشركين. ثم فيه تحذير من أن تبقى في نفوس المؤمنين آثار من التعلق بما نهوا عن التعلق به، لتوهّمهم أنهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيرا من الدنيا.

{ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [3]

لا علاقة للصلة المذكورة هنا بأحكام الأنفال والرضى بقسمها، ولكنّه مجرّد المدح، وعبّر في جانب الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [البقرة:3].

{ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } [4]

مؤكدة لمضمون { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ } [2] إلى آخرها ولذلك فصلت.

وعُرف المسند إليه بالإشارة لوقوعه عقب صفات لتدلّ الإشارة على أنّهم أحرياء بالحكم المسند إلى اسم الإشارة من أجل تلك الصفات، فكأنّ المخبر عنهم قد تميّزوا للسامع بتلك الصفات فصاروا بحيث يشار إليهم.

وفي هذه الجملة قصر آخر يشبه القصر الذي قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} [2] حيث قصر الإيمان مرة أخرى على أصحاب تلك الصفات، ولكنه قرن هنا بما فيه بيان المقصور، وهو أنّهم المؤمنون الأحقاء بوصف الإيمان.

الحقّ، أصله مصدر حَقَّ بمعنى ثبت، واستعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شكّ فيه، قال تعالى {وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [النساء: 122]

ويطلق كثيرا، على الكامل في نوعه، كما يقول أحد لابنه البار به: أنت ابني حقّا، وليس يريد أنّ غيره من أبنائه ليسوا برشدة ولكنّه يريد، أنت بنوّتك واضحة آثارها. ويطلق الحقّ على الصواب والحكمة. فاسم الحقّ يجمع معنى كمال النوع.

ولكلّ صيغة قصر: منطوق ومفهوم، فمنطوقها هنا أنّ الذين جمعوا ما دلت عليه تلك الصلات هم مؤمنون حقا، ومفهومها أنّ من انتفى عنه أحد مدلولات تلك الصلات لم يكن مؤمنا حقّا، أي لم يكن مؤمنا كاملا.

ومن هذا المعنى ما ذكره القرطبي وغيره أنّ رجلا سأل الحسن البصري فقال له: يا أبا سعيد أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنّة والنار والبعث والحساب، فأنا به مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ- إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} [2-4] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا؟

{ **حَقّاً** } الأحسن أن يكون منصوبا على الحال من ضمير { هُمُ } فيكون المصدر مؤوّلا باسم الفاعل كما هو الشأن في وقوع المصدر حالا مثل {أن تأتيهم الساعة بغتة} ، أي محققين إيمانهم بجلائل أعمالهم، وقد تقدّم مثل هذا المصدر في قوله {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً} [النساء:122].

{ **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } خبر ثان عن اسم الإشارة.

واللام للاستحقاق، أي درجات مستحقّة لهم، وذلك استعارة للشرف والكرامة عند الله، لأنّ **الدرجات** حقيقتها ما يتخذ من بناء أو أعواد لإمكان تخطي الصاعد إلى مكان مرتفع منقطع عن الأرض. وتستعار الدرجة لعناية العظيم ببعض من يصطفيهم، فتشبه العناية بالدرجة، تشبيه معقول بمحسوس، لأنّ الدنو من العلو عرفا يكون بالصعود إليه في الدرجات، فشبه ذلك الدنو بدرجات.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } قرينة المجاز. دلّ على الكرامة والشرف عند الله تعالى في الدنيا بتوجيه عنايته، وفي الآخرة بالنعيم العظيم.

الرزق، اسم لما يرزق أي يعطى للانتفاع به، ووصفه بـ { **كريم** } بمعنى النفيس فهو وصف حقيقي للرزق، وفعله كرُم (بضم العين)، والكرم في كلّ شيء الصفات المحمودة في صنفه أو نوعه كما في قوله تعالى {إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} [النمل:29].

ومنه إطلاق الكرم على السخاء والجود، والوصف منه كريم، وتصح إرادته هنا على أنّ وصف الرزق به مجاز عقلي، أي كريم رازقه، فان الكريم يرزق بوفرة وبغير حساب.

{ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ [5] يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ } [6]

الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين.

الإخراج، إمّا مراد به الأمر بالخروج للغزو، وإمّا تقدير الخروج لهم وتيسيره. والخروج مفارقة المنزل والبلد. والإخراج من البيت، هو الإخراج المعيّن الذي خرج به النبي ﷺ غازيا إلى بدر.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للمصاحبة، أي إخراجا مصاحبا للحقّ، والحقّ هنا الصواب، لما تقدّم آنفا من أنّ اسم الحقّ جامع لمعنى كمال كلّ شيء في محامد نوعه. والمعنى أنّ الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرا موافقا للمصلحة.

وقد أشار هذا الكلام إلى السبب الذي خرج به المسلمون إلى بدر، وذلك أنّه كان في أوائل رمضان في السنة الثانية للهجرة أن قفلت عيرٌ لقريش، فيها أموال وتجارة لهم من بلاد الشام، راجعة إلى مكّة، وفيها أبو سفيان بن حرب في زهاء ثلاثين رجلا من قريش، فلمّا بلغ خبر هذه العير رسول الله ﷺ ندب المسلمين إليها فانتدب بعضهم وتثاقل بعض، وهم الذين كرهوا الخروج، ولم ينتظر رسول الله ﷺ من تثاقلوا ومن لم يحضر ظهره، أي راحلته، فسار وقد اجتمع من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر خرجوا يوم ثمانية من رمضان، وكانوا يحسبون أنّهم يغيرون على العير ثم يرجعون، وبلغ أبا سفيان خبر خروج المسلمين فأرسل صارخا يستصرخ قريشا لحماية العير، فتجهّز منهم جيش، ولمّا بلغ المسلمون (**وادي ذفران**) بلغهم خروج قريش لتلقّي العير، وكانت العير يومئذ فاتتهم، واطمأن أبو سفيان لذلك فأرسل إلى أهل مكة يقول إن الله نجى عيركم فارجعوا، فقال أبو جهل لا نرجع حتّى نرد بدرا (وكان بدر موضع ماء فيه سوق للعرب في كل عام) فنقيم ثلاثا، فننحر الجزر ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتتسامع العرب بنا وبمسيرنا فلا يزالوا يهابوننا ويعلموا أنّ محمدا لم يصب العير، وأنّا قد أعضضناه، فسار المشركون إلى بدر وتنبّكت عيرهم على طريق الساحل.

وأعلم، الله النبي ﷺ بذلك فأعلم المسلمين، فاستشارهم وقال: " العير أحب إليكم أم النفير" ، فقال أكثرهم العير أحبّ إلينا من لقاء العدو، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، ثم أعاد استشارتهم فأشار أكثرهم قائلين: " عليك بالعير فإنّا خرجنا للعير"، فظهر الغضب على وجهه، فتكلم أبو بكر، وعمر، والمقداد بن الأسود، وسعد ابن عبادة، وأكثر الأنصار، ففوضوا إلى رسول الله ما يرى أن يسير إليه ﷺ، فأمرهم حينئذ أن يسيروا إلى القوم ببدر فساروا، وكان النصر العظيم الذي هزّ به الإسلام رأسه.

{ **وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** } وذلك أنّهم خرجوا على نيّة التعرّض للعير، وأن ليس دون العير قتال، فلمّا أخبرهم عن تجمّع قريش لقتالهم تكلّم أبو بكر فأحسن، وتكلّم عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال " يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى (**بَرْك الغِماد**)(بفتح باء برك وغين الغماد ومعجمة مكسورة موضع باليمن بعيدا جدا عن مكة) لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه". ثم قال رسول الله ﷺ : "أشيروا علي أيها الناس "، وإنّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يومئذ: " إنّا براء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فإنّك في ذمّتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا"، فكان رسول الله يتخوّف أن يكون الأنصار لا يرون نصره إلّا ممّن دهمه بالمدينة، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم، فلمّا قال رسول الله ﷺ: " أشيروا عليّ "، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله قال: أجل قال: فقد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا إنّا لصُبُرٌ في الحرب صدق في اللقاء، لعلّ الله يريك بنا ما تقرّبه عينك فسر بنا على بركة الله ". فسر رسول الله ﷺ، ثم قال: "سيروا وابشروا فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين" (أي ولم يخصّ وعد النصر، بتلقي العير فقط)، فما كان بعد ذلك إلّا أن زال من نفوس المؤمنين الكارهين للقتال ما كان في قلوبهم من الكراهية.

وتأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بـ (**إنّ** و**لام** الابتداء) مستعمل في التعجيب من شأنهم، إذ كان الشأن اتباع ما يحبّه الرسول ﷺ أو التفويض إليه، وما كان ينبغي لهم أن يكرهوا لقاء العدو.

{ **يُجَادِلُونَكَ** } حال من {فَرِيقاً}. وصيغة المضارع لحكاية حال المجادلة زيادة في التعجيب منها.

{ **بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ** } أي ظهر أنّ الله قدّر لهم النصر، فإنّهم كانوا عربا أذكياء، وكانوا مؤمنين أصفياء، وقد أخبرهم النبي ﷺ بأنّ الله ناصرهم على إحدى الطائفتين، طائفة العير أو طائفة النفير، فنصرهم إذن مضمون ثم أخبرهم بأن العير قد أخطاتهم، وقد بقي النفير، فكان بيّنا أنّهم إذا لقوا النفير ينصرهم الله عليه، ثم رأوا

كراهية النبي ﷺ لمّا اختاروا العير، فكان ذلك كافيا في اليقين بأنّهم إذا لقوا المشركين ينتصرون عليهم لا محالة، ولكنهم فضلوا غنيمة العير على خضد شوكة أعدائهم.

ومن هذه الآية يؤخذ حكم مؤاخذة المجتهد إذا قصّر في فهم ما هو مدلول لأهل النظر. وقد سأل أحدهم النبي ﷺ عن ضالة الغنم فأجابه: "هي لك أو لأخيك أو للذئب" ، فلمّا سأله بعد ذلك عن ضالة الإبل تمعّر وجهه وقال: " مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها تشرب الماء وترعى الشجر حتى يلقاها ربها".

{ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ** } في موضع الحال من {يُجَادِلُونَكَ} أي حالتهم في وقت مجادلتهم إيّاك تشبه حالتهم لو ساقهم سائق إلى الموت.

{ **وَهُمْ يَنْظُرُونَ** } حال من ضمير {يُسَاقُونَ}، أي وهم ينظرون الموت، لأنّ حالة الخوف من الشيء المخوف إذا كان منظورا إليه تكون أشدّ منها لو كان يعلم أنه يساق إليه ولا يراه.

{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ [7] لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[8]

جعل صاحب الكشاف { إِذْ } مفعولا لفعل (اذكر) محذوف شان (إذْ) الواقعة في مفتتح القصص، فيكون عطف جملة الأمر المقدّر على جملة { قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ } [1] والمناسبة هي أنّ كلا القولين فيه توقيفهم على خطإ رأيهم وأنّ ما كرهوه هو الخير لهم.

والأحسن أن تكون { **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ** } معطوفا على {كَمَا أَخْرَجَكَ} [5] عطف المفرد على المفرد، فيكون المعطوف مشبها به التشبيه المفاد بالكاف. والمعنى، يعدكم الله إحدى الطائفتين كما أخرجك من بيتك.

الطائفة، الجماعة من النّاس، وتقدّم عند قوله {فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ} [النساء:102]

{**أَنَّهَا لَكُمْ**} في تأويل مصدر، هو بدل اشتمال من إحدى الطائفتين، أي كونها معطاة لكم، وهو إعطاء النصر.

و(**اللام**) للملك، وهو هنا ملك عرفي، كما يقولون كان يوم كذا لبني فلان على بني فلان، فيعرف أنّه كان لهم غلبة حرب.

{ **وَتَوَدُّونَ** } إمّا عطف على {يَعِدُكُمُ} أي إذ يقع الوعد من الله والودّ منكم، وإما في موضع الحال، أي يعدكم الله إحدى الطائفتين في حال ودّكم لقاء الطائفة غير ذات الشوكة. و**الوُدّ**، المحبة.

{ **ذَاتِ الشَّوْكَةِ** } صاحبة الشوكة، والشَّوْكَةِ أصلها الواحدة من الشوك وهو ما يخرج في بعض النبات من أعواد دقيقة تكون محددة الأطراف كالإبر، فإذا نزغت جلد الإنسان أدمته أو آلمته، وإذا علقت بثوب أمسكته.

وشاع استعارة الشوكة للبأس، يقال: فلان ذو شوكة، أي ذو بأس يُتّقى. كما يستعار القرن للبأس في قولهم:

أبدى قرنه، والناب أيضا في قولهم: كشّر عن نابه، وذلك من تشبيه المعقول بالمحسوس. أي تودّون الطائفة التي لا يُخشى بأسها تكون لكم، أي تودّون غنيمة بدون حرب.

وقد أشارت الآية إلى ما في قصة بدر التي أوردناها سابقا.

{ **وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** } عطف على جملة {وَتَوَدُّونَ}، والمقصود من الإخبار بهذه الجمل الثلاث إظهار أنّ ما يودّونه ليس فيه كمال مصلحتهم، وأنّ الله اختار لهم الأصلح، وإن كان يشق عليهم ويرهبهم. فهذا تلطّف من الله بهم.

{ **يُحِقَّ الْحَقَّ** }: يثبته، والمراد بالحقّ هنا، الإسلام. وقد أطلق عليه اسم الحقّ في مواضع كثيرة من القرآن كقوله {حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ} [الزخرف: 29].

وإحقاقه باستئصال معانديه. فأنتم تريدون نفعا قليلا عاجلا، وأراد الله نفعا عظيما في العاجل والأجل، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

{ **بِكَلِمَاتِهِ** } كلمات الله ما يدلّ على مراده وعلى كلامه النفسي، حقيقه من أقوال لفظيّة يخلقها خلقا غير متعارف ليفهمها أحد البشر ويبلّغها عن الله، مثل القرآن. أو مجازا من أدلة غير لفظية، مثل ما يخاطب به الملائكة.

والجمع المعرّف بالإضافة يفيد العموم، فقوله {بِكَلِمَاتِهِ} يعمّ أنواع الكلام الذي يوحي به الله الدال على إرادته تثبيت الحقّ، مثل آيات القرآن المنزّلة في قتال الكفار، وما أمر به الملائكة من نصرتهم المسلمين يوم بدر.

والباء للسببيّة، وذكر هذا القيد للتنويه بإحقاق هذا الحق وبيان أنّه ممّا أراد الله ويسّره وبينه للنّاس من الأمر، وللتنبيه على أنّ ذلك واقع لا محالة، ولمدح هذا الإحقاق بأنّه حصل بسبب كلمات الله.

{ **وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** } قطع دابر الشيء إزالة الشيء كلّه. وتقدم في قوله {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام:45]

{ **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** } لام التعليل، أي إنّما أراد ذلك وكوّن أسبابه بكلماته لأجل تحقيقه الحقّ وإبطاله الباطل.

وتعليل الفعل بنفس ذلك الفعل كناية عن كونه ما فعل ذلك الفعل إلا لذات الفعل، لا لغرض آخر زائد عليه.

والحصر هنا من مستتبعات التركيب، وليس من دلالة اللفظ، فافهمه فإنه دقيق وقد وقعت فيه غفلات.

ويجوز أن يكون الاختلاف بين المعلّل والعلة بالعموم والخصوص أي يريد الله أن يحق الحق في هذه الحادثة لأنه يريد إحقاق الحق عموما.

{ **وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** } ضد قوله {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} وهو من لوازم معنى ليحقّ الحقّ، لأنّه إذا حصل الحقّ ذهب الباطل كما قال تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: 18].

وهو بمنزلة التوكيد لقوله {لِيُحِقَّ الْحَقَّ}، لأن ثبوت الشيء قد يؤكد بنفي ضده.
{ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** } شرط اتصالي. و{لَوْ} اتصاليّة تدل على المبالغة في الأحوال، وهو عطف على {يُرِيدُ اللَّهُ} أو على {لِيُحِقَّ الْحَقَّ}، أي يريد ذلك لذلك لا لغيره، ولا يصدّ مراده ما للمعاندين من قوّة.
الكراهية هنا، كناية عن لوازمها، وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة، فان المشركين، بكثرة عددهم، يريدون إحقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهية المجرمين. وأمّا مجرد الكراهة فليس صالحا أن يكون غاية للمبالغة في أحوال نفوذ مراد الله تعالى إحقاق الحقّ، لأنّه إحساس قاصر على صاحبه، ولكنّه إذا بعثه على مدافعة الأمر المكروه كانت أسباب المدافعة هي الغاية لنفوذ الأمر المكروه على الكاره.

{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [9]

أشارت الآية إلى دعاء النبي ﷺ يوم بدر. أخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: " نظر نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: " اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم ألتزمه من ورائه فقال: " يا نبيّ الله كفاك مناشدة ربك فإنّه سينجز لك ما وعدك ".
فأنزل الله {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سنن الترمذي 5/ 269].
وعلى هذه الرواية يكون ضمير {تَسْتَغِيثُونَ} مرادا به النبي ﷺ وعبّر عنه بضمير الجماعة لأنّه كان يدعو لأجلهم، ولأنه كان معلنا بدعائه وهو يسمعونه، فهم بحال من يدعون.
وجاء في (السيرة) أنّ المسلمين لما نزلوا ببدر ورأوا كثرة المشركين استغاثوا الله تعالى فتكون الاستغاثة في جميع الجيش والضمير شاملا لهم.
الاستغاثة، طلب الغوث، وهو الإعانة على رفع الشدّة والمشقّة، ولمّا كانوا يومئذ في شدّة ودعوا بطلب النصر على العدو القويّ كان دعاؤهم استغاثة.
{ **فَاسْتَجَابَ لَكُمْ** } أي وعدكم بالإغاثة. وفعل استجاب يدل على قبول الطلب، والسين والتاء فيه للمبالغة، أي تحقيق المطلوب.
{ **أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** } هو الكلام المستجاب به.
(**أنّ**) - المفتوحة الهمزة المشدّدة النون- إذا وقعت بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، أن تكون مفيدة للتفسير مع التأكيد، كما كانت تفيد معنى المصدرية مع التأكيد.
الإمداد، إعطاء المدد وهو الزيادة من الشيء النافع. وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب: بفتح الدال من

{مُرْدَفِينَ} أي يردفهم غيرهم من الملائكة. وقرأ البقية: بكسر الدال أي تكون الألف رادفا لغيرهم قبلهم.

الإرداف، الاتباع والإلحاق، فيكون الوعد بألف وبغيرها على ما هو متعارف عندهم من إعداد نجدة للجيش عند الحاجة تكون لهم مددا، وذلك أنّ الله أمدهم بآلاف من الملائكة بلغوا خمسة آلاف كما تقدم في سورة آل عمران. ويجوز أن يكون المراد بألف هنا مطلق الكثرة فيفسره قوله {بِثَلاثَةِ آلافٍ} [آل عمران :124]، وهم مردفون بألفين، فتلك خمسة آلاف. وكانت عادتهم في الحرب إذا كان الجيش عظيما أن يبعثوا طائفة منه ثم يعقبوها بأخرى لأن ذلك أرهب للعدو. وحلول الملائكة في المسلمين كان بكيفية يعلمها الله تعالى.

{ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[10]

عطف على {أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ}، أي ما جعل جوابكم بهذا الكلام إلّا ليبشّركم، وإلّا فقد كان يكفيكم أن يضمن لكم النصر دون أن يبيّن أنّه بإمداد من الملائكة.

وفائدة التبشير بإمداد الملائكة أنّ يوم بدر كان في أوّل يوم لقي فيه المسلمون عدوا قويّا وجيشا عديدا، فبشّرهم الله بكيفية النصر، بأنّه بجيش من الملائكة، لأنّ النفوس أميل إلى المحسوسات.

وتقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران، فقط لتعرّض لما بين الآيتين من اختلاف في ترتيب النظم وذلك في ثلاثة أمور:

أحدها، أنّه قال في آل عمران [126] {إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ} وحذف {لَكُمْ} هنا دفعا لتكرير لفظه، لسبق كلمة {لَكُمْ} قريبا في قوله {فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} [9] فعلم السامع أن البشرى لهم، فأغنت {لَكُمْ} الأولى، بلفظها ومعناها، عن ذكرها مرّة ثانية. ولأنّ آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلّة والضعف، فكان تقييد {بُشْرَى} بأنّها لأجلهم زيادة في المنّة، أي جعل الله ذلك بشرى لأجلكم كقوله تعالى {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: 1]. وأمّا آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهيّة الخروج إلى بدر في أوّل الأمر، فجرّد {بُشْرَى} عن أن يعلق به {لَكُمْ} إذ كانت البشرى للنبي ﷺ ومن لم يترددوا من المسلمين، وقد تقدم ذلك في آل عمران.

ثانيها، تقديم المجرور هنا في قوله {بِهِ قُلُوبُكُمْ} وهو يفيد الاختصاص، فيكون المعنى، ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير، فعرّض لهم، بأنّهم لم يتفهّموا مراد الرسول ﷺ، حين استشارهم، وكان الشأن أن يظنّوا بوعد الله أكمل الأحوال، فلمّا أراد الله تسكين روعهم، وعدهم بنصرة الملائكة علما بأنّه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك.

ثالثها، أنه قال في سورة آل عمران [126] {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فصاغ الصفتين العَلِيَّتَيْنِ في صيغة النعت، وجعلهما في هذه الآية في صيغة الخبر المؤكد، إذ قال {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فنزل المخاطبين منزلة من يتردّد في أنّه تعالى موصوف بهاتين الصفتين: وهما العّزة، المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء، والحكمة. فما يصدر من جانبه يجب غوص الأفهام في تبيّن مقتضاءه. فكيف لا يهتدون إلى أنّ الله لما وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين وقد فاتتهم العير أنّ ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير.

{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ }[11]

لقد أبدع نظم الآيات في التنقّل من قصّة إلى أخرى، من دلائل عناية الله تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين، فقرنها، في قرن زمانها، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة (**إذ**) الزمانية، وهذا من أبدع التخلّص، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب.

ولذلك فالوجه أن يكون هذا الظرف مفعولا فيه لقوله {وَمَا النَّصْرُ} [10]، فإنّ إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، فلا جرم أن يكون وقت حصوله ظرفا للنصر.

الغَشْيُ والغشيان كون الشيء غاشيا أي غاما ومغطيا، فالنوم يغطي العقل.

النعاس، النوم غير الثقيل، وهو مثل السِنَةُ.

فإسناد الإغشاء أو التغشية إلى الله لأنّه الذي قدّر أن يناموا في وقت لا ينام في مثله الخائف، ولا يكون عاما سائر الجيش، فهو نوم منحهم الله إيّاه لفائدتهم. وصيغة المضارع لاستحضار الحالة.

الأمنة، الأمن، وتقدّم في آل عمران. وإنّما كان النعاس أمنا لهم لأنّهم لمّا ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدّة النوم فتلك نعمة، ولمّا استيقظوا وجدوا نشاطا، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب.

{ أَمَنَةً مِنْهُ } كان كرامة لهم، وقد حصل ذلك للمسلمين يوم بدر كما هو صريح هذه الآية وحصل النعاس يوم أحد لطائفة من الجيش، قال تعالى { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ } [آل عمران: 154]. وفي صحيح البخاري عن أبي طلحة قال: " كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا".

{ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ } منّة أخرى جاءت في وقت الحاجة، وهي أنّه أنزل عليهم المطر يوم بدر. فإسناد هذا الإنزال إلى الله تعالى للتنبيه على أنّه أكرمهم به. ولعلّه كان في غير الوقت المعتاد فيه نزول الأمطار في أفقهم، قال أهل السير: كان المسلمون حين اقتربوا

من بدر راموا أن يسبقوا جيش المشركين إلى ماء بدر، وكان طريقهم دهساء، أي رملا ليّنا، تسوخ فيه الأرجل فشق عليهم إسراع السير إلى الماء، وكانت أرض طريق المشركين ملبّدة، فلما أنزل الله المطر تلبدت الأرض فصار السير أمكن لهم، واستوحلت الأرض للمشركين فصار السير فيها متعبا، فأمكن للمسلمين السبق إلى الماء من بدر ونزلوا عليه وادخروا ماء كثيرا من ماء المطر، وتطّهروا وشربوا، فذلك قوله تعالى { لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ }

الرجز، القذر، والمراد الوسخ الحسي وهو النجس، والمعنوي المعبر عنه في كتب الفقه بالحدث، والمراد الجنابة، لأن غالب الجيش لما ناموا احتلموا فأصبحوا على جنابة.

{ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ } أي يؤمّنكم بكونكم واثقين بوجود الماء، لا تخافون عطشا.

الربط، حقيقته شدّ الوثاق على الشيء وهو مجاز في التّثبيت وإزالة الاضطراب، ومنه قولهم فلان رابط الجأش وله رباطة جأش. و{**عَلَى**} مستعارة لتمكّن الربط، فهي ترشيح للمجاز.

تثبيت الأقدام، هو التمكّن من السير في الرمل، بأن لا تسوخ في ذلك الدهس الأرجل، لأنّ هذا المعنى هو المناسب حصوله بالمطر.

{ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ [12] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [13]

وجعل الخطاب هنا للنبيّ ﷺ تلطفا به، إذ كانت هذه الآية في تفصيل عمل الملائكة يوم بدر وما خاطبهم الله به، فكان توجيه الخطاب بذلك إلى النبيّ ﷺ أولى، لأنّه أحقّ من يعلم مثل هذا العلم، ولأنّ النبيّ ﷺ كان أوّل من استغاث الله. ولذلك عرّف الله هنا باسم الربّ وإضافته إلى ضمير النبيّ ﷺ ليوافق أسلوب {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [9] و فيه التنويه بقدر نبيّه ﷺ.

الوحي إلى الملائكة المرسلين، إمّا بطريق إلقاء هذا الأمر في نفوسهم بتكوين خاص، وإمّا بإبلاغهم ذلك بواسطة.

{ **أَنِّي مَعَكُمْ** } قيل هو في تأويل مصدر وذلك المصدر مفعول يوحي، أي يوحي إليهم ثبوت معيّته لهم. وقيل على تقدير باء الجر.

{ **مَعَكُمْ** } المعيّة حقيقتها هنا مستحيلة فتحمل على اللائقة بالله تعالى، أعني المعية المجازية، فقد يكون معناها توجيه عنايته إليهم وتيسير العمل لهم، وقد تكرّر إطلاق (مع) بمثل هذا في القرآن كقوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: 4]

وإيحاء الله إلى الملائكة بهذا مقصود منه تشريفهم وتشريف العمل الذي سيكلّفون به، لأنّ المعيّة تؤذن إجمالا بوجود شيء يستدعي المصاحبة، أي أنّي معكم في عملكم الذي أكلّفكم به.

{ **فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** } التثبيت هنا مجاز في إزالة الاضطراب النفساني مما ينشأ عن الخوف ومن عدم استقرار الرأي واطمئنانه. وعرّف المثبّتون بالموصول{ الَّذِينَ آمَنُوا } لما تومئ إليه صلة {آمَنُوا} من كون إيمانهم هو الباعث على هذه العناية، فتكون الملائكة بعناية المؤمنين لأجل وصف الإيمان.

{ **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا إخبارا لهم بما يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كلفهم الله به، بأنّ الله كفاهم تخذيل الكافرين، فليست جملة {سَأُلْقِي} مفسرة لمعنى {أَنِّي مَعَكُمْ }.

لأن أولئك الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر.

وأسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الله على طريقة الإجمال دون بيان لكيفية إلقائه، وكل ما يقع في العالم هو من تقدير الله على حسب إرادته.

{ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** } أعناق المشركين وهو بيّن من السياق.

البنان، اسم جمع بَنَانَة وهي الإصبع وقيل طرف الإصبع، وإضافة (**كلّ**) لاستغراق أصحابها.

وإنّما خصّت الأعناق والبنان لأنّ ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، لأنّ تناول السلاح إنما يكون بالأصابع.

وضرب الملائكة يجوز أن يكون مباشرة بقطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة على كيفية خارقة للعادة، وقد ورد في بعض الآثار عن بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى، فإسناد الضرب حقيقة. ويجوز أن يكون بتسديد ضربات المسلمين وتوجيه المشركين إلى جهاتها فإسناد الضرب إلى الملائكة مجاز عقلي لأنّهم سببه.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } تعليل، والمخاطب بهذه الجملة، إمّا الملائكة، فتكون من جملة الموحى به إليهم إطلاعا لهم على حكمة فعل الله تعالى، لزيادة تقريبهم. وإمّا من تبلغهم الآية من المشركين الأحياء بعد يوم بدر، ولذا فالجملة معترضة للتحذير من الاستمرار على مشاقة الله ورسوله.

ويجوز أن يكون المخاطب به النبي ﷺ.

المشاقة، العداوة بعصيان وعناد، مشتقّة من الشِقّ (بكسر الشين) وهو الجانب، هو اسم بمعنى المشقوق أي المفرّق. ولما كان المخالف والمعادي يكون متباعدا عن عدوه فقد جعل كأنّه في شق آخر، أي ناحية أخرى.

والتصريح بسبب الانتقام تعريض للمؤمنين ليستزيدوا من طاعة الله ورسوله.

{ **وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تذييل يعمّ كل من يشاقق الله ويعم أصناف العقائد.

{ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }[14]

الخطاب للمشركين الذين قتلوا، أي يقال لهم هذا الكلام حيث تضرب أعناقهم وبنانهم بأن يلقى في نفوسهم حينما يصابون أنّ أصابتهم كانت لمشاقتهم الله ورسوله. ولعلّهم كانوا يرون إصابات تصيبهم من غير مرئي.

واسم الإشارة راجع إلى الضرب المأخوذ من قوله {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [12] وهو مبتدأ وخبره محذوف، فإما أن يقدّر ذلك هو العقاب الموعود. وإمّا أن يكون ممّا دلّ عليه قوله { بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، فالتقدير ذلك بأنّكم شاققتم الله ورسوله. وصيغة الأمر مستعملة في الشماتة والإهانة.

{ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }عطف على الخبر المحذوف أي ذلكم العذاب وأن عذاب النار لجميع الكافرين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ [15] وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[16]

لما ذكّر الله المسلمين بما أيّدهم يوم بدر بالملائكة والنصر من عنده، وأكرمهم بأن نصرهم على المشركين الذين كانوا أشدّ منهم وأكثر عَددا وعُددا، وأعقبه بأن أعلمهم أنّ ذلك شأنه مع الكافرين به، اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والفرار. وفي هذا تدريب للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء.

اللقاء، غلب استعماله في كلامهم على مناجزة العدو في الحرب. وأصل اللقاء أنّه الحضور لدى الغير.

الزحف، أصله مصدر زَحَفَ، إذا انبعث من مكانه متنقلا على مقعدته يجرّ رجليه كما يزحف الصبي.

ثم أطلق على مشي المقاتل إلى عدّوه في ساحة القتال، لأنّه يدنو إلى العدو باحتراس وترصّد فرصة، فكأنّه يزحف إليه. ويطلق الزحف على الجيش الدَهْم، أي كثير العددِ.

وقد اختلفت طرق المفسرين في تفسير المراد من لفظ {زَحْفاً} في هذه الآية، فمنهم من فسّره بالمعنى المصدري أي المشي في الحرب، وجعله وصفا لتلاحم الجيشين عند القتا، لأنّ المقاتلين يدبّون إلى أقرانهم دبيبا. ومنهم من فسّره بمعنى الجيش الدهم، الكثير العدد، وجعله وصفا لذات الجيش.

فعلى التفسير الأوّل هو نهي عن الانصراف من القتال فرارا إذا التحم الجيشان.

وعلى التفسير الثاني كان نهيا عن الفرار إذا كان المسلمون جيشا كثيرا، ومفهومه أنّهم إذا كانوا قلّة فلا نهي.

وهذه الآية عند جمهور أهل العلم نزلت بعد انقضاء وقعة بدر، وهو القول الذي لا ينبغي التردّد في صحّته.

فإن هذه السورة نزلت بسبب الاختلاف في أنفال الجيش من أهل بدر عند قسمة مغانم بدر، وما هذه الآية إلا جزء من هذه السورة فحكم هذه الآية شرع شرعه الله على المسلمين بسبب تلك الغزوة لتوقّع حدوث غزوات يكون جيش المسلمين فيها قليلا، كما كان يوم بدر، فنهاهم الله عن التقهقر إذا لاقوا العدو.

وحكم هذه الآية باق غير منسوخ عند جمهور أهل العلم، وروي هذا عن ابن عباس، وبه قال ملك والشافعي وجمهور أهل العلم.

وروي عن أبي سعيد الخدري، وعطاء، والحسن، ونافع، وقتادة، والضحاك: أن هذه الآية نزلت قبل وقعة بدر. والصحيح هو الأوّل كما يقتضيه سياق انتظام آي السورة ولو صح قول أصحاب الرأي الثاني للزم أن تكون هذه الآية قد نزلت قبل الشروع في القتال يوم بدر ثم نزلت سورة الأنفال فألحقت الآية بها، وهذا ما لم يقله أحد من أصحاب الأثر.

ولم يستقر من عمل جيوش المسلمين، في غزواتهم مع رسول الله ﷺ، ومع الأمراء الصالحين في زمن الخلفاء الراشدين، ما ينضبط به مدى الإذن أو المنع من الفرار. وقد انكشف المسلمون يوم أحد فعنفهم الله تعالى بقوله {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} [آل عمران: 155] وما عفا عنهم إلّا بعد أن استحقّوا الاثم. ولمّا انكشفوا عند لقاء هوازن يوم حنين عنفهم الله بقوله {ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ - إلى قوله - ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [براءة:25-27] وذكر التوبة يقتضي سبق الإثم.

{ فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } لا توجهوا إليهم أدباركم.

الأدبار، جمع دُبُر وهو ضد قُبل الشيء أب وجهه. ومنه يقال استقبل واستدبر وأقبل وأدبر. وهو كناية عن الفرار من العدو بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو.

{ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } أي يولهم دبره حين الزحف.

{ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } استثني منه حالة التحرّف لأجل الحيلة الحربيّة أوالانحياز إلى فئة من الجيش، للاستنجاد بها أو لإنجادها.

التحرّف، الانصراف إلى الحَرْف، وهو المكان البعيد عن وسطه، فالتحرّف مزايلة المكان المستقر فيه والعدول إلى أحد جوانبه، وهو يستدعي تولية الظهر لذلك المكان بمعنى الفرار منه.

واللام للتعليل أي مجانبة لأجل القتال. فالمراد بهذا التحرّف ما يعبّر عنه بالفرّ لأجلّ الكرّ.

الفئة، الجماعة من النّاس، وقد تقدّم في قوله { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ } [البقرة:249].

وتطلق على مؤخّرة الجيش، لأنّها يفيء إليها من يحتاج إلى إصلاح أمره أو من عرض له ما يمنعه من القتال من مرض أو جراحة، أو يستنجد بهم، فهو تولّ لمقصد القتال. وليس المراد أن ينحاز إلى جماعة مستريحين لأنّ ذلك من الفرار.

ويدخل في معنى التحيّز إلى الفئة الرجوع إلى مقر أمير الجيش للاستنجاد بفئة أخرى، وكذلك القفول إلى مقر أمير المصر الذي وجّه الجيش للاستمداد بجيش آخر إذا رأى أمير الجيش ذلك من المصلحة كما فعل

المسلمون في فتح إفريقية وغيره في زمن الخلفاء. فلما انهزم أبو عبيد بن مسعود الثقفي يوم الجسر بالقادسية، وقتل هو ومن معه من المسلمين، قال عمر بن الخطاب: " هلا تحيز إلي فأنا فئته ".

{ **فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } باء رجع. والمعنى أن الله غضب عليه في رجوعه ذلك، فهو قد رجع ملابسا لغضب الله تعالى عليه. ومناسبة {باء} هنا أنّه يشير إلى أنّ سبب الغضب عليه هو ذلك البوء الذي باءه. وهذا غضب الله عليه في الدنيا. ثمّ يترتب عليه المصير إلى عذاب جهنّم.

فالآية دالة على تحريم التولي عن مقابلة العدو حين الزحف.

والذي أرى في فقه هذه الآية أن ظاهرها تحريم التولّي على آحادهم وجماعتهم إذا التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجالدة. وعلى هذا، فللمسلمين النظر قبل اللقاء هل هم بحيث يستطيعون الثبات وجهه أو لا، فان وقت المجالدة يضيق عن التدبير. فقد ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ يوم الأحزاب قام في النّاس فقال: " يا أيها النّاس لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف ".

ولعلّ حكمة ذلك أن يمضي المسلمون في نصر الدين. وعلى هذا الوجه يكون لأمير الجيش، إذا رأى المصلحة في الانجلاء عن دار العدو وترك قتالهم، أن يغادر دار الحرب ويرجع إلى مقرّه، إذا أمن أن يلحق به العدو، وكان له من القوّة ما يستطيع به دفاعهم إذا لحقوا به، فذلك لا يسمى تولية أدبار، بل هو رأي ومصلحة، وهذا عندي هو محمل ما روى أبو داود والترمذي، عن عبد الله بن عمر: أنّه كان في سريّة بعثها النبي ﷺ، قال: " فحاص النّاس حيصة فكنت فيمن حاص، فلما برزنا قلنا كيف نصنع إذا دخلنا المدينة وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا قال " فجلسنا لرسول الله قبل صلاة الفجر فلمّا خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرّارون، فاقبل إلينا فقال لا بل انتم العكّارون وأنا فئة المسلمين ". يتأول لهم أنّ فرارهم من قبيل قوله تعالى {أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ} قال ابن عمر: " فدنونا فقبّلنا يده". فيفهم منه أن فرار ابن عمر وأصحابه لم يكن في وقت مجالدتهم المشركين، ولكنه كان انسلالا لينحازوا إلى المدينة، فتلك فئتهم.

[**العكّارون**، أي الذين يكرّون، يقال للرجل إذا ولّى عن الحرب ثم كرّ راجعا إليها عكّر أو اعتكر].

وإنما حرم الله الفرار في وقت مناجزة المشركين ومجالدتهم، وهو وقت اللقاء، لأنّ الفرار حينئذ يوقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل، وذلك أنّ الله أوجب على المسلمين قتال المشركين فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلّا بصبرهم وتأييد الله إياهم، فلو انكشفوا بالفرار لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم، فلذلك أمرهم الله ورسوله بالصبر والثبات، فيكون ما في هذه الآية هو حكم الصبر عند اللقاء.

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [17]

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ }

الأظهر أنّ الفاء فصيحة ناشئة عن جملة {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [12] تفصح عن مقدّر قبلها شرط أو غيره، والأكثر أن يكون شرطا فتكون رابطة لجوابه. والتقدير هنا، إذا علمتم أنّ الله أوحى إلى الملائكة بضرب أعناق المشركين وقطع أيديهم، فلم تقتلوهم انتم ولكن الله قتلهم، أي فقد تبيّن أنّكم لم تقتلوهم أنتم.

ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [15] أي ينفرع على النهي عن أن تولّوا المشركين الأدبار تنبيهكم إلى أنّ الله هو الذي دفع المشركين عنكم وأنتم أقل منهم عددا وعدّة. وهو تعريض بضمان تأييد الله إياهم. فإنّهم إذا امتثلوا ما أمرهم الله كان الله ناصرهم، وذلك يؤكد الوعيد على تولية الأدبار لأنّه يقطع عذر المتولّين والفارين.

{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى }

استطراد بذكر تأييد إلاهي آخر لم يذكر في الكلام السابق، وهو إشارة إلى ما ذكره المفسرون وابن إسحاق: " أن رسول الله ﷺ بعد أن حرّض المؤمنين على القتال يوم بدر أتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فاخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها المشركين ثم قال: " شاهت الوجوه " ثم نفحهم بها ثم أمر أصحابه فقال: شدّوا فكانت الهزيمة على المشركين" . فلكون الرمي قصة مشهورة بينهم حذف مفعول الرمي في المواضع الثلاثة، وهذا أصح الروايات. وفيه روايات أخرى لا تناسب مهيع السورة.

فالخطاب في قوله {رَمَيْتَ} للنبي ﷺ، والرمي حقيقته إلقاء شيء أمسكته اليد، ويطلق الرمي على الإصابة بسوء من فعل أو قول.

وليس المراد نفي وقوع الرمي لأنّ الرمي واقع من يد النبيّ ﷺ، ولكنّ المراد نفي تأثيره، فإنّ المقصود من ذلك الرمي إصابة عيون أهل جيش المشركين، وما كان ذلك بالذي يحصل برمي اليد، لأنّ اثر رمي البشر لا يبلغ أثره مبلغ تلك الرمية، فلمّا ظهر من أثرها ما عمّ الجيش كلّهم، علم انتفاء أن تكون تلك الرمية مدفوعة بيد مخلوق ولكنّها مدفوعة بقدرة الخالق الخارجة عن الحدّ المتعارف، وأنّ المراد بإثبات الرمي في قوله {وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} كالقول في {وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ }.

{ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

فإن قتلهم المشركين وإصابة أعينهم كانا الغرض هزم المشركين فهو العلة الأصلية، وله علّة أخرى وهي أن يبلي الله المؤمنين بلاء حسنا، أي يعطيهم عطاء حسنا يشكرونه عليه، فيظهر ما يدلّ عن قيامهم بشكره ممّا

تُختبر به طوّيتهم لمن لا يعرفها، وهذا العطاء هو النصر والغنيمة في الدنيا والجنّة في الآخرة.

{ **وَلِيُبْلِيَ** } أصل مادة هذا الفعل هي البلاء وجاء منه الإبلاء بالهمز، وتصريف هذا الفعل أغفله الراغب في (المفردات) ومن رأيت من المفسرين، وهو مضارع أبْلاه إذا أحسن إليه، مشتقّ من البلاء والبلوى الذي أصله الاختبار، ثم أطلق على إصابة أحد أحدا بشيء يظهر به مقدار تأثّره. والغالب أنّ الإصابة بشرّ، ثم تُوسّع فيه فأطلق على ما يشمل الإصابة بخير قال تعالى {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: 35] وهو إطلاق كنائي. وشاع ذلك الإطلاق الكنائي حتّى صار بمنزلة المعنى الصريح.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل للكلام، و(إنّ) مقيّدة للتعليل والربط، أي فعل ذلك لأنّه سميع عليم، فقد سمع دعاء المؤمنين واستغاثتهم.

{ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } [18]

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى البلاء الحسن وهذه الإشارة لمجرّد تأكيد المقصود من البلاء الحسن، وأن ذلك البلاء علّة للتوهين.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ** } بفتح همزة (أنّ)، فما بعدها في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل محذوفة، والتقدير ولتوهين كيد الكافرين.

{ **كَيْدِ الْكَافِرِينَ** } هو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرّة، وذلك أنّ جيش المشركين الذين جاءوا لإنقاذ العير لمّا علموا بنجاة غيرهم، وظنّوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها، أبوا أن يرجعوا إلى مكّة، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحا وافتخارا بنجاة عيرهم، وليس ذلك لمجرّد اللهو، ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبروا بأنّهم غلبوا المسلمين، فيصرفهم ذلك عن اتباع الإسلام، فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء، فهو موهن كيدهم في الحال. وتقدّم تفسير الكيد عند قوله تعالى {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف:183]

{ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ }[19]

جمهور المفسّرين جعلوا الخطاب موجها إلى المشركين، فيكون الكلام اعتراضا خُوطب به المشركون في خلال خطبات المسلمين بمناسبة قوله {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [18] والخطاب التفات من طريق الغيبة. وذكر المفسّرون في سبب نزولها، أنّ أبا جهل وأصحابه لمّا أزمعوا الخروج إلى بدر استنصروا الله

تجاه الكعبة، وأنّهم قبل أن يشرعوا في القتال يوم بدر استنصروا الله أيضا وقالوا : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه. فخوطبوا بأن قد جاءهم الفتح، على سبيل التهكّم، أي الفتح الذي هو نصر المسلمين عليهم.

وحمل ابن عطية فعل {جَاءَكُمُ} على معنى فقد تبيّن لكم النصر ورأيتموه أنّه عليكم لا لكم، وعلى هذا يكون المجيء بمعنى الظهور، ولا يكون في الكلام تهكّم.

{ **وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } أي تنتهوا عن كفركم بعد ظهور الحقّ في جانب المسلمين.

{ **وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ** } أي إن تعودوا إلى العناد والقتال نعد، أي نعد إلى هزمكم كما فعلنا بكم يوم بدر.

{ **وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ** } أيْأسهم من الانتصار في المستقبل كلّه، أي لا تنفعكم جماعتكم على كثرتها كما لم تغن عنكم يوم بدر. فإنّ المشركين كانوا يومئذ واثقين بالنصر على المسلمين لكثرة عَددهم وعُددهم.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** } زيادة في تأييس المشركين من النصر، وتنويه بفضل المؤمنين بأنّ النصر الذي انتصروه هو من الله لا بأسبابهم.

ومن المفسرين من جعل الخطاب بهذه الآية للمسلمين، ونُسب إلى أبي بن كعب وعطاء، لكون خطاب المشركين بعد الهجرة قد صار نادرا لأنّهم أصبحوا بعداء عن سماع القرآن.

الفتح، حقيقته إزالة شيء مجعول حاجزا دون شيء آخر، حفظا له من الضياع أو الافتكاك والسرقة.

ويستعار لإعطاء الشيء العزيز النوال استعارة مفردة أو تمثيلية. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: 44].

فالاستفتاح هنا طلب الفتح أي النصر. وكثر إطلاق الفتح على حلول قوم بأرض أو بلد غيرهم في حرب أو غارة، وعلى النصر، وعلى الحكم، وعلى معان أخر، على وجه المجاز أو الكناية.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ [20] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [21] إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [22] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [23]

لما أراهم آيات لطفه وعنايته بهم، ورأوا فوائد امتثال أمر الرّسول ﷺ بالخروج إلى بدر، أعقب ذلك بأن أمرهم بطاعة الله ورسوله شكرا على نعمة النصر، واعتبارا بأنّ ما يأمرهم به خير عواقبه، وحذّرهم من مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتتاح الخطاب بالنداء للاهتمام بما سيلقى إلى المخاطبين قصدا لإحضار الذهن لوعي ما سيقال لهم. فنزل الحاضر منزلة البعيد، فطلب حضوره بحرف النداء الموضوع لطلب الإقبال.

والتعريف بالموصوليّة للتنبيه على أنّ الموصوفين بهذه الصلة من شأنهم أن يتقبّلوا ما سيؤمرون به، وأنّه كما كان الشرك مسببا لمشاقة لله ورسوله، فخليق بالإيمان أن يكون باعثا على طاعة الله روسوله.

الطاعة، امتثال الأمر والنهي.

التولّي، الانصراف، وهو مستعار هنا للمخالفة والعصيان.

{ **وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ** } في موضع الحال، والمقصود من هذه الحال تشويه التولّي المنهي عنه. فالمراد بالسمع هنا حقيقته، وذلك لأنّ فائده السمع العمل بالمسموع، فمن سمع الحقّ ولم يعلم به فهو والذي لا يسمع سواء في عدم الانتفاع بذلك المسموع.

{ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** } عن ابن عباس أنّ المراد بهم نفر من قريش، وهم بنو عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صمّ بكم عمّا جاء به محمد، فلم يسلم منهم إلّا رجلان؛ مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة، وبقيّتهم قتلوا جميعا في أحد، وكانوا أصحاب اللواء في الجاهلية. ولكن هؤلاء لم يقولوا سمعنا بل قالوا نحن صمّ بكم، فلا يصح أن يكونوا هم المراد بهذه الآية.

وقيل المراد بهم اليهود، وقد عُرفوا بهذه المقالة، واجهوا بها النبي ﷺ كما نقله القرآن الكريم { وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} [النساء: 46]. وقيل أريد المنافقون.

{ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** } معترضة، وسوقها في هذا الموضع تعريض بالذين {قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} شبّهوا بدواب صماء بكماء.

{ **شَرّ** } اسم تفضيل، وأصله (أشرّ) فحذفت همزته تخفيفا.

الدواب، معناه الحقيقي.

فالإنسان الذي لم ينتفع بمواهبه السامية يصير أحط من العجماوات.

شبّهوا بالصم في عدم الانتفاع بما سمعوا، وشبّهوا بالبكم في انقطاع الحجّة والعجز عن رد ما جاءهم به القرآن، فهم ما قبلوه ولا اظهروا عذرا عن عدم قبوله.

ولما وصفهم بانتهاء قبول المعقولات والعجز عن النطق بالحجّة اتبعه بانتفاء العقل عنهم، اي عقل النظر والتأمّل بله عقل التقبّل. وقد وُصف بهذه الأوصاف في القرآن كلّ من المشركين والمنافقين في مواضع كثيرة.

{ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ** } لو كان في نفوسهم خير. والمعنى أنّ جبلّتهم لا تقبل دعوة الخير والهداية والكمال، فلذلك انتفى عنهم الانتفاع بما يسمعون من الحكمة والموعظة والإرشاد، فكانوا كالصمّ، وانتفى عنهم أن تصدر منهم الدعوة إلى الخير والكلام بما يفيد كما لا نفسانيا فكانوا كالبكم.

وهي كناية عن عدم استعداد مداركهم للخير، بعلم الله عدم الخير فيهم، ووقع تشبيه عدم انتفاعهم بفهم آيات القرآن بعدم إسماع الله إيّاهم، لأنّ الآيات كلام الله فإذا لم يقبلوها فكأن الله لم يسمعهم كلامه، فالمراد انتفاء الخير الجبلّي عنهم، وهو القابلية للخير. ومعلوم أن انتفاء علم الله بشيء يساوي علمه بعدمه.

{ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } أي أنّهم لو قبلوا فهم الموعظة والحكمة فيما يسمعونه من القرآن وكلام النبوّة لغلب ما في نفوسهم من التخلّق بالباطل على ما خالطها من إدراك الخير، فحال ذلك التخلّق بينهم وبين العمل بما علموا، فتولوا وأعرضوا.

واعلم أن ليس عطف جملة {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا} على جملة {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأسْمَعَهُمْ} بمقصود منه تفرّع الثانية على الأولى تفرع القضايا بعضها على بعض في تركيب القياس، لأنّ ذلك لا يجيء في القياس الاستثنائي، ولا أنّه من تفريع النتيجة على المقدّمات لأنّ تفريع الاقيسة بتلك الطريقة التي تشبه التفريع بالفاء ليس أسلوبا عربيا.

فالجملتان في هذه الآية كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى، ولا تجمع بينهما إلّا مناسبة المعنى والغرض.

وذلك أنّ (لو) الواقعة في هذه الجملة الثانية من قبيل (لو) المشتهرة بين النحاة بـ (لو الصهيبيّة) بسبب وقوع التمثيل بها بينهم بقول عمر بن الخطاب: " نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" وذلك أن تستعمل (لو) لقصد الدلالة على أن مضمون الجزاء مستمر الوجود في جميع الأزمنة والأحوال عند المتكلم.

{ وَهُمْ مُعْرِضُونَ } حال من ضمير تولّوا، وهي مبيّنة للمراد من التولّي، وهو معناه المجازي، وصوغ هذه الجملة بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على تمكن إعراضهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }[24]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ }

فافتتاح السورة كان بالأمر بالطاعة والتقوى، ثم بيان أنّ حق المؤمنين الكمّل أن يخافوا الله ويطيعوه ويمتثلوا أمره وإن كانوا كارهين، وضرب لهم مثلا بكراهتهم الخروج إلى بدر، ثم بكراهتهم لقاء النفير، وأوقفهم على ما اجتنوه من بركات الامتثال، وكيف أيّدهم الله بنصره ونصب لهم عليه أمارة الوعد بإمداد الملائكة لتطمئن قلوبهم بالنصر وما لطف بهم من الأحوال، وجعل ذلك كلّه إقناعا لهم بوجوب الثبات في وجه المشركين عند الزحف، ثم عادا إلى الأمر بالطاعة وحذرهم من أحوال الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون، وأعقب ذلك بالأمر بالاستجابة للرّسول إذا دعاهم إلى شيء، فإنّ في دعوته إيّاهم إحياء لنفوسهم، وأعلمهم أنّ الله يُكسب قلوبهم بتلك الاستجابة قوى قدسيّة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } واختير في تعريفهم، عند النداء، وصف الإيمان ليومىء إلى التعليل كما تقدّم في الآيات من قبل، أي أنّ الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم فيمتثلوا أمره إذا دعاهم.

الاستجابة، الإجابة، والسين والتاء فيها للتأكيد، وقد غلب استعمال الاستجابة في إجابة طلب معين أو في الأعم. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ} [آل عمران:195]

{ وَلِلرَّسُولِ } للإشارة إلى استقلال المجرور بالتعلّق بفعل الاستجابة، تنبيها على أنّ استجابة الرّسول صلى الله عليه وسلم أعمّ من استجابة الله، لأنّ الاستجابة لله لا تكون إلّا بمعنى المجاز، وهو الطاعة، بخلاف الاستجابة للرسول عليه الصلاة والسلام فإنّها بالمعنى الأعم الشامل للحقيقة وهو استجابة ندائه، وللمجاز وهو الطاعة. فأريد أمرهم بالاستجابة للرّسول بالمعنيين.

{ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } ليس قيدا للأمر بالاستجابة ولكنّه تنبيه على أنّ دعاءه إيّاهم لا يكون إلّا إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم، أي لأجل ما هو سبب حياتكم الروحيّة.

الإحياء، تكوين الحياة في الجسد، والحياة قوة بها يكون الإدراك والتحرك بالاختيار، ويستعار الإحياء تبعا للصفة أو القوّة التي بها كمال موصوفها، مثل حياة الأرض بالإنبات وحياة العقل بالعلم وسداد الرأي. وضدّها الموت في المعاني الحقيقية والمجازية.

والإحياء هنا مستعار لإعطاء الإنسان ما به كماله، فيعمّ كلّ ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة، وما يتقوّم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة، فالشجاعة حياة للنفس، والاستقلال حياة، والحرّيّة حياة، واستقامة أحوال العيش حياة.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

مقتضى ارتباط نظم الكلام يوجب أن يكون مضمون هذه الجملة مرتبطا بمضمون الجملة التي قبلها فيكون عطفها عليها عطف التكملة، والجملتان مجعولتان آية واحدة في المصحف.

{ وَاعْلَمُوا } للاهتمام بما تتضمّنه، وحثّ المخاطبين على التأمّل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البليغ أنّ يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب مهم بـ (اعلم - تعلم) لفتا لذهن المخاطب.

وفيه تعريض غالبا بغفلة المخاطب عن أمر مهم. من ذلك قوله تعالى {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: 196]. وفي الحديث أنّ النبي ﷺ قال لأبي مسعود الأنصاري وقد رآه يضرب عبدا له " اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام".

و{أَنَّ} بعد هذا الفعل مفتوحة الهمزة حيثما وقعت.

الحول، ويقال الحُوُل، منع شيئين أو أشياء من الاتصال. قال تعالى {وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ} [هود: 43]

وإسناد الحول إلى الله مجاز عقلي لأنّ الله منزه عن المكان. والمعنى، واعلموا أنّ علم الله يخلص بين المرء

وعقله خلوص الحائل بين شيئين فإنّه يكون شديد الاتصال بكليهما .
{ **الْمَرْءِ** } عمله وتصرفاته الجسمانية. وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أنّ ذلك يتجدّد ويستمر، وهذا في معنى قوله تعالى {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16] قاله قتادة.
والمقصود تحذير المؤمنين من التراخي في الاستجابة إلى دعوة الرسول ﷺ، والتنصل منها، أو التستّر في مخالفته، وهو معنى قوله {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [البقرة: 235]
{ **وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } كان ما قبله تحذيرا وكان هو تهديدا. وتقديم متعلق {تُحْشَرُونَ} عليه لإفادة الاختصاص، أي إليه لا إلى غيره تحشرون، وهذا الاختصاص للكناية عن انعدام ملجإ أو مخبإ تلتجئون إليه من الحشر إلى الله، فكنّى عن انتفاء المكان بانتفاء محشور إليه غير الله بأبدع أسلوب. وليس الاختصاص لرد اعتقاد، لأنّ المخاطبين بذلك هم المؤمنون، فلا مقتضى لقصر الحشر على الكون إلى الله بالنسبة إليهم.

{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [25]

تحذير المستجيبين من إعراض المعرضين، ليعلموا أنّهم قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يقوّموا عوج قومهم، كيلا يحسبوا أنّ امتثالهم كاف إذا عصى دهماؤهم، فحذّرهم فتنة تلحقهم فتعم الظالم وغيره.
فإنّ المسلمين إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول عليه الصلاة والسلام، دبّ بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء، وذلك الحال هو المعبر عنه بالفتنة.
الفتنة، اضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس النّاس. وقد تقدّم ذكر الفتنة في قوله {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:91]
فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حلّ بالنّاس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتّى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتّى يعمّ أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكّد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم. فظهر أنّ الفتنة إذا حلّت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمّه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكلّ لأنّ أضرار حلولها تصيب جميعهم.
جاء في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا

لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا". وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنّها قالت: " يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال" نعم إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نيّاتهم".

{ **لا تُصِيبَنَّ** } نهيا مستأنفا تأكيدا للأمر باتقائها مع زيادة التحذير بشمولها من لم يكن من الظالمين.

{ **خَاصَّةً** } اسم فاعل مؤنث لجريانه على {فِتْنَةً} فهو منتصب على الحال من ضمير {تُصِيبَنَّ} وهي حال مفيدة لأنها المقصود من التحذير.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } فعل الأمر بالعلم للاهتمام لقصد شدّة التحذير، كما تقدم آنفا، والمعنى أنّه شديد العقاب لمن يخالف أمره.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[26]

تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزّة والنصر، بعد الضعف والقلّة والخوف، ليذكروا كيف يسّر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتّى أوصلهم إلى مكافحة عدوّهم وأن يتقي أعداؤهم بأسهم، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كثروا وعزوا وانتصروا. فالخطاب للمؤمنين يومئذ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أنّ الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلّها.

{ **وَاذْكُرُوا** } مشتق من الذُكر (بضم الذال) وهو التذكّر لا ذكر اللسان، أي تذكّروا.

{ **إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ** } جيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف القلّة والاستضعاف فيهم.

{ **قَلِيلٌ** } مفرد عن ضمير الجماعة، لأنّ (قليلا وكثيرا) قد يجيئان غير مطابقين لما جريا عليه، كما تقدّم عند قوله تعالى {مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [آل عمران:146]

{ **فِي الْأَرْضِ** } يراد بها الدنيا كما تقدّم عند قوله تعالى {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} [الأعراف:56]، أو أريد بها ارض مكّة، فالتعريف للعهد، والمعنى تذكير المؤمنين بأيام إقامتهم بمكة مستضعفين بين المشركين، فإنّهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد.

التخطّف، شدّة الخطف، والخطف الأخذ بسرعة وقد تقدّم عند قوله تعالى {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} [البقرة:20]. وهو هنا مستعار للغلبة السريعة، لأنّ الغلبة شبه الأخذ، فإذا كانت سريعة أشبهت الخطف. قال تعالى {وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: 27].

أي يأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقه ولا طول محاربة، وكانوا أشدّ منكم قوّة، لولا أن الله صرفهم عنكم، وقد كان المؤمنون خائفين في مكّة، وكانوا خائفين في طرق هجرتيهم، وكانوا خائفين يوم بدر، حتّى أذاقهم

الله نعمة الأمن من بعد يوم بدر.
{ **النَّاسُ** } المشركون من أهل مكّة وغيرهم.
الإيواء، جعل الغير آويا، أي راجعا إلى الذي يحفظه، فيؤول معناه إلى الحفظ والرعاية.
التأييد، التقوية، أي جعل الشيء ذا أيد، لأنّ اليد يكنّى بها عن القدرة. قال تعالى {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ} [ص: 17].
{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } إدماج بذكر نعمة توفير الرزق في خلال المنّة بنعمة النصر وتوفير العدد بعد الضعف والقلة فإنّ الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق.
{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } نبّههم الله تعالى، فلما أعطوا حق الشكر دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوه اخذ أمرهم في تراجع ولله عاقبة الأمور.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [27] وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [28]
استئناف خطاب للمؤمنين يحذّرهم من العصيان الخفيّ، بعد أن أمرهم بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله ﷺ. حذّرهم من أن يظهروا الطاعة والاستجابة ويبطنوا المعصية والخلاف. ومناسبته لما قبله ظاهرة وإنّ لم تسبق من المسلمين خيانة وإنّما هو تحذير.
وذكر الواحدي في (أسباب النزول)، وروى جمهور المفسّرين وأهل السير، عن الزهري والكلبي، وعبد الله بن أبي قتادة، أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، لمّا حاصر المسلمون بني قريظة، فسألت بنو قريظة الصلح فقال رسول الله ﷺ: " تنزلون على حكم سعد بن معاذ " فأبوا وقالوا: " أرسل إلينا أبا لبابة فبعث رسول الله ﷺ إليهم أبا لبابة، وكان ولده وعياله وماله عندهم، فلما جاءهم قالوا له ما ترى أننزل على حكم سعد، فأشار أبو لبابة بيده على حلقه، أنه الذبح، ثم فطن أنّه قد خان الله ورسوله فنزلت فيه هذه الآية .
وهذا الخبر لم يثبت في الصحيح، ولكنّه اشتهر بين أهل السير والمفسّرين، فإذا صحّ، وهو الأقرب، كانت الآية مما نزل بعد زمن طويل من وقت نزول الآيات التي قبلها، المتعلقة باختلاف المسلمين في أمر الأنفال فإنّ بين الحادثتين نحوا من ثلاث سنين، ويقرب هذا ما أشرنا إليه آنفا من انتفاء وقوع خيانة لله ورسوله بين المسلمين.
الخون والخيانة، إبطال ونقض ما وقع عليه التعاقد من دون إعلان بذلك النقض، قال تعالى {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: 58] وهي ضد الوفاء. قال الزمخشرى: "وأصل معنى الخون النقص، كما أنّ أصل الوفاء التمام".

فالإيمان والطاعة لله ورسوله عهد بين المؤمن وبين الله ورسوله، فكما حُذّروا من المعصية العلنية حُذّروا من المعصية الخفية. وتشمل الخيانة كل معصية خفيّة، فهي داخلة في {لا تَخُونُوا} ، لأنّ الفعل في سياق النهي يعم، فكل معصية خفيّة فهي مراد من هذا النهي، فتشمل الغلول الذي حاموا حوله في قضية الأنفال، لأنّهم لما سأل بعضهم النفل وكانوا قد خرجوا يتتبعون آثار القتلى لينتفلوا منهم، تعيّن تحذيرهم من الغلول، فذلك مناسبة وقع هذه الآية من هذه الآيات سواء صح ما حكي في سبب النزول أم كانت متصلة النزول بقريناتها.

الأمانة، اسم لما يحفظه المرء عند غيره، مشتقّة من الأمن لأنّه يأمنه من أن يضيّعها، والأمين الذي يحفظ حقوق من يواليه، وإنّما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين مبالغة في تفظيع الخيانة.

وللأمانة شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، ما ثبتوا عليها وتخلّقوا بها وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها، وقد حذّر النبي ﷺ من أضاعتها والتهاون بها، وأشار إلى أنّ في إضاعتها انحلال أمر المسلمين.

ففي صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: " حدثنا رسول الله ﷺ حديثين: رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر، حدثنا أنّ الأمانة نزلت على جَذْر قلوب الرجال ثم عَلِموا من القرآن ثم عَلِموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال ينام الرجل النومة فتقبض من قلبه فيظل أثرها مثل الوكْت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل أثر المَجْل كجَمْر دَحْرَجْتَهُ على رجلك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال إنّ في بني فلان رجلا أمينا ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان."

[**الوكت**، سواد يكون في البسر إذا قارب أن يصير رطبا. و**المجل**، غلظ الجلد من أثر العمل والخدمة. و**نفط** تقرّح. و**منتبرا** منتفخا"، وقد جعلها النبي ﷺ من الإيمان إذ قال في آخر الأخبار عنها وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

وحسبك من رفع شأن الأمانة أن كان صاحبها حقيقا بولاية أمر المسلمين لأنّ ولاية أمر المسلمين أمانة لهم ونصح، ولذلك قال عمر بن الخطاب حين أوصى بأن يكون الأمر شورى بين ستة: " ولو كان أبو عبيدة ابن الجراح حيا لعهدت إليه لقول رسول الله ﷺ له " إنه أمين هذه الأمة" .

{ **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } في موضع الحال من ضمير تخونوا الأوّل والثاني، وهي حال كاشفة والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه، لأنّ النهي عن القبيح في حال معرفة المنهي أنّه قبيح يكون أشدّ. وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بحالة العلم بها، لأنّ ذلك قليل الجدوى، فإنّ كلّ تكليف مشروط بالعلم وكون الخيانة قبيحة أمر معلوم.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** } وهذا تنبيه على الحذر من الخيانة التي يحمل عليها المرء حبّ المال وهي خيانة الغلول وغيرها، فتقديم الأموال لأنّها مظنّة الحمل على الخيانة في هذا المقام. وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة، فإنّ غرض جمهور النّاس في جمع الأموال أن يتركوها لأبنائهم من بعدهم، وقد كثرفي القرآن قرن الأموال والأولاد في التحذير.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } للإشارة إلى أنّ ما عند الله من الأجر على كفّ النفس عن المنهيات هو خير من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }[29]

خوطب المؤمنون بوصف الإيمان تذكيرا لهم بعهد الإيمان وما يقتضيه، كما تقدم آنفا في نظائره، وعقّب التحذير من العصيان والتنبيه على سوء عواقبه، بالترغيب في التقوى وبيان حسن عاقبتها وبالوعد بدوام النصر واستقامة الأحوال إن هم داموا على التقوى.

الفرقان، أصله مصدر كالشكران والغفران، وهو ما يفرّق، أي يميز بين شيئين متشابهين. وقد أطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة فأطلق على النصر، لأنّه يفرق بين حالين كانا محتملين. ولقّب القرآن بالفرقان لأنّه فرّق بين الحق والباطل، قال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: 1].

عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب أنّهم سألوا مالكا عن قوله تعالى {يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً} قال **مخرجا**، ثم قرأ {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: 3].

وفُسّر **بالتمييز** بينهم وبين الكفار في الأحوال التي يستحب فيها التمايز في أحوال الدنيا، فيشمل ذلك أحوال النفس، من الهداية والمعرفة والرضى وانشراح القلب وإزالة الحقد والغل والحسد بينهم والمكر والخداع.

{ **لَكُمْ** } أشعر أنّ الفرقان شيء نافع لهم، فالظاهر أنّ المراد منه كلّ ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة، حتّى يكونوا مطمئني البال منشرحي الخاطر، وذلك يستدعي أن يكونوا منصورين، كَمَلَةُ الأخلاق، سائرين في طريق الحق والرشد. وذلك هو ملاك استقامة الأمم. فاختيار الفرقان هنا من تمام الفصاحة.

{ **وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** } تكفير السيئات يصحّ أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التي تعقبها التقوى. ومفعول {يَغْفِرْ لَكُمْ} ، محذوف وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب. ويتعيّن أن يحمل على نوع من الذنوب، وهو الصغائر التي عبّر عنها باللمم. ويجوز العكس بأن يراد بالسيئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها.

وقيل التكفير الستر في الدنيا، والغفران عدم المؤاخذة بها في الآخرة. والحاصل أنّ الإجمال مقصود للحثّ على التقوى وتحقق فائدتها والتعريض بالتحذير من التفريط فيها.

{ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** } تذييل وتكميل وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى.

{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[30]

يجوز أن يكون عطف قصة على قصة من قصص تأييد الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فيكون {إِذْ} متعلقا بفعل محذوف تقديره واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا، على طريقة نظائره الكثيرة في القرآن.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله: {إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ} [26] فهو متعلق بفعل (اذكروا) من قوله {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ} [26]، فإنّ المكر بالرسول عليه الصلاة والسلام مكر بالمسلمين ويكون ما بينهما اعتراضا. فهذا تعداد لنعم النصر، التي أنعم الله بها على رسوله ﷺ والمؤمنين، في أحوال ما كان يظنّ الناس أن سيجدوا منها مخلصا.

وهذه نعمة خاصة بالنبي ﷺ. والإنعام بحياته وسلامته نعمة تشمل المسلمين كلهم، والقصّة تذكير بأيّام مقامهم بمكة، وما لاقاه النبي ﷺ، وما لاقاه المسلمون عموما.

المكر، إيقاع الضرّ خفية، وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران:45].

{ **لِيُثْبِتُوكَ** } ليحبسوك، يقال أثبته إذا حبسه ومنعه من الحركة وأوثقه.

وأشارت الآية إلى تردّد قريش في أمر النبي ﷺ حين اجتمعوا للتشاور في ذلك بدار الندوة في الأيام الأخيرة قبيل هجرته، فقال أبو البختري: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق وسدّوا عليه باب بيت غير كوة تلقون إليه منها الطعام. وقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى جَلْدا فيجتمعون ثم يأخذ كل واحد منهم سيفا ويأتون محمدا في بيته فيضربونه ضربة رجل واحد فلا تقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها فيأخذون العقل ونستريح منه، وقال هشام بن عمرو: الرأي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضرّكم ما صنع.

{ **وَيَمْكُرُونَ** } لم أر أحدا من المفسّرين عرّج على بيان موقع الواو، وهي تحتمل وجهين: **أحدهما**، أن تكون واو الحال، والجملة حال من {الَّذِينَ كَفَرُوا} وهي حال مؤسّسة غير مؤكدة، والمضارع في يمكرون ويمكر الله لاستحضار حالة المكر.

ثانيهما، أن تكون واو الاعتراض أي العطف الصوري، ويكون المراد بالفعل المعطوف الدوام أي هم مكروا بك ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك وهم لا يزالون يمكرون.

{ **وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** } بيان معنى إسناد المكر إلى الله تقدّم في [آل عمران:54] و[الأعراف:99] والذين تولوا المكر هم سادة المشركين وكبراؤهم واعون أولئك الذين كان دأبهم الطعن في نبوة محمد ﷺ وفي نزول القرآن عليه، وإنّما أسند إلى جميع الكافرين لأنّ البقية كانوا أتباعا للزعماء يأتمرون بأمرهم.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}[31]

وهذا القول مقالة المتصدّين للطعن على الرسول ﷺ، ومحاجته، والتشغيب عليه، منهم النضر بن الحارث وطعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط.

{ **قَدْ سَمِعْنَا** } قد فهمنا ما تحتوي عليه، لو نشاء لقلنا مثلها. وإنّما اهتموا بالقصص ولم يتبيّنوا مغزاها ولا ما في القرآن من الآداب والحقائق.

ومن عجيب بهتانهم أنّ الرسول ﷺ تحدّاهم بمعارضة سورة من القرآن، فعجزوا عن ذلك وأفحموا، ثم اعتذروا بأنّ ما في القرآن أساطير الأوّلين وأنّهم قادرون على الإتيان بمثل ذلك.

قيل: قائل ذلك هو النضر بن الحارث من بني عبد الدار، كان رجلا من مردة قريش ومن المستهزئين، وكان كثير الأسفار إلى الحيرة والى أطراف بلاد العجم في تجارته، فكان يلقى بالحيرة ناسا من العِبَاد [بتخفيف الباء اسم طائفة من النصارى] فيحدّثونه من أخبار الإنجيل.

{ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا** } إيهام بأنّهم ترفعوا عن معارضته، وأنّهم لو شاءوا لنقلوا من أساطير الأولين إلى العربية ما يوازي قصص القرآن وهذه وقاحة، وإلّا فما منعهم أن يشاءوا معارضة من تحدّاهم وقرعهم بالعجز بقوله {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا} [البقرة: 24].

الأساطير، جمع أسطورة (بضم الهمزة) وهي القصّة وتقدّم عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام:25]

{ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [32] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [33]

وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث صاحب المقالة السابقة، وقالها أيضا أبو جهل. وكلامهم هذا جار مجرى القسم، وذلك أنّهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم. وهم يحسبون أنّ دعوة المرء على نفسه مستجابة. وهذه طريقة شهيرة في كلامهم.

وقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أنّ الله يتصدّى لمخاطرتهم، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة إن كان

القرآن حقا منه أمطر عليهم الحجارة. وأرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقّية القرآن فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقّا من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أنّ القرآن ليس من عند الله، وذلك في معنى القسم كما علمت.

{ **مِنْ عِنْدِكَ** } حال من الحقّ، أي منزلا من عندك فهم يطعنون في كونه حقا وفي كونه منزلا من عند الله.

{ **مِنَ السَّمَاءِ** } وصف لحجارة أي حجارة مخلوقة لعذاب من تصيبه لأن الشأن أن مطر السماء لا يكون بحجارة.

{ **أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } ذكروا عذابا خاصا وهو مطر الحجارة ثم عمّموا، يريدون بذلك كلّه عذاب الدنيا، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. وكانت الآية نزلت بعد أن حقّ العذاب على قائلي هذا القول وهو عذاب القتل المهين بأيدي المسلمين يوم بدر، وكان العذاب قد تأخّر عنهم زمنا اقتضته حكمة الله.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** } كناية عن استحقاقهم العذاب، وإعلام بكرامة رسوله ﷺ عنده، لأنّه جعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سببا في تأخير العذاب عنهم. وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيّه محمدا ﷺ فجعل وجوده في مكان مانعا من نزول العذاب على أهله.

قال ابن عطية: قالت فرقه نزلت هذه الآية كلّها بمكة.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** } أشكل على المفسّرين نظمها، وحمل ذلك بعضهم على تفكيك الضمائر، فجعل ضمائر الغيبة من { يُعَذِّبَهُمُ/ فِيهِمْ/ مُعَذِّبَهُمْ } للمشركين، وجعل ضمير{وهم يستغفرون} للمسلمين.

والذي يظهر أنّها جملة معترضة انتهزت بها فرصة التهديد بتعقيبه بترغيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، فبعد أن هدّد المشركين بالعذاب ذكّرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربّهم بأن يؤمنوا بأنّه واحد، ويصدّقوا رسوله. فهو وعد بأنّ التوبة من الشرك تدفع عنهم العذاب وتكون لهم أمنا وذلك هو المراد بالاستغفار.

وقد دلت الآية على فضيلة الاستغفار وبركته بإثبات بان المسلمين آمنوا من العذاب الذي عذب الله به الأمم لأنّهم استغفروا من الشرك باتباعهم الإسلام. روى الترمذي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: " أنزل الله عليّ أمانين لأمتي { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة ".

{ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }[34]

ارتقاء في بيان أنّهم أحقّاء بتعذيب الله إيّاهم، بيانا بالصراحة.

{ وَمَا لَهُمْ } (مَا) استفهامية، والاستفهام إنكاري، وهي في محل المبتدإ و (لَهُمْ) خبره، واللام للاستحقاق، والتقدير ما الذي ثبت لهم لأن ينتفي عنهم عذاب الله.

{ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ } التقدير، أنّهم لا شيء يمنعهم من العذاب. فاللفظ نفي لمانع الفعل. والمقصود أن الفعل توفرت أسبابه ثم انتفت موانعه.

{ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }

الصدّ، الصرف، والمفعول محذوف دلّ عليه السياق، أي يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام.

فكان الصدّ عن المسجد الحرام جريمة عظيمة يستحقّ فاعلوه عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة، لأنّه يؤول إلى الصدّ عن التوحيد.

وهذا الصدّ الذي ذكرته الآية، هو عزمهم على صدّ المسلمين المهاجرين عن أن يحجّوا ويعتمروا.

في الكشّاف: " كانوا يقولون نحن وُلَاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء". وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود، أنّه حدّث عن سعد بن معاذ: " أنّه كان صديقا لأميّة بن خلف، وكان أميّة إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكّة نزل على أميّة، فلمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة انطلق سعد معتمرا فنزل على أميّة بمكة فقال لأميّة انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت فخرج قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان (كنية أمية بن خلف) من هذا معك ؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم الصباة، أمّا والله لولا أنّك مع أبي صفوان ما رجعت إلى اهلك سالما ".

{ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ } إظهار اعتدائهم في صدّهم عن المسجد الحرام.

{ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ } تعيين لأوليائه الحقّ، فهي بمنزلة الدليل على نفي ولاية المشركين.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } وإنّما نفى العلم عن أكثرهم دون أن يقال (ولكنهم لا يعلمون) فاقتضى أنّ منهم من يعلم أنّهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وهم من أيقنوا بصدق الرسول ﷺ واستفاقوا من غفلتهم القديمة، ولكن حملهم على المشايعة للصّادين عن المسجد الحرام، العناد وطلب الرئاسة، وموافقة الدهماء على ضلالهم، وهؤلاء هم عقلاء أهل مكّة ومن تهيأ للإيمان منهم مثل العبّاس وعقيل بن أبي طالب وأبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وخالد بن الوليد ومن استبقاهم الله للإسلام فكانوا من نُصرائه من بعد نزول هذه الآية.

{ **وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** }[35]

معطوفة على {وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فمضمونها سبب ثان لاستحقاقهم العذاب، وموقعها، عقب جملة {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ} يجعلها كالدليل المقرّر لانتفاء ولايتهم للمسجد الحرام، لأنّ من كان يفعل مثل هذا عند مسجد الله لم يكن من المتقين، فكان حقيقا بسلب ولاية المسجد عنه.

المُكَاء، على صيغة مصادر الأصوات كالرغاء والثغاء والبكاء والنواح. يقال مَكَا يمْكُو إذا صفّر بفيه ومنه سمي نوع من الطير المَكّاء (بفتح الميم وتشديد الكاف) وجمعه مكاكيء (بهمزة في آخره بعد الياء) وهو طائر أبيض يكون بالحجاز.

التصدية، التصفيق مشتقا من الصدى وهو الصوت الذي يرده الهواء محاكيا لصوت صائح في البراح من جهة مقابلة.

ولا تعرف للمشركين صلاة، فتسمية مكائهم وتصديتهم صلاة مشاكلة تقديريّة، لأنّهم لمّا صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت، كان من جملة طرائق صدّهم إيّاهم تشغيبهم عليهم وسخريتهم بهم بالمكاء والتصدية. قال مجاهد فعل ذلك نفر من بني عبد الدار يخلطون على محمد صلاته، وبنو عبد الدار هم سدنة الكعبة وأهل عمارة المسجد الحرام، فلما فعلوا ذلك للاستسخار من الصلاة سمي فعلهم ذلك صلاة على طريقة المشاكلة التقديرية. والمشاكلة ترجع إلى استعارة علاقتها المشاكلة اللفظية أو التقديرية، فلم تكن للمشركين صلاة بالمكاء والتصدية. وهذا الذي نحاه حذّاق المفسرين: مجاهد، وابن جبير، وقتادة.

ومن المفسرين من ذكر أنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة ويمكون ويصفقون. روي عن ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفقون ويصفّرون.

{ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ** } الأمر هنا للتوبيخ والتغليط، وذلك هو العذاب الذي حلّ بهم يوم بدر.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** } أي بكفركم. وعبّر هنا بـ {تَكْفُرُونَ} وفي سورة الأعراف[39] بـ {تَكْسِبُونَ} لأنّ العذاب المتحدّث عنه هنا لأجل الكفر، والمتحدّث عنه في الأعراف لأجلّ الكفر والإضلال وما يجرّه الإضلال من الكبرياء الرئاسة.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [36] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [37]

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ }

لما ذكر صدّهم المسلمين عن المسجد الحرام الموجب لتعذيبهم، عقّب بذكر محاولتهم استئصال المسلمين وصدّهم عن الإسلام، وهو المعني ب { **سَبِيلِ اللَّهِ** } وجعلت الجملة مستأنفة غير معطوفة، اهتماما بها. أي أنّهم ينفقون أموالهم للصدّ عن الإسلام.

الانفاق، كانوا يطعمون جيشهم يوم بدر اللحم كلّ يوم، وكان المطعمون اثني عشر رجلا وهم: (أبو جهل، وأمية بن خلف، والعباس بن عبد المطلب وعتبة بن ربيعة، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، وأبو البختري والعاصي بن هشام، وحكيم بن حزام، والنضر بن الحارث، ونبيه بن حجاج السهمي، وأخوه منبه، وسهيل بن عمرو العامري). كانوا يطعمون في كل يوم عشر جزائر.

وهذا الإنفاق وقع يوم بدر، وقد مضى، فالتعبير عنه بصيغة المضارع لاستحضار حالة الإنفاق وأنّها حالة عجيبة في وفرة النفقات.

{ **فَسَيُنْفِقُونَهَا** } أي ستكون لهم شدائد من بأس المسلمين تضطرّهم إلى تكرير الإنفاق على الجيوش لدفاع قوة المسلمين.

{ **ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** } (ثُمَّ) للتراخي الحقيقي والرتبي، أي وبعد ذلك تكون تلك الأموال التي ينفقونها حسرة عليهم.

الحسرة، شدّة الندامة والتلهّف على ما فات. وأسندت الحسرة إلى الأموال لأنها سبب الحسرة بإنفاقها.

وهذا إنذار بأنّهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائل فيما أنفقوا لأجله، لأنّ المنفق إنّما يتحسّر ويندم إذا لم يحصل له المقصود من إنفاقه.

فقد أنفقوا بعد ذلك على الجيش يوم أحد: استأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش لقتال المسلمين يوم أُحُد، والأحابيش فِرَق من كناية تجمعت من أفذاذ شتّى وحالفوا قريشا وسكنوا حول مكة سمّوا أحابيش جمع أحبوش وهو الجماعة.

ثم أنفقوا على الأحزاب حين هاجموا المدينة ثم انصرفوا بلا طائل، فكان إنفاقهم حسرة عليهم.

{ **ثُمَّ يُغْلَبُونَ** } ارتقاء في الإنذار بخيبتهم وخذلانهم، فإنّهم بعد أن لم يُحصّلوا من إنفاقهم على طائل تُوعّدوا بأنّهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم يوم بدر، وهو إنذار لهم بغلب فتح مكّة وانقطاع دابر أمرهم. وهذا كالإنذار في قوله {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 12]

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [36] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [37]

كان مقتضى الظاهر أن يقال وإلى جهنم يحشرون كما قال في الآية الأخرى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 12] فعدل عن الإضمار هنا إلى الإظهار تخريجا على خلاف مقتضى الظاهر، للإفصاح عن التشنيع بهم في هذا الإنذار حتّى يعاد استحضار وصفهم بالكفر بأصرح عبارة.

{ لِيَمِيزَ } لبيان أنّ من حكمة حشرهم إلى جهنّم أن يتميّز الفريق الخبيث من الفريق الطيّب في يوم الحشر.

الخبيث، الشيء الموصوف بالخبث والخباثة، وحقيقة ذلك أنّه حالة حسيّة لشيء تجعله مكروها مثل القذر، والوسخ، ويطلق الخبث مجازا على الحالة المعنويّة من نحو ما ذكرنا، تشبيها للمعقول بالمحسوس، وهو مجاز مشهور، والمراد به هنا خسّة النفوس الصادرة عنها مفاسد الأعمال.

الطيب، الموصوف بالطيب ضد الخبث بإطلاقيه، فالكفر خبث لأنّ أساسه الاعتقاد الفاسد، فنفس صاحبه تتصور الأشياء على خلاف حقائقها، فلا جرم أن تأتي صاحبها بالأفعال على خلاف وجهها.

{ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ } علّة أخرى لحشر الكافرين إلى جهنّم فالمقصود جمع الخبيث وإن اختلفت أصنافه في مجمع واحد، لزيادة تمييزه عن الطيب، ولتشهير من كانوا يسرّون الكفر ويظهرون الإيمان. وفي جمعه بهذه الكيفية تذليل لهم وإيلام، اذ يجعل بعضهم على بعض حتى يصيروا ركاما.

الرَكْم، ضم شيء أعلى إلى أسفل منه، وقد وصف السحاب بقوله {ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً} [النور: 43]

{ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } فإنّ من كانت تلك حاله كان حقيقا بأنّه قد خسر اعظم الخسران، لأنّه خسر منافع الدنيا ومنافع الآخرة. وصيغة القصر للمبالغة في اتصافهم بالخسران، وكأنّهم انفردوا بالخسران من بين الناس.

{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ }[38]

جرى هذا الكلام على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب، والوعيد بالوعد، والعكس، فأنذرهم بما أنذر، وتوعّدهم بما توعّد، ثم ذكّرهم بأنّهم متمكّنون من التدارك وإصلاح ما أفسدوا، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب الإنابة.

الانتهاء، الانتهاء عن الأفعال والصفات التي أوجبت لهم صفة الكفر من مثل الإنفاق للصدّ عن سبيل الله. أي أن ينتهوا عن ذلك، وإنّما يكون الانتهاء عن ذلك كلّه بالإيمان.

{ **مَا قَدْ سَلَفَ** } هو ما أسلفوه من الكفر وآثاره.

{ **يُغْفَرْ لَهُمْ** } لفظ الغفران حقيقة شرعيّة في العفو عن جزاء الذنوب في الآخرة، وذلك مهيع الآية فهو معلوم منها بالقصد الأوّل لا محالة، ويلحق به هنا عذاب الله في الدنيا.

واستنبط أئمتنا من هذه الآية أحكاما للأفعال والتبعات التي قد تصدر من الكافر في حال كفره فإذا هو أسلم قبل أن يؤاخذ بها هل يسقط عنه إسلامه التبعات بها؟

روى ابن العربي في (الأحكام) عن مالك: إنّما يعني عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام من مال أو دم أو شيء. قال ابن العربي وهو الصواب لعموم قوله {إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} ، وأنّ ابن القاسم، وابن وهب، رويا عن مالك أنّ الكافر إذا افترى على مسلم أو سرق ثم أسلم يقام عليه الحدّ. ولو زنى ثم أسلم أو اغتصب مسلمة ثم أسلم لسقط عنه الحدّ تفرقة بين ما كان حقا لله محضا وما كان فيه حقّ للنّاس.

وفي (المدوّنة) تسقط عنه الحدود كلّها.

وذكر القرطبي عن ابن المنذر: أنّه حكى مثل ذلك عن الشافعي، وأنّه احتج بهذه الآية.

وعن أبي حنيفة يسقط عنه كل حق هو لله ولا يسقط عنه حقّ النّاس وحجّة الجميع هذه الآية تعميما وتخصيصا بمخصصات أخرى.

{ **وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ** } المراد بالعود الرجوع إلى ما هم فيه من مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، والتجهّز لحربهم. مثل صنعهم يوم بدر. وليس المراد عودهم إلى الكفر بعد الانتهاء. لأنّ الذين كفروا لما يفارقوا الكفر بعد فلا يكون المراد بالعود عودهم إلى الكفر بعد أن يسلموا.

السنّة، العادة المألوفة والسيرة، وقد تقدّم في قوله تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} [آل عمران:137]

مَضَتْ، تقدمت وعرفها الناس.

وهذا الخبر تعريض بالوعيد بأنّهم سيلقون ما لقيه الأوّلون.

الأوّلون، السابقون المتقدّمون في حالة، والمراد هنا الأمم التي سبقت وعرفوا أخبارهم أنّهم كذّبوا رسل الله فلقوا عذاب الاستئصال مثل عاد وثمود.

ويجوز أن المراد بالأولين أيضا السابقون للمخاطبين، من قومهم من أهل مكّة، الذين استأصلهم السيف يوم بدر. وفي كل أولئك عبرة للحاضرين الباقين، وتهديد بأن يصيروا مصيرهم.

{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [39] وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [40]

التقدير: فإن يعودوا فقاتلوهم، والضمير عائد إلى مشركي مكّة.

الفتنة، اضطراب أمر النّاس ومرجهم، وقد تقدّم بيانها غير مرّة، منها عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} [البقرة[102] وقوله {وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [المائدة:71]

والمراد هنا أن لا تكون فتنة من المشركين، لأنّه لما جعل انتفاء الفتنة غاية لقتالهم.

وهي دالة على ما رآه المحقّقون من مؤرّخينا من أنّ قتال المسلمين المشركين إنّما كان أوّله دفعا لأذى المشركين، فتلك الفتنة التي أشار إليها القرآن.

{ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } التعريف في (الدين) للجنس، وتقدّم الكلام على نظيرها في سورة البقرة. إلّا أنّ هذه الآية زيد فيها اسم التأكيد وهو {كُلُّهُ} وذلك لأنّ هذه الآية أسبق نزولا من آية البقرة فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنّه لله تعالى، لئلا يتوهّم الاقتناع بإسلام غالب المشركين. فلمّا تقرّر معنى العموم وصار نصّا من هذه الآية عدل عن إعادته في آية البقرة تطلبا للإيجاز.

{ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } كناية عن حسن مجازاته إيّاهم لأنّ القادر على نفع أوليائه ومطيعيه لا يحول بينه وبين إيصال النفع إليهم خفاء حال من يخلص إليه.

{ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ }

التولّي، الإعراض و تقدّم عند قوله تعالى {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }[المائدة:92]

والمولى الذي يتولّى أمر غيره ويدفع عنه وفيه معنى النصر.

والمعنى وإن تولّوا عن هاته الدعوة فالله مغن لكم عن ولائهم، أي لا يضرّكم توليهم فقوله {أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ} يؤذن بجواب محذوف تقديره: فلا تخافوا توليهم فإنّ الله مولاكم وهو يقدر لكم ما فيه نفعكم.

{ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } مستأنفة لأنّها إنشاء ثناء على الله فكانت بمنزلة التذييل.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[41]

انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال، الذي افتتحته السورة، ناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين.

والخطاب لجميع المسلمين، وبالخصوص جيش بدر وليس هذا نسخا لحكم الأنفال المذكور أوّل السورة، بل هو بيان لإجمال قوله {لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}. وقال أبو عبيد: إنها ناسخة. وذكروا: أنّ رسول الله لم يخمّس مغانم بدر ثم خمّس مغانم أخرى بعد بدر، أي بعد نزول آية سورة الأنفال. وفي حديث علي: " أنّ رسول الله أعطاه شارفا من الخمس يوم بدر" ، فاقتضت هذه الرواية أن مغانم بدر خمّست.

وقد اضطربت أقوال المفسرين قديما في المراد من المغنم في هذه الآية. والوجه عندي في تفسير هذه الآية، واتصالها بقوله {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} [1] أنّ المراد بقوله {مَا غَنِمْتُمْ} في هذه الآية: ما حصّلتم من الغنائم من متاع الجيش، وذلك ما سمّي بالأنفال، في أول السورة، فالنفل والغنيمة مترادفان، وذلك مقتضى استعمال اللغة. فعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، وعطاء: الأنفال الغنائم. وعليه فوجه المخالفة بين اللفظين إذ قال تعالى هنا {غَنِمْتُمْ} وقال في أول السورة {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} لاقتضاء الحال التعبير هنا بفعل، وليس في العربية فعل من مادة (النفل) يفيد إسناد معناه إلى من حصل له. ولذلك فآية { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ} سيقت هنا بيانا لآية {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} فإنهما وردتا في انتظام متصل من الكلام.

ونرى أن تخصيص اسم **النفل،** بما يعطيه أمير الجيش أحد المقاتلين زائدا على سهمه من الغنيمة سواء كان سلبا أو نحوه مما يسعه الخمس، أو من أصل مال الغنيمة، على الخلاف الذي سقناه سابقا، إنّما هو اصطلاح شاع بين أمراء الجيوش بعد نزول هذه الآية.

الغنيمة، ويقال: لها المغنم، ما يأخذه الغزاة من أمتعة المقاتلين غصبا، بقتل أو بأسر، أو يقتحمون ديارهم غازين، أو يتركه الأعداء في ديارهم، إذا فروا عند هجوم الجيش عليهم بعد ابتداء القتال.

الفيء، ما يظفر به الجيش في غير حالة الغزو من مال العدو، وما يتركه العدو من المتاع إذا أخلوا بلادهم قبل هجوم جيش المسلمين.

قال مالك: ليس أموال العدو المقاتل حقّ لجيش المسلمين إلّا الغنيمة والفيء. وأمّا النفل فليس حقا مستقلّا بالحكم، ولكنّه ما يعطيه الإمام من الخمس لبعض المقاتلين زائدا على سهمه من الغنيمة، على ما يرى من الاجتهاد، ولا تعيين لمقدار النفل في الخمس ولا حدّ له، ولا يكون فيما زاد على الخمس. هذا قول مالك ورواية عن الشافعي. وهو الجاري على ما عمل به الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله ﷺ.

وقال أبو حنيفة، والشافعي، في أشهر الروايتين عنه، وسعيد بن المسيب: النفل من الخمس وهو خمس الخمس.

{ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** } أي فحق لله خمسه. واللام للملك أو الاستحقاق، وقد علم أن أربعة الأخماس للغزاة الصادق عليهم ضمير {غَنِمْتُمْ} فثبت به أن الغنيمة لهم عدا خمسها.

وقد جعل الله خمس الغنيمة حقّا لله وللرسول ومن عطف عليهما، وكان أمر العرب في الجاهلية أنّ ربع الغنيمة يكون لقائد الجيش، ويسمّى ذلك (المِرباع).

وفي عرف الإسلام إذا جُعل شيء حقّا لله، من غير ما فيه عبادة له، أن ذلك يكون للذين يأمر الله بتسديد حاجتهم منه. فلكلّ نوع من الأموال مستحقّون عيّنهم الشرع.

فالابتداء باسم الله تعالى للإشارة إلى أنّ ذلك الخمس حقّ الله يصرفه حيث يشاء، وقد شاء فوكّل صرفه إلى رسوله ﷺ ولمن يخلف رسوله من أئمة المسلمين. وبهذا التأويل يكون الخمس مقسوما على خمسة أسهم.

وهذا قول عامة علماء الإسلام. (سهم للنبي ﷺ، وسهم لذوي القربى، وسهم اليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل).

وقد جعل الله الخمس لخمسة مصارف ولم يعين مقدار ما لكل مصرف منه، ولا شك أن الله أراد ذلك ليكون صرفه لمصارفه هذه موكولا إلى اجتهاد رسوله ﷺ وخلفائه من بعده، فيقسم بحسب الحاجات والمصالح، فيأخذ كل مصرف منه ما يفي بحاجته على وجه لا ضر معه على أهل المصرف الآخر، وهذا قول مالك في قسمة الخمس، وهو أصح الأقوال، إذ ليس في الآية تعرض لمقدار القسمة، ولم يرد في السنة ما يصح التمسّك به لذلك، فوجب أن يناط بالحاجة، وبتقديم الأحوج والأهم عند التضايق والأمر فيه موكول إلى اجتهاد الإمام، وقد قال عمر: "فكان الله ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله."

وقال الشافعي: يقسم لكل مصرف الخمس من الخمس، لأنها خمسة مصارف، فجعلها متساوية لأن التساوي هو الأصل في الشركة المجملة ولم يلتفت إلى دليل المصلحة المقتضية للترجيح وإذ قد جعل ما لله ولرسوله خمسا واحدا تبعا للجمهور فقد جعله بعد رسول الله لمصالح المسلمين.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فلحقّه حالتان: حالة تصرّفه في مال الله بما ائتمنه الله على سائر مصالح الأمة، وحالة انتفاعه بما يحب انتفاعه به من ذلك. فلذلك ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله. وفي الصحيح أنّ النبي ﷺ قال في الفيء " مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم". فيقاس عليه خمس الغنيمة وكذلك كان شأن رسول الله في انتفاعه بما جعله الله له من الحق في مال الله.

{ وَلِذِي الْقُرْبَى } أي ذوي قرابة المؤتي المال، أي قرابته ﷺ، وذلك إكرام من الله لرسوله ﷺ إذ جعل لأهل قرابته حقا في مال الله. لأنّ الله حرّم عليهم أخذ الصدقات والزكاة، فلا جرم أنّه أغناهم من مال الله. ولذلك كان حقّهم في الخمس ثابتا بوصف القرابة.

وقال أبو حنيفة: ارتفع سهم رسول الله وسهم قرابته بوفاته، وبقي الخمس لليتامى والمساكين وابن السبيل، لأن رسول الله إنما أخذ سهما في المغنم لأنّه رسول الله، لا لأنّه إمام، فلذلك لا يخلفه فيه غيره.

وعند الجمهور أن سهم رسول الله ﷺ يخلفه فيه الإمام يبدأ بنفقته ونفقة عياله بلا تقدير، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

{ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } تقدّم تفسير معانيها عند قوله تعالى {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [البقرة:177] وعند قوله تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً - إلى قوله –وَابْنَ السَّبِيلِ} [النساء:36]

واليتامى وابن السبيل لا يعطون إلّا إذا كانوا فقراء ففائدة تعيين خمس الخمس لكل صنف من هؤلاء أن لا يحاصهم فيه غيرهم من الفقراء. والشأن في اليتامى في الغالب أن لا تكون لهم سعة في المكاسب فهم مظنّة الحاجة، ولكنها دون الفقر فجعل لهم حقّ في المغنم، توفيرا عليهم في إقامة شؤونهم، فهم من الحاجة المالية أحسن حالا من المساكين، وهم من حالة المقدرة أضعف حالا منهم، فلو كانوا أغنياء بأموال تركها لهم آباؤهم فلا يعطون من الخمس شيئا.

والمساكين الفقراء الشديدو الفقر، جعل الله لهم خمس الخمس كما جعل لهم حقا في الزكاة، ولم يجعل للفقراء حقا في الخمس كما لم يجعل لليتامى حقا في الزكاة.

وابن السبيل أيضا في حاجة إلى الإعانة على البلاغ وتسديد شؤونه، فهو مظنّة الحاجة، فلو كان ابن السبيل ذا وفر وغنى لم يعط من الخمس، ولذلك لم يشترط مالك وبعض الفقهاء في اليتامى وأبناء السبيل الفقر، بل مطلق الحاجة. واشترط أبو حنيفة الفقر في ذوي القربى واليتامى وأبناء السبيل وجعل ذكرهم دون الاكتفاء بالمساكين لتقرير استحقاقهم.

{ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ } وجيء في الشرط بحرف (إن) التي شأن شرطها أن يكون مشكوكا في وقوعه زيادة في حثّهم على الطاعة حيث يفرض حالهم في صورة المشكوك في حصول شرطه، إلهابا لهم ليبعثهم على إظهار تحقّق الشرط فيهم. فالمعنى، أنّكم آمنتم بالله، والإيمان يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له، وآمنتم بما أنزل الله على عبده يوم بدر حين فرّق الله بين الحق والباطل فرأيتم ذلك رأي العين وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين إلى مرتبة عين اليقين، فعلمتم أنّ الله أعلم بنفعكم من أنفسكم إذ يعدكم إحدى الطائفتين أنّها لكم، فكان ما دفعكم الله إليه أحفظ لمصلحتكم واشدّ تثبيتا لقوّة دينكم. فمن رأوا ذلك وتحقّقوه فهم أحرياء بأن يعلموا أنّ ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة، ولم يعبأوا بما يدخل عليهم من نقص في حظوظهم العاجلة، علما بأنّ وراء ذلك مصالح جمّة آجلة في الدنيا والآخرة.

{ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** } وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، وهذا تخلّص للتذكير بما حصل لهم من النصر يوم بدر. وتخصيصه بالذكر من بين جملة المعلومات الراجعة للاعتقاد، لأنّ لذلك المنزل مزيد تعلّق بما أمروا به من العمل.

الإنزال، هو إيصال شيء من علو إلى سفل وأطلق هنا على إبلاغ أمر من الله ومن النعم الإلهية إلى الرسول ﷺ والمسلمين، فيجوز أن يكون هذا المنزل من قبيل الوحي، أي الوحي الذي أنزلناه على عبدنا يوم بدر. ويجوز أن يكون من قبيل خوارق العادات، والألطاف العجيبة، مثل إنزال الملائكة للنصر، وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه، لتعبيد الطريق، وتثبيت الأقدام، والاستقاء.

{ **يَوْمَ الْفُرْقَانِ** } هو يوم بدر، وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين، سمي يوم الفرقان لأنه كان يوما فارقا بين الحق والباطل، ولأنّه أول يوم ظهر فيه نصر المسلمين الضعفاء على المشركين الأقوياء، وهو نصر المحقّين الأذلة على الأعزة المبطلين، وكفى بذلك فرقانا وتمييزا بين من هم على الحقّ ومن هم على الباطل.

{ **يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** } للتذكير بذلك الالتقاء العجيب الذي كان فيه نصرهم على عدوهم. والتعريف في الجمعان للعهد، وهما جمع المسلمين وجمع المشركين.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } اعتراض بتذييل الآيات السابقة وهو متعلق ببعض جملة الشرط في قوله {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} فإن ذلك دليل على أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، فإن ما أسداه إليكم يوم بدر لم يكن جاريا على متعارف الأسباب المعتادة، فقدرة الله قلبت الأحوال وأنشأت الأشياء من غير مجاريها ولا يبعد أن يكون من سبب تسمية ذلك اليوم {يَوْمَ الْفُرْقَانِ} أنه أضيف إلى الفرقان الذي هو لقب القرآن فإن المشهور أنّ ابتداء نزول القرآن كان يوم سبعة عشر من رمضان فيكون من استعمال المشترك في معنييه.

{ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [42]

تذكيرهم بحالة حرجة كان المسلمون فيها، وتنبيههم للطف عظيم حقّهم من الله تعالى وهي حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد عن غير ميعاد، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدو قوي العِدّة والعُدّة والمكانة من حسن الموقع. ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع لهذا الإطناب إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن فيه عبرة.

العدوة، (بتثليث العين) ضفّة الوادي وشاطئه، والضم والكسر في العين أفصح وعليهما القراءات المشهورة. والمراد بها شاطئ وادي بدر. وبدر اسم ماء.

{ **الدُّنْيَا** } هي القريبة، أي العدوة التي من جهة المدينة فهي أقرب لجيش المسلمين من التي من جهة مكّة.

{ **الْقُصْوَى**} هي التي مما يلي مكّة، وهي كثيب وهي قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين.

والوصف ب {الدُّنْيَا} و{الْقُصْوَى} يَشعُر المخاطبون بفائدته وهي أنّ المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى لأنّها اصلب أرضا، فلمّا سبق جيش المشركين إليها اغتم المسلمون. فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر وكان الوادي دهسا فلبّد المطر الأرض ولم يعقهم عن المسير وأصاب الأرض التي بها قريش فعطّلهم عن الرحيل فلم يبلغوا بدرا إلّا بعد أن وصل المسلمون وتخيّروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء فاتخذوا حوضا يكفيهم وغوّروا الماء، فلمّا وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون.

{ **وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** } هو ركب قريش الراجعون من الشام، وهو العير.

{ **أَسْفَلَ** } من الفريقين أي أخفض من منازلهما، لأنّ العير كانوا سائرين في طريق الساحل وقد تركوا ماء بدر عن يسارهم. ذلك أن أبا سفيان لما بلغه أنّ المسلمين خرجوا لتلقّي عيره رجع بالعير عن الطريق التي تمر ببدر، وسلك طريق الساحل لينجو بالعير، فكان مسيره في السهول المنخفضة، وكان رجال الركب أربعين رجلا.

والمعنى أن جيش المسلمين كان بين جماعتين للمشركين وهما الجيش بالعدوة القصوى وعير القوم أسفل من العدوة الدنيا، فلو علم العدو بهذا الوضع لطبق جماعتيه على جيش المسلمين ولكن الله صرفهم عن التفطن لذلك وصرف المسلمين عن ذلك، وقد كانوا يطمعون أن يصادفوا العير فينتهبوها كما قال تعالى {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [7] ولو حاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين من العدو.

والغرض من التقييد بهذا الوقت، وبتلك الحالة، احضارها في ذكرهم، لأجل ما يلزم ذلك من شكر نعمة الله، ومن حسن الظن بوعده والاعتماد عليه في أمورهم، فإنّهم كانوا حينئذ في أشد ما يكون فيه جيش تجاه عدوّه. لأنّهم يعلمون أنّ تلك الحالة كان ظاهرها ملائما للعدو، إذ كان العدو في شوكة واكتمال عدّة، وقد تمهّدت له أسباب الغلبة بحسن موقع جيشه، إذ كان بالعدوة التي فيها الماء لسقياهم والتي أرضها متوسطة الصلابة.

فأما جيش المسلمين فقد وجدوا أنفسهم أمام العدو في عدوة تسوخ في أرضها الأرجل من لين رملها، مع قلّة مائها، وكانت العير قد فاتت المسلمين وحلّت وراء ظهور جيش المشركين، فكانت في مأمن من أن ينالها المسلمون. وكان المشركون واثقين بمكنة الذبّ عن عيرهم.

فكانت ظاهرة هذه الحالة ظاهرة خيبة وخوف للمسلمين، وظاهرة فوز وقوة للمشركين، فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رأسا على عقب، فأنزل من السماء مطرا تعبدت به الأرض لجيش المسلمين فساروا فيها غير مشفوق عليهم، وتطهّروا وسقوا، وصارت به الأرض لجيش المشركين وحلا يثقل فيها السير وفاضت المياه عليهم، وألقى الله في قلوبهم تهوين أمر المسلمين، فلم يأخذوا حذرهم ولا أعدّوا للحرب عدّتها، وجعلوا مقامهم هنالك مقام لهو وطرب.فجعل الله ذلك سببا لنصر المسلمين عليهم، ورأوا كيف أنجز الله لهم ما وعدهم من النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه. فالذين خوطبوا بهذه الآية هم أعلم السامعين بفائدة التوقيت الذي في قوله {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا}. ولذلك تعين على المفسّر وصف الحالة التي تضمنتها الآية، ولولا ذلك لكان هذا التقييد بالوقت قليل الجدوى.

{ **وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ** } في موضع الحال من {الْجَمْعَانِ}، أي في حال لقاء على غير ميعاد. فالوجه في تفسير هذه الآية أن { **لَوْ** } هذه من قبيل (لو) الصهيبيّة فإنّ لها استعمالات، ملاكها أن لا يقصد من (لو) ربط انتفاء مضمون جوابها بانتفاء مضمون شرطها، أي ربط حصول نقيض مضمون الجواب بحصول نقيض مضمون الشرط، بل يقصد أنّ مضمون الجواب حاصل لا محالة، سواء فرض حصول مضمون شرطها أو فرض انتفاؤه. ومحصل هذا أن مضمون الجزاء مستمر الحصول في جميع الأحوال في فرض المتكلم. فيأتي بجملة الشرط متضمّنة الحالة التي هي عند السامع مظنة أن يحصل فيها نقيض مضمون الجواب. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [23]. والمعنى: فبالأحرى وأنتم لم تتواعدوا وقد أتيتم سواء في اتحاد وقت حلولكم في العدوتين، فاعلموا أنّ ذلك تيسير بقدر الله لأنّه قدر ذلك لتعلموا أنّ نصركم من عنده على نحو قوله {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال:17]

{ **وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** } ولكن لم تتواعدوا وجئتم على غير ميعاد ليحقّق الله وينجز ما أراده من نصركم على المشركين.

{ **كَانَ مَفْعُولاً** } مفعول من فعل، للدلالة على أنّه حين قدّرت مفعوليته فقد صار كأنه فعل.

{ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** } بدل الاشتمال من {لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} لأنّ الأمر هو نصر المسلمين وقهر المشركين وذلك قد اشتمل على إهلاك المهزومين وإحياء المنصورين وحفّه من الأحوال الدالة على عناية الله بالمسلمين وإهانته المشركين ما فيه بيّنة للفريقين تقطع عذر الهالكين، وتقتضي شكر الأحياء.

الهلاك، الموت والاضمحلال، ولذلك قوبل بالحياة. والهلاك والحياة مستعاران لمعنى ذهاب الشوكة. فإنّ الكفّار كانوا في عزة ومنعة، وكان المسلمون في قلّة، فلما قضي الله بالنصر للمسلمين يوم بدر أخفق أمر

المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدّة ونهوض، وكان كل ذلك، عن بينة، أي عن حجّة ظاهرة تدلّ على تأييد الله قوما وخذله آخرين بدون ريب.

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } تذييل يشير إلى أن الله سميع دعاء المسلمين طلب النصر، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر، ومن مودّتهم أن تكون غير ذات الشوكة هي إحدى الطائفتين التي يلاقونها، وغير ذلك، وعليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة وبما يصلح بهم ويبني عليه مجد مستقبلهم.

{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }[43]

{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً } .

المنام، مصدر ميمي بمعنى النوم ويطلق على زمن النوم وعلى مكانه.

وكان النبي ﷺ قد رأى، رؤيا منام، جيش المشركين قليلا، أي قليل العدد وأخبر برؤياه المسلمين فتشجّعوا للقاء المشركين، وحملوها على ظاهرها، وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيّب جيش المشركين. فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر، وكانت تلك الرؤيا منّة من الله على رسوله والمؤمنين، وكانت قلّة العدد في الرؤيا رمزا وكناية عن وهن أمر المشركين لا عن قلّة عددهم. ولذلك جعلها الله في رؤيا النوم دون الوحي، لأنّ صور المرائي المنامية تكون رموزا لمعان فلا تعد صورتها الظاهرية خلفا، بخلاف الوحي بالكلام.

ورؤيا النبي لا تخطيء ولكنّها قد تكون جارية على الصورة الحاصلة في الخارج كما ورد في حديث عائشة في بدء الوحي: " أنّه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"، وهذا هو الغالب وخاصة قبل ابتداء نزول الملك بالوحي، وقد تكون رؤيا النبي ﷺ رمزية وكناية كما في حديث رؤياه بقرا تذبح ويقال له: الله خير. فلم يعلم المراد حتّى تبيّن له أنّهم المؤمنون الذين قتلوا يوم أحد.

وقد يمسك النبي عليه الصلاة والسلام عن بيان التعبير الصحيح لحكمة كما في حديث تعبير أبي بكر رؤيا الرجل الذي قص رؤياه على رسول الله ﷺ وقول النبي له: " أصبت بعضا وأخطأت بعضا" وأبى أن يبيّن له ما أصاب منها وما أخطأ.

{ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ } أنّه لو أراكهم رؤيا مماثلة للحالة التي تبصرها الأعين لدخل قلوب المسلمين الفشل. فأراد الله إكرام المسلمين بأن لا يدخل نفوسهم هلع وإن كان النصر مضمونا لهم.

الفشل، الجبن والوهن.

التنازع، الاختلاف.
الأمر، الخطة التي يجب اتباعها في قتال العدو من ثبات أو انجلاء.
{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ** } سلّمكم من الفشل والتنازع بأن سلّمكم من سببهما وهو إراءتكم واقع عدد المشركين، لأنّ الاطلاع على كثرة العدو يلقي في النفوس تهيّبا له وتخوفا منه، وذلك ينقص شجاعة المسلمين الذين أراد الله أن يوفّر لهم منتهى الشجاعة.
{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تذييل للمنّة، أي: أوحى إلى رسوله بتلك الرؤيا الرمزيّة لعلمه بما في الصدور البشريّة من تأثّر النفوس بالمشاهدات والمحسوسات أكثر مما تتأثر بالاعتقادات، فعلم أنّه لو أخبركم بأنّ المشركين ينهزمون، واعتقدتم ذلك لصدق ايمانكم، لم يكن ذلك الاعتقاد مثيرا في نفوسكم من الشجاعة والإقدام ما يثيره اعتقاد أنّ عددهم قليل.
{ **ذَاتِ الصُّدُورِ** } النوايا والخواطر وما يهمّ به المرء وما يدبّره ويكيده.

{ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }[44]

هذه رؤية بصر أراها الله الفريقين على خلاف ما في نفس الأمر، فكانت خطأ من الفريقين، ولم يرها النبي ﷺ. أرى الله المسلمين أنّ المشركين قليلون، وأرى المشركين أنّ المسلمين قليلون. خيل الله لكلا الفريقين قلة الفريق الآخر، بإلقاء ذلك التخيّل في نفوسهم، وجعل الغاية من تينك الرؤيتين نصر المسلمين، وهذا من بديع صنع الله تعالى إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين، وجعل للأثرين المختلفين أثرا متحدا، فكان تخيل المسلمين قلة المشركين مقوّيا لقلوبهم، وزائدا لشجاعتهم، ومزيلا للرعب عنهم، فعظم بذلك بأسهم عند اللقاء، لأنّهم ما كان ليفل من بأسهم إلّا شعورهم بأنّهم أضعف من أعدائهم عَددا وعُددا، فلمّا أزيل ذلك عنهم، بتخييلهم قلة عدوهم، خلصت أسباب شدّتهم مما يوهنها. وكان تخيّل المشركين قلة المسلمين، أي كونهم أقل مما هم عليه في نفس الأمر، بردا على غليان قلوبهم من الغيظ، وغارا إيّاهم بأنّهم سينالون التغلّب عليهم بأدنى قتال، فكان صارفا إيّاهم عن التأهّب لقتال المسلمين، حتّى فاجأهم جيش المسلمين، فكانت الدائرة على المشركين، فنتج عن تخيّل القلّتين انتصار المسلمين.
قال أهل السير: كان المسلمون يحسبون عدد المشركين يتراوح بين السبعين والمائة وكانوا في نفس الأمر زهاء ألف، وكان المشركون يحسبون المسلمين قليلا، فقد قال أبو جهل لقومه، وقد حزر المسلمين: إنّما هم أكلة جزور، أي قرابة المائة وكانوا في نفس الأمر ثلاثمائة وبضعة عشر.
وهذا التخيل قد يحصل من انعكاس الأشعة واختلاف الظلال، باعتبار مواقع الرائين من ارتفاع المواقع

وانخفاضها، وإلقاء الله الخيال في نفوس الفريقين أعظم من تلك الأسباب.

الالتقاء، افتعال من اللقاء، وصيغة الافتعال فيه دالة على المبالغة. واللقاء والالتقاء في الأصل الحضور لدى الغير، من صديق أو عدو، وفي خير أو شر، وقد كثر إطلاقه على الحضور مع الأعداء في الحرب، وقد تقدّم عند قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً} [15]

{ **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** } هو نظير قوله {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [42] المتقدّم أعيد هنا لأنّه علة إراءة كلا الفريقين الفريق الآخر قليلا، وأمّا السابق فهو علة لتلاقي الفريقين في مكان واحد في وقت واحد. ثم إنّ المشركين لمّا برزوا لقتال المسلمين ظهر لهم كثرة المسلمين فبهتوا، فكان ملقيا الرعب في قلوبهم، وذلك ما حكاه في قوله {يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ } [آل عمران:13]

وخولف الأسلوب في حكاية إراءة المشركين، وحكاية إراءة المسلمين، لأن المشركين كانوا عددا كثيرا فناسب أن يحكى تقليلهم بإراءتهم قليلا، المؤذنة بأنهم ليسوا بالقليل. وأما المسلمون فكانوا عددا قليلا بالنسبة لعدوّهم، فكان المناسب لتقليلهم أن يعبّر عنه بأنّه { تقليل } المؤذن بأنّه زيادة في قلّتهم.

{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } تذييل معطوف على ما قبله عطفا اعتراضيا، لأنّه عطف صوري ليست فيه مشاركة في الحكم.

الرجوع، المراد رجوع أسبابها، أي إيجادها، فإنّ الأسباب قد تلوح جارية بتصرّف العباد وتأثير الحوادث، ولكن الأسباب العالية، وهي الأسباب التي تتصاعد إليها الأسباب المعتادة، لا يتصرّف فيها إلّا الله وهو مؤثّرها وموجدها. على أنّ جميع الأسباب، عاليها وقريبها، متأثّر بما أودع الله فيها من القوى والنواميس والطبائع، فرجوع الجميع إليه، ولكنّه رجوع متفاوت على حسب جريه على النظام المعتاد، وعدم جريه. فإيجاد الأشياء قد يلوح حصوله بفعل بعض الحوادث والعباد، وهو عند التأمّل الحق راجع إلى إيجاد الله تعالى خالق كل صانع. والذوات وأحوالها، كلها من الأمور، ومآلها كله رجوع، فهذا ليس رجوع ذوات ولكنه رجوع تصرّف، كالذي في قوله {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 156]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [45] وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [46]

لما عرّفهم الله بنعمه ودلائل عنايته، وكشف لهم عن سر من أسرار نصره إيّاهم، وكيف خذل أعداءهم، وصرفهم عن أذاهم، فاستتب لهم النصر مع قلّتهم وكثرة أعدائهم، أقبل في هذه الآية على أن يأمرهم بما يهيّء لهم النصر في المواقع كلّها، ويستدعي عناية الله بهم وتأييده إيّاهم، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتتحت هذه الوصايا بالنداء اهتماما بها، وجعل طريق تعريف المنادي طريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من الاستعداد لامتثال ما يأمرهم به الله تعالى، لأنّ ذلك أخصّ صفاتهم تلقاء أوامر الله تعالى.

اللقاء، أصله مصادفة الشخص ومواجهته، باجتماع في مكان واحد. وقد غلب إطلاقه على لقاء خاص وهو لقاء القتال، فيرادف القتال والنزال. و تقم في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [15] وبهذا المعنى تعيّن أن المراد **بالفئة**، فئة خاصة وهي فئة العدو، يعني المشركين.

الفئة، الجماعة من الناس، وتقدّم اشتقاقها عند قوله تعالى {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً} [البقرة:249]

{ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً** } هو ذكره باللسان، لأنّه يتضمّن ذكر القلب وزيادة، فإنّه إذا ذكر بلسانه فقد ذكر بقلبه وبلسانه، وسمع الذكر بسمعه، وذكّر من يليه بذلك الذكر. ففيه فوائد زائدة على ذكر القلب المجرّد، وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهر وصفه بـ { كثيرا }، لأنّ الذكر بالقلب يوصف بالقوّة، والمقصود تذكّر أنّه الناصر.

{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } وهذان أمران أمروا بهما وهما يخصّان المجاهد في نفسه، فهما لإصلاح الأفراد.

{ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** } ثمّ أمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم، وهي علائق بعضهم مع بعض، وهي الطاعة وترك التنازع، فأمّا طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم. وكذلك ما يأمرهم به الرسول ﷺ من آراء الحرب كقوله للرماة يوم أحد: " لا تبرحوا من مكانكم ولو تخطّفنا الطير". وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته، لقوله: " ومن أطاع أميري فقد أطاعني"، وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول ﷺ لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه.

{ **وَلا تَنَازَعُوا** } يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك، بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضا، حتّى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ } [النساء: 83] وقوله {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء: 59]. والنهي عن التنازع أعمّ من الأمر بالطاعة لولاة الأمور، لأنّهم إذا نهوا عن التنازع بينهم فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي.

{ **فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** } ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسط القرآن القول فيه ببيان سيئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء، فحذّرهم أمرين معلوما سوء مغبّتهما، وهما الفشل وذهاب الريح.

الفشل، انحطاط القوة وقد تقدّم آنفا عند قوله {وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ} [43] وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصحّ أن يكون تمثيلا لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوّته

وفشلت أعضاؤه، في انعدام إقدامه على العمل. وإنّما كان التنازع مفضيا إلى الفشل لأنّه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضا، فيصرف الأمة عن التوجّه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم.

الريح، حقيقتها تحرّك الهواء وتموّجه، واستعيرت هنا للغلبة.

{ **وَاصْبِرُوا** } ثم أمرهم الله بشيء يعمّ نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهّل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفا في قوله {فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً} وفي قوله {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا}، ألا وهو **الصبر**، لأنّ الصبر هو تحمّل المكروه وكلّ شديد على النفس، وتلك المأمورات كلها تحتاج إلى تحمّل المكاره.

{ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** } إيماء إلى منفعة للصبر إلهيّة، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالا لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلّها.

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }[47]

عطف نهي على أمر، إكمالا لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء، بأن يتلبّسوا بما يدنيهم من النصر، وأن يتجنّبوا ما يفسد إخلاصهم في الجهاد.

وجيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبّه بالمشركين، إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتتكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند أخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبح المنهي عنه. ونظيره قوله تعالى {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} [21].

فنهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في خروجهم لبدر، إذ خرجوا بطرا ورئاء النّاس، لأنّ حق كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله، والجهاد من أعظم الأعمال الدينية.

{ **كَالَّذِينَ خَرَجُوا** } الموصول مراد به جماعة خاصة، وهم أبو جهل وأصحابه، وقد مضى خبر خروجهم إلى بدر، فإنّهم خرجوا من مكّة بقصد حماية عيرهم فلمّا بلغوا الجحفة جاءهم رسول أبي سفيان، وهو كبير العير يخبرهم أنّ العير قد سلمت، فقال أبو جهل: " لا نرجع حتّى نقدم بدرا نشرب بها وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب حتّى يتسامع العرب بأننا غلبنا محمدا وأصحابه ".

{ **بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ** } انتصبا على الحاليّة، أي بطرين مرائين، ووصفهم بالمصدر للمبالغة في تمكن

الصفتين منهم لأنّ البطر والرياء خلقان من خلقهم.

البطر، إعجاب المرء بما هو فيه من نعمة، والاستكبار والفخر بها، فالمشركون لما خرجوا من الجحفة، خرجوا عجبا بما هم فيه من القوة.

الرئاء، (بهمزتين) من الرؤية، وصيغة المفاعلة فيه مبالغة، أي بالغ في إراءة النّاس عمله محبّة أن يروه ليفخر عليهم.

{ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }

سبيل الله، الطريق الموصلة إليه، وهو الإسلام، شبّه الدين، في إبلاغه إلى رضي الله تعالى، بالسبيل الموصل إلى المقصود.

{ يَصُدُّونَ } صيغة المضارع للدلالة على حدوث وتجدّد صدّهم النّاس عن سبيل الله.

{ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } تذكير للمسلمين بصريحه، ووعيد للمشركين بالمعنى الكنائي، لأنّ إحاطة العلم بما يعملون مجاز في عدم خفاء شيء من عملهم عن علم الله تعالى، ويلزمه أنّه مجازيهم عن عملهم بما يجازي به العليم القدير من اعتدى على حرمه. وإسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي، لأنّ المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز.

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[48]

وذلك أنّ قريشا لما أجمعوا أمرهم على السير إلى إنقاذ العير ذكروا ما كان بينهم وبين كنانة من الحرب فكاد أن يثبّطهم عن الخروج، فلقيهم في مسيرهم سراقة بن مالك بن جعشم الكناني في جند معه راية وقال لهم: لا غالب لكم اليوم، وإني مجيركم من كنانة. فقوي عزم قريش على المسير، فلمّا أمعنوا السير وتقارب المشركون من منازل جيش المسلمين، ورأى سراقة الجيشين، نكص سراقة بمن معه وانطلقوا، فقال له الحارث بن هشام، أخو أبي جهل: " إلى أين اتخذلنا في هذه الحال؟ فقال سراقة: إنّي أرى ما لا ترون ". فكان ذلك من أسباب عزم قريش على الخروج والمسير، حتى لقوا هزيمتهم التي كتب الله لهم في بدر وكان خروج سراقة ومن معه بوسوسة من الشيطان، لئلا ينثني قريش عن الخروج، وكان انخذال سراقة بتقدير من الله ليتم نصر المسلمين، وكان خاطر رجوع سراقة خاطرا ملكيا ساقه الله إليه لأنّ سراقة لم يزل يتردّد في أن يسلم منذ يوم لقائه رسول الله ﷺ في طريق الهجرة، حين شاهد معجزة سوخ قوائم فرسه في الأرض، وأخذه الأمان من رسول الله ﷺ.

تزيين الشيطان للمشركين أعمالهم يجوز أن يكون إسنادا مجازيا، وإنّما المزين لهم سراقة بإغراء الشيطان، بما سوّل إلى سراقة بن مالك من تثبيته المشركين على المضي في طريقهم لإنقاذ عيرهم، وأن لا يخشوا غدر كنانة بهم.

وقيل تمثّل الشيطان للمشركين في صورة سراقة وليس تمثل الشيطان وجنده بصورة سراقة وجيشه بمروي عن النبي ﷺ، وإنّما روي ذلك عن قول ابن عباس. وتأويل ذلك: أن ما صدر من سراقة كان بوسوسة من الشيطان، ويجوز أن يكون اسم الشيطان أطلق على سراقة لأنّه فعل فعل الشيطان كما يقولون: فلان من شياطين العرب.

{ **إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ** } إن كان من الشيطان فهو قول في نفسه، وضمير الخطاب التفات استحضرهم كأنهم يسمعونه، فقال قوله هذا، وتكون الرؤية بصرية يعني رأى نزول الملائكة وخاف.

وإن كان ذلك كله من قول سراقة فهو إعلان لهم برد جواره إيّاهم لئلا يكون خائنا لهم، لأنّ العرب كانوا إذا أرادوا نقض جوار أعلنوا ذلك لمن أجاروه، كما فعل ابن الدغنة حين أجار أبا بكر من أذى قريش ثم رد جواره من أبي بكر، ومنه قوله تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [58] فالمعنى: إني بريء من جواركم، ولذلك قال له الحارث بن هشام: " إلى اين أتخذلنا ". فيكون قد اقتصر على تأمينهم من غدر قومه بني كنانة.

{ **إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } فعلى احتمال أن يكون الإسناد إلى الشيطان حقيقة فالمراد من خوف الله توقع أن يصيبه الله بضر، من نحو الرجم بالشهب. وإن كان مجازا عقليا، وأن حقيقته قول سراقة فلعل سراقة قال قولا في نفسه، لأنّه كان عاهد رسول الله ﷺ على أن لا يدلّ عليه المشركين، فلعله تذكر ذلك ورأى أنّ فيما وعد المشركين من الإعانة ضربا من خيانة العهد فخاف سوء عاقبة الخيانة.

التزيين، إظهار الشيء زيْنا، أي حسنا، وقد تقدم عند قوله تعالى {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}[الأنعام:108]. والمعنى، أنّه أراهم حسنا ما يعملونه من الخروج إلى إنقاذ العير، ثم من إزماع السير إلى بدر.

{ **تَرَاءَتِ** } مفاعلة من الرؤية، أي رأت كلتا الفئتين الأخرى.

{ **نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ** } رجع من حيث جاء. ومصدره النكوص وهو من باب رجع.

{**عَلَى عَقِبَيْهِ**} مؤكّد لمعنى نكص إذ النكوص لا يكون إلا على العقبين، لأنّه الرجوع إلى الوراء كقولهم: رجع القهقرى، ونظيره قوله تعالى {فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} [المؤمنين:66]

{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [49]

كان المنافقون يقبّحون أعمال المسلمين ويصفونهم بالغرور وقلّة التدبير من اعتقادهم في دينهم الذي أوقعهم في هذا الغرور، ويجول في نفوس الذين في قلوبهم مرض مثل هذا.

{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } والقول هنا مستعمل في حقيقته ومجازه الشامل لحديث النفس، لأنّ المنافقين يقولون ذلك بألسنتهم، وأمّا الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين، بل هم من لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم. فيقولونه في أنفسهم لما لهم من الشك في صدق وعد النبي ﷺ لأنّهم غير موالين للمنافقين، ويجوز أن يتحدّثوا به بين جماعتهم.

المرض هنا مجاز في اختلال الاعتقاد، شبه بالمرض بوجه سوء عاقبته عليهم.

{ هَؤُلاءِ } أشاروا إلى المسلمين الذين خرجوا إلى بدر.

الغرور، الإيقاع في المضرّة بإيهام المنفعة، وقد تقدّم عند قوله تعالى {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ} [عمران:196] وقوله {زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً} [الأنعام:112].

{ دِينُهُمْ } هو الإسلام. وإسنادهم الغرور إلى الدين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر، أي غرّهم ذلك فخرجوا وهم عدد قليل للقاء جيش كثير.

{ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } من جملة الأخبار المسوقة لبيان عناية الله تعالى بالمسلمين، وللامتنان عليهم، فالمناسبة بينها وبين الجملة التي قبلها، أنّها كالعلّة لخيبة ظنون المشركين ونُصرائهم. أي أنّ الله خيب ظنونهم لأنّ المسلمين توكلوا عليه وهو عزيز لا يغلب.

التوكل، الاستسلام والتفويض، وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159]

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [50] **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }** [51]

انتقل إلى وصف ما لقيه من العذاب من قُتل منهم يوم بدر، مما هو مغيّب عن النّاس، ليعلم المؤمنون ويرتدع الكافرون. والمراد بالذين كفروا هنا الذين قتلوا يوم بدر، وتكون هذه الآية من تمام الخبر عن قوم بدر.

ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا جميع الكافرين، حملا للموصول على معنى العموم فتكون الآية اعتراضا مستطردا في خلال القصّة بمناسبة وصف ما لقيه المشركون في ذلك اليوم، الذي عجّل لهم فيه عذاب الموت.

{ وَلَوْ تَرَى } مخاطب غير معيّن، ليعم كل مخاطب، أي لو ترى أيّها السامع. إذ ليس المقصود بهذا الخبر

خصوص النبي ﷺ حتّى يحمل الخطاب على ظاهره، بل غير النبي أولى به منه.
ثم إن كان المراد بالذين كفروا مشركي يوم بدر، فالإتيان بالمضارع في الموضعين مكان الماضي لقصد استحضار تلك الحالة العجيبة، وهي حالة ضرب الوجوه والأدبار، ليخيل للسامع أنّه يشاهد تلك الحالة. وإن كان المراد المشركين حيثما كانوا كان التعبير بالمضارع على مقتضى الظاهر.
التوفِّي: الإماتة سمّيت توفّيا لأنّها تنهي حياة المرء أو تستوفيها { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [السجدة: 11]
{ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** } في موضع الحال إن كان المراد من التوفّي قبض أرواح المشركين يوم بدر حين يقتلهم المسلمون، أي يزيدهم الملائكة تعذيبا عند نزع أرواحهم، وهي بدل اشتمال من جملة { يَتَوَفَّى } إن كان المراد بالتوفّي توفيا يتوفاه الملائكة الكافرين.
{ **وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** } معطوفة على {يَضْرِبُونَ} بتقدير القول، لأنّ هذه الجملة لا موقع لها مع التي قبلها، إلّا أن تكون من قول الملائكة، أي ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق.
وذكر الوجوه والأدبار للتعميم، أي يضربون جميع أجسادهم. فالأدبار، جمع دبر وهو ما دبر من الإنسان. وكذلك الوجوه كناية عما أقبل من الإنسان. وهذا كقول العرب: ضربته الظهر والبطن، كناية عما أقبل وما أدبر أي ضربته في جميع جسده.
{ **وَذُوقُوا** } مستعمل في مطلق الإحساس، بعلاقة الإطلاق.
{ **عَذَابَ الْحَرِيقِ** } من إضافة الجنس إلى نوعه، أي عذابا هو الحريق، فهي إضافة بيانية.
المراد بقول الملائكة {وَذُوقُوا} إنذارهم بأنهم سيذوقونه، وإنّما يقع الذوق يوم القيامة، فيكون الأمر مستعملا في الإنذار.
{ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** } الإشارة إلى ما يشاهدونه من العذاب. وجيء بإشارة البعيد لتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال.
{ **قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** } أسلفته من الأعمال فيما مضى، أي من الشرك وفروعه من الفواحش..
{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } نفي الظلم عن الله تعالى كناية عن عدله، وأن الجزاء الأليم كان كفاء للعمل المجازي عنه دون إفراط.

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[52]

{ **كَدَأْبِ** } خبر مبتدأ محذوف، فالتقدير هنا، دأبهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، أي من الأمم المكذّبين

برسل ربهم، مثل عاد وثمود.

الدأب، العادة والسيرة المألوفة، وقد تقدّم مثله في الآية [11] من سورة آل عمران. وتقدم وجه تخصيص آل فرعون بالذكر. ولا فرق بين الآيتين إلا اختلاف العبارة، ففي آية آل عمران {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} وهنا {كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ} ، وهنالك {وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} وهنا {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

فأما المخالفة بين {كَذَّبُوا} و {كَفَرُوا} فلأن قوم فرعون والذين من قبلهم شاركوا المشركين في الكفر بالله وتكذيب رسله، وفي جحد دلالة الآيات على الوحدانية وعلى صدق الرسول ﷺ، فذكروا هنا ابتداء بالأفظع من الأمرين فعبّر بالكفر بالآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، لأنّ الكفر أصرح في إنكار صفات الله تعالى.

فأمّا في آية آل عمران، فقد ذكر تكذيبهم بالآيات، أي الدالة على صدق الرسول ﷺ، لأنّ التكذيب متبادر في معنى تكذيب المخبر، لوقوع ذلك عقب ذكر تنزيل القرآن وتصديق من صدق به، وإلحاد من قصد الفتنة بمتشابهه، فعبر عن الذين شابهوهم في تكذيب رسولهم بوصف التكذيب.

فأمّا الإظهار هنا في مقام الإضمار فاقتضاه أن الكفر كفر بما يرجع إلى صفات الله فأضيفت الآيات إلى اسم الجلالة ليدلّ على الذات بعنوان الإله الحق وهو الوحدانية، وأمّا الإضمار في آل عمران فلكون التكذيب تكذيبا لآيات دالة على ثبوت رسالة محمد ﷺ، فأضيفت الآيات إلى الضمير على الأصل في التكلّم.

وأمّا الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا(إنَّ)، دونه في آية آل عمران، فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين، وكانوا ينكرون قوة الله عليهم، بمعنى لازمها، وهو إنزال الضرّ بهم، وينكرون أنّه شديد العقاب لهم، فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين، وفي سورة آل عمران لم يقصد إلّا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار.

وزيد وصف { قوي } هنا مبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد.

القويّ،الموصوف بالقوة، وحقيقتها كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال التي تراد منها، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } [الأعراف:145]. وهي إذا وصف الله بها مستعملة في معناها اللزومي وهم منتهى القدرة على فعل ما تتعلق به إراداته تعالى من الممكنات.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } والمقصود من ذكر هذين الوصفين الإيماء إلى أنّ أخذهم كان قويّا شديدا، لأنّه عقابُ قوي شديد العقاب، كقوله {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: 42].

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[53]

الإشارة إلى قوله {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [52].

وذلك يقتضي أنّ آل فرعون والذين من قبلهم كانوا في نعمة فغيّرها الله عليهم بالنقمة، وأنّ ذلك جرى على سنة الله أنّه لا يسلب نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيروا ذلك بأنفسهم، كما قال تعالى {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} [القصص: 58]

وهذا إنذار لقريش أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بغيرهم من الأمم الذين بطروا النعمة.

التغيير، تبديل شيء بما يضاده، فتغيير النعمة إبدالها بضدّها وهو النقمة وسوء الحال.

{ **أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ** } للتذكير بأنّ أصل النعمة من الله.

{ **مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } الباء للملابسة، أي ما أستقرّ وعلق بهم.

ذلك أنّ الأمم تكون صالحة ثم تتغير أحوالها ببطر النعمة فيعظم فسادها، فذلك تغيير ما كانوا عليه. فإذا أراد الله إصلاحهم أرسل إليهم هداة لهم فإذا أصلحوا استمرت عليهم النعم مثل قوم يونس وهم أهل (نينوى). وإذا كذبوا وبطروا النعمة غير الله ما بهم من النعمة إلى عذاب ونقمة.

{ **حَتَّى** } تغيير نعمة الله على الأقوام هي غاية متّسعة، لأنّ الأقوام إذا غيّروا ما بأنفسهم من هدى أمهلهم الله زمنا ثم أرسل إليهم الرسل فإذا أرسل إليهم الرسل فقد نبهّهم إلى اقتراب المؤاخذة ثم أمهلهم مدة لتبليغ الدعوة والنظر فإذا أصرّوا على الكفر غير نعمته عليهم بإبدالها بالعذاب أو الذلّ أو الأسر، كما فعل ببني إسرائيل حين أفسدوا في الأرض فسلط عليهم الأشوريين.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } أي ذلك بأنّ الله يعلم ما يضمره النّاس وما يعملونه، ويعلم ما ينطقون به، فهو يعاملهم بما يعلم منهم. وذكر صفة { سَمِيعٌ } قبل صفة { عَلِيمٌ } يومئ إلى أنّ التغيير الذي أحدثه المعرض بهم متعلق بأقوالهم وهو دعوتهم آلهة غير الله تعالى.

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ } [54]

{ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** } تكرير لقصد التأكيد والتسميع، تقرير للإنذار والتهديد، وخولف بين الجملتين تفنّنا في الأسلوب، وزيادة للفائدة، بذكر التكذيب هنا بعد ذكر الكفر هناك، وهما سببان للأخذ والإهلاك كما قدّمناه آنفا.

وذكر وصف الربوبية هنا دون الاسم العلم لزيادة تفظيع تكذيبهم، لأنّ الاجتراء على الله مع ملاحظة كونه

ربا للمجتريء، يزيد جراءته قبحا، لإشعاره بأنّها جراءة في موضع الشكر، لأنّ الرب يستحق الشكر.

وعبر بالإهلاك عوض الأخذ المتقدّم ذكره ليفسّر الأخذ بأنّه آل إلى الإهلاك، وزيد الإهلاك بيانا بالنسبة إلى آل فرعون بأنه إهلاك الغرق.

{ **كُلٌّ** } تنوين للتعويض عن المضاف إليه، أي وكل المذكورين، أي آل فرعون والذين من قبلهم.

{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [55] الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ [56] فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [57]

عن ابن عباس وقتادة، أنّ المراد بهم قريظة فإنّهم عاهدوا النبي ﷺ أن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوّه، ثمّ نقضوا عهدهم فأمدّوا المشركين بالسلاح والعدّة يوم بدر، واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق، ومالوا مع الأحزاب، وأمدوهم بالسلاح والأدراع.

والأظهر عندي أن يكون المراد بهم قريظة وغيرهم من بعض قبائل المشركين، وأخصّها المنافقون فقد كانوا يعاهدون النبي ﷺ ثم ينقضون عهدهم. وقد نقض عبد الله بن أبي ومن معه عهد النصرة في أحد، فانخذل بمن معه وكانوا ثلث الجيش. وقد ذكر في أول سورة براءة عهد فرق من المشركين. وهذا هو الأنسب بإجراء صلة الذين كفروا عليهم لأنّ الكفر غلب في اصطلاح القرآن إطلاقه على المشركين.

{ **شَرَّ الدَّوَابِّ** } لأنّ دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة، ومعجزة الرسول ﷺ أسطع، ولأنّ الدلالة على أحقيّة الإسلام دلالة عقلية بيّنة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له. وتقدّم آنفا الكلام على نظير قوله {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ} [22].

{ **فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** } الذين كفروا من قبل الإسلام فاستمر كفرهم فهم لا يؤمنون بعد سماع دعوة الإسلام. ولمّا كان هذا الوصف هو الذي جعلهم شرّ الدواب عند الله عطف هنا بالفاء للإشارة إلى أنّ سبب إجراء ذلك الحكم عليهم هو مجموع الوصفين، وأتى بصلة {فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} جملة اسمية لإفادة ثبوت عدم إيمانهم وأنّهم غير مرجو منهم الإيمان.

{ **الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ** } بدل من { الَّذِينَ كَفَرُوا } بدلا مطابقا، فالذين عاهدهم هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون.

{ **مِنْهُمْ** } وتعدية {عَاهَدْتَ} ب {مِنْ} للدلالة على أنّ العهد كان يتضمّن التزاما من جانبهم، لأنّه يقال أخذت منه عهدا، أي التزاما. نبّه على أنّ المقصود من المعاهدة التزامهم بأن لا يعينوا عليه عدوا. وليست {مِنْ} تبعيضية لعدم متانة المعنى إذ يصير الذمّ متوجها إلى بعض الذين كفروا، فهم لا يؤمنون، وهم الذين ينقضون عهدهم.

{ **ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ** } المضارع للدلالة على أنّ ذلك يتجدّد منهم ويتكرّر، بعد نزول هذه الآية،

وأنهم لا ينتهون عنه، فهو تعريض بالتأييس من وفائهم بعهدهم.
{ كُلِّ مَرَّةٍ } كلّ مرة من المرات التي يحقّ فيها الوفاء بما عاهدوه عليه سواء تكرّر العهد أم لم يتكرر، لأنّ العهد الأوّل يقتضي الوفاء كلما دعا داع إليه.
والأظهر أنّ هذه الآية نزلت عقب وقعة بدر، وقبل وقعة الخندق، فالنقض الحاصل منهم حصل مرة واحدة، وأخبر عنه بأنّه يتكرر مرّات، وإن كانت نزلت بعد الخندق، بأنّ امتد زمان نزول هذه السورة، فالنقض منهم قد حصل مرتين، والإخبار عنه بأنّه يتكرر مرات هو هو، فلا جدوى في ادعاء أنّ الآية نزلت بعد وقعة الخندق.
{ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ } دالة على أن انتفاء التقوى عنهم صفة متمكنّة منهم، وملكة فيهم.
ووقوع فعل {يَتَّقُونَ} في حيز النفي يعمّ سائر جنس الأتقاء وهو الجنس المتعارف منه، الذي يتهمم به أهل المروءات والمتديّنون، فيعمّ اتقاء الله وخشية عقابه في الدنيا والآخرة، ويعمّ اتقاء العار، واتقاء المسبة واتقاء سوء السمعة.
{ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } وإذ قد تحقق منهم نقض العهد فيما مضى، وهو متوقع منهم فيما يأتي، لا جرم تفرّع عليه أمر الله رسوله ﷺ أن يجعلهم نكالا لغيرهم، متى ظفر بهم في حرب يشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوّه.
الثقف، الظفر بالمطلوب، أي فإن وجدتهم وظفرت بهم في حرب، أي انتصرت عليهم.
التشريد، التطريد والتفريق. أي فبعِّد من خلفهم، وقد يجعل التشريد كناية عن التخويف والتنفير.
الخَلْف، مستعار للاقتداء بجامع الاتِّباع. ونظيره (الوراء) في قول ضمام ابن ثعلبة :و أنا رسول من ورائي. وقال وفد الأشعريين للنبي ﷺ: " فمرنا بأمر نأخذ به ونخبر به من وراءنا ".
والمعنى، فاجعلهم مثلا وعبرة لغيرهم من الكفّار الذين يترقّبون ماذا يجتني هؤلاء من نقض عهدهم فيفعلون مثل فعلهم. ولأجل هذا الأمر نكّل النبي ﷺ بقريظة حين حاصرهم ونزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم بأن تقتل المقاتلة وتسبى الذريّة، فقتلهم رسول الله ﷺ بالمدينة وكانوا أكثر من ثمانمائة رجل.
وقد أمر الله رسوله ﷺ في هذا الأمر بالإغلاظ على العدو لما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنّهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم، لأنهم استحقّوها. وفي ذلك رحمة لغيرهم لأنّه يصدّ أمثالهم عن النكث، ويكفي المؤمنين شرّ الناكثين الخائنين.
{ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } تذكّر حالة المثقّفين في الحرب التي انجرّت لهم من نقض العهد، أي لعلّ من خلفهم يتذكّرون ما حل بناقضي العهد من النكال، فلا يقدموا على نقض العهد، فآل معنى التذكر إلى لازمه وهو الاتعاظ والاعتبار، وقد شاع إطلاق التذكر وإرادة معناه الكنائي وغلب فيه.

{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ }[58]

عطف حكم عام لمعاملة جميع الأقوام الذين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة، بحيث يبدو من أعمالهم ما فيه مخيلة بعدم وفائهم، فأمره الله أن يردّ إليهم عهدهم، إذ لا فائدة فيه وإذ هم ينتفعون من مسالمة المؤمنين لهم، ولا ينتفع المؤمنون من مسالمتهم عند الحاجة.

الخوف، توقع ضرّ من شيء، وهو الخوف الحقّ المحمود. وأمّا تخيل الضرّ بدون أمارة فليس من الخوف وإنّما هو الهوس والتوهّم. وخوف الخيانة ظهور بوارقها. وبلوغ إضمارهم إيّاها، بما يتّصل بالمسلمين من أخبار أولئك وما يأتي به تجسس أحوالهم.

{ مِنْ قَوْمٍ } نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم، أي كلّ قوم تخاف منهم خيانة.

الخيانة، ضد الأمانة، وهي هنا نقض العهد، لأنّ الوفاء من الأمانة. وقد تقدّم معنى الخيانة عند قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [27]

النبذ، الطرح وإلقاء الشيء. وقد مضى عند قوله تعالى {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ} [البقرة:100] وإنّما رتّب نبذ العهد على خوف الخيانة، دون وقوعها لأنّ شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولا ينتظر تحقّق وقوع الأمر المظنون لأنّه إذا تريّث ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرضوا الأمّة للخطر، أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة. ولا تدار سياسة الأمّة بما يدار به القضاء في الحقوق، لأنّ الحقوق إذا فاتت كانت بليّتها على واحد، وأمكن تدارك فائتها. ومصالح الأمّة إذا فاتت تمكّن منها عدوها.

{ عَلَى سَوَاءٍ } صفة لمصدر محذوف، أي نبذا على سواء. ووصف النبذ أو النابذ بأنّه على سواء، تمثيل بحال الماشي على طريق جادة لا التواء فيها، فلا مخاتلة لصاحبها كقوله تعالى {فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنبياء: 109] . والمعنى، فانبذ إليهم نبذا واضحا علنا مكشوفا.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } تذييل لما اقتضته جملة {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً} تصريحا واستلزاما. والمعنى، لأنّ الله لا يحبهم لأنّهم متصفون بالخيانة فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهدا لمن لا يحبهم الله.

{ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ }[59]

تسلية للنبي ﷺ على ما أبدأه به أعداؤه من الخيانة مثل ما فعلت قريظة، وما فعل عبد الله بن أبي سلول وغيرهم من فلول المشركين الذين نجوا يوم بدر. وطمأنة له وللمسلمين بأنّهم سيدالون منهم، ويأتون على بقيّتهم. وتهديد للعدو بأنّ الله سيمكّن منهم المسلمين.

السبق، مستعار للنجاة ممن يطلب، والتفلّت من سلطته. شبّه المتخلّص من طالبه بالسابق. كقوله تعالى {أَمْ

حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا} [العنكبوت: 4]
{ **إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ** } ، أي هم وإن ظهرت نجاتهم الآن، فما هي إلّا نجاة في وقت قليل، فهم لا يعجزون الله، أو لا يعجزون المسلمين.

{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ} [60]

عطفت على {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا} [59]، فتفيد مفاد الاحتراس عن مفادها، لأنّ قوله {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا} يفيد توهينا لشأن المشركين، فتعقيبه بالأمر بالاستعداد لهم لئلّا يحسب المسلمون أنّ المشركين قد صاروا في مكنتهم. ويلزم من ذلك الاحتراس أنّ الاستعداد لهم هو سبب جعل الله إيّاهم لا يعجزون الله ورسوله، لأنّ الله هيأ أسباب استئصالهم ظاهرها وباطنها.

الإعداد، التهيئة والإحضار.

{ **مَا اسْتَطَعْتُمْ** } كلّ ما يدخل تحت قدرة النّاس اتخاذه من العدّة.

والخطاب لجماعة المسلمين وولّاة الأمر منهم، لأنّ ما يراد من الجماعة إنّما يقوم بتنفيذه ولّاة الأمور الذين هم وكلاء الأمّة على مصالحها.

القوّة، كمال صلاحية الأعضاء لعملها، وقد تقدّمت عند قوله {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [52]، وتطلق القوّة مجازا على شدّة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق أيضا على سبب شدّة التأثير، فقوّة الجيش شدّة وقعه على العدو، وقوّته أيضا سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا، فهو مجاز مرسل بواسطتين فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوّة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطيارات والصواريخ من القوّة في جيوش عصرنا. وبهذا الاعتبار يفسّر ما روى مسلم والترمذي عن عقبة بن عامر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال: " ألّا إنّ القوّة الرمي قالها ثلاثا "، أي أكملُ أفراد القوّة آلة الرمي، أي في ذلك العصر. وليس المراد حصر القوّة في آلة الرمي.

{ **وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ** } من عطف الخاص على العام، للاهتمام بذلك الخاص.

الرباط، صيغة مفاعلة أتي بها هنا للمبالغة لتدلّ على قصد الكثرة من ربط الخيل للغزو، أي احتباسها وربطها انتظارا للغزو عليها. كقول النبيّ ﷺ: " من ارتبط فرسا في سبيل الله كان روثها وبولها حسنات له".

يقال: ربط الفرس إذا شدّه في مكان حفظه، وقد سمّوا المكان الذي ترتبط فيه الخيل رباطا، لأنّهم كانوا يحرسون الثغور المخوفة راكبين على أفراسهم. ثم أطلق الرباط على محرس الثغر البحري، وبه سموا رباط

(دمياط) بمصر، ورباط (المنستير) بتونس، ورباط (سلا) بالمغرب الأقصى. وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا} [آل عمران:200]

{ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } إمّا مستأنفة استئنافا بيانيا، وإمّا في موضع الحال من ضمير {وَأَعِدُّوا}.

عدوّ الله وعدوّهم، هم المشركون، فكان تعريفهم بالإضافة لأنّها أخصر طريق لتعريفهم، ولما تتضمّنه من وجه قتالهم وإرهابهم، ومن ذمّهم، أن كانوا أعداء ربهم، ومن تحريض المسلمين على قتالهم إذ عدّوا أعداء لهم.

الإرهاب، جعل الغير راهبا، أي خائفا، فإن العدو إذا علم استعداد عدوّه لقتاله خافه، ولم يجرأ عليه، فكان ذلك هناء للمسلمين وأمنا من أن يغزوهم أعداؤهم.

{ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ } أعداء لا يعرفهم المسلمون بالتعيين ولا بالإجمال، وهم من كان يضمر للمسلمين عداوة وكيدا، ويتربص بهم الدوائر، مثل بعض القبائل. أي لم تكونوا تعلمونهم قبل هذا الإعلام، وقد علمتموهم الآن إجمالا. أو أريد، لا تعلمونهم بالتفصيل ولكنّكم تعلمون وجودهم إجمالا مثل المنافقين. فالعلم بمعنى المعرفة ولهذا نصب مفعولا واحدا.

{ مِنْ دُونِهِمْ } مؤذن بأنهم قبائل من العرب كانوا ينتظرون ما تنكشف عنه عاقبة المشركين من أهل مكّة من حربهم مع المسلمين، فقد كان ذلك دأب كثير من القبائل كما ورد في السيرة. بمعنى، من جهات أخرى، لأن أصل (دُونِ) أنّها للمكان المخالف، وهذا أولى من حمله على مطلق المغايرة التي هي من إطلاقات كلمة (دون)، لأنّ ذلك المعنى قد أغنى عنه وصفهم بـ {آخَرِينَ}

{ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر مستعمل في معناه الكنائي، وهو تعقّبهم والإغراء بهم، وتعريض بالامتنان على المسلمين بأنّهم بمحل عناية الله، فهو يحصي أعداءهم وينبّههم إليهم.

{ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ } وإذ قد كان إعداد القوة يستدعي إنفاقا، وكانت النفوس شحيحة بالمال، تكفّل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه.

سبيل الله، هو الجهاد لإعلاء كلمته.

التوفية، أداء الحقّ كاملا. جعل الله ذلك الإنفاق كالقرض لله، وجعل على الإنفاق جزاء، فسمّى جزاءه توفية على طريقة الاستعارة المكنية. وتدل التوفية على أنّه يشمل الأجر في الدنيا مع أجر الآخرة.

الظلم، هنا مستعمل في النقص من الحقّ، لأنّ نقص الحقّ ظلم، وتسمية النقص من الحق ظلما حقيقة.

{ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [61]

انتقال من بيان أحوال معاملة العدو في الحرب؛ من وفائهم بالعهد، وخيانتهم، وكيف يحلّ المسلمون العهد

معهم إن خافوا خيانتهم، ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين. والأمر بالاستعداد لهم، إلى بيان أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة، وكفّوا عن حالة الحرب. فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم.

الجنوح، الميل، وهو مشتق من جناح الطائر، لأنّ الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه.

{ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ** } إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه، كما يميل الطائر الجانح. وإنما لم يقل: وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها، للتنبيه على أنّه لا يسعفهم إلى السلم حتّى يعلم أن حالهم حال الراغب، لأنّهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيدا.

{ **لِلسَّلْمِ** } اللام واقعة موقع (إلى) لتقوية التنبيه على أنّ ميلهم إلى السلم ميل حقّ، أي وإن مالوا لأجل السلم ورغبة فيه لا لغرض آخر غيره.

السلم، (بفتح السين وكسرها) ضد الحرب.

{ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** } والأمر بالتوكل على الله، بعد الأمر بالجنوح إلى السلم، ليكون النبيّ ﷺ معتمدا في جميع شأنه على الله تعالى، ومفوّضا إليه تسيير أموره، لتكون مدة السلم مدة تقوّ واستعداد، وليكفيه الله شرّ عدوه إذا نقضوا العهد. ولذلك عقّب الأمر بالتوكل بتذكيره بأنّ الله السميع العليم.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } أفاد قصر معنى الكمال في السمع والعلم، أي فهو سميع منهم ما لا تسمع ويعلم ما لا تعلم. وقصر هذين الوصفين بهذا المعنى على الله تعالى عقب الأمر بالتوكل عليه يفضي إلى الأمر بقصر التوكل عليه لا على غيره. وفي الجمع بين الأمر بقصر التوكل عليه وبين الأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو، دليل بيّن على أنّ التوكل أمر غير تعاطي أسباب الأشياء، فتعاطي الأسباب فيما هو من مقدور الناس، والتوكل فيما يخرج عن ذلك.

واعلم أن ضمير جمع الغائبين في قوله {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ} وقع في هذه الآية عقب ذكر طوائف في الآيات قبلها. فقيل: عاد ضمير الغيبة إلى المشركين، قاله قتادة، وعكرمة، والحسن، وجابر بن زيد، ورواه عطاء عن ابن عباس، وقيل: عاد إلى أهل الكتاب، قاله مجاهد ، قيل: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ [62] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [63]

لما كان طلب السلم والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربيّة، ليغروا المسلمين بالمصالحة ثم يأخذوهم على

غرّة، أيقظ الله رسوله لهذا الاحتمال فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق، لأنّه الخلق الإسلامي، وشأن أهل المروءة، ولا تكون الخديعة بمثل نكث العهد. فإذا ساقهم كفرُهم على ارتكاب مثل هذا التسفّل، فإنّ الله تكفّل، للوفي بعهده، أن يقيه شر خيانة الخائنين. وهذا الأصل، وهو أخذ النّاس بظواهرهم، شعبة من شعب دين الإسلام قال تعالى {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 4] وفي الحديث: "آية المنافق ثلاث، منها: وإذا وعد أخلف".

ومن أحكام الجهاد عن المسلمين ان لا يخفر للعدو بعهد.

والمعنى، إن كانوا يريدون من إظهار ميلهم إلى المسالمة خديعة فإنّ الله كافيك شرّهم. وليس هذا هو مقام نبذ العهد الذي في قوله {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [58] فإن ذلك مقام ظهور أمارات الخيانة من العدو، وهذا مقام إضمارهم الغدر دون أمارة على ما إضمروه.

{ **فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ** } دلّت على تكفّل كفايته، وقد أريد منه أيضا الكناية عن عدم معاملتهم بهذا الاحتمال، وأن لا يتوجّس منه خيفة، وأنّ ذلك لا يضرّه.

الخديعة، تقدّمت في قوله تعالى {يُخَادِعُونَ اللَّهَ} [البقرة:9]

حسب، معناه كاف وهو صفة مشبّهة بمعنى اسم الفاعل، أي حاسبك، أي كافيك، وقد تقدم عند قوله تعالى {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:173]

{ **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ** } مستأنفة مسوقة مساق الاستدلال على أنّه حسبه، وعلى المعنى التعريضي وهو عدم التحرّج من احتمال قصدهم الخيانة والتوجّس من ذلك الاحتمال خيفة. والمعنى، فإن الله قد نصرك من قبل وقد كنت يومئذ أضعف منك اليوم، فنصره إيّاك عليهم مع مخاتلتهم، ومع كونك في قوة من المؤمنين الذين معك، أولى وأقرب. لأنّ النصر يقوّي العزيمة، ويثبت رأي المنصور، وضدّه يشوّش العقل، ويوهن العزم. وإضافة النصر إلى الله تنبيه على أنّه نصر خارق للعادة، وهو النصر بالملائكة والخوارق.

{ **وَبِالْمُؤْمِنِينَ** } عطف على {بِنَصْرِهِ} وأعيد حرف الجر بعد واو العطف لدفع توهّم أن يكون معطوفا على اسم الجلالة، فيوهم أنّ المعنى، ونصر المؤمنين، مع أنّ المقصود أن وجود المؤمنين تأييد من الله لرسوله إذ وفّقهم لاتّباعه، فشرح صدره بمشاهدة نجاح دعوته وتزايد أمّته ولكون المؤمنين جيشا ثابتي الجنان.

{ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** } والتأليف بين قلوب المؤمنين منّة أخرى على الرّسول، إذ جعل أتباعه متحابين وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم، إذ يكونون على قلب رجل واحد، وقد كان العرب يفضلون الجيش المؤلف من قبيلة واحدة، لأنّ ذلك أبعد عن حصول التنازع بينهم.

وهو أيضا منّة على المؤمنين إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحن، التي كانت دأب النّاس في الجاهلية، فكانت سبب التقاتل بين القبائل، بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة.

{ **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** } استئناف ناشئ عن مساق الامتنان بهذا الائتلاف، فهو بياني، أي لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم ما حصل التآلف بينهم.

ومن أعظم مشاهد ذلك ما حدث بين الأوس والخزرج من الإحن قبل الإسلام مما نشأت عنه حرب بُعاث بينهم، ثم أصبحوا بعد حين إخوانا أنصارا لله تعالى، وأزال الله من قلوبهم البغضاء بينهم.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** } الاستدراك لأجل ما يتوهّم من تعذر التأليف بينهم.

والخطاب في {أَنْفَقْتَ} و {أَلَّفْتَ} للرسول ﷺ باعتبار أنه أول من دعا إلى الله.

{ **إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } وإذ كان هذا التكوين صنعا عجيبا ذيّل الله الخبر بهذا القول. فهو قوي القدرة فلا يعجزه شيء، محكم التكوين فهو يكوّن المتعذّر، ويجعله كالأمر المسنون المألوف.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }[64]

استئناف ابتدائي بالإقبال على خطاب الرسول ﷺ بأوامر وتعاليم عظيمة، مهد لقبولها وتسهيلها بما مضى من التذكير بعجيب صنع الله والامتنان بعنايته برسوله والمؤمنين، وإظهار أنّ النجاح والخير في طاعته وطاعة الله، من أول السورة إلى هنا، فموقع هذه الآية بعد التي قبلها كامل الاتساق والانتظام. فإنّه لمّا أخبره بأنّه حسبه وكافيه، وبيّن ذلك بأنّه أيّده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين، فقد صار للمؤمنين حظّ في كفاية الله تعالى رسوله ﷺ فلا جرم أنتج ذلك أن حسبه الله والمؤمنون، فكانت الآية كالفذلكة للجملة التي قبلها.

{ **وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } وفي عطف {الْمُؤْمِنِينَ} على اسم الجلالة هنا تنويه بشأن كفاية الله النبي ﷺ بهم. وقيل يجعل {وَمَنِ اتَّبَعَكَ} مفعولا معه لقوله {حَسْبُكَ}. وعلى هذا التقدير يكون التنويه بالمؤمنين في جعلهم مع النبي ﷺ في هذا التشريف، والتفسير الأول أولى وأرشق.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [65]

أعيد نداء النبيّ ﷺ للتنويه بشأن الكلام الوارد بعد النداء وهذا الكلام في معنى المقصد بالنسبة للجملة التي قبله، لأنّه لمّا تكفّل الله له الكفاية وعطف المؤمنين في إسناد الكفاية إليهم، احتيج إلى بيان كيفية كفايتهم. وتلك هي الكفاية، بالذب عن الحوزة وقتال أعداء الله.

التحريض، المبالغة في المطلب.

{ **إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** }.

ضمير {مِنْكُمْ} خطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين.
{ صَابِرُونَ } ثابتون في القتال، لأنّ الثبات على الآلام صبر، لأنّ أصل الصبر تحمل المشاق، والثبات منه، وفي الحديث: " لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لاقيتم فاصبروا ".
أي حرّض المؤمنين الصابرين الذين لا يتزلزلون. فالمقصود أن لا يكون فيهم من هو ضعيف النفس فيفشل الجيش.
وذكر في جانب جيش المسلمين في المرتين عدد العشرين وعدد المائة، وفي جانب جيش المشركين عدد المائتين وعدد الألف، إيماء إلى قلة جيش المسلمين في ذاته، مع الإيماء إلى أنّ ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة عددهم في أنفسهم، فإنّ العادة أنّ زيادة عدد الجيش تقوّي نفوس أهله، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد عدوهم غير مختلفة، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهم استشعار قلّة عدد جيشهم في ذاته.
أما اختيار لفظ العشرين للتعبير عن مرتبة العشرات دون لفظ العشرة، فلعلّ وجهه أنّ لفظ العشرين أسعد بتقابل السكنات في أواخر الكلم، لأنّ للفظة مائتين من المناسبة بسكنات كلمات الفواصل من السورة، ولذلك كثر المائة مع الألف لأن بعدها ذكر مميز العدد بألفاظ تناسب سكنات الفاصلة، وهو قوله {لا يَفْقَهُونَ} فتعين هذا اللفظ قضاء لحق الفصاحة.
فهذا الخبر كفالة للمسلمين بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله، وهو يستلزم وجوب ثبات العدد منهم لعشرة أمثاله، للأمر بالثبات الواقع في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا} [45]، وإطلاق النهي عن الفرار الواقع في قوله {فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [15] كما تقدم.
وهو من هذه الناحية التشريعية حكم شديد شاق اقتضته قلّة عدد المسلمين يومئذ وكثرة عدد المشركين، ولم يصل إلينا أنّ المسلمين احتاجوا إلى العمل به في بعض غزواتهم، وقصارى ما علمنا أنّهم ثبتوا لثلاثة أمثالهم في وقعة بدر، فقد كان المسلمون زهاء ثلاثمائة وكان المشركون زهاء الألف، ثم نزل التخفيف من بعد ذلك بالآية التالية.
{ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } والباء للسببية، أي بعدم فقههم.
الفقه، فهم الأمور الخفيّة، والمراد نفي الفقه عنهم من جانب معرفة الله تعالى بقرينة تعليق الحكم بهم بعد إجراء صلة الكفر عليهم.
وإنّما جعل الله الكفر سببا في انتفاء الفقاهة عنهم، لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره، فهم لا يؤمنون إلّا بالأسباب الظاهرية، فيحسبون أنّ كثرتهم توجب لهم النصر على الأقلين، فقد شاع قولهم: " إنّما العزّة للكاثر". ولأنّهم لا يؤمنون بما بعد الموت من

نعيم وعذاب، فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلّا في الحالة التي يكون نصرهم فيها أرجح.
والمؤمنون يعوّلون على نصر الله ويثبتون للعدو رجاء إعلاء كلمة الله، ولا يهابون الموت في سبيل الله، لأنّهم موقنون بالحياة الأبدية بعد الموت.

{ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [66]

هذه الآية نزلت بعد نزول الآية التي قبلها بمدّة. ولعلّه بعد نزول جميع سورة الأنفال، ولعلّها وضعت في هذا الموضع لأنّها نزلت مفردة غير متّصلة بآيات سورة أخرى، فجعل لها هذا الموضع لأنّه أنسب بها لتكون متصلة بالآية التي نسخت هي حكمها، ولم أر من عين زمن نزولها. ولا شك أنه كان قبل فتح مكة فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا محضا لأنّها آية مستقلة.

{ الْآنَ } اسم ظرف للزمان الحاضر. قيل: أصله أوان، بمعنى زمان. ولمّا أريد تعيينه للزمان الحاضر لازمته لام التعريف بمعنى العهد الحضوري، فصار مع اللام كلمة واحدة ولزمه النصب على الظرفيّة. وهو الوقت الذي علم الله عنده انتهاء الحاجة إلى ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين، بحيث صارت المصلحة في ثبات الواحد لاثنين، لا أكثر، رفقا بالمسلمين واستبقاء لعددهم.

روى الطبري عن ابن عباس: " كان لكلّ رجل من المسلمين عشرة لا ينبغي أن يفرّ منهم، وكانوا كذلك حتى أنزل الله { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً}، فعبأ لكلّ رجل من المسلمين رجلين من المشركين فهذا حكم وجوب نسخ بالتخفيف الآتي.

{ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً } دلالة على أنّ ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين كان وجوبا وعزيمة وليس ندبا، لأنّ المندوب لا يثقل على المكلفين، ولأنّ إبطال مشروعية المندوب لا يسمى تخفيفا، ثم إذا أبطل الندب لزم أن يصير ثبات الواحد للعشرة مباحا مع أنّه تعريض الأنفس للتهلكة.

{ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً } في موضع الحال، أي خفّف الله عنكم وقد علم من قبل أنّ فيكم ضعفا، فالكلام كالاعتذار على ما في الحكم السابق من المشقّة بأنّها مشقّة اقتضاها استصلاح حالهم.

الضعف،(بالضم والفتح) عدم القدرة على الأعمال الشديدة والشّاقة، ويكون في عموم الجسد وفي بعضه، وهو هنا ضعف الرهبة من لقاء العدد الكثير في قلة.

{ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ } الفاء لتفريع التشريع على التخفيف. وعبر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عددين معينين ومثليهما: ليجيء الناسخ على وفق المنسوخ، فقوبل ثبات العشرين للمائتين بنسخه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقي

مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة، إيماء إلى أنّ موجب التخفيف كثرة المسلمين، لا قلة المشركين. وقوبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من المسلمين لألفين من المشركين، إيماء إلى أنّ المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف.

{ **صَابِرَةٌ** } أعيد الوصف لأنّ المقام يقتضي التنويه بالاتصاف بالثبات.

{ **بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** } أمْرُه، فيجوز أن يكون المراد أمره التكليفي، باعتبار ما تضمّنه الخبر من الأمر، كما تقدم، ويجوز أن يراد أمره التكويني باعتبار صورة الخبر والوعد. وإذْن الله حاصل في كلتا الحالتين المنسوخة والناسخة. وإنما صرّح به هنا، دون ما سبق، لأنّ غلب الواحد للعشرة أظهر في الخرق للعادة، فيعلم بدءا أنّه بإذن الله، وأمّا غلب الواحد الاثنين فقد يحسب ناشئا عن قوّة أجساد المسلمين، فنبّه على أنّه بإذن الله، ليعلم أنّه مطّرد في سائر الأحوال، ولذلك ذيل بقوله { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }.

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [68] لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [68]

استئناف ابتدائي مناسب لما قبله سواء نزل بعقبه أم تأخر نزوله عنه فكان موقعه هنا بسبب موالاة نزوله لنزول ما قبله أوكأن وضع الآية هنا بتوقيف خاص. والمناسبة ذكر بعض أحكام الجهاد وكان أعظم جهاد مضى هو جهاد يوم بدر. لا جرم نزلت هذه الآية بعد قضية فداء أسرى بدر مشيرة إليها.

وعندي أن هذا تشريع مستقبل أخّره الله تعالى رفقا بالمسلمين الذين انتصروا ببدر وإكراما لهم على ذلك النصر المبين وسدا لخلّتهم التي كانوا فيها، فنزلت لبيان الأمر الأجدر فيما جرى في شأن الأسرى في وقعة بدر. وذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس، والترمذي عن ابن مسعود، ما مختصره، " أنّ المسلمين لما أسروا الأسارى يوم بدر وفيهم صناديد المشركين سأل المشركون رسول الله ﷺ أن يفاديهم بالمال وعاهدوا على أن لا يعودوا إلى حربه فقال رسول الله ﷺ للمسلمين ما ترون في هؤلاء الأسارى، قال أبو بكر: " يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام"، وقال عمر: أرى أن تمكّننا فنضرب أعناقهم فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فَهَوِيَ رسولُ الله ما قال أبو بكر فأخذ منهم الفداء"، كما رواه أحمد عن ابن عباس فأنزل الله {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى}.

وهذه القضية إحدى قضايا جاء فيها القرآن مؤيدا لرأي عمر بن الخطاب. فقد روى مسلم عن عمر، قال: "وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر."

ومعنى قوله: هوي رسول الله ما قال أبو بكر: أن رسول الله أحب واختار ذلك لأنه من اليسر والرحمة

بالمسلمين إذ كانوا في حاجة إلى المال، وكان رسول الله ﷺ ما خير بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما. وروي أن ذلك كان رغبة أكثرهم وفيه نفع للمسلمين، وهم في حاجة إلى المال.

ولمّا استشار رسول الله ﷺ عليه أهل مشورته تعيّن أنّه لم يوح الله إليه بشيء في ذلك، وأنّ الله أوكل ذلك إلى اجتهاد رسوله ﷺ، فرأى أن يستشير النّاس ثم رجّح أحد الرأيين باجتهاد. وقد خفي على النبي ﷺ شيء لم يعلمه إلّا الله وهو إضمار بعضهم بعد الرجوع إلى قومهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين من بعد.

{ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى** } الكلام موجّه للمسلمين الذين أشاروا بالفداء، ويدلّ لذلك قوله {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا} فإن الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء، وليس لرسول الله ﷺ في ذلك حظ.

وجيء بـ { **نبيّ** } نكرة إشارة إلى أنّ هذا حكم سابق في حروب الأنبياء في بني إسرائيل، وهو في الإصحاح عشرين من سفر التثنية.

{ **مَا كَانَ** } ومثل هذا النفي في القرآن قد يجيء بمعنى النهي نحو {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ} [الأحزاب: 53]. وقد يجيء بمعنى أنّه لا يصلح، كما هنا، لأنّ هذا الكلام جاء تمهيدا للعتاب، فتعيّن أن يكون مرادا منه ما لا يصلح من حيث الرأي والسياسة. وليس المراد أنّه لا يصلح أن تقع في يد النبي أسرى، لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون، فلا يعقل أحد نفيه عن النبي. فتعيّن أنّ المراد نفي أثره، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد أمرين: وهما المنّ عليهم بإطلاقهم، أو قتلهم، ولا يصلح المن هنا لأنّه ينافي الغاية وهي حتى يثخن في الأرض، فتعيّن أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده، أي أنّ ذلك الأجدر به حين ضعف المؤمنين، خضْدا لشوكة أهل العناد. وقد صار حكم هذه الآية تشريعا للنبي ﷺ فيمن يأسرهم في غزواته.

الإثخان، الشدّة والغلظة في الأذى. يقال أثخنته الجراحة وأثخنه المرض إذا ثقل عليه، وقد شاع إطلاقه على شدة الجراحة على الجريح. وقد حمله بعض المفسّرين في هذه الآية على معنى الشدّة والقوّة. فالمعنى، حتى يتمكّن في الأرض، أي يتمكّن سلطانه وأمره.

{ **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** } والكلام عتاب للذين أشاروا باختيار الفداء والميل إليه وغض النظر عن الأخذ بالحزم في قطع دابر صناديد المشركين، فإن في هلاكهم خضدا لشوكة قومهم فهذا ترجيح للمقتضى السياسي العرضي على المقتضى الذي بني عليه الإسلام وهو التيسير والرفق في شؤون المسلمين بعضهم مع بعض كما قال تعالى {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29]. وقد كان هذا المسلك السياسي خفيّا حتّى كأنّه مما استأثر الله به.

الإرادة، هنا بمعنى المحبة، أي تحبّون منافع الدنيا والله يحب ثواب الآخرة، ومعنى محبة الله إياها محبته ذلك للنّاس، أي يحب لكم ثواب الآخرة، فعلق فعل الإرادة بذات الآخرة.

{عَرَضَ الدُّنْيَا } هو المال، وإنّما سمي عرضا لأنّ الانتفاع به قليل اللبث، فأشبه الشيء العارض إذ العروض مرور الشيء وعدم مكثه لأنه يعرض للماشين بدون تهيّؤ.

ويجوز عندي أن يكون قوله **{ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا }** مستعملا في معنى الاستفهام الإنكاري. والمعنى، لعلّكم تحبّون عرض الدنيا، فإنّ الله يحبّ لكم الثواب وقوة الدين، تحذيرا لهم من التوغّل في إيثار الحظوظ العاجلة.

{ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } عطف على جملة {وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} عطفا يؤذن بأن لهذين الوصفين أثرا في أنّه يريد الآخرة، فيكون كالتعليل، وهو يفيد أنّ حظ الآخرة هو الحظّ الحقّ، ولذلك يريده العزيز الحكيم.

فوصف (العزيز) يدلّ على الاستغناء عن الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ووصف (الحكيم) يقتضي أنّه العالم بالمنافع الحقّ على ما هي عليه، لأنّ الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه.

{ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ الكلام السابق يؤذن بأنّ مفاداة الأسرى أمر مرهوب تخشى عواقبه.

{ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ } الكتابة التي هي التعيين والتقدير، وقد نكّر الكتاب تنكير نوعية وإبهام، أي لولا وجود سنة تشريع سبق عن الله. وذلك الكتاب هو عذر المستشار وعذر المجتهد في اجتهاده إذا أخطأ، فقد استشارهم النبي ﷺ فأشاروا بما فيه مصلحة رأوها وأخذ بما أشاروا به ولولا ذلك لكانت مخالفتهم لما يحبه الله اجتراء على الله يوجب أن يمسهم عذاب عظيم.

وهذه الآية تدلّ على أن لله حكما في كل حادثة، وأنّه نصب على حكمه أمارة هي دليل المجتهد وأن مخطئه من المجتهدين لا يأثم بل يؤجر.

ويجوز أن يكون العذاب المنفي عذابا في الدنيا، أي لولا قدر من الله سبق من لطفه بكم فصرف بلطفه وعنايته عن المؤمنين عذابا كان من شأن أخذهم الفداء أن يسبّبه لهم ويوقعهم فيه. وهذا العذاب عذاب دنيوي لأن عذاب الآخرة لا يترتب إلّا على مخالفة شرع سابق، ولم يسبق من الشرع ما يحرم عليهم أخذ الفداء. كيف وقد خيروا فيه لمّا استشيروا. وهو أيضا عذاب من شأنه أن يجره عملهم جر الأسباب لمسبباتها.

فالمراد بالعذاب أنّ أولئك الأسرى، الذين فادوهم كانوا صناديد المشركين وقد تخلّصوا من القتل والأسر، يحملون في صدورهم حنقا فكان من معتاد أمثالهم في مثل ذلك أن يسعوا في قومهم إلى أخذ ثار قتلاهم واسترداد أموالهم فلو فعلوا لكانت دائرة عظيمة على المسلمين، ولكنّ الله سلّم المسلمين من ذلك فصرف المشركين عن محبة أخذ الثأر، وألهاهم بما شغلهم عن معاودة قتال المسلمين. فذلك الصرف هو من الكتاب الذي سبق عند الله تعالى.

{ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[69]

الفاء تؤذن بتفريع هذا الكلام على ما قبله. وفي هذا التفريع وجهان.

الوجه الأول، الذي جرى عليه كلام المفسّرين، أنّه تفريع على قوله {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ} [68]، أي لولا ما سبق من حلّ الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحلّ فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى} [67] الآية. أمسكوا عن الانتفاع بمال الفداء، فنزل قوله تعالى {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً}. وعلى هذا الوجه قد سمّى مال الفداء غنيمة تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي، لأنّ الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

الوجه الثاني، يظهر لي أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وأنّ المعنى فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي. ولما تضمّن قوله {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ} [68]، امتنانا عليهم بأنّه صرف عنهم بأس العدو. فرّع على الامتنان الإذنَ لهم بأن ينتفعوا بمال الفداء في مصالحهم، ويتوسّعوا به في نفقاتهم، دون نكد ولا غصّة، فإنّهم استغنوا به مع الأمن من ضرّ العدو بفضل الله.

{ **فَكُلُوا** } عبر عن الانتفاع الهنيء بالأكل. لأنّ الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء. والأمر مستعمل في المنّة ولا يحمل على الإباحة هنا، لأنّ إباحة المغانم مقرّرة من قبل يوم بدر.

{ **حَلالاً** } حالا موسّسة لا مؤكّدة لمعنى الإباحة.

الطيب، النفيس في نوعه، أي حلالا من خير الحلال.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } وذيّل ذلك بالأمر بالتقوى، لأنّ التقوى شكر الله على ما أنعم من دفع العذاب عنهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تعليل للأمر بالتقوى، وتنبيه على أنّ التقوى شكر على النعمة، فحرف التأكيد للاهتمام، وهو مغن غناء فاء التفريع.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[70]

استئناف ابتدائي، وهو إقبال على خطاب النبيّ ﷺ بشيء يتعلّق بحال سرائر بعض الأسرى، بعد أن كان الخطاب متعلّقا بالتحريض على القتال وما يتبعه، وقد كان العباس في جملة الأسرى وكان ظهر منه ميل إلى الإسلام. قبل خروجه إلى بدر، وكذلك كان عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وقد فدى العباس نفسه وفدى ابني أخويه: عقيلا ونوفلا. وقال للنبيّ ﷺ: " تركتني أتكفّف قريشا ".

فنزلت هذه الآية في ذلك، وهي ترغيب لهم في الإسلام في المستقبل، ولذلك قيل لهم هذا القول قبل أن يفارقوهم.

{ **مَنْ فِي أَيْدِيكُمْ** } من في ملكتكم ووثاقكم، فالأيدي مستعارة للملك. وجمعها باعتبار عدد المالكين. وكان الأسرى مشركين، فإنهم ما فادوا أنفسهم إلا لقصد الرجوع إلى أهل الشرك.

{ **فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً** } والمراد بالخير محبة الإيمان والعزم عليه، أي فإذا آمنتم بعد هذا الفداء يؤتكم الله خيرا مما أخذ منكم. وليس إيتاء الخير على مجرد محبة الإيمان والميل إليه، كما أخبر العباس عن نفسه، بل المراد به ما يترتّب على تلك المحبة من الإسلام بقرينة قوله {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} وكذلك ليس الخير الذي في قلوبهم هو الجزم بالإيمان، لأن ذلك لم يدّعوه ولا عرفوا به، قال ابن وهب عن مالك: " كان أسرى بدر مشركين ففادوا ورجعوا ولو كانوا مسلمين لأقاموا ".

{ **يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** } ما أخذ منهم هو مال الفداء، والخير منه هو الأوفر من المال بأن ييسر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها. فقد أعطى رسول الله ﷺ العباس بعد إسلامه من فيء البحرين. وإنما حملنا الخير على الأفضل من المال، لأنّ ذلك هو الأصل في التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلا في خصائص النوع، ولأنّه عطف عليه قوله {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} وذلك هو خير الآخرة المترتّب على الإيمان، لأنّ المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** }التذييل للإيماء إلى عظم مغفرته التي يغفر لهم.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [71]

{ **يُرِيدُوا** } الضمير عائد إلى من في أيديكم من الأسرى. وهذا كلام خاطب به الله رسوله ﷺ اطمئنانا لنفسه، وليبلّغ مضمونه إلى الأسرى، ليعلموا أنّهم لا يغلبون الله ورسوله. وفيه تقرير للمنّة على المسلمين التي أفادها قوله {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً} [69]، فكمّل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأنّ الله يمكّن المسلمين منهم مرة أخرى.

الخيانة، نقض العهد وما في معنى العهد كالأمانة. فالعهد، الذي أعطوه، هو العهد بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين، وهذه عادة معروفة في أسرى الحرب إذا أطلقوهم. فمن الأسرى من يخون العهد ويرجع إلى قتال من أطلقوه.

ويجوز أن يراد بالعهد ما نكثوا من التزامهم للنبي ﷺ حين دعاهم إلى الإسلام من تصديقه إذا جاءهم ببيّنة، فلما تحداهم بالقرآن كفروا به وكابروا.

{ **فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ** } سكت معظم التفاسير وكتب اللغة عن تبيين حقيقة هذا التركيب وبيان اشتقاقه وألم به بعضهم إلماما خفيفا بأن فسروا (أمكن) بأقدر، فهل هو مشتق من المكان أو من الإمكان بمعنى الاستطاعة أو من المكانة بمعنى الظفر؟

والذي أفهمه من تصاريف كلامهم أن هذا الفعل مشتق من المكان وأنّ الهمزة فيه للجعل وأن معني أمكنه من كذا، جعل له منه مكانا أي مقرا، وأنّ المكان مجاز أو كناية عن كونه في تصرفه كما يكون المكان مجالا للكائن فيه. أي أمكنك منهم يوم بدر، أي لم ينفلتوا منك. والمعنى أنه أتاكم بهم إلى بدر على غير ترقب منكم فسلطكم عليهم.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل، أي عليم بما في قلوبهم حكيم في معاملتهم على حسب ما يعلم منهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [72]

هذه الآيات استئناف ابتدائي للإعلام بأحكام موالاة المسلمين للمسلمين الذين هاجروا والذين لم يهاجروا وعدم موالاتهم للذين كفروا، نشأ عن قول العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر أنّه مسلم وأنّ المشركين أكرهوه على الخروج إلى بدر. ولعلّ بعض الأسرى غيره قد قال ذلك وكانوا صادقين، فلعلّ بعض المسلمين عطفوا عليهم وظنّوهم أولياء لهم، فأخبر الله المسلمين وغيرهم بحكم من آمن واستمر على البقاء بدار الشرك.

تعرضت الآية إلى مراتب الذين أسلموا، فابتدأت ببيان فريقين اتّحدت أحكامهم في الولاية والمؤاساة حتى صاروا بمنزلة فريق واحد، وهؤلاء هم فريقا المهاجرين والأنصار الذين امتازوا بتأييد الدين. فالمهاجرون امتازوا بالسبق إلى الإسلام وتكبّدوا مفارقة الوطن، والأنصار امتازوا بإيوائهم، وبمجموع العملين حصل إظهار البراءة من الشرك وأهله، وقد اشترك الفريقان في أنّهم آمنوا وأنهم جاهدوا، واختص المهاجرون بأنهم هاجروا واختص الأنصار بأنهم آووا ونصروا، وكان فضل المهاجرين أقوى لأنّهم فضّلوا الإسلام على وطنهم وأهليهم، وبادر إليه أكثرهم، فكانوا قدوة ومثالا صالحا للنّاس.

المهاجرة، هجر البلاد، أي الخروج منها وتركها. وأصل الهجرة الترك واشتق منه صيغة المفاعلة لخصوص ترك الدار والقوم، لأنّ الغالب عندهم كان أنّهم لا يتركون قومهم ويتركهم قومهم، إذ لا يفارق أحد قومه إلّا لسوء معاشرة تنشأ بينه وبينهم.

وقد كانت الهجرة من أشهر أحوال المخالفين لقومهم في الدين فقد هاجر إبراهيم عليه السلام {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ

إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: 99]. وهاجر لوط عليه السلام {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت: 26]، وهاجر موسى عليه السلام بقومه، وهاجر محمد ﷺ وهاجر المسلمون بإذنه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة (يثرب)، ولمّا استقر المسلمون من أهل مكّة بالمدينة غلب عليهم وصف المهاجرين وأصبحت الهجرة صفة مدح في الدين، ولذلك قال النبي ﷺ في مقام التفضيل: " لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار"، وقال للأعرابي: " ويحك إن شأنها شديد"، وقال : " لا هجرة بعد الفتح ".

الإيواء، تقدم عند قوله تعالى { فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ } [26]

النصر، تقدّم عند قوله تعالى {وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً - إلى قوله - وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:123]

والمراد بالنصر هنا، النصر الحاصل قبل الجهاد، وهو نصر النبي ﷺ والمسلمين بأنّهم يحمونهم بما يحمون به أهلهم، ولذلك غلب على الأوس والخزرج وصف الأنصار.

{ **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } اسم الإشارة لإفادة الاهتمام بتمييزهم للأخبار عنهم، وللتعريض بالتعظيم لشأنهم، ولذلك لم يؤت بمثله في الأخبار عن أحوال الفرق الأخرى.

ولمّا أطلق الله الولاية بينهم احتمل حملها على أقصى معانيها، وإن كان موردها في خصوص ولاية النصر، فإنّ ذلك كورود العام على سبب خاص، قال ابن عباس {أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [75] يعني في الميراث، جعل بين المهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، حتّى أنزل الله قوله {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [75]. وهذا قول مجاهد وعكرمة وقتادة والحسن. وروي عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وهو قول أبي حنيفة وأحمد.

وقال كثير من المفسّرين هذه الولاية هي في الموالاة والمؤازرة والمعاونة دون الميراث اعتدادا بأنّها خاصة بهذا الغرض وهو قول مالك بن أنس والشافعي. وروي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وابن عمر وأهل المدينة.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** }

جاء على أسلوب تقسيم الفرق فعطف كما عطفت الجمل بعده، ومع ذلك قد جعل تكملة لحكم الفرقة المذكورة قبله. فإنّ وصف الإيمان يقابله وصف الشرك، و وصف الهجرة يقابله وصف المكث بدار الشرك، فلمّا بيّن أوّل الآية ما لأصحاب الوصفين (الإيمان والهجرة) من الفضل وما بينهم من الولاية انتقلت إلى بيان حال الفريق الذي يقابل أصحاب الوصفين وهو فريق ثالث، فبيّنت حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا، فأثبتت لهم وصف الإيمان وأمرت المهاجرين والأنصار بالتبرئي من ولايتهم حتّى يهاجروا، فلا يثبت بينهم وبين أولئك حكم التوراث ولا النصر إلّا إذا طلبوا النصر على قوم فتنوهم في دينهم.

وفي نفي ولاية المهاجرين والأنصار لهم، مع السكوت عن كونهم أولياء للذين كفروا، دليل على أنّهم معتبرون مسلمين ولكنّ الله أمر بمقاطعتهم حتى يهاجروا ليكون ذلك باعثا لهم على الهجرة.

الوَلاية، (بفتح الواو)، وهي اسم لمصدر تولّاه، وقرأها حمزة وحده (بكسر الواو). والفتح والكسر وجهان متساويان مثل الدلالة بفتح الدال وكسرها.

{ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ }

ظرفية مجازية، تؤول إلى معنى التعليل، أي طلبوا ان تنصروهم لأجل الدين، أي لردّ الفتنة عنهم في دينهم إذ حاول المشركون إرجاعهم إلى دين الشرك وجب نصرهم، لأنّ نصرهم للدين ليس من الولاية لهم بل هو من الولاية للدين ونصره، وذلك واجب عليهم سواء استنصرهم النّاس أم لم يستنصروهم إذا توفر داعي القتال، فجعل الله استنصار المسلمين الذين لم يهاجروا من جملة دواعي الجهاد.

{ عَلَيْكُمُ النَّصْرُ } من صيغ الوجوب، أي فواجب عليكم نصرهم.

{ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ } استثناء من متعلق النصر وهو المنصور عليهم، ووجه ذلك أنّ الميثاق يقتضي عدم قتالهم إلّا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلق إلّا بالمسلمين المتميّزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأمّا المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمّل المسلمون تبعاتهم، فما ينشأ بين الكفار المعاهدين للمسلمين وبين المسلمين الباقين في دار الكفر لا يعدّ نكثا من الكفار لعهد المسلمين.

{ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } تحذير للمسلمين لئلا يحملهم العطف على المسلمين على أن يقاتلوا قوما بينهم وبينهم ميثاق. وفي هذا التحذير تنويه بشأن الوفاء بالعهد وأنّه لا ينقضه إلّا أمر صريح في مخالفته.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [73]

هذا بيان لحكم القسم المقابل لقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا} [72] وما عطف عليه. والواو للتقسيم والإخبار عنهم بأنّ بعضهم أولياء بعض، خبر مستعمل في مدلوله الكنائي، وهو أنّهم ليسوا بأولياء للمسلمين، لأنّ الإخبار عن ولاية بعضهم بعضا ليس صريحة ممّا يهم المسلمين لولا أنّ القصد النهي عن موالاة المسلمين إيّاهم، بقرينة قوله {إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} أي إن لا تفعلوا قطع الولاية معهم.

الفتنة، اختلال أحوال النّاس، وقد مضى القول فيها عند قوله {حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} [البقرة: 102] وقوله {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:191]، وتقدّم القول فيها آنفا في هذه السورة.

الفتنة تحصل من مخالطة المسلمين مع المشركين، لأنّ النّاس كانوا قريبي عهد بالإسلام، وكانت لهم مع المشركين أواصر قرابة وولاء ومودّة ومصاهرة ومخالطة، وقد كان إسلام من أسلم مثيرا لحنق المشركين عليه، فإذا لم ينقطع المسلمون عن موالاة المشركين يخشى على ضعفاء النفوس من المسلمين أن تجذبهم تلك

الأواصر وتفتنهم قوة المشركين وعزّتهم، ويقذف بها الشيطان في نفوسهم، فيحنّوا إلى المشركين ويعودوا إلى الكفر. فكان إيجاب مقاطعتهم لقصد قطع نفوسهم عن تذكر تلك الصلات، وإنسائهم تلك الأحوال، بحيث لا يشاهدون إلّا حال جماعة المسلمين، ولا يشتغلوا إلّا بما يقويها، وليكونوا في مزاولتهم أمور الإسلام عن تفرّغ بال من تحسر أو تعطف على المشركين، فلذا كان هذا حسما لوسائل الفتنة.

الفساد، ضدّ الصلاح، وقد مضى عند قوله تعالى {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} [البقرة:30]

الكبير، حقيقته العظيم الجسم. وهو هنا مستعار للشديد القوّي من نوعه.

والمراد بالفساد هنا، ضد صلاح اجتماع الكلمة، فإن المسلمين إذا لم يظهروا يدا واحدة على أهل الكفر لم تظهر شوكتهم، ولأنّه قد يحدث بينهم الاختلاف من جراء اختلافهم في مقدار مواصلتهم للمشركين، ويرمي بعضهم بعضا بالكفر أو النفاق، وذلك يفضي إلى تفرّق جماعتهم، وهذا فساد كبير.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }[74]

الأظهر أن الآية اعتراضية للتنويه بالمهاجرين والأنصار، وبيان جزائهم وثوابهم، بعد بيان أحكام ولاية بعضهم لبعض فليست هذه تكرير للأولى، وإن تشابهت ألفاظها، فالأولى لبيان ولاية بعضهم لبعض، وهذه واردة للثناء عليهم والشهادة لهم بصدق الإيمان مع وعدهم بالجزاء.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً** } صيغة قصر، أي قصر الإيمان عليهم دون غيرهم ممن لم يهاجروا. فالمعنى، أنهم محقّقون لإيمانهم، بأن عضّدوه بالهجرة من دار الكفر. وليس الحقّ هنا بمعنى المقابل للباطل، حتّى يكون إيمان غيرهم ممن لم يهاجروا باطلا، لأنّ قرينة قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا} [72] مانعة من ذلك، إذ قد أثبت لهم الإيمان ونفي عنهم استحقاق ولاية المؤمنين.

{ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } والرزق الكريم هو الذي لا يخالط النفع به ضرّ ولا نكد، فهو نفع محض لا كدر فيه.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [75]

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ }

بعد أن منع الله ولاية المسلمين للذين آمنوا ولم يهاجروا بالصراحة، فتح باب التدارك بهذه الآية، فكانت بيانا،

وكان مقتضى الظاهر أن تكون مفصولة غير معطوفة، ولكن عدل عن الفصل إلى العطف تغليبا لمقام التقسيم الذي استوعبته هذه الآيات.

{ **فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** } أي إذا حصل منهم ما لم يكن حاصلا في وقت نزول الآيات السابقة، ليكون أصحاب هذه الصلة قسما مغايرا للأقسام السابقة. فليس المعنى أنهم آمنوا من بعد نزول هذه الآية، لأن الذين لم يكونوا مؤمنين ثم آمنوا من بعد لا حاجة إلى بيان حكم الاعتداد بإيمانهم، فإنّ من المعلوم أنّ الإسلام يجب ما قبله.

{ **مَعَكُمْ** } إيذان بأنّهم دون المخاطبين الذين لم يستقروا بدار الكفر بعد أنّ هاجر منها المؤمنون وأنّهم فرطوا في الجهاد مدة.

{ **فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** } تبعيضية، أي فقد صاروا منكم، أي من جماعتكم وبذلك يعلم أن ولايتهم للمسلمين.

{ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** }

يظهر أن التقاسيم السابقة لمّا أثبتت ولاية بين المؤمنين، ونفت ولاية من بينهم وبين الكافرين، ومن بينهم وبين الذين آمنوا ولم يهاجروا حتّى يهاجروا، ثم عادت على الذين يهاجرون من المؤمنين بعد تقاعسهم عن الهجرة بالبقاء في دار الكفر مدة، فبيّنت أنّهم إن تداركوا أمرهم وهاجروا يدخلون بذلك في ولاية المسلمين، جاءت هذه الآية تذكّر بأن ولاية الأرحام قائمة وأنّها مرجّحة لغيرها من الولاية فموقعها كموقع الشروط وشأن الصفات والغايات بعد الجمل المتعاطفة أنها تعود إلى جميع تلك الجمل، وعلى هذا الوجه لا تكون هذه الآية ناسخة لما اقتضته الآيات قبلها من الولاية بين المهاجرين والأنصار بل مقيّدة الإطلاق الذي فيها.

{ **الْأَرْحَامِ** } جمع رحم وهو مقر الولد في بطن أمّه. فمن العلماء من أبقاه على ظاهره في اللغة فجعل المراد من أولي الأرحام ذوي القرابة الناشئة عن الأمومة، وهو ما درج عليه جمهور المفسرين، ومنهم من جعل المراد من الأرحام العصابات دون المولودين بالرحم. قاله القرطبي، واستدل له بأنّ لفظ الرحم يراد به العصابة، كقول العرب في الدعاء "وصلتك رحم".

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } قضاؤه وشرعه.

وجعل تلك الأولوية كائنة في كتاب الله كناية عن عدم تغييرها لأنّهم كانوا إذا أرادوا توكيد عهد كتبوه.

فتقييد أولوية أولي الأرحام بأنّها في كتاب الله للدلالة على أنّ ذلك حكم فطري قدّره الله وأثبته بما وضع في النّاس من الميل إلى قراباتهم. فلمّا كانت ولاية الأرحام أمرا مقررا في الفطرة، ولم تكن ولاية الدين معروفة في الجاهلية، بيّن الله أنّ ولاية الدين لا تبطل ولاية الرحم إلّا إذا تعارضتا، لأنّ أواصر العقيدة والرأي أقوى من أواصر الجسد، فلا يغيّره ما ورد هنا من أحكام ولاية النّاس بعضهم بعضا، وبذلك الاعتبار الأصلي لولاية ذوي الأرحام، كانوا مقدمين على أهل الولاية، حيث تكون الولاية، وينتفي التفضيل بانتفاء أصلها، فلا ولاية لأولي الأرحام إذا كانوا غير مسلمين.

واختلف العلماء في أن ولاية الأرحام هنا هل تشمل ولاية الميراث، فقال مالك ابن أنس هذه الآية ليست في المواريث، أي فهي ولاية النصر وحسن الصحبة، أي فتقصر على موردها ولم يرها مساوية للعام الوارد على سبب خاص، إذ ليست صيغتها صيغة عموم لأنّ مناط الحكم قوله {أَوْلَى بِبَعْضٍ }
وقال جماعة تشمل ولاية الميراث، ثم اختلفوا فمنهم من قال: نسخت هذه الولاية بآية المواريث فبطل توريث ذوي الأرحام بقول النبي ﷺ: "ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر"، فيكون تخصيصا للعموم عندهم. وقال جماعة يرث ذوو الأرحام وهم مقدمون على أبناء الأعمام وهذا قول أبي حنيفة وفقهاء الكوفة.
وقد علمت ممّا تقدّم كله أنّ في هذه الآيات غموضا جعلها مرامي لمختلف الأفهام والأقوال. وأيّاما كانت فقد جاء بعدها من القرآن والسنّة ما أغنى عن زيادة البسط.
{ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذييل هو مؤذن بالتعليل لتقرير أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض فيما فيه اعتداد بالولاية، أي إنّما اعتبرت تلك الأولويّة في الولاية لأنّ الله قد علم أنّ لآصرة الرحم حقا في الولاية هو ثابت ما لم يمانعه مانع معتبر في الشرع، لأنّ الله بكل شيء عليم وهذا الحكم مما علم أنّ إثباته رفق ورأفة بالأمة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التوبة

سمّيت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كلام السلف (**سورة براءة**). ففي الصحيح عن أبي هريرة، في قصّة حجّ أبي بكر بالنّاس، قال أبو هريرة: " فأذّن معنا علي بن أبي طالب في أهل منى ببراءة ". وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال: " آخر سورة نزلت سورة براءة ". وبذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه. وهي تسمية لها بأوّل كلمة منها.

وتسمّى (**سورة التوبة**) في كلام بعض السلف في مصاحف كثيرة، فعن ابن عباس: " سورة التوبة هي الفاضحة ". وترجم لها الترمذي في (جامعه) باسم التوبة.

ووجه التسمية، أنّها وردت فيها توبة الله تعالى عن الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك وهو حدث عظيم.

ووقع هذان الاسمان معا في حديث زيد بن ثابت، في صحيح البخاري، في باب جمع القرآن، قال زيد: "فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} ، حتى خاتمة سورة البراءة ". وهذان الاسمان هما الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

ولهذه السورة أسماء أخر، وقعت في كلام السلف، من الصحابة والتابعين، فروي عن ابن عمر، عن ابن عباس: " كنّا ندعوها (**المقشقِشة**) [بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قشقشهُ إذا أبراه من المرض] " . كان هذا لقبا لها ولسورة الكافرون، لأنّهما تخلّصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك، لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص، ومن وصف أحوال المنافقين.

وكان ابن عباس يدعوها (**الفاضحة**) : قال : " ما زال ينزل فيها (ومنهم ، ومنهم) حتّى ظننا أنّه لا يبقى أحد إلّا ذكر فيها ". وعن حذيفة، أنّه سماها (**سورة العذاب**) لأنّها نزلت بعذاب الكفار، أي عذاب القتل والأخذ حين يثقفون. وعن عبيد بن عمير أنّه سماها (**المنقِّرة**) (بكسر القاف مشدّدة) لأنّها نقّرت عمّا في قلوب المشركين [لعله يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتمالي على نقض العهد وهو من نقر الطائر إذا أنفى بمنقاره موضعا من الحصى ونحوه ليبيض فيه]، وعن الحسن البصري أنّه دعاها (**الحافرة**)، كأنّها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق، فأظهرته للمسلمين. وعن قتادة أنها تسمى (**المثيرة**) لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها. وعن ابن عباس أنه سماها **"المبعثِرة"** لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين، أي أخرجتها من مكانها. وفي الإتقان، أنّها تسمى (**المخزية**) و(**المنكِّلة**) و (**المشدّدة**). وعن سفيان أنها تسمى (**المدمدمة**) بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك لأنّها كانت سبب هلاك المشركين. فهذه أربعة عشر اسما.

وهي مدنية بالاتفاق، قال في الإتقان: " واستثنى بعضهم قوله {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} [113]. ففي صحيح البخاري:" أنّ أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ فقال: " يا عمّ قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله"، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب". فكان آخر قول أبي طالب، أنّه على ملة عبد المطلب، فقال النبيّ: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك". وتوفي أبو طالب فنزلت {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [113]

وهذه السورة آخر السور نزولا عند الجميع، نزلت بعد سورة الفتح، في قول جابر بن زيد، فهي السورة الرابعة عشر بعد المائة في عداد نزول سور القرآن. وروي أنّها نزلت في أوّل شوال سنة تسع، وقيل آخر ذي القعدة سنة تسع، بعد خروج أبي بكر الصديق من المدينة للحجّة التي أمّره عليها النبي ﷺ وقيل: قبيل خروجه.

والجمهور على أنها نزلت دفعة واحدة، فتكون مثل سورة الأنعام بين السور الطوال.

وفسّر كثير من المفسرين بعض آيات هذه السورة بما يقتضي أنها نزلت أوزاعا في أوقات متباعدة، كما سيأتي، ولعلّ مراد من قال إنّها نزلت غير متفرقة، أنّه يعني أنّها لم يتخلّلها ابتداء نزول سورة أخرى.

والذي يغلب على الظنّ أنّ ثلاث عشرة آية من أولها إلى قوله تعالى {فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [13] نزلت متتابعة، كما سيأتي في خبر بعث علي بن أبي طالب ليؤذّن بها في الموسم. وهذا ما اتفقت عليه الروايات.

وعدد آيها، في عد أهل المدينة ومكّة والشام والبصرة: مائة وثلاثون آية، وفي عدّ أهل الكوفة مائة وتسع وعشرون آية.

سبب نزولها

اتفقت الروايات على أنّ النبيّ ﷺ لمّا قفل من غزوة تبوك، في رمضان سنة تسع، عقد العزم على أن يحجّ من عامه ولكنّه كره، عن اجتهاد أو بوحي من الله، مخالطة المشركين في الحجّ معه، وسماع تلبيتهم التي تتضمن الإشراك، أي قولهم في التلبية (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك). وطوافهم عراة، وكان بينه وبين المشركين عهد لم يزل عاملا لم ينقض. فأمسك عن الحجّ تلك السنّة، وأمر أبا بكر الصديق على أن يحجّ بالمسلمين، وأمره أن يخبر المشركين بأن لا يحجّ بعد عامه ذلك مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وأكثر الأقوال على أن براءة نزلت قبل خروج أبي بكر من المدينة، فكان ما صدر عن النبي ﷺ صادرا عن وحي، لقوله تعالى في هذه السورة {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ - إلى قوله -

أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [17، 18] وقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [28].

وقد كان رسول الله ﷺ صالح قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة بسبب دم كان لبني بكر عند خزاعة قبل البعثة بمدّة. واقتتلوا فكان ذلك نقضا للصلح.

واستصرخت خزاعة النبيّ ﷺ فوعدهم بالنصر وتجهّز رسول الله ﷺ لفتح مكة ثم حنين ثم الطائف، وحجّ بالمسلمين تلك السنة، سنة ثمان، عتَّاب بن أسِيد، ثم كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع فلمّا انصرف رسول الله ﷺ. من تبوك أمر أبا بكر الصديق على الحجّ وبعث معه بأربعين آية من صدر سورة براءة ليقرأها على النّاس، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب ليقرأ على النّاس ذلك.

وقد يقع خلط في الأخبار بين قضية بعث أبي بكر الصديق ليحج بالمسلمين عوضا عن النبي ﷺ وبين قضية بعث علي بن أبي طالب ليؤذن في الناس بسورة براءة في تلك الحجة اشتبه به الغرضان على من أراد أن يتلبس وعلى من لُبس عليه الأمر فأردنا إيقاظ البصائر لذلك. فهذا سبب نزولها.

أغراض السورة

افتتحت السورة بتحديد مدة العهود التي بين النبيّ ﷺ وبين المشركين وما يتبع ذلك من حالة حرب وأمن، وفي خلال مدّة الحرب مدّة تمكينهم من تلقي دعوة الدين وسماع القرآن.

وأتبع بأحكام الوفاء والنكث وموالاتهم.

ومنع المشركين من دخول المسجد الحرام وحضور مناسك الحج.

وإبطال مناصب الجاهلية التي كانوا يعتزّون بأنّهم أهلها، وإعلان حالة الحرب بين المسلمين وبينهم.

وإعلان الحرب على أهل الكتاب من العرب حتّى يعطوا الجزية، وأنّهم ليسوا بعيدا من أهل الشرك وأنّ الجميع لا تنفعهم قوتهم ولا أموالهم.

وحرمة الأشهر الحرام، وضبط السنة الشرعية وإبطال النسيء الذي كان عند الجاهلية.

وتحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير للقتال في سبيل الله ونصر النبي ﷺ، وأنّ الله ناصر نبيّه وناصر الذين ينصرونه. وتذكيرهم بنصر الله رسوله يوم حنين، وبنصره إذ أنجاه من كيد المشركين بما هيّأ له من الهجرة إلى المدينة.

والإشارة إلى التجهيز بغزوة تبوك، وذم المنافقين المتثاقلين والمعتذرين والمستأذنين في التخلّف بلا عذر.

وصفات أهل النفاق من جبن وبخل وحرص على أخذ الصدقات مع أنّهم ليسوا بمستحقيها.

وذكر أذاهم الرسول ﷺ بالقول، وأيمانهم الكاذبة وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف وكذبهم في عهودهم وسخريتهم بضعفاء المؤمنين.

والأمر بضرب الجزية على أهل الكتاب. ومذمّة ما أدخله الأحبار والرهبان في دينهم من العقائد الباطلة، ومن التكالب على الأموال.

وأمر الله بجهاد الكفار والمنافقين، ونهي المؤمنين عن الاستعانة بهم في جهادهم والاستغفار لهم.

ونهي نبيّه ﷺ عن الصلاة على موتاهم.

وضرب المثل بالأمم الماضية.

وذكر الذين اتخذوا مسجد الضرار عن سوء نيّة، وفضل مسجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة.

وانتقل إلى وصف حالة الأعراب من محسنهم ومسيئهم ومهاجرهم ومتخلفهم. وقوبلت صفات أهل الكفر والنفاق بأضدادها صفات المسلمين، وذكر ما أعدّ لهم من الخير.

وذكر في خلال ذلك فضل أبي بكر. وفضل المهاجرين والأنصار.

والتحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

والجهاد وأنّه فرض على الكفاية. والتذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

والتنويه بغزوة تبوك وجيشها.

والذين تاب الله عليهم من المتخلفين عنها.

والامتنان على المسلمين بأن أرسل فيهم رسولا منهم جبله على صفات فيها كل خير لهم.

وشرع الزكاة ومصارفها والأمر بالفقه في الدين ونشر دعوة الدين.

ترك البسملة قبل سورة براءة

ترك الصحابة، الذين كتبوا المصحف، كتابة البسملة قبل سورة براءة، كما نبّهت عليه عند الكلام على سورة الفاتحة. فجعلوا سورة براءة عقب سورة الأنفال بدون بسملة بينهما، وتردّد العلماء في توجيه ذلك. وأوضح الأقوال ما رواه الترمذي والنسائي، عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: " ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمان الرحيم. فقال عثمان: إنّ رسول الله كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذه في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيها بقصتها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنّها منها فظننت أنّها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم".

ونشأ من هذا قول آخر، وهو أن كتبة المصاحف في زمن عثمان اختلفوا في (الأنفال) و(براءة)، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان، فتركوا فرجة فصلا بينهما مراعاة لقول من عدّهما سورتين، ولم يكتبوا البسملة بينهما مراعاة لقول من جعلهما سورة واحدة.

وروى أبو الشيخ، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب: أنّهم إنما تركوا البسملة في أوّلها، لأنّ البسملة أمان وبشارة، وسورة براءة نزلت بنبذ العهود والسيف، فلذلك لم تبدأ بشعار الأمان، وهذا إنما يجري على قول من يجعلون البسملة آية من أول كل سورة عدا سورة براءة، ففي هذا رعي لبلاغة مقام الخطاب كما أن الخاطب المغضب يبدأ خطبته بـ (أما بعد) دون استفتاح.

وشأن العرب إذا كان بينهم عهد فأرادوا نقضه، كتبوا إلى القوم الذين ينبذون إليهم بالعهد كتابا ولم يفتتحوه بكلمة (باسمك اللهم)، فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين بعث عليّا إلى الموسم فقرأ صدر براءة ولم يبسمل جريا على عادتهم في رسائل نقض العهود.

والذي وقفنا عليه من كلام مالك في ترك البسملة من سورة الأنفال وسورة براءة: هو ما في سماع ابن القاسم في أوائل كتاب الجامع الأول من (العتبيّة): " قال مالك في أول براءة إنّما ترك من مضى أن يكتبوا في أول براءة بسم الله الرحمان الرحيم".

{ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [1]

افتتحت السورة كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدلّ كلمة على الغرض الذي يراد منها كما في قولهم: هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطلح عليه فلان وفلان، وقول الموثّقين: باع أو وكلّ أو تزوّج، وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواثيق ونحوها.

{ بَرَاءَةٌ } تنكير التنويع، مبتدأ، وسوغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التنويع للإشارة إلى أن هذا النوع كاف في فهم المقصود.

{ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } في موضع الخبر، لأنّه المقصود من الفائدة. والمعنى أنّ هذه براءة أصدرها الله بواسطة رسوله إبلاغا إلى الذين عاهدتم من المشركين.

البراءة، الخروج والتفصّي ممّا يُتعب، ورفع التبِعة. ولمّا كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه ويعدّ الإخلاف بشيء منه غدرا على المخلف، كان الإعلان بفسخ العهد براءة من التبعات التي تنشأ عن إخلاف العهد. فلذلك كان لفظ **{ بَرَاءَةٌ }** هنا مفيدا معنى فسخ العهد ونبذه ليأخذ المعاهدون حذرهم.

وقد كان العرب ينبذون العهد ويردّون الجوار إذا شاءوا تنهية الالتزام بهما، كما فعل ابن الدُّغُنَّه في ردّ جوار أبي بكر عن قريش، وما فعل عثمان بن مظعون في ردّ جوار الوليد بن المغيرة إيّاه قائلا: " رضيت بجوار

ربي ولا أريد أن أستجير غيره". وقال تعالى { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [لأنفال:58] أي ولا تخنهم لظنك أنّهم يخونونك فإذا ظننته فافسخ عهدك معهم.

ولماّ كان الجانب، الذي ابتدأ بإبطال العهد وتنهيته، هو جانب النبيّ ﷺ بإذن من الله، جعلت هذه البراءة صادرة من الله لأنّه الآذن بها، ومن رسوله لأنه المباشر لها، لأن المقصود إبلاغ ذلك الفسخ إليهم وإيصاله ليكونوا على بصيرة فلا يكون ذلك الفسخ غدرا.

{ **عَاهَدْتُمْ** } الخطاب للمؤمنين. فهذه البراءة مأمورون بإنفاذها.

واعلم أنّ العهد بين النبي ﷺ وبين المشركين كان قد انعقد على صور مختلفة، فكان بينه وبين أهل مكّة ومن ظاهرهم عهد الحديبية، أن لا يُصدّ أحد عن البيت إذا جاء، وأن لا يخاف أحد في الشهر الحرام، وقد كان معظم قبائل العرب داخلا في عقد قريش الواقع في الحديبية، لأنّ قريشا كانوا يومئذ زعماء جميع العرب، ولذلك كان من شروط الصلح يومئذ، أنّ من أحبّ أن يدخل في عهد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، وكان من شروط الصلح وضع الحرب عن النّاس سنين، يأمن فيها النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، فالذين عاهدوا المسلمين من المشركين معروفون عند النّاس يوم نزول الآية.

وكان بين المسلمين وبعض قبائل المشركين عهود، كما أشارت إليها سورة النساء [90] في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} الآية. وكما أشارت إليها هذه السورة[4] في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً}.

وبعض هذه العهود كان لغير أجل معيّن، وبعضها كان لأجل قد انقضى، وبعضها لم ينقض اجله. فقد كان صلح الحديبية مؤجلا إلى عشر سنين في بعض الأقوال، وقيل: إلى أربع سنين، وقيل: إلى سنتين. وقد كان عهد الحديبية في ذي القعدة سنة ست، فيكون قد انقضت مدته على بعض الأقوال، ولم ينقض على بعضها، حين نزول هذه الآية. وكان بعض تلك العهود مؤجّلا إلى أجل لم يتم، ولكن المشركين خفروا بالعهد في ممالاة بعض المشركين غير العاهدين، وفي إلحاق الأذى بالمسلمين. فقد ذكر أنّه لما وقعت غزوة تبوك أرجف المنافقون أنّ المسلمين غلبوا فنقض كثير من المشركين العهد، وممن نقض العهد بعض خزاعة، وبنو مُدلِج، وبنو خزيمة أو جَذِيمة، كما دلّ عليه قوله تعالى {ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً}[4]، فأعلن الله لهؤلاء هذه البراءة ليأخذوا حذرهم، وفي ذلك تضييق عليهم إن داموا على الشرك، لأنّ الأرض صارت لأهل الإسلام كما دلّ عليه قوله تعالى بعد { فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} [التوبة:3]

وإنما جعلت البراءة شأنا من شؤون الله ورسوله، وأسند العهد إلى ضمير المسلمين، للإشارة إلى أنّ العهود التي عقدها النبي ﷺ لازمة للمسلمين وهي بمنزلة ما عقدوه بأنفسهم، لأنّ عهود النبي عليه الصلاة والسلام

إنما كانت لمصلحة المسلمين، في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمان كانت بقيّة قوة للمشركين، وإلّا فإنّ أهل الشرك ما كانوا يستحقون من الله ورسوله توسعة ولا عهدا، لأنّ مصلحة الدين تكون أقوم إذا شدّد المسلمون على أعدائه. فالآن لمّا كانت مصلحة الدين متحّمضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن الله ورسوله ﷺ بالبراءة من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه.

{ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}[2]

{ **فَسِيحُوا** } الفاء للتفريع على معنى البراءة، لأنّها لما أمر الله بالأذان بها كانت إعلاما للمشركين، الذين هم المقصود من نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنّهم الموجّه إليهم الكلام وذلك التفات.

السياحة، حقيقتها السير في الأرض، ولمّا كان الأمر بهذا السير مفرّعا على البراءة من العهد، ومقرّرا لحرمة الأشهر الحرام، علم أنّ المراد، السير بأمن دون خوف في أي مكان من الأرض، فكان المعنى، فسيحوا آمنين حيثما شئتم من الأرض.

{ **أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** } وهذا تأجيل خاص بعد البراءة، كان ابتداؤه من شوال وقت نزول براءة، ونهايته نهاية محرم في آخر الأشهر الحرم المتوالية، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وهذا قول الجمهور، قال ابن إسحاق: " وأجلّ النّاس أربعة اشهر من يوم أذّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وقال بعضهم: هي أربعة أشهر تبتدئ من عاشر ذي الحجة وتنتهي في عاشر ربيع الآخر، فيكون قوله: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ} [التوبة: 5] (أي من ذلك العام) تنهية لذلك الأجل روعي فيها المدة الكافية لرجوع النّاس إلى بلادهم، وذلك نهاية المحرم.

وقيل، الأشهر الأربعة هي المعروفة عندهم في جميع قبائل العرب وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، أي فلم يبق للمشركين أمن إلّا في الأشهر الحرم، وعلى هذا فليس في الآية تأجيل خاص لتأمينهم ولكنه التأمين المقرّر للأشهر الحرم، فيكون المعنى، البراءة من العهد الذي بينهم فيما زاد على الأمن المقرر للأشهر الحرم.

وحكى السهيلي في (الروض الآنف): أنّه قيل أنّه أراد بانسلاخ الأشهر الحرم ذا الحجة والمحرم من ذلك العام وأنه جعل ذلك أجلا لمن لا عهد له من المشركين ومن كان له عهد جعل له أربعة أشهر أوّلها يوم النحر من ذلك العام.

وفي هذا الأمر إيذان بفرض القتال في غير الأشهر الحرم، وبأن ما دون تلك الأشهر حرب بين المسلمين والمشركين، وسيقع التصريح بذلك.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ }

لّما أنبأهم بالأمان في أربعة الأشهر عقّبه بالتخويف من بأس الله احتراسا من تطرّق الغرور، وتهديدا بأن لا يطمئنّوا من أن يسلّط الله المسلمين عليهم في غير الأشهر الحرم، وإن قبعوا في ديارهم.

{ وَاعْلَمُوا } للتنبيه على أنّه مما يحقّ وعيه والتدبر فيه، وقد تقدّم التنبيه عليه في قوله { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال:24].

المعجز، اسم فاعل من أعجز فلانا إذا جعله عاجزا عن عمل ما، فلذلك كان بمعنى الغالب والفائت، الخارج عن قدرة أحد. فالمعنى، أنكم غير خارجين عن قدرة الله.

{ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ } ذكر {الْكَافِرِينَ} إخراجا على خلاف مقتضى الظاهر، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: وإن الله مخزيكم، ووجه تخريجه على الإظهار، الدلالة على سببيّة الكفر في الخزي.

الإخزاء، الإذلال. والخِزي (بكسر الخاء) الذل والهوان، أي مقدر للكافرين الإذلال، بالقتل والأسر وعذاب الآخرة، ما داموا متلبسين بوصف الكفر.

{ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[3]

{ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ }

عطف على {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [1] وموقع لفظ {وَأَذَانٌ} كموقع لفظ {بَرَاءَةٌ} في التقدير. وهذا إعلام للمشركين الذين لهم عهد بأنّ عهدهم انتقض.

الأذان، اسم مصدر آذنه، إذا أعلمه بإعلان، فهو بمعنى الإيذان.

وإضافة الأذان إلى الله ورسوله دون المسلمين، لأنّه تشريع وحكم في مصالح الأمّة، فلا يكون إلّا من الله على لسان رسوله ﷺ. وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة، لئلا يكونوا غادرين. والمراد بالنّاس جميع الناس من مؤمنين ومشركين، لأنّ العلم بهذا النداء يهمّ النّاس كلّهم.

يوم الحجّ الأكبر، قيل هو يوم عرفة، لأنّه يوم مجتمع النّاس في صعيد واحد وهذا يروى عن عمر، وعثمان، وابن عباس، وطاووس، ومجاهد، وابن سيرين. وهو قول أبي حنيفة، والشافعي.

وقيل: هو **يوم النحر**، لأنّ النّاس كانوا في يوم موقف عرفة مفترقين إذ كانت الحُمْس يقفون بالمزدلفة، ويقف بقيّة النّاس بعرفة، وكانوا جميعا يحضرون منى يوم النحر، فكان ذلك الاجتماع الأكبر، ونسب ابن عطية هذا التعليل إلى منذر بن سعيد. وهذا قول علي، وابن عمر، وابن مسعود، والمغيرة ابن شعبة، وابن عباس أيضا، وابن أبي أوفى، والزهري، ورواه ابن وهب عن مالك، قال مالك: " لا نشك أنّ يوم الحجّ الأكبر يوم النحر، لأنّه اليوم الذي ترمى فيه الجمرة، وينحر فيه الهدي، وينقضي فيه الحجّ، من أدرك ليلة النحر فوقف بعرفة

قبل الفجر أدرك الحجّ ".
وأقول: إن يوم عرفة يوم شغل بعبادة من وقوف بالموقف ومن سماع الخطبة. فأمّا يوم منى فيوم عيدهم.
{ **الْأَكْبَرِ** }ِ بالجرّ نعت للحجّ، باعتبار تجزئته إلى أعمال، فوُصف الأعظم من تلك الأعمال بالأكبر. ويظهر من اختلافهم في المراد من الحجّ الأكبر أنّ هذا اللفظ لم يكن معروفا قبل نزول هذه الآية فمن ثمّ اختلف السلف في المراد منه.
{ **أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** } وجاء التصريح بفعل البراءة مرة ثانية دون إضمار ولا اختصار لأنّ المقام مقام بيان وإطناب لأجل اختلاف أفهام السامعين فيما يسمعونه، ففيهم الذكيّ وغيره، ففي الإطناب والإيضاح قطع لمعاذيرهم واستقصاء في الإبلاغ لهم.
{ **وَرَسُولُهُ** } بالرفع، عند القراء كلهم، لأنّه من عطف الجملة، لأن السامع يعلم من الرفع أن تقديره: ورسوله بريء من المشركين، ففي هذا الرفع معنى بليغ من الإيضاح للمعنى مع الإيجاز في اللفظ.
وفي بعض كتب النحو أن هذه الآية، كانت السبب في وضع علم النحو، فقد روي: أنّ أعرابيا سمع رجلا قرأ {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُوله} - بجر ورسولِهِ - فقال الأعرابي: إن كان الله بريئا من رسوله فأنا منه بريء، وإنّما أراد التورّك على القارئ، فلبّبه الرجل إلى عمر فحكى الأعرابي قراءته فعندها أمر عمر بتعلّم العربية . وروي أيضا، أنّ أبا الأسود الدؤلي سمع ذلك فرفع الأمر إلى علي. فكان ذلك سبب وضع النحو.
وهذا الأذان قد وقع في الحجّة التي حجّها أبو بكر بالنّاس، إذ ألحق رسول الله عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب بأبي بكر، موافيا الموسم ليؤذِّن ببراءة. فأذّن بها عليّ يوم النحر بمنى، من أوّلها إلى ثلاثين أو أربعين آية منها. كذا ثبت في الصحيح والسنن بطرق مختلفة يزيد بعضها على بعض.
وإنّما ألحق النبيّ عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب بأبي بكر الصديق لأنّه قيل لرسول الله إنّ العرب لا يرون أن ينقض أحد عهده مع من عاهده إلّا بنفسه أو برسول من ذي قرابة نسبه، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يترك للمشركين عذرا في علمهم بنبذ العهد الذي بينه وبينهم.
وروي: أن عليا بعث أبا هريرة يطوف في منازل قبائل العرب من منى، يصيح بآيات براءة حتى صحل صوته. وكان المشركون إذا سمعوا ذلك يقولون لعليّ " سترون بعد الأربعة الأشهر فإنّه لا عهد بيننا وبين ابن عمك إلاّ الطعن والضرب".
{ **فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** }.
والخطاب للمشركين الذين أوذنوا بالبراءة. والمعنى، فإن آمنتم فالإيمان خير لكم من العهد الذي كنتم عليه، لأن الإيمان فيه النجاة في الدنيا والآخرة، والعهد فيه نجاة الدنيا لا غير.

{ **وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ** } المراد بالتولّي، الإعراض عن الإيمان. وأريد به معنى الاستمرار، أي إن دمتم على الشرك فاعلموا أنّكم غير مفلتين من قدرة الله، أي اعلموا أنّكم قد وقعتم في مكنة الله، وأوشكتم على العذاب.

{ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } البشارة أصلها الإخبار بما فيه مسرّة، وقد استعيرت هنا للإنذار، وهو الإخبار بما يسوء، على طريقة التهكّم، كما تقدّم في قوله تعالى {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران:21]

العذاب الأليم، هو عذاب القتل، والأسر، والسبي، وفيء الأموال. أي أنذر المشركين بأنّك مقاتلهم وغالبهم بعد انقضاء الأشهر الحرم.

{ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }[4]

استثناء من المشركين في قوله { أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ} [3]، ومن {الَّذِينَ كَفَرُوا} في قوله {وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [3]، لأنّ شأن الاستثناء إذا ورد عقب جمل أن يرجع إلى ما تحتويه جميعها ممّا يصلح لذلك الاستثناء، فهو استثناء لهؤلاء من حكم نقض العهد، ومن حكم الإنذار بالقتال، المترتّب على النقض.

فهذا الفريق من المشركين باقون على حرمة عهدهم وعلى السلم معهم.

{ **ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا** } لأن عدم الإخلال بأقل شيء نادر الحصول.

النقص، إزالة البعض. والمراد: أنّهم لم يفرّطوا في شيء مما عاهدوا عليه.

وهؤلاء هم الذين احتفظوا بعهدهم مع المسلمين، ووفّوا به على أتمّ وجه، فلم يكيدوا المسلمين بكيد، ولا ظاهروا عليهم عدّواً سراً، فهؤلاء أمر المسلمون أن لا ينقضوا عهدهم إلى المدّة التي عوهدوا عليها. ومن هؤلاء: بنو ضَمره، وحيَّان من بني كنانة؛ هم بنو جذيمة، وبنو الدِّيل. ولا شك أنّهم ممن دخلوا في عهد الحديبية.

وقد علم من هذا، أن الذين أمر الله بالبراءة من عهدهم هم ضد أولئك، وهم قوم نقصوا مما عاهدوا عليه، أي كادوا، وغدروا سرا، أو ظاهروا العدو بالمدد والجوسسة. ومن هؤلاء: قريظة أمدوا المشركين غير مرّة، وبنو بَكر، عَدَوْا على خزاعة أحلاف المسلمين كما تقدّم. فعبّر عن فعلهم ذلك بالنقص لأنّهم لم ينقضوا العهد علنا، ولا أبطلوه، ولكنّهم أخلوا به.

{ **شَيْئًا** } للمبالغة في نفي الانتقاص، لأنّ كلمة (شيء) نكرة عامة، فإذا وقعت في سياق النفي أفادت انتفاء كلّ ما يصدق عليه أنّه موجود، كما تقدّم في قوله {وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ} [البقرة:113]

المظاهرة، المعاونة، الأرجح أن يكون فعلها مشتقّا من الاسم الجامد وهو الظهر، أي صلب الإنسان أو البعير، لأنّ الظهر به قوّة الإنسان في المشي والتغلّب، يقال: بعير ظهير، أي قوي على الرحلة. فمن ثمّ

جاءت صيغة المفاعلة، ومثله المعاضدة مشتقة من العضد، والمساعدة من الساعد، والتأييد من اليد، والمكاتفة مشتقة من الكتف، وكلّها أعضاء العمل.

المدّة، الأجل، مشتقّة من المدّ، لأنّ الأجل مدّ في زمن العمل، أي تطويل، وإضافة المدّة إلى ضمير المعاهدين لأنّها منعقدة معهم، فإضافتها إليهم كإضافتها إلى المسلمين ولكن رجح هنا جانبهم لأنّ انتفاعهم بالأجل أصبح أكثر من انتفاع المسلمين به، إذ صار المسلمون أقوى منهم، وأقدر على حربهم.

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأنّ ذلك من التقوى.

ثم إنّ قبائل العرب كلّها رغبت في الإسلام فأسلموا في تلك المدة فانتهت حرمة الأشهر الحرم في حكم الإسلام.

{ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [5]

تفريع على قوله {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [2] فإن كان المراد في الآية المعطوف عليها بالأربعة الأشهر أربعة تبتدئ من وقت نزول براءة كان قوله {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} ، تفريعا مرادا منه زيادة قيد على قيد الظرف من قوله {أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [2] أي: فإذا انتهى أجل الأربعة الأشهر وانسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين، لانتهاء الإذن.

وإن كانت الأربعة الأشهر مرادا بها الأشهر الحرم، كان قوله {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} تصريحا بمفهوم الإذن بالأمن أربعة أشهر. فيكون تأجيلا لهم إلى انقضاء شهر المحرم من سنة عشر، ثم تحذيرا من خرق حرمة شهر رجب، وكذلك يستمر الحال في كل عام إلى نسخ تأمين الأشهر الحرم كما سيأتي عند قوله تعالى {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [36]

انسلاخ الأشهر، انقضاؤها وتمامها وهو مطاوع سلخ. وهو في الأصل استعارة من سلخ جلد الحيوان، أي أزالته. ثم شاع هذا الإطلاق حتّى صار حقيقة.

الحُرُم، جمع حرام وهو سماعي لأنّ فُعُلا (بضم الفاء والعين)، وحرام صفة. وقد تقدّم عند قوله تعالى {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ} [البقرة:198]. وهي: (**ذو القعدة** و**ذو الحجة** و**محرم** و**رجب**).

وانسلاخها انقضاء المدّة المتتابعة منها، وقد بقيت حرمتها ما بقي من المشركين قبيلة، لمصلحة الفريقين، فلمّا آمن جميع العرب بطل حكم حرمة الأشهر الحرم، لأنّ حرمة المحارم الإسلامية أغنت عنها.

{ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ }

للإذن والإباحة باعتبار كل واحد من المأمورات على حدة، أي فقد أذن لكم في قتلها، وفي أخذهم، وفي حصارهم، وفي منعهم من المرور بالأرض التي تحت حكم الإسلام، وقد يعرض الوجوب إذا ظهرت مصلحة عظيمة. والمقصود هنا أنّ حرمة العهد قد زالت.

وفي هذه الآية شرع الجهاد والإذن فيه، والإشارة إلى أنّهم لا يُقبل منهم غير الإسلام. وهذه الآية نسخت آيات الموادعة والمعاهدة. وقد عمّت الآية جميع المشركين وعمّت البقاع إلّا ما خصّصته الأدلة من الكتاب والسنة.

الأخذ، الأسر.

الحصر، المنع من دخول أرض الإسلام إلّا بإذن من المسلمين.

القعود، مجاز في الثبات في المكان، والملازمة له، لأنّ القعود ثبوت شديد وطويل، فمعنى القعود في الآية المرابطة في مظان تطرّق العدو إلى بلاد الإسلام.

المرصد، مكان الرصد، والرصد، المراقبة وتتبّع النظر.

{ **كُلَّ** } مستعملة في تعميم المراصد المظنون مرورهم بها، تحذيرا للمسلمين من إضاعتهم الحراسة في المراصد فيأتيهم العدو منها، أو من التفريط في بعض ممار العدو فينطلق الأعداء آمنين فيستخفّوا بالمسلمين ويتسامع جماعات المشركين أنّ المسلمين ليسوا بذوي بأس ولا يقظة.

{ **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تفريع على الأفعال المتقدمة.

التوبة هنا،عن الشرك وهي الإيمان، أي فإن آمنوا إيمانا صادقا، بأن أقاموا الصلاة الدالة إقامتها على أنّ صاحبها لم يكن كاذبا في إيمانه، وبأن آتوا الزكاة الدال إيتاؤها على أنّهم مؤمنون حقا.

{ **خَلُّوا سَبِيلَهُمْ** } اتركوا طريقهم، إذ لا بأس عليكم منهم، فإنّهم صاروا إخوانكم.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل أريد به حثّ المسلمين على عدم التعرّض بالسوء للذين يسلمون من المشركين، وعدم مؤاخذتهم لمّا فرط منهم، فالمعنى اغفروا لهم، لأنّ الله غفر لهم وهو غفور رحيم.

{ وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ }[6]

عطف على {فَإِنْ تَابُوا} [5] لتفصيل مفهوم الشرط، أو عطف على {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [5] لتخصيص عمومه، أي إلّا مشركا استجارك للسفارة عن قومه أو لمعرفة شرائع الإسلام. وصيغ الكلام بطريقة الشرط لتأكيد حكم الجواب، وللإشارة إلى أن تقع الرغبة في الجوار من جانب المشركين.

{ **إِنْ** } شأنها أن يكون شرطها نادر الوقوع، جيء بها للتنبيه على أن هذا شرط فرضي لكيلا يزعم

المشركون أنّهم لم يتمكّنوا من لقاء النبي ﷺ فيتخذوه عذراً للاستمرار على الشرك إذا غزاهم المسلمون.

{ **أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ** } وجيء بلفظ أحد من المشركين دون لفظ مشرك للتنصيص على عموم الجنس. ولعل المقصود من التنصيص على إفادة العموم، ومن تقديم {أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ} على الفعل، تأكيد بذل الأمان لمن يسأله من المشركين إذا كان للقائه النبي ﷺ ودخوله بلاد الإسلام مصلحة، ولو كان أحد من القبائل التي خانت العهد، لئلا تحمل خيانتهم المسلمين على أن يخونوهم أو يغدروا بهم، فذلك كقوله تعالى {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا} [المائدة:2]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ولا تخن من خانك ".

الاستجارة، طلب الجوار، وهو الكون بالقرب، وقد استعمل مجازا شائعا في الأمن، لأنّ المرء لا يستقر بمكان إلا إذا كان آمنا، فمن ثم سموا المؤمن جارا، والحليف جارا، وصار فعل أجار بمعنى أمن، ولا يطلق بمعنى جعل شخصا جارا له. والمعنى، إن أحد من المشركين استأمنك فأمّنه.

ولم يبين سبب الاستجارة، لأن ذلك مختلف الغرض وهو موكول إلى مقاصد العقلاء، فإنّه لا يستجير أحد إلّا لغرض صحيح.

ولما كانت إقامة المشرك المستجير عند النبي عليه الصلاة والسلام لا تخلو من عرض الإسلام عليه وإسماعه القرآن، سواء كانت استجارته لذلك أم لغرض آخر، لما هو معروف من شأن النبي صلى الله عليه وسلم من الحرص على هدي الناس، جعل سماع هذا المستجير القرآن غاية لإقامته الوقتيّة عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

كلام الله، القرآن، أضيف إلى اسم الجلالة لأنّه كلام أوجده الله ليدلّ على مراده من النّاس وأبلغه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بواسطة الملك، فلم يكن من تأليف مخلوق ولكن الله أوجده بقدرته بدون صنع أحد، بخلاف الحديث القدسي.

{ **ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** } للدلالة على وجوب استمرار إجازته في أرض الإسلام إلى أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه، ولو بلغه بعد مدّة طويلة، فحرف (ثمّ) هنا للتراخي الرتبي، اهتماما بإبلاغه مأمنه.

وهذا يتضمّن أمر المسلمين بأن لا يتعرّضوا له بسوء حتّى يبلغ بلاده التي يأمن فيها. وليس المراد أنّ النبي ﷺ يتكلّف ترحيله ويبعث من يبلّغه. فالمعنى: اتركه يبلغ مأمنه.

المأمن، مكان الأمن، وهو المكان الذي يجد فيه المستجير أمنه السابق، وذلك هو دار قومه حيث لا يستطيع أحد أن يناله بسوء. وقد أضيف المأمن إلى ضمير المشرك للإشارة إلى أنّه مكان الأمن الخاص به، فيعلم أنّه مقرّه الأصلي، بخلاف دار الجوار فإنها مأمن عارض لا يضاف إلى المجار.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ** } في موضع التعليل لتأكيد الأمر بالوفاء لهم بالإجارة إلى أن يصلوا ديارهم،

فلذلك فصلت عن الجملة التي قبلها. أي أمرنا بذلك بسبب أنّهم قوم لا يعلمون. أي لا تؤاخذهم في مدّة استجارتهم بما سبق من أذاهم، لأنّهم قوم لا يعلمون. والعلم، في كلام العرب، بمعنى العقل وأصالة الرأي.

{ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [7]

المقام، مقام بيان سبب هذه البراءة، وأنّه أمران: بعد ما بين العقائد، وسبق الغدر.

{ **كَيْفَ** } الاستفهام إنكاري، إنكارا لحالة دوام العهد في المستقبل مع الذين عاهدوهم يوم الحديبية وما بعده. وليس ذلك إنكارا على وقوع العهد، فإنّ العهد قد انعقد بإذن من الله، وسمّاه الله فتحا في قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح:1] وسمّي رضى المؤمنين به يومئذ سكينة في قوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح:4]. وهذا يؤيد ما فسرنا به وجه إضافة البراءة إلى الله ورسوله، وإسناد العهد إلى ضمير المسلمين، في قوله تعالى: {بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ} [1]

وقد كانت قريش نكثوا عهدهم الذي عاهدوه يوم الحديبية، إذ أعانوا بني بكر بالسلاح والرجال على خزاعة، وكانت خزاعة داخلة في عهد النبي ﷺ، وكان ذلك سبب التجهيز لغزوة فتح مكّة.

{ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ** } استثناء، أي لا يكون عهد للمشركين إلّا المشركين الذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

والذين عاهدوهم عند المسجد الحرام هم: (**بنو ضمرة، وبنو جذيمة بن الدِّيل** و**بنو بكر** من كنانة).

والمقصود من تخصيصهم بالذكر، التنويه بخصلة وفائهم بما عاهدوا عليه. ويتعيّن أن يكون هؤلاء عاهدوا النبي ﷺ في عمرة القضاء عند المسجد الحرام، ودخلوا في الصلح الذي عقده مع قريش بخصوصهم، زيادة على دخولهم في الصلح الأعمّ، ولم ينقضوا عهدهم، ولا ظاهروا عدوا على المسلمين، إلى وقت نزول براءة. على أن معاهدتهم عند المسجد الحرام أبعد عن مظنة النكث، لأنّ المعاهدة عنده أوقع في نفوس المشركين من الحلف المجرد.

{ **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ** } تفريع على الاستثناء. فالتقدير إلّا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم ما استقاموا لكم، أي ما داموا مستقيمين لكم.

الاستقامة، حقيقتها عدم الاعوجاج، والسين والتاء للمبالغة، وهي هنا مستعارة لحسن المعاملة وترك القتال، لأنّ سوء المعاملة يطلق عليه الالتواء والاعوجاج، فكذلك يطلق على ضدّه الاستقامة.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** } تعليل للأمر بالاستقامة. أنّ الاستقامة لهم من التقوى، وإلّا لم تكن مناسبة للإخبار بأنّ الله يحب المتقين. وهذا من الإيجاز. ولأنّ في الاستقامة لهم حفظا للعهد الذي هو من قبيل اليمين.

{ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [8]

{ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً } إخبارا عن دخائلهم.

{ كَيْفَ } وفي إعادة الاستفهام إشعار بأن جملة الحال لها مزيد تعلّق بتوجّه الإنكار على دوام العهد للمشركين، حتى كأنها مستقلة بالإنكار. لا مجرد قيد للأمر الذي توجه إليه الإنكار ابتداء، {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ} [7]. فيؤول المعنى الحاصل من هذا النظم إلى إنكار دوام العهد مع المشركين في ذاته، ابتداء، لأنهم ليسوا أهلا لذلك، وإلى إنكار دوامه بالخصوص في هذه الحالة، وهي حالة ما يبطنونه من نيّة الغدر إن ظهروا على المسلمين، مما قامت عليه القرائن والأمارات، كما فعلت هوازن عقب فتح مكّة.

{ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ } إن ينتصروا. وتقدّم بيان هذا الفعل عند قوله تعالى {وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا} [4]. والمعنى، لو انتصر المشركون، بعد ضعفهم، وبعد أن جرّبوا من العهد أنّه كان سببا في قوّتكم، لنقضوا العهد. وضمير {عَلَيْكُمْ} خطاب للمؤمنين.

{ لاَ يَرْقُبُوا } لا يوفوا ولا يراعوا، يقال: رَقَب الشيء، إذا نظر إليه نظر تعهّد ومراعاة، ومنه سمّي الرقيب، وسمّي المرْقب مكان الحراسة، وقد أطلق هنا على المراعاة والوفاء بالعهد، لأنّ من أبطل العمل بشيء فكأنّه لم يره وصرف نظره عنه.

الإلّ، الحلف والعهد؛ ويطلق الإلّ على النسب والقرابة. وقد كانت بين المشركين وبين المسلمين أنساب وقرابات، فيصح أن يراد هنا كلا معنييه.

الذِمّة، ما يمتّ به من الأواصر من صحبة وخلّة وجوار ممّا يجب في المروءة أن يحفظ ويحمى.

يقال: في ذمتي كذا، أي ألتزم به وأحفظه.

{ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } استئناف ابتدائي، أي هم يقولون لكم ما يرضيكم، كيدا، ولو تمكنوا منكم لم يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمّة.

الإباية، الامتناع من شيء مطلوب، وإسناد الإباية إلى القلوب استعارة، فقلوبهم لمّا نوت الغدر شبّهت بمن يطلب منه شيء فيأبى.

{ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } في موضع الحال، مقصود منها الذم بأنّ أكثرهم موصوف، مع ذلك، بالخروج عن مهيع المروءة والرُّجلة، إذ نجد أكثرهم خالعين زمام الحياء، فجمعوا المذمّة الدينية والمذمة العرفية. فالفسق هنا الخروج عن الكمال العرفي بين النّاس، وليس المراد الخروج عن مهيع الدين، لأنّ ذلك وصف لجميعهم لا لأكثرهم، ولأنه قد عرف من وصفهم بالكفر.

{ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[9]

هذه الآية وصف القرآن فيها المشركين بمثل ما وصف به أهل الكتاب في سورة البقرة من الاشتراء بآيات الله ثمنا قليلا، ثم لم يوصفوا بمثل هذا في آية أخرى نزلت بعدها، لأنّ نزولها كان في آخر عهد المشركين بالشرك إذ لم تطل مدّة حتّى دخلوا في دين الله أفواجا، سنة الوفود وما بعدها.

وفيها دلالة على هؤلاء الذين بقوا على الشرك من العرب، بعد فتح مكة وظهور الإسلام على معظم بلاد العرب. ليس لهم افتراء في صحة الإسلام ونهوض حجّته. فلكون آيات صدق القرآن أصبحت ثابتة عندهم جعلت مثل مال بأيديهم، وفرّطوا فيه لأجل اقتناء منافع قليلة، فلذلك مثّل حالهم بحال من اشترى شيئا بشيء، وقد مضى الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة [16]

{ **بِآيَاتِ اللَّهِ** } الدلائل، وهي دلائل الدعوة إلى الإسلام، وأعظمها القرآن لما اشتمل عليه من البراهين والحجاج والإعجاز. والباء، باء التعويض، وشأنها أن تدخل على ما هو عوض يبذله مالكه لأخذ معوض يملكه غيره.

{ **فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ** } مفرّعة على {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ} لأنّ إيثارهم البقاء على كفرهم يتسبّب عليه أن يصدّوا النّاس عن اتباع الإسلام، فمثّل حالهم بحال من يصدّ النّاس عن السير في طريق تبلّغ إلى المقصود. ومفعول {صَدُّوا} محذوف لقصد العموم، أي صدّوا كل قاصد.

{ **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } . ابتدائية، فصلت عن التي قبلها ليظهر استقلالها بالإخبار، وأنّها لا ينبغي أن تعطف في الكلام، إذ العطف يجعل الجملة المعطوفة بمنزلة التكملة للمعطوفة عليها. وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الذم لهم.

{ **سَاءَ** } من أفعال الذم، من باب بئس.

{ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ } [10]

يجوز أن تكون هذه الجملة بدل اشتمال من جملة {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[9]. ويجوز أن تكون استئنافا ابتدئ به للاهتمام بمضمون الجملة. وقد أفادت معنى أعم وأوسع مما أفاده قوله {وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} [8]، لأنّ إطلاق الحكم عن التقييد بشرط {إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ} يفيد أنّ عدم مراعاتهم حقّ الحلف والعهد خلق متأصّل فيهم، سواء كانوا أقوياء أم مستضعفين. والإلّ والذمة تقدما قريبا.

{ **وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ** } القصر إمّا أن يكون للمبالغة في اعتدائهم، لأنّه اعتداء عظيم باطني على قوم حالفوهم وعاهدوهم، ولم يلحقوا بهم ضرّ مع تمكّنهم منه، وإمّا أن يكون قصر قلب، أي هم المعتدون لا أنتم، لأنّهم بدأوكم بنقض العهد في قضية خزاعة وبني الدِّيل من بكر بن وائل مما كان سببا في غزوة الفتح.

{ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }[11]

تفريع حكم على حكم لتعقيب الشدّة باللين، تنبيها لهم على أنّ تداركهم أمرهم هيّن عليهم. ولمّا كان المقام هنا لذكر عداوتهم مع المؤمنين جعلت توبتهم سببا للأخوة مع المؤمنين، بخلاف مقام قوله قبله {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [5] حيث إن المعقَّب بالتوبة هنالك هو الأمر بقتالهم والترصد لهم، فناسب أن يفرّع على توبتهم عدم التعرض لهم بسوء. وقد حصل من المجموع أنّ توبتهم توجب أمنهم وأخوتهم.
الإخوان، جمع أخ في الحقيقة والمجاز، وأطلقت الأخوّة هنا على المودّة والصداقة.
{ **فِي الدِّينِ** } مجازيّة، زيادة في الدلالة على التمكّن من الإسلام وأنّه يجبّ ما قبله.
{ **وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } اعتراض وتذييل، دلّ على أن الآيات المذكورة آنفا في قوله {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} [9] آيات واضحة مفصّلة، وأنّ عدم اهتداء هؤلاء بها ليس لنقص فيها وإنّما يهتدي بها قوم يعلمون. وحذف مفعول {يَعْلَمُونَ} لتنزيل الفعل منزلة اللازم، إذا أريد به، لقوم ذوي علم وعقل.
ومعنى التفصيل تقدم في قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55].

{ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ }[12]

لماّ استوفى البيان لأصناف المشركين؛ الذين أمر الله بالبراءة من عهدهم لإبطانهم الغدر، والذين أمر بإتمام عهدهم إلى مدتهم ما استقاموا على العهد، والذين يستجيبون، عطف على أولئك بيان الذين يعلنون بنكث العهد، ويعلنون بما يسخطُ المسلمين من قولهم.
النكث، تقدّم عند قوله تعالى {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [الأعراف:135] وعبّر عن نقض العهد بنكث الإيمان تشنيعا للنكث، لأنّ العهد كان يقارنه اليمين على الوفاء ولذلك سمي العهد حلفا.
{ **مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ** } زيادة في تسجيل شناعة نكثهم، بتذكير أنّه غدْر لعهد، وحنث باليمين.
الطعن، حقيقته خرق الجسم بشيء محدّد كالرمح، ويستعمل مجازا بمعنى الثلب والنسبة إلى النقص، بتشبيه عرض المرء، الذي كان ملتئما غير منقوص، بالجسد السليم، فإذا أظهرت نقائصه بالثلب والشتم شبه بالجلد

الذي أفسد التحامه.

{ **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ** } الأمر هنا للوجوب، وهي حالة من أحوال الإذن المتقدّم في قوله تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [5] ففي هذه الحالة يجب قتالهم ذبا عن حرمة الدين.

{ **أَئِمَّةَ** } جمع إمام، وهو ما يُجعل قدوة في عمل يعمل على مثاله، قال تعالى {وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً} [القصص:5] أي مقتدى بهم. فأئمة الكفر هنا، الذين بلغوا الغاية فيه، بحيث صاروا قدوة لأهل الكفر.

{ **إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ** } تعليل لقتالهم بأنّهم استحقوه لأجل استخفافهم بالأيمان التي حلفوها على السلم، فغدروا. ولم أقف على أنّه كان مشروطا على المشركين في عقود المصالحة والمعاهدة مع المسلمين أن لا يطعنوا في الإسلام في غير هذه الآية، فكان هذا شرطا عليهم من بعد، لأنّ المسلمين أصبحوا في قوة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** } ولم يذكر متعلّق فعل {يَنتَهُونَ} ولا يحتمل أن يكون الانتهاء عن نكث العهد، لأنّ عهدهم لا يُقبل بعد أن نكثوا لقول الله تعالى {إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ} ، ولا أن يكون الانتهاء عن الطعن في الدين، لأنّه إن كان طعنهم في الدين حاصلا في مدة قتالهم فلا جدوى لرجاء انتهائهم عنه، وإن كان بعد أن تضع الحرب أوزارها فإنّه لا يستقيم إذ لا غاية لتنهية القتل بين المسلمين وبينهم، فتعيّن أنّ المراد لعلهم ينتهون عن الكفر.

{ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [13]

تحذير من التواني في قتالهم.

{ **أَلاَ** } يحتمل أن يكون مجموع حرفين؛ هما همزة الاستفهام و(لا) النافية، ويحتمل أن يكون حرفاً واحداً للتحضيض، مثل قوله تعالى{أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌرَحِيمٌ} [النور:22].

فعلى الاحتمال الأوّل يجوز أن يكون الاستفهام إنكارياً، على انتفاء مقاتلة المشركين، وهو ما ذهب إليه البيضاوي، فيكون دفعا لأن يتوهّم المسلمون حرمة لتلك العهود. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا، ومعناه الحض على القتال على سبيل المبالغة.

وعلى الاحتمال الثاني أن يكون {أَلاَ} حرفا واحدا للتحضيض فهو تحضيض على القتال.

ولعل موجب هذا التفنن في التحذير من التهاون بقتالهم مع بيان استحقاقهم إيّاه، أن كثيرا من المسلمين كانوا قد فرحوا بالنصر يوم فتح مكّة ومالوا إلى اجتناء ثمرة السلم، فلذلك لمّا أمروا بقتال هؤلاء المشركين كانوا مظنّة التثاقل عنه خشية الهزيمة، بعد أن فازوا بسمعة النصر. وفي قوله عقبه {أَتَخْشَوْنَهُمْ} ما يزيد هذا وضوحا.

{ **قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ** }

{ **الهَمّ**} هو العزم على فعل شيء، سواء فعله أم انصرف عنه. ومؤاخذتهم في هذه الآية على مجرد الهمّ بإخراج الرسول تدلّ على أنّهم لم يخرجوه وإلّا لكان الأجدر أن ينعى عليهم الإخراج لا الهمّ به، كما في قوله: {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [التوبة:40] وتدلّ على أنّهم لم يرجعوا عمّا همّوا به إلا لما حيل بينهم وبين تنفيذه.

والوجه عندي أنّ المعني بالأمر قبائل كانوا معاهدين للمسلمين فنكثوا العهد سنة ثمان للهجرة، يوم فتح مكّة، وهمّوا بنصرة المشركين، ولكن الله صرفهم وفضحهم وأمر بقتالهم . ولا ندري أقاتلهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم . فلمّا لم تنشب الحرب بين المسلمين و المشركين أيسوا من نصرة أهل مكّة وأغضى عنهم النبيّ ﷺ.

{ **وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } بدأوكم أوّل بدء بالنكث. والمقصود من هذا الكلام تهديدهم على النكث الذي أضمروه، وألاّ تسامح فيه.

{ **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** } الاستفهام إنكاري أو تقريري، عن سبب التردد في قتالهم. أي فالله الذي أمركم بقتالهم أحقّ أن تخشوه إذا خطر في نفوسكم خاطرا عدم الامتثال لأمره، إن كنتم مؤمنين، لأن الإيمان يقتضي الخشية من الله وعدم التردد في نجاح الامتثال له.

{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ [14] وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [15]

{ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** }

استئناف ابتدائي للعود من غرض التحذير، إلى صريح الأمر بقتالهم.

وجزم {يُعَذِّبْهُمُ} وما عطف عليه في جواب الأمر، وفي جعله جوابا وجزاء، أنّ الله ضمن للمسلمين من تلك المقاتلة خمس فوائد تنحلّ إلى اثنتي عشرة، إذ تشتمل كل فائدة منها على كرامة للمؤمنين وإهانة لهؤلاء المشركين وروعي في كل فائدة منها الغرض الأهم فصرح به وجعل ما عداه حاصلا بطريق الكناية.

الفائدة الأولى، تعذيب المشركين بأيدي المسلمين وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين.

الثانية، خزي المشركين وهو يستلزم عزة المسلمين.

الثالثة، نصر المسلمين، وهذه كرامة صريحة لهم وتستلزم هزيمة المشركين وهي إهانة لهم.

الرابعة، شفاء صدور فريق من المؤمنين، وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلّهم، وبالضد حرج صدور أعدائهم.

الخامسة، إذهاب غيظ قلوب فريق من المؤمنين أو المؤمنين كلّهم، وهذه تستلزم ذهاب غيظ بقية المؤمنين الذي تحمّلوه من إغاظة أحلامهم، وتستلزم غيظ قلوب أعدائهم.

التعذيب، تعذيب القتل والجراحة. وأسند التعذيب إلى الله وجعلت أيدي المسلمين آلة له تشريفا للمسلمين.
الإخزاء، الإذلال، وتقدّم في البقرة. وهو هنا الإذلال بالأسر.
النصر، حصول عاقبة القتال المرجوّة. وتقدّم في أول البقرة.
الشفاء، زوال المرض ومعالجة زواله. أطلق هنا استعارة لإزالة ما في النفوس من تعب الغيظ والحقد، كما استعير ضدّه وهو المرض لما في النفوس من الخواطر الفاسدة في قوله {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة:10].
{ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ } يدلّ على أنّ الذين يشفي الله صدورهم بنصر المؤمنين طائفة من المؤمنين المخاطبين بالقتال، وهم أقوام كانت في قلوبهم إحن على بعض المشركين الذين آذوهم وأعانوا عليهم، ولكنّهم كانوا محافظين على عهد النبي ﷺ، فلا يستطيعون مجازاتهم على سوء صنيعهم، وكانوا يودّون أن يؤذن لهم بقتالهم، فلمّا أمر الله بنقض عهود المشركين سرّوا بذلك وفرحوا. فهؤلاء فريق تغاير حالته حالة الفريق المخاطبين بالتحريض على القتال والتحذير من التهاون فيه. فعن مجاهد، والسدي أنّ القوم المؤمنين، هم خزاعة حلفاء النبي ﷺ، وكانت نفوس خزاعة إحن على بني بكر بن كنانة، الذين اعتدوا عليهم بالقتال، وفي ذكر هذا الفريق زيادة تحريض على القتال.
{ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ }عطف على {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} ، يؤذن باختلاف المعطوف والمعطوف عليه، فيكون المراد بشفاء الصدور ما يحصل من المسرّة والانشراح بالنصر، والمراد بذهاب الغيظ استراحتهم من تعب الغيظ، وتحرّق الحقد. وضمير قلوبهم عائد إلى قوم مؤمنين فهم موعودون بالأمرين.
الغيظ، الغضب المشوب بإرادة الانتقام، وتقدّم في قوله {عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ} [آل عمران:119]
{ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
جملة ابتدائية مستأنفة، لأنّه ابتداء كلام ليس مما يترتّب على الأمر بالقتال، بل لذكر من لم يقتلوا، ولذلك جاء الفعل فيها مرفوعا، فدل هذا النظم على أنّها راجعة إلى قوم آخرين، وهم المشركون الذين خانوا وغدروا، ولم يقتلوا، بل أسلموا من قبل هذا الأمر أو بعده. وتوبة الله عليهم، هي قبول إسلامهم أو دخولهم فيه، وفي هذا إعذار وإمهال لمن تأخّر. فقد تاب الله على أبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل.
{ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } لإفادة أنّ الله يعامل النّاس بما يعلم من نياتهم، وأنّه حكيم لا يأمر إلّا بما فيه تحقيق الحكمة، فوجب على النّاس امتثال أوامره، وأنّه يقبل توبة من تاب إليه تكثيرا للصلاح.

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }[16]

{ أَمْ } منقطعة لإفادة الإضراب عن غرض من الكلام للانتقال إلى غرض آخر. والكلام بعدها له حكم

الاستفهام دائما. فقوله {حَسِبْتُمْ} في قوة (أحسبتم) والاستفهام المقدّر إنكاري.
والخطاب للمسلمين، على تفاوت مراتبهم في مدة إسلامهم، فشمل المنافقين لأنّهم أظهروا الإسلام.
حسبتم، ظننتم. ومصدر حسب، بمعنى ظن الحِسبان (بكسر الحاء). فأمّا مصدر حسُب(بضم الحاء) بمعنى أحصى العدد.
الترك، افتقاد الشيء وتعهّده، أي أن يترككم الله، فحذف فاعل الترك لظهوره. وحذف متعلق {تُتْرَكُوا} في الآية لدلالة السياق عليه، أي أن تتركوا دون جهاد، أي أن تتركوا في دعة بعد فتح مكّة.
{ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً }
في موضع الحال من ضمير {تُتْرَكُوا}، أي لا تظنّوا أن تتركوا.
{ وَلَمَّا } حرف للنفي، وهي أخت (لم).
{ يَعْلَمِ اللَّهُ } علمه بوقوع ذلك منهم وحصول امتثالهم، وهو من تعلّق العلم الإلهي بالأمور الواقعة، وهو أخصّ من علمه تعالى الأزلي بأنّ الشيء يقع أو لا يقع، ويجدر أن يوصف بـ (**التعلّق التنجيزي**)، وقد تقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى {وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:142].
الوليجة، فعيلة بمعنى مفعولة، أي الدخيلة، وهي الفعلة التي يخفيها فاعلها، فكأنّه يولجها، أي يدخلها في مكمن بحيث لا تظهر، والمراد بها هنا، ما يشمل الخديعة وإغراء العدو بالمسلمين، وما يشمل اتخاذ أولياء من أعداء الإسلام يخلص إليهم ويفضي إليهم بسر المسلمين. لأن تنكير {وَلِيجَةً} في سياق النفي يعم سائر أفرادها.
{ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } تذييل لإنكار ذلك الحسبان. أي لا تحسبوا ذلك مع علمكم بأنّ الله خبير بكل ما تعملونه.

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ }[17]

هذا ابتداء غرض من أغراض معاملة المشركين، وهو منع المشركين من دخول المسجد الحرام في العام القابل، وهو مرتبط بما تضمنته البراءة في قوله {بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ}. ولمِاَ اتّصل بتلك الآية من بيان النبيّ ﷺ الذي أرسل به مع أبي بكر الصديق، أن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وهو توطئة لقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [28]
{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا } أي ليسوا بأهل لأن يعمروا مساجد الله. تركيب يدلّ على البعد و عدم الاستحقاق، كما تقدم عند قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [آل عمران:79].

{ **مَسَاجِدَ اللَّهِ** } مواضع عبادته بالسجود والركوع، المراد المسجد الحرام وما يتبعه من المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجمرات، والمنحر من منى.

عمر المساجد، العبادة فيها، لأنّها إنما وضعت لذلك، فعمرها بمن يحلّ فيها من المتعبّدين، ومن ذلك اشتقت العمرة، والمعنى، ما يحقّ للمشركين أن يعبدوا الله في مساجد الله. وإناطة هذا النفي بهم بوصف كونهم مشركين، إيماء إلى أنّ الشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله.

{ **شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ** } جاء الحال مبينا لسبب براءتهم من أن يعمروا مساجد الله.أي انتفى تأهلهم لأن يعمروا مساجد الله بحال شهادتهم على أنفسهم بالكفر. وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)، ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها.

{ **بِالْكُفْرِ** } الكفر بالله، أي بوحدانيته، فالكفر مرادف للشرك، فالكفر في حد ذاته موجب للحرمان من عمارة أصحابه مساجد الله، لأنّها مساجد الله فلا حق لغير الله فيها.

{ **أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** } ابتداء ذم لهم، وجيء باسم الإشارة لأنّهم قد تميّزوا بوصف الشهادة على أنفسهم بالكفر.

{ **حَبِطَتْ** } بطلت، وقد تقدّم في قوله تعالى {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [البقرة:217].

وتقديم { **فِي النَّارِ** } على { **خَالِدُونَ** } للرعاية على الفاصلة ويحصل منه تعجيل المساءة للكفار إذا سمعوه.

{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ } [18]

الاستئناف البياني. لماّ اقتضت الآية السابقة إقصاء المشركين عن العبادة في المساجد كانت بحيث تثير سؤالا في نفوس السامعين أن يتطلّبوا من هم الأحقاء بأن يعمروا المساجد، فكانت هذه الآية مفيدة جواب هذا السائل ومجيء صيغة القصر فيها مؤذن بأنّ المقصود إقصاء فرق أخرى عن أن يعمروا مساجد الله، غير المشركين الذين كان إقصاؤهم بالصريح، فتعين أن يكون المراد من الموصول وصلته خصوص المسلمين، لأنّ مجموع الصفات المذكورة في الصلة لا يثبت لغيرهم، فاليهود والنصارى آمنوا بالله واليوم الآخر لكنّهم لم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة، لأنّ المقصود بالصلاة والزكاة العبادتان المعهودتان بهذين الاسمين والمفروضتان في الإسلام، ألا ترى إلى قوله تعالى {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}

[المدثر:43 ،44] كناية عن أن لم يكونوا مسلمين.
واستغنى عن ذكر الإيمان برسوله محمد ﷺ بما يدلّ عليه من آثار شريعته، وهو الإيمان باليوم الآخر، وإقام الصلاة: وإيتاء الزكاة.
{ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } ووجه هذا الرجاء أنّهم لما أتوا بما هو اهتداء لا محالة قوي الأمل في أن يستقرّوا على ذلك ويصير خلقا لهم فيكونوا من أهله، ولذلك قال {أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} ، ولم يقل أن يكونوا مهتدين. وفي هذا حث على الاستزادة من هذا الاهتداء وتحذير من الغرور والاعتماد على بعض العمل الصالح باعتقاد أنّ بعض الأعمال يغني عن بقيتها.

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[19]
الاستفهام للإنكار. وظاهر هذه الآية يقتضي أنّها خطاب لقوم سوّوا بين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام، وبين الجهاد والهجرة، في أنّ كل ذلك من عمل البرّ، فتؤذن بأنها خطاب لقوم مؤمنين قعدوا عن الهجرة والجهاد، بعلّة اجتزائهم بالسقاية والعمارة. ومناسبتها للآيات التي قبلها: أنه لما وقع الكلام على أن المؤمنين هم الأحقاء بعمارة المسجد الحرام من المشركين، دلّ ذلك الكلام على أنّ المسجد الحرام لا يحقّ لغير المسلم أن يباشر فيه عملا من الأعمال الخاصة به، فكان ذلك مثار ظن بأنّ القيام بشعائر المسجد الحرام مساو للقيام بأفضل أعمال الإسلام.
وأحسن ما روي في سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري، والواحدي، عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم "ما بالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلّا أن أسقي الحاج"، وقال آخر "بل عمارة المسجد الحرام" وقال آخر "بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم" فزجرهم عمر بن الخطاب وقال: " لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ،وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفيته فيما اختلفتم فيه" قال: فأنزل الله تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.
السقاية، صيغة للصناعة، أي صناعة السقي، وهي السقي من ماء زمزم، ولذلك أضيفت السقاية إلى الحاج.
العمارة، صناعة التعمير، أي القيام على تعمير شيء، بالإصلاح والحراسة ونحو ذلك، وهي، هنا، غير ما في قوله {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ} [17].
وقد كانت سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام من أعظم مناصب قريش في الجاهلية، والمناصب عشرة،

وتسمّى المآثر، فكانت السقاية لبني هاشم بن عبد مناف ابن قصي وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبد المطلب، وكانت عمارة المسجد، وهي السدانة، وتسمّى الحجابة، لبني عبد الدار بن قصي وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة. وكانت لهم مناصب أخرى ثمانية أبطلها الإسلام رأيتها بخط جدي العلامة الوزير وهي(الديّات والحَملات، السِّفارة، الراية، الرِّفادة، المشورة، الأعنة والقبة، الحُكومة وأموال الآلهة، الأيْسار).

الديّات والحَملات، ، فجمع ديّة وهي عوض دم القتيل خطأ أو عمدا إذا صولح عليه. و**الحملات، جمع حَمالة** (بفتح الحاء المهملة) وهي الغرامة التي يحملها قوم عن قوم، وكانت لبني تيم بن مُرَّة بن كعب ومُرَّة جد قُصي، وجاء الإسلام وهي بيد أبي بكر الصديق.

السفارة، (بكسر السين وفتحها) فهي السعي بالصلح بين القبائل، والقائم بها يسمّى سفيرا. وكانت لبني عدي بن كعب بن أبناء عمّ لقصي وجاء الإسلام وهي بيد عمر بن الخطاب.

الراية، وتسميّ العُقاب (بضم العين) لأنّها تخفق فوق الجيش كالعُقاب، فهي راية جيش قريش، وكانت لبني أميّة، وجاء الإسلام وهي بيد أبي سفيان بن حرب.

الرِّفادة، فهي أموال تخرجها قريش إكراماً للحجيج فيطعمونهم جميع أيّام الموسم يشترون الجزر والطعام وكانت لبني نوفل بن عبد مناف، وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن عامر بن نوفل.

المشورة، فهي ولاية دار الندوة وكانت لبني أسد بن عبد العزّى بن قصّي. وجاء الإسلام وهي بيد زيد بن زمعة.

الأعنّة والقبة، فقبّة يضربونها يجتمعون إليها عند تجهيز الجيش وسميت الأعنّة وكانت لبني مخزوم. وهم أبناء عم قصي، وجاء الإسلام وهي بيد خالد بن الوليد.

الحكومة وأموال الآلهة (ولم أقف على حقيقتها) فأحسب أنّ تسميتها الحكومة لأنّ المال المتجمع بها هو ما يحصل من جزاء الصيد في الحرم أو في الإحرام. وأماّ تسميتها أموال الآلهة لأنّها أموال تحصل من نحو السائبة والبحيرة وما يوهب للآلهة من سلاح ومتاع. فكانت لبني سهم وهم أبناء عم لقصي. وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن قيس بن سهم.

الأيْسار، وهي الأزلام التي يستقسمون بها فكانت لبني جُمح وهم أبناء عمّ لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد صفوان بن أمية بن خلف.

وقد أبطل الإسلام جميع هذه المناصب، عدا السدانة والسقاية، لقول النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع " ألا إنّ كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت".

وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ليس لأنّه محلّ التسوية المردودة عليهم لأنّهم لم يدّعوا التسوية بين السقاية أو العمارة بدون الإيمان. بل ذكر الإيمان إدماج، للإيماء إلى أنّ الجهاد أثر الإيمان، وهو ملازم للإيمان، فلا

يجوز للمؤمن التنصّل منه بعلّة اشتغاله بسقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام.
{ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } تذييل لجملة {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ} إلخ، وموقعه هنا خفي إن كانت السورة قد نزلت بعد غزوة تبوك، وكانت هذه الآية ممّا نزل مع السورة ولم تنزل قبلها، على ما رجحناه من رواية النعمان بن بشير في سبب نزولها، فإنّه لم يبق يومئذ من يجعل سقاية الحاجّ وعمارة البيت تساويان الإيمان والجهاد، حتى يرد عليه بما يدل على عدم اهتدائه. وقد تقدّم ما روي عن عمر بن الخطاب في سبب نزولها وهو يزيد موقعها خفاء.
فالوجه عندي في موقع جملة {وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أن موقعها الاعتراض بين جملة {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ} وجملة {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا} [20]. والمقصود منها زيادة التنويه بشأن الإيمان، إعلاما بأنّه دليل إلى الخيرات، وقائد إليها.
فالذين آمنوا قد هداهم إيمانهم إلى فضيلة الجهاد، والذين كفروا لم ينفعهم ما كانوا فيه من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فلم يهدهم الله إلى الخير، وذلك برهان على أنّ الإيمان هو الاصل، وأنّ شعبه المتولدة منه أفضل الأعمال، وأنّ ما عداها من المكارم والخيرات في الدرجة الثانية في الفضل، لأنّها ليست من شعب الإيمان، وإن كان كلا الصفتين لا ينفع إلا إذا كان مع الإيمان، وخاصة الجهاد. وفيه إيماء إلى أنّه لولا الجهاد لما كان أهل للسقاية وعمارة المسجد الحرام مؤمنين، فإن إيمانهم كان من آثار غزوة فتح مكة وجيش الفتح، إذ آمن العباس ابن عبد المطلب وهو صاحب السقاية، وآمن عثمان بن طلحة وهو صاحب عمارة المسجد الحرام.
فإذا اعتمدنا قول عن عباس: من أنّ نزول هذه الآية كان يوم بدر، بسبب المماراة التي وقعت بين علي بن أبي طالب والعباس، فموقع التذييل بقوله: {وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} واضح، أي لا يهدي المشركين الذين يسقون الحاجّ ويعمرون المسجد الحرام، إذ لا يجدي ذلك مع الإشراك. فتبيّن أنّ ما توهّموه من المساواة بين تلك الأعمال وبين الجهاد، وتنازعهم في ذلك، خطأ من النظر، إذ لا تستقيم تسوية التابع بالمتبوع والفرع بالأصل، ولو كانت السقاية والعمارة مساويتين للجهاد لكان أصحابهما قد اهتدوا إلى نصر الإيمان، كما اهتدى إلى نصره المجاهدون، والمشاهدة دلت على خلاف ذلك، فإنّ المجاهدين كانوا مهتدين ولم يكن أهل السقاية والعمارة بالمهتدين. فالهداية شاع إطلاقها مجازا باستعارتها لمعنى الإرشاد على المطلوب، وهي بحسب هذا الإطلاق مراد بها مطلوب خاص وهو ما يطلبه من يعمل عملا يتقرب به إلى الله، كما يقتضيه تعقيب ذكر سقاية الحاج وعمارة المسجد بهذه الجملة. والمعنى: والله لا يقبل من القوم المشركين أعمالهم.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ } [20]

هذه الجملة مبيّنة لنفي الاستواء الذي في الآية السابقة، ومفصّلة للجهاد الذي في قوله {كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [19]، بأنّه الجهاد بالأموال والأنفس، وإدماج لبيان مزية المهاجرين من المجاهدين.

{ وَهَاجَرُوا } هم المؤمنون من أهل مكة وما حولها، الذين هاجروا منها إلى المدينة لمّا أذِنهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها بعد أن أسلموا، وذلك قبل فتح مكة.

المهاجرة، ترك الموطن والحلول ببلد آخر، وهي مشتقة من الهجر وهو الترك، واشتقت لها صيغة المفاعلة لاختصاصها بالهجر القويّ وهو هجر الوطن. والمراد بها في عرف الشرع هجرة خاصة، وهي الهجرة من مكّة إلى المدينة، فلا تشتمل هجرة من هاجر من المسلمين إلى بلاد الحبشة لأنّها لم تكن على نيّة الاستيطان بل كانت هجرة مؤقته، وتقدّم ذكر الهجرة في آخر سورة الأنفال.

والمفضّل عليه محذوف لظهوره، أي أعظم درجة عند الله من أصحاب السقاية والعمارة الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا الجهاد الكثير الذي جاهده المسلمون أيام بقاء أولئك في الكفر.

الدرجة ،تقدّمت عند قوله تعالى {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة:228]. وهي في كل ذلك مستعارة لرفع المقدار. و{**عِنْدَ اللَّهِ**} إشارة إلى أنّ رفعة مقدارهم رفعة رضى من الله وتفضيل بالتشريف.

{ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ } معطوفة على {أَعْظَمُ دَرَجَةً} أي أعظم وهم أصحاب الفوز. وتعريف المسند باللام مفيد للقصر، وهو قصر ادعائي للمبالغة في عظم فوزهم، حتّى إن فوز غيرهم بالنسبة إلى فوزهم يعد كالمعدوم. والإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا الفوز لأجل تلك الأوصاف التي ميّزتهم، وهي الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس.

{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ [21] **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }** [22]

بيان للدرجة العظيمة. فتلك الدرجة هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرّة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعدّ لهم من النعيم الدائم. ومجموع هذه الأمور لم يمنحه غيرهم من أهل السقاية والعمارة، الذين وإن صلحوا لأنّ ينالوا بعض هذه المزايا فهم لم ينالوا جميعها.

التبشير، الإخبار بخير يحصل للمخبر لم يكن عالما به.

فإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدّد، مؤذن بتعاقب الخيرات عليهم، وتجدّد إدخال

السرور بذلك لهم.
وكون المسند إليه لفظ الربّ، دون غيره ممّا يدلّ على الخالق سبحانه، إيماء إلى الرحمة بهم والعناية، لأنّ معنى الربوبية يرجع إلى تدبير المربوب والرفق به واللطف به، ولتحصل به الإضافة إلى ضميرهم إضافة تشريف.
الرحمة، تقدّمت في قوله {الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:1]
الرِضوان، (بكسرالراء وبضمّها)، الرضا الكامل الشديد، لأنّ هذه الصيغة تشعر بالمبالغة مثل الغفران.
الجنّات، تقدّم الكلام عليها في ذكر الجنّة في سورة البقرة، وجمعها باعتبار مراتبها وأنواعها.
النعيم، ما به التذاذ النفس باللذّات المحسوسة، وهو أخصّ من النعمة. قال تعالى {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الإنفطار:13] وقال {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر:8].
المقيم، المستمّر، استعيرت الإقامة للدوام والاستمرار.
والتنكير في {بِرَحْمَةٍ، وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ، وَنَعِيمٌ} للتعظيم، بقرينة المقام، وقرينة قوله {مِنْهُ}، وقرينة كون تلك مبشرّاً بها.
{ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } تذييل وتنويه بشأن المؤمنين المهاجرين المجاهدين، لأّنّ مضمون هذه الجملة يعمّ مضمون ما قبلها وغيره، وفي هذا التذييل إفادة أنّ ما ذكر من عظيم درجات المؤمنين المهاجرين المجاهدين هو بعض ما عند الله من الخيرات فيحصل من ذلك الترغيب في الازدياد من الأعمال الصالحة ليزدادوا رفعة عند ربهم.
الأجر، العوض المعطى على عمل، وتقدم في قوله {إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [المائدة:5].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ }[23]

استئناف ابتدائي لافتتاح غرض آخر وهو تقريع المنافقين ومن يواليهم، فإنّه لماّ كان أوّل السورة في تخطيط طريقة معاملة المظهرين للكفر، لا جرم تهيّأ المقام لمثل ذلك بالنسبة إلى من أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم المنافقون من أهل المدينة ومن بقايا قبائل العرب، ممن عرفوا بذلك، أو لم يعرفوا، وأطلع الله عليهم نبيّه ﷺ، وحذّر المؤمنين المطلّعين عليهم، من بطانتهم وذوي قرابتهم ومخالطتهم. وأكثر ما كان ذلك في أهل المدينة لأنّهم كانت من بينهم بقية من المنافقين وهم من ذوي قرابتهم.
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } إشعار بأنّ ما سيلقى إليهم من الوصايا هو من مقتضيات الإيمان وشعاره.
وقد أسفرت غزوة تبوك التي نزلت عقبها هذه السورة عن بقاء بقية من النفاق في أهل المدينة والأعراب

المجاورين لها، كما في قوله تعالى {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} [90] وقوله {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} [101] ونظائرهما من الآيات.

{ **اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ** } أحبّوه حبّاً متمكّناً. فالسين والتاء للتأكيد، مثل ما في استقام واستبشر.

حذر الله المؤمنين من موالاة من استحبّوا الكفر على الإيمان، في ظاهر أمرهم أو باطنه، إذا اطّلعوا عليهم وبدت عليهم أمارات ذلك بما ذكر من صفاتهم في هذه السورة، وجعل التحذير من أولئك بخصوص، كونهم آباء وإخواناً، تنبيهاً على أقصى الجدارة بالولاية ليعلم بفحوى الخطاب أنّ من دونهم أولى بحكم النهي. ولم يذكر الأبناء والأزواج هنا لأنّهم تابعون فلا يقعدون بعد متبوعيهم.

{ **فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ** } أريد به الظالمون انفسهم لأنهم وقعوا فيما نهاهم الله، فاستحقّوا العقاب. فالظلم هنا بمعناه اللغوي وليس مرادا به الشرك. وصيغة الحصر للمبالغة.

ويجوز أن يكون هم {الظَّالِمُونَ} عائداً إلى ما عاد إليه ضمير النصب في قوله {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ}، أي إلى الآباء والإخوان الذين استحبّوا الكفر على الإيمان. والمعنى ومن يتولّهم فقد تولّى الظالمين، فيكون الظلم على هذا مرادا به الشرك، كما هو الكثير في إطلاقه في القرآن.

{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [24]

ارتقاء في التحذير من العلائق التي قد تفضي إلى التقصير في القيام بواجبات الإسلام، فلذلك جاءت زيادة تفصيل الأصناف من ذوي القرابة، وأسباب المخالطة التي تكون بين المؤمنين وبين الكافرين، ومن الأسباب التي تتعلّق بها نفوس النّاس فيحول تعلّقهم بها بينهم وبين الوفاء ببعض حقوق الإسلام، فلذلك ذكر الأبناء هنا لأنّ التّعلق بهم أقوى من التعلّق بالإخوان، وذكر غيرهم من قريب القرابة أيضا.

{ **قُلْ** } يشير إلى غِلَظِه والتوبيخ به.

والمخاطب بضمائر جماعة المخاطبين، المؤمنون الذين قصّروا في بعض الواجب أو المتوقّع منهم ذلك، كما يشعر به اقتران الشرط بحرف الشك { **إِنْ** }، ويفهم منه أنّ المسترسلين في ذلك الملابسين له هم أهل النفاق، فهم المعرّض لهم بالتهديد في قوله {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

وقد جمعت هذه الآية أصنافا من العلاقات وذويها، من شأنها أن تألفها النفوس وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها، فإذا كان الثبات على الإيمان يجرّ إلى هجران بعضها كالآباء والإخوان الكافرين الذين يهجر بعضهم بعضا إذا اختلفوا في الدين، وكالأبناء والأزواج والعشيرة الذين يألف المرء البقاء بينهم، فلعلّ ذلك

يقعده عن الغزو، وكالأموال والتجارة التي تصدّ عن الغزو وعن الإنفاق في سبيل الله. وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها فيصدّه إلفها عن الغزو. فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين وبين ما تجر إليه تلك العلائق وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربّه.

{ **أَحَبَّ** } في هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسبّبا على تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله.

{ **وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ** } خصّ الجهاد بالذكر من عموم ما يحبّه الله منهم تنويها بشأنه، ولأنّ ما فيه من الخطر على النفوس ومن إنفاق الأموال ومفارقة الإلف، جعله أقوى مظنّة للتقاعس عنه، لا سيما والسورة نزلت عقب غزوة تبوك التي تخلّف عنها كثير من المنافقين وبعض المسلمين.

العشيرة، الأقارب الأدنون، وكأنّه مشتق من العِشرة وهي الخلطة والصحبة.

الاقتراف، الاكتساب، وهو مشتقّ من قارف إذا قارب الشيء.

الكساد، قلّة التبايع وهو ضد الرّواج والنّفَاق، وذلك بمقاطعة طوائف من المشركين الذين كانوا يتبايعون معهم، وبالانقطاع عن الاتّجار أيام الجهاد.

التربّص، الانتظار، وهذا أمر تهديد لأنّ المراد انتظار الشرّ. وهو المراد بقوله {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} أي الأمر الذي يظهر به سوء عاقبة إيثاركم محبّة الأقارب والأموال والمساكن، على محبة الله ورسوله والجهاد.

الأمر، اسم مبهم بمعنى الشيء والشأن، والمقصود من هذا الإبهام التهويل لتذهب نفوس المهدّدين كلّ مذهب.

فأمر الله: يحتمل أن يكون العذاب أو القتل أو نحوهما، ومن فسّر أمر الله بفتح مكّة فقد ذهل لأنّ هذه السورة نزلت بعد الفتح.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } تذييل، والواو اعتراضية وهذا تهديد بأنّهم فضلوا قرابتهم وأموالهم على محبّة الله ورسوله وعلى الجهاد فقد تحقّق أنّهم فاسقون والله لا يهدي القوم الفاسقين فحصل بموقع التذييل تعريض بهم بأنّهم من الفاسقين.

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ }[25]

لمّا تضمّنت الآيات السابقة الحثّ على قتال المشركين، وكان التمهيد للإقدام على ذلك مدرّجا بإبطال حرمة عهدهم، لشركهم، وبإظهار أنّهم مضمرون العزم على الابتداء بنقض العهود التي بينهم وبين المسلمين لو قدّر لهم النصر على المسلمين، وآية ذلك اعتداؤهم على خزاعة أحلاف المسلمين، وهمّهم بإخراج الرسول ﷺ من مكّة بعد الفتح، حتّى إذا انتهى ذلك التمهيد المدرج إلى الحثّ على قتالهم وضمان نصر الله المسلمين

عليهم، وما اتصل بذلك ممّا يثير حماسة المسلمين، جاء في هذه الآية بشواهد ما سبق من نصر الله المسلمين في مواطن كثيرة، وتذكير بمقارنة التأييد الإلهي لحالة الامتثال لأوامره، وأن في غزوة حنين شواهد تشهد للحالين. فالكلام استئناف ابتدائي لمناسبة الغرض السابق.

{ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ** } وأسند النصر إلى الله بالصراحة لإظهار أنّ إيثار محبّة الله وإن كان يُفيت بعض حظوظ الدنيا، ففيه حظ الآخرة وفيه حظوظ أخرى من الدنيا وهي حظوظ النصر، بما فيه من تأييد الجامعة، ومن المغانم، وحماية الأمّة من اعتداء أعدائها، وذلك من فضل الله إذ آثروا محبته على محبّة علائقهم الدنيوية.

وأكد الكلام بـ { **قَدْ** } لتحقيق هذا النصر، لأنّ القوم كأنّهم نسوه أو شكّوا فيه، فنزلوا منزلة من يحتاج إلى تأكيد الخبر.

{ **فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ** } : جمع موطن، والموطن أصله مكان التوطّن، أي الإقامة. ويطلق على مقام الحرب وموقفها، أي نصركم في مواقع حروب كثيرة.

{ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ** } معطوف على {فِي مَوَاطِنَ}، والتقدير: ونصركم يوم حنين وهو من جملة المواطن.

وتخصيص يوم حنين بالذكر من بين أيام الحروب، لأنّ المسلمين انهزموا في أثناء النصر ثم عاد إليهم النصر، فتخصيصه بالذكر لما فيه من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله ﷺ وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال.

{ **حُنَيْنٍ** } اسم واد بين مكة والطائف قرب ذي المجاز، كانت فيه وقعة عظيمة عقب فتح مكة بين المسلمين مع النبيّ ﷺ، وكانوا اثني عشر ألفا، وبين هوازن وثقيف وألفافهما، إذ نهضوا لقتال النبي ﷺ حميّة وغضبا لهزيمة قريش ولفتح مكّة، وكان على هوازن مالك بن عوف، أخو بني نصر، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفي، وكانوا في عدد كثير وساروا إلى مكّة فخرج إليهم النبيّ ﷺ حتّى اجتمعوا بحنين فقال المسلمون: " لن نغلب اليوم من قلة "، ووثقوا بالنصر لقوّتهم، فحصلت لهم هزيمة عند أوّل اللقاء كانت عتاًباً إلهيا على نسيانهم التوكّل على الله في النصر، واعتمادهم على كثرتهم. ولذلك روي أنّ رسول الله ﷺ لمّا سمع قول بعض المسلمين " لن نغلب من قلّة " ساءه ذلك. فإنهم لما هبطوا وادي حنين كان الأعداء قد كمنوا لهم في شعابه وأحنائه، فما راع المسلمين وهم منحدرون في الوادي إلّا كتائب العدو وقد شدّت عليهم.

وقيل: إنّ المسلمين حملوا على العدوّ فانهزم العدو فلحقوهم يغنمون منهم، وكانت هوازن قوما رماة فاكثبوا المسلمين بالسهام فأدبر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وتفرّقوا في الوادي، وتطاول عليهم المشركون ورسول الله ﷺ ثابت في الجهة اليمنى من الوادي ومعه عشرة من المهاجرين والأنصار فأمر رسول الله ﷺ العباس عمّه أن يصرخ في النّاس: يا أصحاب الشجرة أو السمرة (يعني أهل بيعة الرضوان) يا معشر المهاجرين، يا أصحاب سورة البقرة (يعني الأنصار)، هلمّوا إليّ، فاجتمع إليه مائة، وقاتلوا هوازن

مع من بقي مع النبي ﷺ واجتلد النّاس، وتراجع بقيّة المنهزمين واشتد القتال وقال رسول الله ﷺ: " الآن حمي الوطيس" ، فكانت الدائرة على المشركين وهزموا شر هزيمة وغنمت أموالهم وسبيت نساؤهم.

{ **إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا** } موقع بديع، لأنّه تنبيه على خطئهم في الأدب مع الله المناسب لمقامهم، أي ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم.

{ **وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** } وهذا التركيب تمثيل لحال المسلمين لمّا اشتد عليهم البأس واضطربوا ولم يهتدوا لدفع العدو عنهم، بحال من يرى الأرض الواسعة ضيّقة.

الضيق، غير حقيقي، استعارة تمثيلية، تمثيلا لحال من لا يستطيع الخلاص من شدّة بسبب اختلال قوة تفكيره، بحال من هو في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا الانتقال منه.

وهذا أحسن من قول المفسرين أنّ المعنى، لم تهتدوا إلى موضع من الأرض تفرون إليه فكأن الأرض ضاقت عليكم، ومنهم من أجمل فقال: أي لشدة الحال وصعوبتها.

{ **ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** } موقع التراخي الرتبي، أي وأعظم مما نالكم من الشر أن وليتم مدبرين.

التولّي، الرجوع.

{ **مُدْبِرِينَ** } حال، إمّا مؤكدة لمعنى {وَلَّيْتُمْ}، أو أريد بها إدبار أخص من التولّي، لأن التولي مطلق يكون للهروب، ويكون للفر في حيل الحروب، والإدبار شائع في الفرار الذي لم يقصد به حيلة فيكون الفرق بينه وبين التولي اصطلاحا حربيا.

{ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } [26]

{ **ثُمَّ** } دالّة على التراخي الرتبي فإنّ نزول السكينة ونزول الملائكة أعظم من النصر الأوّل يوم حنين. على أنّ التراخي الزمني مراد، تنزيلا لعظم الشدّة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإنّ أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت.

السكينة، الثبات واطمئنان النفس، و تقدم بيانها عند قوله تعالى{أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة :248]، وتعليقها بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره: تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنّها سكينة خارقة للعادة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله، كرامة لنبيه ﷺ وإجابة لندائه النّاس، ولذلك قدّم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين.

الجنود، جمع جند. والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو الجماعة المهيّئة للحرب، وواحده بياء النسب: جندي. وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} [البقرة:249]. وقد يطلق الجند على الأمّة

العظيمة ذات القوة، كما في قوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ} [البروج :17 ،18].
والمراد بالجنود هنا جماعات من الملائكة موكلون بهزيمة المشركين كما دل عليه فعل أنزل، أي أرسلها الله لنصرة المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولذلك قال: {لَمْ تَرَوْهَا} ولكون الملائكة ملائكة النصر أطلق عليها اسم الجنود.
{ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا } هو تعذيب القتل والأسر والسبي.
{ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } الإشارة إلى العذاب المأخوذ من { عَذَّبَ }

{ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [27]
إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة فإنّهم جاءوا رسول الله ﷺ مسلمين تائبين، وسألوه أن يردّ إليهم سبيهم وغنائمهم، فذلك أكبر منّة في نصر المسلمين، إذ أصبح العدو لهم مسلمين معهم، لا يخافونهم.
وأتى بالمضارع في قوله { يَتُوبُ اللَّهُ } دون الفعل الماضي، لأنّ المقصود ما يشمل توبة هوازن وتوبة غيرهم، للإشارة إلى إفادة تجدّد التوبة على كل من تاب إلى الله، لا يختصّ بها هوازن فتوبته على هوازن قد عرفها المسلمون، فأعلموا بأن الله يعامل بمثل ذلك كل من ندم وتاب.
{ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } تذييل للكلام لإفادة أن المغفرة من شأنه تعالى، وأنّه رحيم بعباده إن أنابوا إليه وتركوا الإشراك به.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [28]
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا }
استئناف ابتدائي للرجوع إلى غرض إقصاء المشركين عن المسجد الحرام المفاد بقوله {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ} [17]، جيء به لتأكيد الأمر بإبعادهم عن المسجد الحرام مع تعليله بعلّة أخرى تقتضي إبعادهم عنه، وهي أنّهم نجس، فقد علّل فيما مضى بأنّهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، فليسوا أهلا لتعمير المسجد المبني للتوحيد، وعلّل هنا بأنّهم نجس فلا يعمروا المسجد لطهارته.
{ نَجَسٌ } صفة مشبّهة، اسم للشيء الذي النجاسة صفة ملازمة له، وقد أنيط وصف النجاسة بهم بصفة الإشراك، فعلمنا أنّها نجاسة معنوية نفسانية وليست نجاسة ذاتية.
النجاسة المعنوية، هي اعتبار صاحب وصف من الأوصاف محقّرا متجنَّبا من النّاس فلا يكون أهلا لفضل ما دام متلبسا بالصفة التي جعلته كذلك. فالمشرك نجس لأجل عقيدة إشراكه، وقد يكون جسده نظيفا مطيبا لا

يستقذر. ولا شك أن خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ولذلك أوجب الغسل على المشرك إذا أسلم انخلاعا عن تلك القذارة المعنوية بالطهارة الحسية لإزالة خباثة نفسه.

{ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** } صيغة الحصر لإفادة نفي التردّد في اعتبارهم نجسا، فهو للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة حتى كأنّهم لا وصف لهم إلّا النجسية.

{ **فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ** } المقصود من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام النهي عن حضورهم الحجّ ، لأنّ مناسك الحجّ كلّها تتقدمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك، ولذلك لما نزلت (براءة) أرسل النبيّ ﷺ بأن ينادي في الموسم أن لا يحجّ بعد العام مشرك.

{ **بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** } الإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية، وهو عام تسعة من الهجرة، فقد حضر المشركون موسم الحج فيه وأعلن لهم فيه أنّهم لا يعودون إلى الحج بعد ذلك العام.

{ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

العيلة، الاحتياج والفقر، أي إن خطر في نفوسكم خوف الفقر من انقطاع الإمداد عنكم بمنع قبائل كثيرة من الحجّ، فإنّ الله سيغنيكم عن ذلك. وقد أغناهم الله بأن هدى للإسلام أهل تَبَالَة وجُرَش من بلاد اليمن، فأسلموا عقب ذلك، وكانت بلادهم بلاد خصب وزرع فحملوا إلى مكة الطعام والميرة، وأسلم أيضا أهل جدّة وبلدهم مرفأ ترد إليه الأقوات من مصر وغيرها، فحملوا الطعام إلى مكّة، وأسلم أهل صنعاء من اليمن، وبلدهم تأتيه السفن من أقاليم كثيرة من الهند وغيرها.

{ **إِنْ شَاءَ** } يفتح لهم باب الرجاء مع التضرّع إلى الله في تحقيق وعده لأنّه يفعل ما يشاء.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تعليل، أي أنّ الله يغنيكم لأنّه يعلم ما لكم من المنافع من وفادة القبائل، فلما منعكم من تمكينهم من الحج لم يكن تاركا منفعتكم فقدّر غناكم عنهم بوسائل أخرى علمها وأحكم تدبيرها.

{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [29]

الكلام انتقال من غرض نبذ العهد مع المشركين وأحوال المعاملة بينهم وبين المسلمين إلى غرض المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ كان الفريقان مسالمين المسلمين في أول بدء الإسلام، وكانوا يحسبون أن في مدافعة المشركين للمسلمين ما يكفيهم أمر التصدّي للطعن في الإسلام وتلاشي أمره، فلمّا أخذ الإسلام ينتشر في بلاد العرب يوما فيوما، واستقل أمره بالمدينة، ابتدأ بعض اليهود يظهر إحنه نحو المسلمين، فنشأ النفاق بالمدينة وظاهرت قريظة والنضير أهل الأحزاب لمّا غزوا المدينة فأذهبهم الله عنها. ثم لما اكتمل نصر الإسلام بفتح مكة والطائف وعمومه بلاد العرب بمجيء وفودهم مسلمين، وامتد إلى تخوم

البلاد الشامية، أوجست نصارى العرب خيفة من تطرقه إليهم، ولم تغمض عين دولة الروم حامية نصارى العرب عن تداني بلاد الإسلام من بلادهم، فأخذوا يستعدّون لحرب المسلمين بواسطة ملوك غسان سادة بلاد الشام في ملك الروم.

فلا جرم لما أمن المسلمون بأس المشركين وأصبحوا في مأمن منهم، أن يأخذوا الأهبة ليأمنوا بأس أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فابتدأ ذلك بغزو خيبر وقريظة والنضير وقد هزموا وكفى الله المسلمين بأسهم وأورثهم أرضهم فلم يقع قتال معهم بعد. ثم ثنّى بغزوة تبوك التي هي من مشارف الشام.

وظاهر الآية أنّ القوم المأمور بقتالهم ثبتت لهم معاني الأفعال الثلاثة المتعاطفة في صلة الموصول؛ انتفى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتحريم ما حرم الله، والتدين بدين الحق. ولم يعرف أهل الكتاب بأنّهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. فاليهود والنصارى مثبتون لوجود الله تعالى ومؤمنون بيوم الجزاء.

وبهذا الاعتبار تحيّر المفسرون في تفسير هذه الآية فلذلك تأولوها بأن اليهود والنصارى، وإن أثبتوا وجود الله واليوم الآخر، فقد وصفوا الله بصفات تنافي الإلهية فكأنهم ما أمنوا به، إذ أثبت اليهود الجسمية لله تعالى وقالوا {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} وقال كثير منهم {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]

وأثبت النصارى تعدّد الإله بالتثليث فقاربوا قول المشركين فهم أبعد من اليهود عن الإيمان الحق.

وأنّ قول الفريقين بإثبات اليوم الآخر قد ألصقوا به تخيّلات وأكذوبات تنافي حقيقة الجزاء، كقولهم {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة:80] فكأنّهم لم يؤمنوا باليوم الآخر.

والذي أراه في تفسير هذه الآية أنّ المقصود الأهم منها قتال أهل الكتاب من النصارى كما علمت، ولكنّها أدمجت معهم المشركين لئلا يتوهّم أحد أنّ الأمر بقتال أهل الكتاب يقتضي التفرغ لقتالهم ومتاركة قتال المشركين.

{ **مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } بيان لأقرب صلة منه وهي صلة { **وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ** }، وفائدة ذكره التنديد عليهم بأنّهم أوتوا الكتاب ولم يدينوا دين الحق الذي جاء به كتابهم، وإنّما دانوا بما حرّفوا منه، وما أنكروا منه، وما ألصقوا به، ولو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام.

{ **وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** } . بمعنى لا يجعلون حراما ما حرّمه الله، والمقصود من هذا تشنيع حالهم وإثارة كراهيتهم لهم بأنّهم يستبيحون ما حرمه الله على عباده.

{ **وَرَسُولُهُ** } محمد ﷺ كما هو متعارف القرآن ولو أريد غيره من الرسل لقال ورسله لأنّ الله ما حرم على لسان رسوله إلا ما هو حقيق بالتحريم.

وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية تهيئة للمسلمين لأن يغزوا الروم والفرس وما بقي من قبائل العرب، الذين يستظلّون بنصر إحدى هاتين الأمتين، الذين تأخر إسلامهم مثل قضاعة وتغلب بتخوم الشام، حتّى يؤمنوا أو

يعطوا الجزية.

و { **حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** } غاية للقتال، وضمير {يُعْطُوا} عائد إلى {أُوتُوا الْكِتَابَ}.

الجزية، اسم لمال يعطيه رجال قوم جزاء على الإبقاء بالحياة أو على الإقرار بالأرض. والظاهر أنّه اسم معرّب عن كلمة (**كِزِيَتْ**) بالفارسية بمعنى الخراج، نقله المفسّرون عن الخوارزمي، ولم أقف على هذه الكلمة في كلام العرب في الجاهلية ولم يعرّج عليها الراغب في (مفردات القرآن)، ولم يذكروها في معرّب القرآن، لوقوع التردّد في ذلك لأنّهم وجدوا مادة الاشتقاق العربي صالحة فيها. ولا شك أنّها كانت معروفة المعنى للذين نزل القرآن بينهم، ولذلك عرّفت في هذه الآية.

{ **عَنْ يَدٍ** } تأكيد لمعنى {يُعْطُوا} للتنصيص على الإعطاء. أي يعطوها غير ممتنعين ولا منازعين في إعطائها.

الصاغر، اسم فاعل من صغِر (بكسر الغين) صَغَرا بالتحريك وصَغَارا. إذا ذلّ، وتقدم ذكر الصغار في قوله تعالى {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ} [الأنعام:124]. أي وهم أذلّاء. والمقصود منه تعظيم أمر الإسلام وتحقير أهل الكفر ليكون ذلك ترغيبا لهم في الانخلاع عن دينهم الباطل واتباعهم دين الإسلام.

وقد دلت هذه الآية على أخذ الجزية من المجوس لأنّهم أهل كتاب. نقل عن ابن المنذر: " لا أعلم خلافا في أن الجزية تؤخذ منهم ". وخالف ابن وهب من أصحاب مالك في أخذ الجزية من مجوس العرب. وقال لا تقبل منهم جزية ولابد من القتل أو الإسلام. كما دلّت الآية على أخذ الجزية من نصارى العرب، دون مشركيهم.

{ وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [30]

تشنيع على قائليهما من أهل الكتاب بأنهم بلغوا في الكفر غايته حتى ساووا المشركين.

عُزير، اسم حبر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية **عِزْرا** بن سرايا من سبط اللاويين، كان حافظا للتوراة. وقد تفضّل عليه (كورش) ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل، وأذنهم بالرجوع إلى أورشليم وبناء هيكلهم فيه، وذلك في سنة (451 ق م)، فكان عزرا زعيم أحبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم وجدّدوا الهيكل وأعاد شريعة التوراة من حفظه. فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حد أن أدعى عامتهم أنّ عزرا ابن الله، غلوا منهم في تقديسه، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم كثير من عامتهم.

قال بهذا القول فرقة من اليهود فألصق القول بهم جميعا، لأنّ سكوت الباقين عليه وعدم تغييره يلزمهم

الموافقة عليه والرضا به، وقد ذكر اسم عزرا في الآية بصيغة التصغير، فيحتمل أنّه لمّا عرّب عرّب بصيغة تشبه صيغة التصغير، فيكون كذلك اسمه عند يهود المدينة. ويحتمل أنّ تصغيره جرى على لسان يهود المدينة تحبيبا فيه.

{ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } قول النصارى ببنوة المسيح معلوم مشهور. وقد مضى الكلام على المسيح عند قوله تعالى {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} [البقرة 87]. وعند قوله تعالى {اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} [آل عمران:45]

{ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ } حال من القول، والمراد أنه قول لا يعدو الوجود في اللسان وليس له ما يحقّقه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كاذبا كقوله تعالى {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا} [الكهف:5]. وفي هذا أيضا إلزام لهم بهذا القول.

المضاهاة، المشابهة، وإسنادها إلى القائلين: على تقدير مضاف ظاهر من كلام، أي يضاهي قولُهم.

{ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ } هم المشركون من العرب، ومن اليونان، وغيرهم، وكونهم من قبل النصارى ظاهر، وأمّا كونهم من قبل اليهود، فلأن اعتقاد بنوة عزير طارئ في اليهود وليس من عقيدة قدمائهم.

{ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ } دعاء مستعمل في التعجيب، وهو مركب يستعمل في التعجب من عمل شنيع، والمفاعلة فيه للمبالغة في الدعاء: أي قتلهم الله قتلا شديدا.

{ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } مستأنفة. والاستفهام فيها مستعمل في التعجيب من حالهم في اتباع الباطل، حتّى شبّه المكان الذي يصرفون إليه باعتقادهم بمكان مجهول من شأنه أن يسأل عنه باسم الاستفهام عن المكان.

{ يُؤْفَكُونَ } يصرفون. يقال: أَفَكَه يأفِكَه إذا صرفه، قال تعالى: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات:9] والإفك بمعنى الكذب قد جاء من هذه المادة، لأنّ الكاذب يصرف السامع عن الصدق، وقد تقدم ذلك غير مرة.

{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }[31]

جملة تقريريّة لزيادة التشنيع. والضمير لليهود والنصارى.

الأحبار، جمع حَبر (بفتح الحاء) وهو العالم من علماء اليهود.

الرهبان، اسم جمع لراهب وهو التقي المنقطع لعبادة الله من أهل دين النصرانية.

وإنّما خص الحَبر، بعالم اليهود لأن عظماء دين اليهودية يشتغلون بتحرير علوم شريعة التوراة فهم علماء في الدين، وخصّ الراهب بعظيم دين النصرانية، لأنّ دين النصارى قائم على أصل الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة.

{ **أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** } ومعنى اتخاذهم هؤلاء أربابا، أنّ اليهود ادعوا لبعضهم بنوّة الله تعالى وذلك تأليه، وأنّ النصارى أشدّ منهم في ذلك إذ كانوا يسجدون لصور عظماء ملّتهم، مثل صورة مريم، وصور الحواريين، وصورة يحيى بن زكرياء، والسجود من شعار الربوبية، وكانوا يستنصرون بهم في حروبه. وهذا حال كثير من طوائفهم وفرقهم. ولأنّهم كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم المخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنّه من الدين، فكانوا يعتقدون أن أحبارهم ورهبانهم يحلّلون ما حرم الله، ويحرّمون ما أحل الله، وهذا مطرد في جميع أهل الدينين، ولذلك أفحم به النبيّ ﷺ عُديّا بن حاتم لمّا وفد عليه قبيل إسلامه، لمّا سمع قوله تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} قال عديّ: لسنا نعبدهم فقال ﷺ: " أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه - فقال: بلى ، قال: فتلك عبادتهم".

وتخصيص المسيح بالذكر لأن تأليه النصارى إيّاه أشنع وأشهر.

{ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا** } في موضع الحال، زيادة التشنيع عليهم وإنكار صنيعهم بأنّهم لا عذر لهم فيما زعموا، لأنّ وصايا كتب الملّتين طافحة بالتحذير من عبادة المخلوقات ومن إشراكها في خصائص الإلهية.

{ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } مستأنفة لقصد التنزيه والتبرئ مما افتروا على الله تعالى، ولذلك سمي ذلك إشراكا.

{ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }[32]

استئناف ابتدائي لزيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب، بكشف ما يضمرونه للإسلام من الممالاة، والتألب على مناواة الدين، حين تحقّقوا أنّه في انتشار وظهور فثار حسدهم وخشوا ظهور فضله على دينهم.

والضمير في {يُرِيدُونَ} عائد إلى {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [29].

الإطفاء، إبطال الإسراج وإزالة النور بنفخ عليه، أو هبوب رياح، أو إراقة مياه على الشيء المستنير من سراج أو جمر. و**النور**، الضوء وقد تقدم عند قوله تعالى {نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} [الأنعام:91].

والكلام تمثيل لحالهم في محاولة تكذيب النبيّ ﷺ، وصدّ النّاس عن اتباع الإسلام، وإعانة المناوئين للإسلام بالقول والإرجاف، والتحريض على المقاومة. والانضمام إلى صفوف الأعداء في الحروب، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة، بحال من يحاول إطفاء نور بنفخ فمه عليه.

وإضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث، وأنّ أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

{ **وَيَأْبَى اللَّهُ** } الإباء والإباية، الامتناع من الفعل، وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال

من يحاوله محاول على فعل وهو يمتنع منه.
{ **إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } الإتمام مؤذن بالزيادة والانتشار ولذلك لم يقل: ويأبى الله إلّا أن يبقي نوره.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[33]

بيان لجملة {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ} [32]. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن الدين.
{ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ** } صيغة قصر، أي هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يطفئونه.
{ **بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ** } التنويه بفضل الإسلام ، والتعريض بأنّ ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.
{ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** } فعل الإظهار إذا عدي بـ (على) كان مضمّنا معنى النصر أو التفضيل، أي لينصره على الأديان كلّها، أي ليكون أشرف الأديان وأغلبها. ومنه المظاهرة أي المناصرة، وقد تقدم ذكرها آنفا عند قوله {وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا} [4].
{ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** } ذُكر المشركون هنا، لأنّ ظهور دين الإسلام أشدّ حسرة عليهم من كل أمّة، لأنّهم الذين ابتدأوا بمعارضته وعداوته ودعوا الأمم للتألّب عليه واستنصروا بهم فلم يغنوا عنهم شيئا، ولأنّ أتم مظاهر انتصار الإسلام كان في جزيرة العرب وهي ديار المشركين، وزالت منها جميع الأديان الأخرى.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[34]

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** }
استئناف ابتدائي لتنبيه المسلمين على نقائص أهل الكتاب. فبعد أن ذكر تأليه عامتهم لأفاضل من أحبارهم ورهبانهم المتقدّمين، مثل عزير، بيّن للمسلمين أنّ كثيرا من الأحبار والرهبان المتأخّرين ليسوا على حال كمال، ولا يستحقّون المقام الديني الذي ينتحلونه. والمقصود من هذا التنبيه أن يعلم المسلمون تمالئ الخاصة والعامة من أهل الكتاب، على الضلال وعلى مناواة الإسلام، وأنّ غرضهم من ذلك حبّ الخاصة الاستيثار بالسيادة، وحبّ العامة الاستيثار بالمزيّة بين العرب.
وافتتاح الجملة بالنداء واقترانها بحرفي التأكيد، للاهتمام بمضمونها ورفع احتمال المبالغة فيه لغرابته.

وتقدم ذكر الأحبار والرهبان آنفا.

{ **إِنَّ كَثِيرًا** } دون جميعهم لأنّهم لم يخلوا من وجود الصالحين فيهم مثل عبد الله بن سلام ومخيريق.

الباطل، ضدّ الحقّ، أي أكلا لا مبرّر له، وإطلاق الأكل على أخذ مال الغير إطلاق شائع قال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ } [البقرة :188].

والباطل يشمل وجوها كثيرة، منها تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء النّاس، ومنها القضاء بين النّاس بغير إعطاء صاحب الحقّ حقّه المعيّن له في الشريعة، ومنها جحد الأمانات عن أربابها أو عن ورثتهم، ومنها أكل أموال اليتامى، وأموال الأوقاف والصدقات.

{ **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } وسبيل الله طريقه، استعير لدينه الموصل إليه، أي إلى رضاه. والصدّ عنه الإعراض عن متابعة الدين الحقّ في خاصة النفس، وإغراء النّاس بالإعراض عن ذلك. فيكون هذا بالنسبة لأحكام دينهم إذ يغيّرون العمل بها، ويضلّلون العامة في حقيقتها حتّى يعملوا بخلافها، وهم يحسبون أنّهم متبعون لدينهم، ويكون ذلك أيضا بالنسبة إلى دين الإسلام إذ ينكرون نبوءة محمد ﷺ ويعلمون أتباع ملّتهم أن الإسلام ليس بدين الحق.

{ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** }

معطوفة على {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا} والمناسبة بين الجملتين، أن كلتيهما تنبيه على مساوي أقوام يضعهم النّاس في مقامات الرفعة والسؤدد وليسوا أهلا لذلك. فمضمون الجملة الأولى بيان مساوي أقوام رفع الناس أقدارهم لعلمهم ودينهم، وكانوا منطوين على خبائث خفيّة، ومضمون الجملة الثانية بيان مساوي أقوام رفعهم الناس لأجل أموالهم، فبين الله أنّ تلك الأموال إذا لم تنفق في سبيل الله لا تغني عنهم شيئا من العذاب.

وأما وجه مناسبة نزول هذه الآية في هذه السورة، فذلك أنّ هذه السورة نزلت إثر غزوة تبوك، وكانت غزوة تبوك في وقت عسرة، وكانت الحاجة إلى العدة والظهر كثيرة، كما أشارت إليه آية {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ} [92]

وقد ورد في (السيرة) أنّ رسول الله ﷺ حضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، وقد أنفق عثمان بن عفان ألف دينار ذهبا على جيش غزوة تبوك وحمل كثير من أهل الغنى، فالذين انكمشوا عن النفقة هم الذين عنتهم الآية بـ {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ولا شك أنهم من المنافقين.

الكَنز، (بفتح الكاف) مصدر كنز إذا ادّخر مالا، ويطلق على المال من الذهب والفضة الذي يخزن.

{ **وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** }، سَبِيلِ اللَّهِ هنا، الجهاد. ولا ينفقونها، انتفاء الإنفاق الواجب، وهو الصدقات الواجبة والنفقات الواجبة، إمّا وجوبا مستمرّا كالزكاة، وإمّا وجوبا عارضا كالنفقة في الحجّ الواجب، والنفقة في نوائب المسلمين مما يدعو النّاس إليه ولّاة العدل.

والوعيد منوط بالكنز وعدم الإنفاق، فليس الكنز وحده بمتوعّد عليه، وليست الآية في معرض أحكام ادخار المال، وفي معرض إيجاب الإنفاق، ولا هي في تعيين سبل البرّ والمعروف التي يجب الإخراج لأجلها من المال، ولا داعي إلى تأويل الكنز بالمال الذي لم تؤد زكاته حين وجوبها، ولا إلى تأويل الإنفاق بأداء الزكاة الواجبة، ولا إلى تأويل {سَبِيلِ اللَّهِ} بالصدقات الواجبة، لأنّه ليس المراد باسم الموصول العموم، بل أريد به العهد، فلا حاجة إلى إدعاء أنّها نسختها آية وجوب الزكاة، فإن وجوب الزكاة سابق على وقت نزول هذه الآية.

ووقع في الموطأ أنّ عبد الله بن عمر سئل عن الكنز في آية {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ} ما هو؟ فقال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة. وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ : "من كان عنده مال لم يؤد زكاته مثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه ثم يأخذ بلَهْزَمَتَيْه (يعني شدقيه) ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك". **أي فهو بعض الكنز المذموم في الكتاب والسنّة وليس كل كنز مذموما.**

وشذ أبو ذر فحمل الآية على عموم الكانزين في جميع أحوال الكنز، وعلى عموم الإنفاق، وحمل سبيل الله على وجوه البرّ، فقال بتحريم كنز المال، وكأنه تأول {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} على معنى ما يسمّى عطف التفسير، أي على معنى العطف لمجرد القرن بين اللفظين، فكان أبو ذر بالشام ينهى النّاس على الكنز ويقول: بشر الكانزين بمكاو من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم، فقال له معاوية: وهو أمير الشام، في خلافة عثمان: إنّما نزلت الآية في أهل الكتاب، فقال أبو ذر: نزلت فيهم وفينا، واشتد قول أبي ذر على النّاس ورأوه قولا لم يقله أحد في زمن رسول الله ﷺ وصاحبيه فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستجلبه من الشام وخشى أبو ذر الفتنة في المدينة فاعتزلها وسكن الربذة وثبت على رأيه وقوله.

{ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } يجوز كون الضمير عائدا إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون. أمر رسوله بأن ينذر جميعهم بالعذاب. والتبشير مستعار للوعيد على طريقة التهكم.

{ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ }[35]

الحمي، شدّة الحرارة. يقال: حمِيَ الشيء إذا أشتدّ حرّه.

الكَيُّ، أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل.

الجباه، جمع جبهة وهي أعلى الوجه مما يلي الرأس.

الجنوب، جمع جنب وهو جانب الجسد من اليمين واليسار.

الظهور، جمع ظهر وهو ما بين العنفقة إلى منتهى فقار العظم.

والمعنى، تعميم جهات الأجساد بالكيّ فإن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكيّ، فيحصل مع التعميم إذاقة لأصناف من الآلام. وسلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بالتعداد لاستحضار حالة ذلك العقاب الأليم، تهويلا لشأنه.

{ **هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ** } مقول قول محذوف، وحذف القول في مثله كثير في القرآن، والإشارة إلى المحمي.، وزيادة قوله { لأَنفُسِكُمْ } للتنديم والتغليظ.

{ **فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** } توبيخ وتنديم. والفاء في {فَذُوقُوا} لتفريع مضمون جملة التوبيخ على جملة التنديم الأولى.

الذوق، مجاز في الحسّ بعلاقة الإطلاق، وتقدم عند قوله تعالى {لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} [المائدة:95].

و {مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} مفعول لفعل الذوق على تقدير مضاف يعلم من المقام: أي ذوقوا عذاب ما كنتم تكنزون.

{ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [36]

{ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** }

استئناف ابتدائي لإقامة نظام التوقيت للأمّة على الوجه الحقّ الصالح لجميع البشر، والمناسب لما وضع الله عليه نظام العالم الأرضي، وما يتصل به من نظام العوالم السماويّة، بوجه محكم لا مدخل لتحكّمات الناس فيه، وليوضّح تعيين الأشهر الحرم من قوله { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} [5]، بعدما عقّب ذلك من التفاصيل في أحكام الأمن والحرب مع فرق الكفار من المشركين وغيرهم.

والمقصود، ضبط الأشهر الحرم وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء الذي أفسد أوقاتها، وأفضى إلى اختلاطها، وأزال حرمة ما له حرمة منها، وأكسب حرمة لما لا حرمة له منها. وإن ضبط التوقيت من أصول إقامة نظام الأمة ودفع الفوضى عن أحوالها.

الشهور، الشهور القمرية بقرينة المقام، لأنّها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم، وهي أقدم أشهر التوقيت في البشر وأضبطها، لأنّ اختلاف أحوال القمر مساعد على اتخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال، وتاريخ الحوادث الماضية، بمجرّد المشاهدة، فإنّ القمر كرة تابعة لنظام الأرض. قال تعالى {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس:5]، ولأن الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط وأبعد عن الخطأ، لأنّها لا تتناولها أيدي الناس بالتغيير والتبديل.

وما حدثت الأشهر الشمسيّة وسنتها إلّا بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع النّاس بنظام سير الشمس في ضبط الفصول الأربعة، وجعلوها حسابا لتوقيت الأعمال التي لا يصلح لها إلا بعض الفصول، مثل الحرث والحصاد وأحوال الماشية، وقد كان الحساب الشمسي معروفا عند القبط والكلدانيين، وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، وتعيين الشمسيّة للأعياد، ومعلوم أن الأعياد في الدرجة الثانية من أحوال البشر لأنها راجعة إلى التحسين، فأما ضبط الأشهر فيرجع إلى الحاجي. فألهم الله البشر، فيما ألهمهم من تأسيس أصول حضارتهم، أن اتخذوا نظاما لتوقيت أعمالهم المحتاجة للتوقيت، وأن جعلوه مستندا إلى مشاهدات بيّنة واضحة لسائر النّاس، لا تنحجب عنهم إلّا قليلا في قليل، ثم لا تلبث أن تلوح لهم واضحة باهرة، وألهمهم أن اهتدوا إلى ظواهر مما خلق الله له نظاما مطردا. وذلك كواكب السماء ومنازلها، كما قال في بيان حكمة ذلك {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [يونس:5]، وأن جعلوا توقيتهم اليومي مستندا إلى ظهور نور الشمس ومغيبه عنهم، لأنّهم وجدوه على نظام لا يتغير، ولاشتراك الناس في مشاهدة ذلك، وبذلك تنظّم اليوم والليلة، وجعلوا توقيتهم الشهري بابتداء ظهور أول أجزاء القمر وهو المسمى هلالا إلى انتهاء محاقه فإذا عاد إلى مثل الظهور الأوّل فذلك ابتداء شهر آخر، وجعلوا مراتب أعداد أجزاء المدة المسماة بالشهر مرتبة بتزايد ضوء النصف المضيء من القمر كل ليلة، وبإعانة منازل ظهور القمر كل ليلة حذو شكل من النجوم سموه بالمنازل. وقد وجدوا ذلك على نظام مطرد، ثم ألهمهم فرقبوا المدة التي عاد فيها الثمر أو الكلأ الذي ابتدأوا في مثله العد وهي أوقات الفصول الأربعة، فوجدوها قد احتوت على اثني عشر شهرا فسموا تلك المدة عاما، فكانت الأشهر لذلك اثني عشر شهرا، لأن ما زاد على ذلك يعود إلى مثل الوقت الذي ابتدأوا فيه الحساب أول مرة، ودعوها بأسماء لتمييز بعضها عن بعض دفعا للغلط، وجعلوا لابتداء السنين بالحوادث على حسب اشتهارها عندهم، إن أرادوا ذلك وذلك واسع عليهم، فلما أراد الله أن يجعل الناس عبادات ومواسم وأعيادا دورية تكون مرة في كل سنة، أمرهم أن يجعلوا العبادة في الوقت المماثل لوقت أختها ففرض على إبراهيم وبنيه حجّ البيت كل سنة في الشهر الثاني عشر، وجعل لهم زمنا محترما بينهم يأمنون فيه على نفوسهم وأموالهم ويستطيعون فيه السفر البعيد وهي الأشهر الحرم، فلما حصل ذلك كله بمجموع تكوين الله تعالى للكواكب، وإيداعه الإلهام بالتفطن لحكمتها، والتمكن من ضبط مطرد أحوالها، وتعيينه ما عين من العبادات والأعمال بمواقيتها، كان ذلك كله مرادا عنده فلذلك قال {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } في تقديره، وهو التقدير الذي به وجدت المقدورات، أعني تعلق القدرة بها تعلقا تنجيزيا كقوله {كِتَابًا مُؤَجَّلاً} [آل عمران:145] أي قدرا محدّدا.

وهذه الأشهر معلومة بأسمائها عند العرب، وقد اصطلحوا على أن جعلوا ابتداء حسابها بعد موسم الحج، فمبدأ السنة عندهم هو ظهور الهلال الذي بعد انتهاء الحج وذلك هلال المحرّم، فلذلك كان أوّل السنة العربية شهر المحرم بلا شك.
والأربعة الحرم هي المعروفة عندهم: ثلاثة منها متوالية لا اختلاف فيها بين العرب وهي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم)، والرابع فرد وهو (رجب) عند جمهور العرب، إلا ربيعة فهم يجعلون الرابع رمضان ويسمونه رجبا، وأحسب أنهم يصفونه بالثاني مثل ربيع وجمادى، ولا اعتداد بهؤلاء لأنهم شذوا كما لم يعتد بالقبيلة التي كانت تحل أشهر السنة كلها، وهي قضاعة.
وقد بين إجمال هذه الآية النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع بقوله: {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} "ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. "
وتحريم هذه الأشهر الأربعة مما شرعه الله لإبراهيم عليه السلام لمصلحة الناس، وإقامة الحجّ، كما قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ} [المائدة:97].
واعلم أن تفضيل الأوقات والبقاع يشبه تفضيل الناس، فتفضيل الناس بما يصدر عنهم من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكريمة، وتفضيل غيرهم مما لا إرادة له بما يقارنه من الفضائل، الواقعة فيه، أو المقارنة له.
فتفضيل الأوقات والبقاع إنّما يكون بجعل الله تعالى بخبر منه، أو بإطلاع على مراده، لأنّ الله إذا فضّلها جعلها مظان لتطلّب رضاه، مثل كونها مظان إجابة الدعوات، أو مضاعفة الحسنات، كما قال تعالى {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [القدر:3] أي من عبادة ألف شهر لمن قبلنا من الأمم، وقال النبي ﷺ: " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلّا المسجد الحرام".
والله العليم بالحكمة التي لأجلها فضّل زمن على زمن، وفضل مكان على مكان والأمور المجعولة من الله تعالى هي شؤون وأحوال أرادها الله، فقدّرها، فأشبهت الأمور الكونية، فلا يبطلها إلا إبطال من الله تعالى، كما أبطل تقديس السبت بالجمعة، وليس للنّاس أن يجعلوا تفضيلا في أوقات دينية.
{ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** } الإشارة إلى المذكور من عدة الشهور الاثني عشر، وعدة الأشهر الحرم. أي ذلك التقسيم هو الدين الكامل، وما عداه لا يخلو من أن اعتراه التبديل أو التحكّم فيه لاختصاص بعض الناس بمعرفته على تفاوتهم في صحة المعرفة.
الدين، النظام المنسوب إلى الخالق الذي يدان النّاس به، أي يعاملون بقوانينه. وتقدم عند قوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ} [آل عمران:19]، كما وصف بذلك في قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم:30].

{ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } تفريع على {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} فإنّها، لما كانت حرمتها مما شرعه الله، أوجب الله على النّاس تعظيم حرمتها بأن يتجنّبوا الأعمال السيئة فيها.

وعن ابن عباس أنّه فسر ضمير فيهن بالأشهر الاثني عشر فالمعنى عنده: فلا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في جميع السنة، يعنى ان حرمة الدين أعظم من حرمة الأشهر الأربعة في الجاهلية، وهذا يقتضي عدم التفرقة في ضمائر التأنيث بين {فِيْهَا} و {فِيهِنَّ} وأن الاختلاف بينهما في الآية تفنن.

ظلم النفس، هو فعل ما نهى الله عنه وتوعّد عليه، فإن فعله إلقاء بالنفس إلى العذاب، فكان ظلما للنفس قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ} [النساء:64].

والأنفس تحتمل أنها أنفس الظالمين، أي لا يظلم كل واحد نفسه.

ويجوز أن يكون الظلم بمعنى الاعتداء، ويكون المراد بالأنفس أنفس غير الظالمين، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين للتنبيه على أنّ الأمّة كالنفس من الجسد على حد قوله تعالى {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ} [النور:61]. والمراد على هذا تأكيد حكم الأمن في هذه الأشهر.

و لا يشكل الأمر بمقاتلة الرسول عليه الصلاة والسلام هوازن أياما من ذي القعدة، لأنّهم ابتدأوا بقتال المسلمين قبل دخول الأشهر الحرم، فاستمرت الحرب إلى أن دخلوا في شهر ذي القعدة، وما كان ليكف القتال عند مشارفة هزيمة المشركين وهم بدأوهم أول مرة. وعلى هذا المحمل يكون حكم هذه الآية قد انتهى بانقراض المشركين من بلاد العرب بعد سنة الوفود.

والمحمل الأول للآية أخذ به الجمهور، وأخذ بالمحمل الثاني جماعة: فقال ابن المسيب، وابن شهاب، وقتادة، وعطاء الخراساني، حرمت الآية القتال في الأشهر الحرم ثم نسخت بإباحة الجهاد في جميع الأوقات، فتكون هذه الآية مكمّلة لما بقي من مدة حرمة الأشهر الحرم، حتى يعم جميع بلاد العرب حكم الإسلام، بإسلام جمهور القبائل وضرب الجزية على بعض قبائل العرب وهم النصارى واليهود. وقال عطاء ابن أبي رباح: يحرم الغزو في الأشهر الحرم إلا أن يبدأ العدو فيها بالقتال ولا نسخ في الآية.

{ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }

أحسب أن موقع هذه الآية موقع الاحتراس من ظنّ أنّ النهي عن انتهاك الأشهر الحرم يقتضي النهي عن قتال المشركين فيها إذا بدأوا بقتال المسلمين. فيكون المعنى فلا تنتهكوا حرمة الأشهر الحرم بالمعاصي، أو باعتدائكم على أعدائكم، فإن هم بادأوكم بالقتال فقاتلوهم.

{ كَافَّةً } كلمة تدل على العموم والشمول بمنزلة (كلّ) لا يختلف لفظها باختلاف المؤكد من أفراد وتثنية وجمع، ولا من تذكير وتأنيث. والمقصود من تعميم الذوات تعميم الأحوال لأنّه تبع لعموم الذوات، أي كلّ فرق المشركين، فكلّ فريق وجد في حالة ما، وكان قد بادأ المسلمين بالقتال، فالمسلمون مأمورون بقتاله.

{ **كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** } أصلها كاف التشبيه استعيرت للتعليل بتشبيه الشيء المعلول بعلته، لأنه يقع على مثالها ومنه قوله تعالى {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ} [البقرة:197].

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } . تأييد وضمان بالنصر عند قتالهم المشركين، لأنّ المعيّة هنا معية تأييد على العمل، وليست معية علم، إذ لا تختص معية العلم بالمتقين.

{ **وَاعْلَمُوا** } للاهتمام بمضمونها كما تقدم في قوله تعالى{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [الأنفال:41].

{ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [37]

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ} [36]، لأنّ ذلك كالمقدّمة إلى المقصود وهو إبطال النسيء وتشنيعه.

النسيء، يطلق على الشهر الحرام الذي أرجئت حرمته وجعلت لشهر آخر. فالنسيء فعيل بمعنى مفعول من نَسَأَ المهموز اللام، وفعله نسأ المهموز، أي أخّر.

وأحسن ما روي في صفة ذلك قول أبي وائل، أنّ العرب كانوا أصحاب حروب وغارات فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها، فقالوا لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئا لنهلكن.

والذي يجب اعتماده أنّ أول من نسأ النسيء هو حذيفة ابن عبد فقيم وهو الملقب بـ (**القَلَمَّس**).

قال ابن عطية: كان بنو فقيم أهل دين في العرب وتمسك بشرع إبراهيم فانتدب منهم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد فقيم فنسأ الشهور للعرب، ثم خلفه ابنه عباد. ثم ابنه قلع، ثم ابنه أمية، ثم ابنه عوف، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة وعليه قام الإسلام". وتقريب زمن ابتداء العمل بالنسيء في أواخر القرن الثالث قبل الهجرة، أي في حدود سنة (220 ق هـ).

{ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ** } صيغة القصر تقتضي أنّه لا يعدو كونه من أثر الكفر لمحبة الاعتداء والغارات فهو قصر حقيقي، ويلزم من كونه زيادة في الكفر. ووجه كونه كفرا أنّهم يعلمون أنّ الله شرع لهم الحجّ ووقّته بشهر من الشهور القمرية المعدودة المسماة بأسماء تميزها عن الاختلاط، فلما وضعوا النسيء قد علموا أنهّم يجعلون بعض الشهور في غير موقعه، ويسمونه بغير اسمه، ويصادفون إيقاع الحجّ في غير الشهر المعيّن له، أعني شهر ذي الحجة، فهم قد اعترفوا بأنّه تأخير شيء عن وقته، وهم في ذلك مستخفّون بشرع الله تعالى، ومخالفون لما وقّت لهم عن تعمّد، مثبتين الحل لشهر حرام والحرمة لشهر غير حرام، وذلك جرأة على دين الله واستخفاف به، فلذلك يشبه جعلهم لله شركاء، فكما جعلوا لله شركاء في الإلهية جعلوا من أنفسهم شركاء لله في التشريع، يخالفونه فيما شرعه فهو بهذا الاعتبار كالكفر.

{ **يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا** } خبر ثان عن النسيء أي هو ضلال مستمر، لما اقتضاه الفعل المضارع من التجدّد.

{ **يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا** } بيان لسبب كونه ضلالا. وقد اختير المضارع لهذه الأفعال لدلالته على التجدّد والاستمرار، أي هم في ضلال متجدّد مستمر بتجدد سببه، وهو تحليله تارة وتحريمه أخرى، ومواطأة عدة ما حرم الله. وإسناد الضلال إلى الذين كفروا يقتضي أنّ النسيء كان عمله مطّردا بين جميع المشركين من العرب.

{ **لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** } أي يفعلون ذلك ليوافقوا عدد الأشهر الحرم فتبقى أربعة. فقد احتفظوا بالعدد وأفسدوا المعدود.

المواطأة، الموافقة، وهي مفاعلة عن الوطئ، شبّه التماثل في المقدار وفي الفعل بالتوافق وطئ الأرجل. ومن هذا قولهم (وقوع الحافر على الحافر)

{ **فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ** } دون أن يقال فيحلّوه، لزيادة التصريح بتسجيل شناعة عملهم، وهو مخالفتهم أمر الله تعالى وإبطالهم حرمة بعض الأشهر الحرم، تلك الحرمة التي لأجلها زعموا أنّهم يحرمون بعض الأشهر الحلال حفاظا على عدة الأشهر التي حرّمها الله تعالى.

{ **زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، أي لأن الشيطان زيّن لهم سوء أعمالهم فحسّن لهم القبيح.

التزيين، التحسين، أي جعل شيء زيْنا، وهو إذا يسند إلى ما لا تتغير حقيقته فلا يصير حسنا، يؤذن بأنّ التحسين تلبيس. وتقدّم التزيين في قوله تعالى {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [البقرة:212]، وقوله {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام:108].

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** } عطف على {زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ} فهي مشمولة لمعنى الاستئناف البياني المراد منه التعليل لتلك الحالة الغريبة. فبعد أن أفيد السائل بأن سبب ذلك الاضطراب هو تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، أفيد بأن دوامهم عليه لأن الله أمسك عنهم اللطف والتوفيق، الذين بهما يتفطن الضال لضلاله فيقلع عنه، جزاءا لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركات الضلال إلى أقصى غاية.

واعلم أنّ حرمة الأزمان والبقاع إنما تُتلقى عن الوحي الإلهي لأن الله الذي خلق هذا العالم هو الذي يسنّ له نظامه فبذلك تستقر حرمة كل ذي حرمة في نفوس جميع الناس، إذ ليس في ذلك عمل لبعضهم دون بعض، فإذا أدخل على ما جعله الله من ذلك تغيير تقشّعت الحرمة من النفوس فلا يرضى فريق بما وضعه غيره من الفرق، فلذلك كان النسيء زيادة في الكفر لأنّه من الأوضاع التي اصطلح عليها النّاس، كما اصطلحوا على عبادة الأصنام بتلقين عمرو بن لحيّ.

وقد أوحى الله لرسوله ﷺ أن العام الذي يحج فيه يصادف يوم الحج منه يوم تسعة من ذي الحجة، على

الحساب الذي يتسلسل من يوم خلق الله السماوات والأرض، وأن فيه يندحض أثر النسيء ولذلك قال النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض" .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ }[38]

هذا ابتداء خطاب للمؤمنين للتحريض على الجهاد في سبيل الله، بطريقة العتاب على التباطئ بإجابة دعوة النفير إلى الجهاد، والمقصود بذلك غزوة تبوك. قال ابن عطية: " لا اختلاف بين العلماء في أنّ هذه الآية نزلت عتابا على تخلّف من تخلّف عن غزوة تبوك، إذ تخلّف عنها قبائل ورجال من المؤمنين والمنافقون".

وهو خطاب للذين حصل منهم التثاقل، وكان رسول الله ﷺ استنفر المسلمين إلى تلك الغزوة، وكان ذلك في وقت حرّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، حين نضجت الثمار، وطابت الظلال، وكان المسلمون يومئذ في شدّة حاجة إلى الظهر والعدّة، فلذلك سميت (غزوة العسرة) كما سيأتي في هذه السورة، فجلّى رسول الله للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد، وكان قبل ذلك لا يريد غزوة إلّا وَرَّى بما يوهم مكانا غير المكان المقصود، فحصل لبعض المسلمين تثاقل، ومن بعضهم تخلّف، فوجه الله إليهم هذا الملام المعقّب بالوعيد.

فإنّ نحن جرينا على أن نزول السورة كان دفعة واحدة، وأنّه بعد غزوة تبوك، كما هو الأرجح، وهو قول جمهور المفسرين، كان محمل هذه الآية أنّها عتاب على ما مضى، وكانت {إِذَا} مستعملة ظرفا للماضي، على خلاف غالب استعمالها.

{ مَا لَكُمْ }، الـ (مَا) اسم استفهام إنكاري، و(لَكُمْ) خبر عن الاستفهام، أي شيء ثبت لكم.

النّفر، الخروج السريع من موضع إلى غيره لأمر يحدث، وأكثر ما يطلق على الخروج إلى الحرب، ومصدره حينئذ النفير.

سبيل الله، الجهاد، سمّي بذلك لأنّه كالطريق الموصل إلى الله، أي إلى رضاه

{ اثَّاقَلْتُمْ } أصله تثاقلتم قلبت التاء المثناة ثاء مثلثة لتقارب مخرجيهما طلبا للإدغام. في موضع الحال من ضمير الجماعة، وتلك الحالة هي محل الإنكار، أي ما لكم متثاقلين. وفيه تعريض بأنّ بطأهم ليس عن عجز، ولكنّه عن تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم.

{ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ } تمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلّبين للعذر عن الجهاد كسلا وجبنا، بحال من يطلب منه النهوض والخروج، فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض.

{ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا }الاستفهام إنكاري توبيخي، إذ لا يليق ذلك بالمؤمنين.

{ **مِنْ الآخِرَةِ** } أي كيف ترضون بالحياة الدنيا بدلا عن الآخرة. ومثل ذلك لا يُرضى به. والمراد بالحياة الدنيا، وبالآخرة: منافعهما، فإنهم لما حاولوا التخلّف عن الجهاد قد آثروا الراحة في الدنيا على الثواب الحاصل للمجاهدين في الآخرة.

واختير فعل (رَضِيتُمْ) دون غيره نحو آثرتم أو فضلتم، مبالغة في الإنكار، لأنّ فعل رَضِي بكذا يدلّ على انشراح النفس. ومنه قول أبي بكرالصديق في حديث الغار "فشرب حتّى رضيت".

المتاع، اسم مصدر تمتّع، فهو الالتذاذ والتنعم، كقوله {مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ} [عبس:32].

{ **قَلِيلٌ** } بمعنى ضعيف ودنيء. استعير القليل للتافه.

{ **فِي الآخِرَةِ** } المقايسة. كقوله {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [الرعد:26]، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم: " ما الدنيا في الآخرة إلّا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع". أي متاع الحياة الدنيا إذا أقحم في خيرات الآخرة كان قليلا بالنسبة إلى كثرة خيرات الآخرة.

{ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[39]

هذا وعيد وتهديد عقّب به الملام السابق، لأنّ اللوم وقع على تثاقل حصل. ولماّ كان التثاقل مفضيا إلى التخلّف عن القتال، صرح بالوعيد والتهديد إن يعودوا لمثل ذلك التثاقل، فهو متعلّق بالمستقبل كما هو مقتضى أداة الشرط. فالجملة مستأنفة لغرض الإنكار بعد اللوم.

فإن كان هذا وعيدا فقد اقتضى أن خروج المخاطبين إلى الجهاد الذي استنفرهم إليه الرسول ﷺ قد وجب على أعيانهم كلهم بحيث لا يغني بعضهم عن بعض. وعن ابن عباس أن هذا الحكم منسوخ نسخه قوله تعالى {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [122]، فيكون الجهاد قد سبق له حكم فرض العين ثم نقل إلى فرض الكفاية. وهذا بناء على أنّ المراد بالعذاب الأليم في قوله: {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} هو عذاب الآخرة كما هو المعتاد في إطلاق العذاب ووصفه بالأليم.

وقيل المراد بالعذاب الأليم عذاب الدنيا كقوله {بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [52]، فلا يكون في الآية حجّة على كون ذلك الجهاد واجبا على الأعيان، ولكنّ الله توعّدهم، إن لم يمتثلوا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، بأن يصيبهم بعذاب في الدنيا، فيكون الكلام تهديدا لا وعيدا. وقد يرجّح هذا الوجه بأنّه قرن بعواقب دنيوية في قوله {وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} .

والعقوبات الدنيوية مصائب تترتب على إهمال أسباب النجاح وبخاصة ترك الانتصاح بنصائح الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أصابهم يوم أحد. فالمقصود تهديدهم بأنّهم إن تقاعدوا عن النفير هاجمهم العدو في

ديارهم فاستأصلوهم وأتي الله بقوم غيرهم.
{ **وَيَسْتَبْدِلْ** } يبدّل، فالسين والتاء للتأكيد، والبدل هو المأخوذ عوضا كقوله {وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} [البقرة:108]. أي ويستبدل بكم غيركم.
{ **وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا** } الكلام في قوة الحصر، كأنه قيل: إلّا تنفروا لا تضروا إلّا أنفسكم.
{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل للكلام لأنّه يحقّق مضمون لحاق الضرّ بهم، لأنّه قدير عليهم.

{ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [40]

{ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** }
استئناف بياني لقوله { وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [39]. فالذي نصره حين كان ثاني اثنين قدير على نصره وهو في جيش عظيم، فتبيّن أن تقدير قعودهم عن النفير لا يضرّ الله شيئا.
{ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى النبي ﷺ، وإن لم يتقدّم له ذكر، لأنّه واضح من المقام.
{ **إِذْ أَخْرَجَهُ** } المراد خروجه مهاجرا. وأسند الإخراج إلى الذين كفروا لأنّهم تسبّبوا فيه بأن دبّروا لخروجه غير مرة كما قال تعالى {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ} [الأنفال:30]، وبأن آذوه وضايقوه في الدعوة إلى الدين، وضايقوا المسلمين بالأذى والمقاطعة، فتوفّرت أسباب خروجه، ولكنّهم كانوا مع ذلك يتردّدون في تمكينه من الخروج خشية أن يظهر أمر الإسلام بين ظهراني قوم آخرين، فلذلك كانوا في آخر الأمر مصمّمين على منعه من الخروج، وأقاموا عليه من يرقبه، وحاولوا الإرسال وراءه ليردّوه إليهم، وجعلوا لمن يظفر به جزاء جزلا، كما جاء في حديث سراقة بن جعشم.
{ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ** } حال من ضمير النصب في {أَخْرَجَهُ}، والاثنان هما النبيّ ﷺ وأبو بكر، بتواتر الخبر وإجماع المسلمين كلّهم. ولكون الثاني معلوما للسامعين كلّهم لم يحتج إلى ذكره، وأيضا لأن المقصود تعظيم هذا النصر مع قلّة العدد.
{ **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** } التعريف في الغار للعهد، لغار يعلمه المخاطبون، وهو الذي اختفى فيه النبيّ ﷺ وأبو بكر حين خروجهما مهاجرين إلى المدينة، وهو غار في جبل ثور خارج مكّة إلى جنوبها، بينه وبين مكّة نحو خمسة أميال، في طريق جبليّ. والغار الثقب في التراب أو الصخر.

{ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }
الصاحب، هو {ثَانِيَ اثْنَيْنِ} وهو أبو بكر الصديق. ومعنى الصاحب، المتّصف بالصحبة، وهي المعيّة في غالب الأحوال، ومنه سمّيت الزوجة صاحبة.
وهذا القول صدر من النبيّ ﷺ لأبي بكر حين كانا مختفيين في غار ثور، فكان أبو بكر حزينا إشفاقا على النبي ﷺ أن يشعر به المشركون، فيصيبوه بمضرّة، أو يرجعوه إلى مكّة.
{ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } المعيّة هنا، معيّة الإعانة والعناية، كما حكى الله تعالى عن موسى وهارون {قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا} [طه:46] وقوله {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [الأنفال:12]
{ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
التفريع مؤذن بأنّ السكينة أنزلت عقب الحلول في الغار، وأنّها من النصر، إذ هي نصر نفسانيّ، وإنّما كان التأييد بجنود لم يروها نصرا جثمانيا. وجاء نظم الكلام على هذا السبك البديع للمبادأة بالدلالة على أنّ النصر حصل في أزمان وأحوال ما كان النصر ليحصل في أمثالها لغيره لولا عناية الله به، وأنّ نصره كان معجزة خارقا للعادة.
وبهذا البيان تندفع الحيرة التي حصلت للمفسرين في معنى الآية، حتّى أغرب كثير منهم فأرجع الضمير المجرور من قوله {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} إلى أبي بكر، مع أنّ المقام لذكر ثبات النبيّ ﷺ وتأييد الله إيّاه، وما جاء ذكر أبي بكر إلّا تبعا لذكر ثبات النبي ﷺ.
السكينة، اطمئنان النفس عند الأحوال المخوفة، مشتقّة من السكون، وقد تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة:248]
التأييد، التقوية والنصر، وهو مشتقّ من اسم اليد، و تقدم عند قوله {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} [البقرة:87].
الجنود، جمع جند بمعنى الجيش، وتقدم آنفا في هذه السورة.
الكلمة، أصلها اللفظة من الكلام، ثم أطلقت على الأمر والشأن ونحو ذلك من كلّ ما يتحدّث به النّاس ويخبر المرء به عن نفسه من شأنه، قال تعالى {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [الزخرف:28]. ومنه قولهم: لا تفرّق بين كلمة المسلمين، أي بين أمرهم واتفاقهم، وجمع الله كلمة المسلمين.
{ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا } شأنهم وكيدهم وما دبّروه من أنواع المكر.
السفلى، الحقيرة لأنّ السفل يكنى به عن الحقارة.
{ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا } مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام لأنّه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنّها صارت سفلى أفاد أنّ العلاء انحصر في دين الله وشأنه. فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على

كلمة الذين كفرو، إذ ليس المقصود إفادة جعل كلمة الله عليا، لما يشعر به الجعل من إحداث الحالة، بل إفادة أن العلاء ثابت لها ومقصور عليها، فكانت الجملة كالتذييل لجعل كلمة الذين كفروا سفلى.
{ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تذييل لمضمون الجملتين: لأنّ العزيز لا يغلبه شيء، والحكيم لا يفوته مقصد، فلا جرم تكون كلمته العليا وكلمة ضده السفلى.

{ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[41]

الخطاب للمؤمنين الذين سبق لومهم بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} [38]، فالنفير المأمور به ما يستقبل من الجهاد. وقد قدّمنا أن الاستنفار إلى غزوة تبوك كان عاما لكل قادر على الغزو لأنّها كانت في زمن مشقّة، وكان المغزو عدوا عظيما، فلا يقتضي هذا الأمر توجه وجوب النفير على كلّ مسلم في كل غزوة، ولا على المسلم العاجز لعمى أو زمانة أو مرض، وإنّما يجري العمل في كل غزوة على حسب ما يقتضيه حالها وما يصدر إليهم من نفير. وفي الحديث: " وإذا استنفرتم فانفروا ".
{ **خِفَافًا وَثِقَالاً** } خفافا، جمع خفيف وهو صفة مشبّهة من الخفّة، وهي حالة للجسم تقتضي أن يكون سهل التنقل سهل الحمل. و**الثقال** ضد ذلك، وتقدم الثقل آنفا عند قوله: {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} [38]. والخفاف والثقال هنا مستعاران لما يشابههما من أحوال الجيش وعلائقهم؛
تستعار الخفّة للإسراع إلى الحرب، والثقل الذي يناسب هذا هو الثبات في القتال.
وتستعار الخفّة لقلّة العدد، والثقل لكثرة عدد الجيش.
وتستعار الخفّة لتكرير الهجوم على الأعداء، والثقل للتثبّت في الهجوم.
وتستعار الخفّة لقلّة الأزواد أو قلّة السلاح، والثقل لضد ذلك.
وتستعار الخفّة لقلّة العيال، والثقل لضد ذلك
وتستعار الخفّة للركوب، لأنّ الراكب أخفّ سيرا، والثقل للمشي على الأرجل وذلك في وقت القتال.
وكلّ هذه المعاني صالحة للإرادة من الآية.
{ **وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** } المجاهدة المغالبة للعدوّ، وهي مشتقّة من الجُهد (بضم الجيم) أي بذل الاستطاعة في المغالبة، وهو حقيقة في المدافعة بالسلاح، فإطلاقه على بذل المال في الغزو من إنفاق على الجيش واشتراء الكراع والسلاح، مجاز بعلاقة السببية.
وقد أمر الله بكلا الأمرين فمن استطاعهما معا وجبا عليه، ومن لم يستطع إلّا واحدا منهما وجب عليه الذي

استطاعه منهما.

وتقديم الأموال على الأنفس هنا، لأنّ الجهاد بالأموال أقل حضورا بالذهن عند سماع الأمر بالجهاد، فكان ذكره أهمّ بعد ذكر الجهاد مجملا.

{ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** } أي إن كنتم تعلمون ذلك الخير وشعبه. وإبهام {خَيْرٌ} لقصد توقّع خير الدنيا والآخرة من شعب كثيرة أهمها الاطمئنان من أن يغزوهم الروم.

وفي اختيار فعل (العلم) دون الإيمان مثلا للإشارة إلى أنّ من هذا الخير ما يخفى فيحتاج متطلّب تعيين شعبه إلى أعمال النظر والعلم.

{ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }[42]

استئناف لابتداء الكلام على حال المنافقين وغزوة تبوك حين تخلّفوا واستأذن كثير منهم في التخلّف واعتلّوا بعلل كاذبة. وانتقل من الخطاب إلى الغيبة لأنّ المتحدّث عنهم هنا بعض المتثاقلين لا محالة. ومن هذه الآيات ابتدأ إشعار المنافقين بأنّ الله أطلع رسوله ﷺ على دخائلهم.

العرض، ما يعرض للنّاس من متاع الدنيا. وتقدّم في قوله {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى} [الأعراف:169] وقوله {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا} [الأنفال:67]، والمراد به الغنيمة.

القريب، الكائن على مسافة قصيرة، وهو هنا مجاز في السهل حصوله.

{ **وَسَفَرًا قَاصِدًا** } أي وسطا في المسافة غير بعيد.

الشُقّة، (بضم الشين) المسافة الطويلة.

{ **وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ** } ولكن بعد منهم المكان لأنّه شقّة، فثقل عليهم السفر. جاء الكلام موجزا.

{ **وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** } يؤذن بأنّ الآية نزلت قبل الرجوع من غزوة تبوك، فإنّ حلفهم إنّما كان بعد الرجوع وذلك حين استشعروا أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ظان كذبهم في أعذارهم.

الاستطاعة، القدرة، أي لسنا مستطيعين الخروج، وهذا اعتذار منهم وتأكيد لاعتذارهم.

{ **لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** } شاع إطلاق الخروج على السفر للغزو. وتقييده بالمعيّة إشعار بأنّ أمر الغزو لا يهمّهم ابتداء، وأنّهم إنّما يخرجون لو خرجوا خروج الناصر لغيره. تقول العرب: خرج بنو فلان وخرج معهم بنو فلان، إذا كانوا قاصدين نصرهم.

{ **يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ** } حال، أي يحلفون مهلكين أنفسهم، أي موقعينها في الهلك. و**الهلك** الفناء والموت، ويطلق على الأضرار الجسيمة، وهو المناسب هنا، أي يتسببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة، وهو ضر الدنيا

وعذاب الآخرة. وفي هذه الآية دلالة على أنّ تعمّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك.
{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } حال، أي هم يفعلون ذلك في حال عدم جدواه عليهم، لأنّ الله يعلم كذبهم ويطلع رسوله على كذبهم، فما جنوا من الحلف إلّا هلاك أنفسهم.

{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ }[43]

استأذن فريق من المنافقين النبي ﷺ، أن يتخلفوا عن الغزوة، منهم عبد الله بن أُبَيْ ابن سلول، والجِدّ بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة، وأذن النبيّ ﷺ لمن استأذنه حملا للنّاس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلما بأنّ المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئا، كما قال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [47] فعاتب الله نبيّه ﷺ في أن أذن لهم، لأنّه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلا للنبيّ ﷺ على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان.
{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ } افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفّة موجب العتاب لأنّه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين.
{ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } ألقي إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة، إيماء إلى أنّه ما أذن لهم إلّا لسبب تأوّله ورجا منه الصلاح. وهذا من صيغ التلطّف في الإنكار أو اللوم، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه.
{ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبيّ ﷺ. وحذف متعلّق {أَذِنتَ} لظهوره من السياق، أي لم أذنت لهم في القعود والتخلف.
والمراد بالذين صدقوا: الصادقون في إيمانهم، و بالكاذبين فيما أظهروه من الإيمان، وهم المنافقون. فالمراد بالذين صدقوا المؤمنون.

{ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }[44]

المعنى، أن شأن المؤمنين الذين استنفروا أن لا يستأذنوا النبيّ ﷺ في التخلّف عن الجهاد. فأمّا أهل الأعذار، كالعمي، فهم لا يستنفرهم النبيّ ﷺ، وأمّا الذين تخلفوا من المؤمنين فقد تخلفوا ولم يستأذنوا في التخلّف، لأنّهم كانوا على نيّة اللحاق بالجيش بعد خروجه.
الاستئذان، طلب الأذن، أي في إباحة عمل وترك ضدّه، لأن شأن الإباحة أن تقتضي التخيير بين أحد أمرين متضادين.

ولماّ كان الاستئذان يستلزم شيئين متضادين، كما قلنا، جاز أن يقال: استأذنت في كذا واستأذنت في ترك كذا. وإنّما يذكر غالبا مع فعل الاستئذان الأمر الذي يرغب المستأذن الإذن فيه دون ضدّه وإن كان ذكر كليهما صحيحاً.

ولماّ كان شأن المؤمنين الرغبة في الجهاد كان المذكور مع استئذان المؤمنين، في الآية أن يجاهدوا دون أن لا يجاهدوا، إذ لا يليق بالمؤمنين الاستئذان في ترك الجهاد، فإذا انتفى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا ثبت أنّهم يجاهدون دون استئذان، وهذا من لطائف بلاغة هذه الآية التي لم يعرّج عليها المفسرون وتكلفوا في إقامة نظم الآية.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** } معترضة لفائدة التنبيه على أنّ الله مطّلع على أسرار المؤمنين إذ هم المراد بالمتقين.

{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}[45]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد، ببيان الذين شأنهم الاستئذان في هذا الشأن، وأنّهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في باطن أمرهم لأنّ انتفاء إيمانهم ينفي رجاءهم في ثواب الجهاد، فلذلك لا يعرضون أنفسهم له.

{ **إِنَّمَا** } أفادت القصر للتنويه بفضيلة المؤمنين. فالكلام إطناب لقصد التنويه.

{ **يَسْتَأْذِنُكَ** } وحذف المتعلق هنا لظهوره ممّا قبله. والتقدير، إنّما يستأذنك الذين لا يؤمنون في أن لا يجاهدوا

{ **وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ** } معطوف على {لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} يدلّ على أنّ المراد بالارتياب الارتياب في ظهور أمر النبيّ ﷺ، فلأجل ذلك الارتياب كانوا ذوي وجهين معه فأظهروا الإسلام لئلا يفوتهم ما يحصل للمسلمين من العزّ والنفع، على تقدير ظهور أمر الإسلام، وأبطنوا الكفر حفاظا على دينهم الفاسد وعلى صلتهم بأهل ملّتهم، كما قال الله تعالى فيهم {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء:141]

ولعلّ أعظم ارتيابهم كان في عاقبة غزوة تبوك لأنّهم لكفرهم ما كانوا يقدّرون أنّ المسلمين يغلبون الروم.

{ **لاَ يُؤْمِنُونَ** } صيغة المضارع للدلالة على تجدّد نفي إيمانهم، وفي {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} بصيغة الماضي للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه، فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.

{ **فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** } تفريع المسبّب على السبب، لأنّ الارتياب هو الشكّ في الأمر بسبب التردّد في تحصيله، فلتردّدهم لم يصارحوا النبي ﷺ بالعصيان لاستنفاره، ولم يمتثلوا له فسلكوا مسلكا يصلح للأمرين، وهو مسلك الاستئذان في القعود، فالاستئذان مسبّب على التردّد، والتردد مسبّب على الارتياب.

التردّد، حقيقته ذهاب ورجوع متكرّر إلى محل واحد، وهو هنا تمثيل لحال المتحيّر بين الفعل وعدمه بحال الماشي والراجع.

{ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}[46]

هذا تكذيب لزعمهم أنّهم تهيّأوا للغزو ثم عرضت لهم الأعذار فاستأذنوا في القعود، لأنّ عدم إعدادهم العدّة للجهاد دلّ على انتفاء إرادتهم الخروج إلى الغزو.

العُدّة، (بضم العين) ما يُحتاج إليه من الأشياء، كالسلاح للمحارب، والزاد للمسافر، مشتقة من الإعداد وهو التهيئة.

{ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ } استدراك على ما دلّ عليه شرط {وَلَوْ} من فرض إرادتهم الخروج تأكيدا لانتفاء وقوعه بإثبات ضدّه، وعبّر عن ضدّ الخروج بتثبيط الله إيّاهم، لأنّه في السبب الإلهي ضد الخروج، فعبّر به عن مسبّبه. وهي أن الله كره انبعاثهم، فصيغ الاستدراك بذكر علّته اهتماما بها، وتنبيها على أنّ عدم إرادتهم الخروج كان حرمانا من الله إيّاهم، وعناية بالمسلمين فجاء الكلام بنسج بديع وحصل التأكيد مع فوائد زائدة.

وكراهة الله انبعاثهم مفسرة في الآية بعدها {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [47]

الانبعاث، مطاوع بعثه إذا أرسله.

التثبيط، إزالة العزم. وتثبيط الله إيّاهم، أن خلق فيهم الكسل وضعف العزيمة على الغزو.

القعود، مستعمل في ترك الغزو تشبيها للترك بالجلوس.

{ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } مذمّة لهم، لأنّ القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو، وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعمي والزمني.

{ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }[47]

استئناف لبيان الحكمة من كراهية الله انبعاثهم، وهي إرادة الله سلامة المسلمين من إضرار وجود هؤلاء بينهم، لأنّهم كانوا يضمرون المكر للمسلمين.

{ زَادُوكُمْ } حذف المفعول لدلالة الخروج عليه، أي ما زادوكم قوّة أو شيئا مما تفيد زيادته في الغزو نصرا على العدو.

{ **إلاَّ خَبَالاً** } الخبال، الفساد، وتفكّك الشيء الملتحم الملتئم، فأطلق هنا على اضطراب الجيش واختلال نظامه. استثني من المفعول المحذوف **الخبال** على طريقة التهكّم بتأكيد الشيء بما يشبه ضده، فإنّ الخبال في الحرب بعض من عدم الزيادة في قوة الجيش، بل هو أشدّ عدما للزيادة.

{ **وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ** } حقيقة (أَوْضَعُوا) أسرعوا سير الرِّكاب. يقال: وضع البعير وضعا، إذا أسرع ويقال: أوضعت بعيري، أي سيرته سيرا سريعا. وهو هنا تمثيل لحالة المنافقين حين يبذلون جهدهم لإيقاع التخاذل والخوف بين رجال الجيش، وإلقاء الأخبار الكاذبة عن قوّة العدو، بحال من يجهد بعيره بالسير. وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى {فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ} [الإسراء: 62] وقوله: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:62].

وأصله قولهم: يسعى لكذا، إلّا أنّه لما شاع إطلاق السعي في الحرص على الشيء خفيت ملاحظة تمثيل الحالة عند إطلاقه لكثرة الاستعمال، فلذلك اختير هنا ذكر (**الإيضاع**) لعزّة هذا المعنى، ولما فيه من الصلاحيّة لتفكيك الهيئة، بأن يشبه الفاتنون بالركب، ووسائل الفتنة بالرواحل.

الخلال، جمع خَلَل بالتحريك. وهو الفرجة بين شيئين واستعير هنا لمعنى بينكم تشبيها لجماعات الجيش بالأجزاء المتفرّقة.

{ **يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ** } في موضع الحال، وأصله يبغون لكم الفتنة. وهو استعمال شائع في فعل بغى بمعنى طلب.

الفتنة، اختلال الأمور وفساد الرأي، وتقدّمت في قوله {وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [المائدة:71]

{ **وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** } أي من بين المسلمين. فيجوز أن يكون هؤلاء السماعون مسلمين يصدّقون ما يسمعونه من المنافقين. ويجوز ان يكون السماعون منافقين مبثوثين بين المسلمين.

وهذه الجملة اعتراض للتنبيه على أنّ بغيهم الفتنة أشد خطرا على المسلمين لأنّ في المسلمين فريقا تنطلي عليهم حيلهم، وهؤلاء هم سذج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم ويتأثرون ولا يبلغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحقّ.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** } تذييل قصد منه إعلام المسلمين بأنّ الله يعلم أحوال المنافقين الظالمين ليكونوا منهم على حذر، وليتوسّموا فيهم ما وسمهم القرآن به، وليعلموا أنّ الاستماع لهم هو ضرب من الظلم.

والظلم هنا الكفر والشرك {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان:13].

{ لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}[48]

الجملة تعليل لقوله {يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ} [47] لأنّها دليل بأنّ ذلك ديدن لهم من قبل. وذلك يوم أحد إذ انخذل عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المنافقين بعد أن وصلوا إلى أحد، وكانوا ثلث الجيش، قصدوا إلقاء

الخوف في نفوس المسلمين حين يرون انخذال بعض جيشهم.

{ **وَقَلَّبُوا** } بتشديد اللام مضاعف قَلَب المخفّف، والمضاعفة للدلالة على قوة الفعل.

فيجوز أن يكون من قلب الشيء إذا **تأمّل باطنه وظاهره ليطّلع** على دقائق صفاته فتكون المبالغة راجعة إلى الكم أي كثرة التقليب، أي تردّدوا آراءهم وأعملوا المكائد والحيل للإضرار النبيّ ﷺ والمسلمين.

ويجوز أن يكون {وَقَلَّبُوا} من قلب بمعنى **فتّش وبحث**، استعير التقليب للبحث والتفتيش لمشابهة التفتيش للتقليب في الإحاطة بحال الشيء كقوله تعالى {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ} [الكهف:42] فيكون المعنى، أنّهم بحثوا وتجسّسوا للاطلاع على شأن المسلمين وإخبار العدوّ به.

{ **لَكَ** } على هذين الوجهين لام العلّة، أي لأجلك، وهو مجمل. فالمعنى اتبعوا فتنة تظهر منك، أي في أحوالك وفي أحوال المسلمين.

{ **الْأُمُورَ** } جمع أمر، وهو اسم مبهم مثل شيء.

{ **حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** } ومجيء الحق حصوله واستقراره والمراد بذلك زوال ضعف المسلمين وانكشاف أمر المنافقين.

والمراد بظهور أمر الله نصر المسلمبن بفتح مكّة ودخول النّاس في الدين أفواجا. وذلك يكرهه المنافقون.

الظهور، الغلبة والنصر.

{ **أَمْرُ اللَّهِ** } دينه، أي فلما جاء الحق وظهر أمر الله علموا أن فتنتهم لا تضرّ المسلمين، فلذلك لم يروا فائدة في الخروج معهم إلى غزوة تبوك فاعتذروا عن الخروج من أول الأمر.

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } [49]

نزلت في بعض المنافقبن استأذنوا النبي ﷺ في التخلّف عن تبوك ولم يبدوا عذرا يمنعهم من الغزو، ولكنّهم صرّحوا بأنّ الخروج إلى الغزو يفتنهم لمحبة أموالهم وأهليهم، ففضح الله أمرهم بأنهم منافقون.

وقيل: قال جماعة منهم: ائذن لنا لأنا قاعدون، أذنت لنا أم لم تأذن فإذن لنا لئلا نقع في المعصية.

وقيل: إن الجِدّ بن قيس قال: يا رسول الله لقد علم النّاس أنّي مستهتر بالنساء فإني إذا رأيت نساء بني الأصفر افتتنت بهن فأذن لي في التخلّف ولا تفتني وأنا أعينك بمالي، فأذن لهم. ولعل كل ذلك كان.

{ **أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** } أداة الاستفتاح (ألا) للتنبيه على ما بعدها من عجيب حالهم إذ عاملهم الله بنقيض مقصودهم فهم احترزوا عن فتنة فوقعوا في الفتنة. فالتعريف في الفتنة ليس تعريف العهد إذ لا معهود هنا، ولكنّه تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرف في جنسه، أي في الفتنة العظيمة سقطوا.

السقوط، مستعمل مجازا في الفجأة على وجه الاستعارة. شبه عدم التهيؤ وفي المفاجأة بالسقوط، باعتبار أنّهم حصلوا في الفتنة في حال أمنهم من الوقوع فيها، فهم كالساقط في هوّة على حين ظَنّ أنّه ماش في طريق

سهل.
{ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } معترضة، أي وقعوا في الفتنة المفضية إلى الكفر. والكفر يستحقّ جهنم. وإحاطة جهنم مراد منها عدم إفلاتهم منها، فالإحاطة كناية عن عدم الإفلات. والمراد بالكافرين: جميع الكافرين فيشمل المتحدث عنهم لثبوت كفرهم.

{ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ } [50]

بيّن هنا أن تردّدهم هو أنّهم يخشون ظهور أمر المسلمين، فلذلك لا يصارحونهم بالإعراض ويودّون خيبة المؤمنين، فلذلك لا يحبون الخروج معهم.
الحسنة، الحادثة التي تحسن لمن حلّت به واعترته. والمراد بها هنا النصر والغنيمة.
المصيبة، مشتقّة من أصاب بمعنى حلّ ونال وصادف، وخصت المصيبة في اللغة بالحادثة التي تعتري الإنسان فتسوءه وتحزنه. ولذلك عبّر عنها بالسيئة في قوله تعالى {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا} [آل عمران:120]. والمراد بها الهزيمة في الموضعين.
{ **قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ** } ابتهاج منهم بمصادفة أعمالهم ما فيه سلامتهم فيزعمون أنّ يقظتهم وحزمهم قد صادفا المحزَ، إذ احتاطوا له قبل الوقوع في الضرّ.
الأخذ، حقيقته التناول، وهو هنا مستعار للاستعداد والتلافي.
الأمر، الحال المهمّ صاحبه. أي قد استعددنا لما يهمّنا فلم نقع في المصيبة.
{ **وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ** } التولّي حقيقته الرجوع، وتقدّم في قوله تعالى {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ} [البقرة :205]. وهو هنا تمثيل لحالهم في تخلّصهم من المصيبة، التي قد كانت تحلّ بهم لو خرجوا مع المسلمين، بحال من أشرفوا على خطر ثم سلموا منه ورجعوا فارحين مسرورين بسلامتهم وبإصابة أعدائهم.

{ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }[51]

تلقين جواب لقولهم {قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ} [50] المنبيء عن فرحهم بما ينال المسلمين من مصيبة، بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حزنهم عليها، لأنّهم يعلمون أنّ ما أصابهم ما كان إلّا بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك. وموقع هذا الجواب هو أن العدو يفرح بمصاب عدوّه لأنة ينكّد عدوه ويحزنه، فإذا علموا أنّ النبيء لا يحزن لما أصابه زال فرحهم.
وفيه تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق، وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم لئلّا يهنو وتذهب قوّتهم، كما في قوله

تعالى { وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ } [آل عمران:139،104]. وأن يرضوا بما قدّر الله لهم، ويرجوا رضى ربّهم لأنّهم واثقون بأنّ الله يريد نصر دينه.

{ **هُوَ مَوْلاَنَا** } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضة، أي لا يصيبنا إلّا ما قدره الله لنا، ولنا الرجاء بأنّه لا يكتب لنا إلّا ما فيه خيرنا العاجل أو الآجل، لأنّ المولى لا يرضى لمولاه الخزي.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } يجوز أن تكون معطوفة على جملة {قُلْ} فهي من كلام الله تعالى خبرا في معنى الأمر، أي قل ذلك ولا تتوكلوا إلّا على الله دون نصرة هؤلاء، أي اعتمدوا على فضله عليكم.

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة {لَنْ يُصِيبَنَا} أي قل ذلك لهم، وقل لهم إن المؤمنين لا يتوكلون إلّا على الله، أي يؤمنون بأنّه مؤيدهم.

{ قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ }[52]

تتنزل هذه الجملة منزلة البيان لما تضمنته جملة {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} [51]. والمعنى لا تنتظرون من حالنا إلّا حسنة عاجلة أو حسنة آجلة فأمّا نحن فننتظر من حالكم أن يعذّبكم الله في الآخرة بعذاب النّار، أو في الدنيا بعذاب على غير أيدينا من عذاب الله في الدنيا، كالجوع والخوف، أو بعذاب بأيدينا، وهو عذاب القتل، إذا أذن الله بحربكم، كما في قوله {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ} [الأحزاب:60].

والاستفهام مستعمل في النفي بقرينة الاستثناء. ومعنى الكلام توبيخ لهم وتخطئة لترّصهم لأنّهم يتربّصون بالمسلمين أن يقتلوا، ويغفلون عن احتمال ان ينصروا.

التربّص، انتظار حصول شيء مرغوب حصوله. وأكثر استعماله أن يكون انتظار حصول شيء لغير المنتظِر (بكسر الظاء) ولذلك كثرت تعدية فعل التربص بالباء لأنّ المتربّص ينتظر شيئا مصاحبا لآخر هو الذي لأجله الانتظار.

{ **وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ** } معطوفة على جملة الاستفهام. والمعنى: وجود البون بين الفريقين في عاقبة الحرب في حاليّ الغلبة والهزيمة.

وجعلت الجملة اسمية فلم يقل (ونتربّص بكم) بخلاف الجملة المعطوف عليها، لإفادة تقوية التربّص، وكناية عن تقويّة حصول المتربّص لأن تقوية التربص تفيد قوة الرجاء في حصول المتربص فتفيد قوة حصوله وهو المكنىّ عنه.

{ **فَتَرَبَّصُوا** } الأمر للتحضيض المجازي المفيد قلّة الاكتراث بتربّصهم.

{ **إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ** } تهديد للمخاطبين، والمعية هنا، معية في التربّص، أو في زمانه، وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنها كالعلة للحضّ.

{ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ } [53]

ابتداء كلام هو جواب عن قول بعض المستأذنين منهم في التخلف: " وأنا أعينك بمالي ". روي أنّ قائل ذلك هو الجِدّ بن قيس، أحد بني سلمة، الذي نزل فيه قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي} [49] كما تقدّم، وكان منافقا. وكأنّهم قالوا ذلك مع شدة شحّهم، لأنّهم ظنوا أن ذلك يرضي النبيء ﷺ عن قعودهم عن الجهاد.

{ **طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** } أي بمال تبذلونه عوضا عن الغزو، أو بمال تنفقونه طوعا مع خروجكم إلى الغزو.

إدماج لتعميم أحوال الإنفاق في عدم القبول، فإنّهم لا ينفقون إلّا كرها لقوله تعالى بعد هذا {وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ} [54]

{ **أَنفِقُوا** }الأمر للتسوية، أي أنفقوا أو لا تنفقوا، كما دلت عليه {أَوْ}، وهو في معنى الخبر الشرطي، لأنّه في قوّة أن يقال: لن يُتقبل منكم إن أنفقتم طوعا أو أنفقتم كرها.

الكَره أشد الإلزام، وبينه وبين الطوع مراتب تعلم إرادتها بالأولى.

{ **إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** } في موضع العلّة لنفي التقبّل، ولذلك وقعت فيها (إن) المفيدة لمعنى فاء التعليل، لأنّ الكافر لا يتقبل منه عمل البرّ. والمراد بالفاسقين: الكافرون، ولذلك أعقب بقوله {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} [54]. وإنّما اختير وصف الفاسقين دون الكافرين لأنّهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر. والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم، فلعلّهم كانوا يحسبون أنّ الإنفاق في الغزو ينفعهم.

{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ }[54]

بيان للتعليل لعدم قبول نفقاتهم بزيادة ذكر سببين آخرين مانعين من قبول أعمالهم، هما من آثار الكفر والفسوق. وهما، أنّهم لا يأتون الصلاة إلّا وهم كسالى، وأنّهم لا ينفقون إلّا وهم كارهون. والكفر وإن كان وحده كافيا في عدم القبول، إلّا أنّ ذكر هذين السببين إشارة إلى تمكّن الكفر من قلوبهم، وإلى مذمّتهم بالنفاق الدال على الجبن والتردّد. فذكر الكفر بيان لذكر الفسوق، وذكر التكاسل عن الصلاة لإظهار أنّهم متهاونون

بأعظم عبادة فكيف يكون إنفاقهم عن إخلاص ورغبة. وذكر الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلة المتحدّث عنها.

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }[55]

تفريع على مذمّة حالهم في أموالهم، وأنّ وفرة أموالهم لا توجب لهم طمأنينة بال، بإعلام المسلمين أنّ ما يرون بعض هؤلاء المنافقين فيه من متاع الحياة الدنيا لا ينبغي أن يكون محلّ إعجاب المؤمنين، وأن يحسبوا المنافقين قد نالوا شيئا من الحظ العاجل ببيان أنّ ذلك سبب في عذابهم في الدنيا.

فالخطاب للنبيْ ﷺ، والمراد تعليم الأمّة.

ولكون ذكر الأولاد كالتكملة هنا لزيادة بيان عدم انتفاعهم بكل ما هو مظنة أن ينتفع به الناس، عطف الأولاد بإعادة حرف النفي بعد العاطف، إيماء إلى أنّ ذكرهم كالتكملة والاستطراد.

الإعجاب، استحسان مشوب باستغراب وسرور من المرئي قال تعالى {وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [المائدة:100] أي استحسنت مرأى وفرة عدده.

{ **لِيُعَذِّبَهُمْ** } اللام للتعليل، تعلقت بفعل الإرادة للدلالة على أن المراد حكمة وعلة فتغني عن مفعول الإرادة.

وهذه اللام كثير وقوعها بعد مادة الإرادة ومادة الأمر. وبعض القراء سماها (لام أنْ) - بفتح الهمزة - وتقدّم عند قوله تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ} [النساء:26].

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } متعلق بـ {يُعَذِّبَهُمْ}.

الزهوق، الخروج بشدّة وضيق، وقد شاع ذكره في خروج الروح من الجسد، وسيأتي مثل هذه الآية في هذه السورة.

{ **وَهُمْ كَافِرُونَ** } في موضع الحال من الضمير المضاف إليه لأنّه إذا زهقت النفس في حال الكفر فقد مات كافراً.

{ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ } [56]

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من أخبار أهل النفاق. وضمائر الجمع عائدة إليهم، قصد منها إبطال ما يموّهون به على المسلمين من تأكيد كونهم مؤمنين بالقسم.

والفَرق: الخوف الشديد.

واختيار صيغة المضارع في قوله {وَيَحْلِفُونَ} وقوله {يَفْرَقُونَ} للدلالة على التجدّد وأنّ ذلك دأبهم.

وحذف متعلق {يَفْرَقُونَ} لظهوره، أي يخافون من عداوة المسلمين لهم وقتالهم إيّاهم أو إخراجهم.

{ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ } [57]

بيان لجملة {وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}

الملجأ، مكان اللجإ، وهو الإيواء والاعتصام.

المغارات، جمع مغارة، وهي الغار المتسع الذي يستطيع الإنسان الولوج فيه، ولذلك اشتق لها المفعل الدال على مكان الفعل، من غار الشيء إذا دخل في الأرض.

المُدّخل، مفتعل اسم مكان للإدخال الذي هو افتعال من الدخول.

{ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ } لانصرفوا إلى أحد المذكورات وأصل ولّى أعرض، ولما كان الإعراض يقتضي جهتين: جهة ينصرف عنها، وجهة ينصرف إليها، كانت تعديته بأحد الحرفين تعّن المراد.

الجموح، حقيقته النفور، واستعمل هنا تمثيلا للسرعة مع الخوف.

والمعنى، أنّهم لخوفهم من الخروج إلى الغزو لو وجدوا مكانا مما يختفي فيه المختفي فلا يشعر به النّاس لقصدوه مسرعين خشية أن يعزم عليهم الخروج إلى الغزو.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}[58]

روي أنّ أبا الجَوَّاظ، من المنافقين، طعن في أن أعطى النبيء ﷺ من أموال الصدقات بعض ضعفاء الأعراب رعاء الغنم، إعانة لهم وتأليفا لقلوبهم، فقال: ما هذا بالعدل أن يضع صدقاتكم في رعاء الغنم، وقد أمر أن يقسّمها في الفقراء والمساكين، وقد روي أنّه شافه بذلك النبيء ﷺ.

وعن أبي سعيد الخدري، أنّها نزلت في ذي الخويصرة التميمي الذي قال للنبي ﷺ: اعدل، وكان ذلك في قسمة ذهب جاء من اليمن سنة تسع، فلعل السبب تكرّر، وقد كان ذو الخويصرة من المنافقين من الأعراب.

اللمزّ، القدح والتعييب.

{ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا }أي أنّ الطاعنين يطمعون أن يأخذوا من أموال الصدقات بوجه هدية وإعانة، فيكون ذلك من بلوغهم الغاية في الحرص والطمع. ويحتمل أنّهم يرومون أن لا تقسم الصدقات إلّا على فقرائهم، ولذلك كره أبو الجَوَّاظ أن يعطى الأعراب من الصدقات.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا

إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ }[59]

ذكر الحالة المحمودة، بعد ذكر الحالة المذمومة.

رضي، إذا تعدى إلى المفعول دلّ على اختيار المرضي، وإذا عدي بالباء دلّ على أنّه صار راضيا بسبب ما دخلت عليه الباء، كقوله {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [التوبة:38]. وإذا عدي بـ (عن) فمعناه أنّه تجاوز عن تقصيره أو عن ذنبه {فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:96].

الإيتاء، الإعطاء، وحقيقته إعطاء الذوات ويطلق مجازا على تعيين المواهب كما في {وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} [البقرة:251] وفي {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [المائدة:54].

{ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } أي ما أوحى الله به إلى رسوله ﷺ أن يعطيهم.

حسب، اسم بمعنى الكافي، والكفاية تستعمل بمعنى الاجتزاء.

{ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ } بيان لجملة {حَسْبُنَا اللَّهُ} لأنّ كفاية المهمّ تقتضي تعهّد المكفي بالعوائد ودفع الحاجة، والإيتاء فيه بمعنى إعطاء الذوات.

الفضل، زيادة الخير والمنافع {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} [غافر:61].

{ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } تعليل، أي لأننا راغبون فضله. وتقديم المجرور لإفادة القصر، أي إلى الله راغبون لا إلى غيره. و**الرغبة** الطلب بتأدّب.

{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [60]

استطراد نشأ عن ذكر اللمز في الصدقات أدمج فيه تبيين مصارف الصدقات.

و انحصارها في الأصناف الثمانية دون صنف آخر يستفاد من الاقتصار عليها في مقام البيان، إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقي والإضافي معا إلّا على طريقة استعمال المشترك في معنييه.

الفقير، صفة مشبّهة، أي المتصف بالفقر وهو عدم امتلاك ما به كفاية لوازم الإنسان في عيشه، وضدّه الغنيّ. وقد تقدّم عند قوله تعالى {إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا} [النساء:135]

المسكين، ذو المسكنة، وهي المذلّة التي تحصل بسبب الفقر، ولا شك أن ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر، وإنّما النظر فيما إذا جمع ذكرهما في كلام واحد. فقيل: هو من قبيل التأكيد، ونسب إلى أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأبي علي الجبائي. وقيل: يراد بكل من الكلمتين معنى غير المراد من الأخرى، واختلف في تفسير ذلك على أقوال كثيرة، الأوضح منها أن يكون المراد بالفقير المحتاج احتياجا لا يبلغ بصاحبه إلى الضراعة

والمذلة، والمسكين المحتاج احتياجا يلجئه إلى الضراعة والمذلّة، ونسب هذا إلى مالك، وأبي حنيفة، وابن عباس، والزهري، وابن السكيت، ويونس بن حبيب. فالمسكين أشدّ حاجة .

وقد تقدم الكلام عليهما عند قوله تعالى {وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} [النساء:36]

{ **وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا** } معناه العاملون لأجلها، وهؤلاء هم الساعون على الأحياء لجمع الزكاة.

وممن كان على الصدقة في زمن النبيء ﷺ حمل بن مالك بن النابغة الهذلي كان على صدقات هذيل.

{ **وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ** } هم الذين تؤنس نفوسهم للإسلام من الذين دخلوا في الإسلام بحدثان عهد، أو من الذين يرغبون في الدخول في الإسلام. و**التأليف**، إيجاد الألفة وهي التأنس.

وللمؤلفة قلوبهم أحوال: فمنهم من كان حديث عهد بالإسلام، وعرف ضعف حينئذ في إسلامه، مثل: أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، من مسلمة الفتح؛ ومنهم من هم كفار أشداء، مثل: عامر بن الطفيل، ومنهم من هم كفار، وظهر منهم ميل إلى الإسلام، مثل: صفوان بن أمية. فمثل هؤلاء أعطاهم النبيء صلى الله عليه وسلم من أموال الصدقات وغيرها يتألّفهم على الإسلام، وقد بلغ عدد من عدّهم ابن العربي في (الأحكام) من المؤلفة قلوبهم: تسعة وثلاثين رجلا.

{ **وَفِي الرِّقَابِ** } التقدير، فك الرقاب، بشراء أو إعانة على نجوم كتابة، أو فداء أسرى مسلمين، لأنّ الأسرى عبيد لمن أسروهم، وقد مضى في سورة البقرة قوله {وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ }

{ **وَالْغَارِمِينَ** } المدينون الذين ضاقت أموالهم عن أداء ما عليهم من الديون، بحيث يرزأ دائنوهم شيئا من أموالهم، أو يرزأ المدينون ما بقي لهم من مال لإقامة أود الحياة، فيكون من صرف أموال من الصدقات في ذلك رحمة للدائن والمدين.

{ **وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ** } الجهاد، أي يصرف من أموال الصدقات ما تقام به وسائل الجهاد من آلات وحراسة في الثغور.

{ **وَابْنَ السَّبِيلِ** } الغريب بغير قومه.

ولفقهاء الأمّة في الأحكام المستمّدة من هذه الآية طرائق جمّة، وأفهام مهمّة، ينبغي أن نلمّ بالمشهور منها بما لا يفضي بنا إلى الإطالة، وإنّ معانيها لأوفر مما تفي به المقالة.

فأمّا ما يتعلق بجعل الصدقات لهؤلاء الأصناف، فقد اختلف العلماء في استحقاق المستحقين من هذه الصدقات هل يجب إعطاء كل صنف مقدارا من الصدقات، وهل تجب التسوية بين الأصناف فيما يعطى كل صنف من مقدارها؟ والذي عليه جمهور العلماء أنّه لا يجب الإعطاء لجميع الأصناف، بل التوزيع موكول لاجتهاد ولّاة الأمور يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال، وهذا قول عمر بن الخطاب، وعلي، وحذيفة، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والنخعي، والحسن، ومالك، وأبي حنيفة. وعن مالك أنّ ذلك مما

أجمع عليه الصحابة، قال ابن عبد البر: ولا نعلم مخالفا في ذلك من الصحابة، وعن حذيفة. إنّما ذكر الله هذه الأصناف لتُعرف، وأي صنف أعطيت منها أجزأك. قال الطبري: الصدقة لسدّ خلة المسلمين أو لسد خلة الإسلام، وذلك مفهوم من مآخذ القرآن في بيان الأصناف وتعدادهم.

قلت: وهذا الذي اختاره حذّاق النظار من العلماء، مثل ابن العربي، وفخر الدين الرازي.

وذهب عكرمة، والزهري، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي، إلى وجوب صرف الصدقات لجميع الأصناف الثمانية لكل صنف ثمن الصدقات فإن انعدم أحد الأصناف قسمت الصدقات إلى كسور بعدد ما بقي من الأصناف. واتفقوا على أنّه لا يجب توزيع ما يعطى إلى أحد الأصناف على جميع أفراد ذلك الصنف.

وأمّا ما يرجع إلى تحقيق معاني الأصناف، وتحديد صفاتها، فالأظهر في تحقيق وصف الفقير والمسكين أنّه موكول إلى العرف، وأنّ الخصاصة متفاوتة وقد تقدم آنفا. واختلف العلماء في ضبط المكاسب التي لا يكون صاحبها فقيرا، واتفقوا على أن دار السكنى والخادم لا يعدان مالا يَرفَع عن صاحبه وصف الفقر.

وأمّا القدرة على التكّسب، فقيل لا يعد القادر عليه فقيرا ولا يستحق الصدقة بالفقر وبه قال الشافعي، وأبو ثور، وابن خويز منداد، ويحيى بن عمر من المالكية.

وأما العاملون عليها فهم يتعينون بتعيين الأمير، وعن ابن عمر يعطون على قدر عملهم من الأجرة. وهو قول مالك وأبي حنيفة.

وأما المؤلّفة قلوبهم فقد أعطاهم النبيء ﷺ عطايا متفاوتة من الصدقات وغيرها. فأمّا الصدقات فلهم حقّ فيها بنص القرآن، وأمّا غير الصدقات فبفعل النبيء ﷺ، واستمر عطاؤهم في خلافة أبي بكر، وزمن من خلافة عمر، وكانوا يعطون بالاجتهاد، ولم يكونوا يعينون لهم ثمن الصدقات ثم اختلف العلماء في استمرار هذا المصرف. عن عمر بن الخطاب أنه انقطع سهمهم بعزة الإسلام، وبه قال الحسن، والشعبي، ومالك بن أنس وأبو حنيفة، وقد قيل: أن الصحابة أجمعوا على سقوط سهم المؤلفة قلوبهم من عهد خلافة أبي بكر حكاه القرطبي، ولا شك أن عمر قطع إعطاء المولفة قلوبهم مع أن صنفهم لا يزال موجودا، رأى أن الله أغنى دين الإسلام بكثرة أتباعه فلا مصلحة للإسلام في دفع أموال المسلمين لتأليف قلوب من لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، ومن العلماء من جعل فعل عمر وسكوت الصحابة عليه إجماعا سكوتيا. وقال كثير من العلماء: هم باقون إذا وجدوا فإن الإمام ربما احتاج إلى أن يستأنف على الإسلام، وبه قال الزهري، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي، وأحمد بن حنبل، واختاره عبد الوهاب. و قال ابن العربي: " الصحيح عندي أنه إن قوي الإسلام زالوا وإن احتيج إليهم أعطوا".

{وَفِي الرِّقَابِ} في شراء الرقيق للعتق، ودفع ما على المكاتب من مال تحصل به حريته، وهو رواية المدنيين عن مالك، وقيل لا يعان بها المكاتب. وفداء الأسرى من فك الرقاب على الأصح من المذهب، وهو لابن عبد

الحكم، وابن حبيب، خلافا لأصبغ، من المالكية.
وأما الغارمون فشرطهم أن لا يكون دينهم في معصية إلّا أن يتوبوا. والميّت المدين الذي لا وفاء لدينه في تركته يعد من الغارمين عند ابن حبيب، خلافا لابن الموّاز.
وسبيل الله لم يختلف أن الغزو هو المقصود. والحقّ أن سبيل الله يشمل شراء العدة للجهاد من سلاح، وخيل، ومراكب بحرية، ونوتيه، ومجانيق، وللحملان، ولبناء الحصون، وحفر الخنادق، وللجواسيس الذين يأتون بأخبار العدو، قاله مجد ابن عبد الحكم من المالكية ولم يذكر أن له مخالفا. وذهب بعض السلف أن الحج من سبيل الله يدخل في مصارف الصدقات، وروي عن ابن عمر، وأحمد، وإسحاق. وهذا اجتهاد وتأويل. قال ابن العربي: " وما جاء أثر قط بإعطاء الزكاة في الحج".
وأمّا ابن السبيل فلم يختلف في الغريب المحتاج في بلد غربته أنّه مراد ولو وجد من يسلفه، إذ ليس يلزمه أنّ يدخل نفسه تحت منّة. واختلف في الغني: فالجمهور قالوا: لا يعطى، وهو قول مالك، وقال الشافعي وأصبغ: يعطى ولو كان غنيا في بلد غربته.
{ **فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ** } يفيد معنى فرض الله أو أوجب. وأكد بـ (فريضة) من لفظ المقدّر ومعناه، والمقصود من هذا تعظيم شأن هذا الحكم والأمر بالوقوف عنده.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } أي والله عليم حكيم في قصر الصدقات على هؤلاء.
الحكيم ،الذي أحكم الأشياء التي خلقها أو شرعها.

{ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النبيء وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[61]
عطف ذكر فيه خلق آخر من أخلاق المنافقين، وهو تعلّلهم على ما يعاملهم به النبيء والمسلمون من الحذر، وما يطّلعون عليه من فلتات نفاقهم، يزعمون أنّ ذلك إرجاف من المرجفين بهم إلى النبيء ﷺ وأنّه يصدّق القالة فيهم، ويتّهمهم بما يبلغه عنهم ممّا هم منه برآء. وفيه زيادة في الأذى للرّسول ﷺ وإلقاء الشكّ في نفوس المسلمين في كمالات نبيّهم عليه الصلاة والسلام.
{ **يُؤْذُونَ النبيء** } عدل عن الإضمار إلى إظهار وصف النبيء للإيذان بشناعة قولهم ولزيادة تنزيه النبيء بالثناء عليه بوصف النبوءة، بحيث لا تحكى مقالتهم فيه إلّا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه. وقد عدّ من هؤلاء المنافقين، القائلين ذلك: الجُلَاسُ بن سُويد، قبل توبته، ونَبْتَل بن الحارث، وعتاب بن قشير، ووديعة بن ثابت.

الأذى: الإضرار الخفيف، وأكثر ما يطلق على الضرّ بالقول والدسائس، ومنه قوله تعالى {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} [آل عمران:111]، وعند قوله تعالى {وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام:34]

الأذن، الجارحة التي بها حاسة السمع.

{ **هُوَ أُذُنٌ** } كناية عن تصديقه بكل ما يسمع من دون تمييز بين المقبول والمردود. روي أنّ قائل هذا هو نَبْتَل بن الحارث أحد المنافقين.

{ **قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ** } جملة {قُلْ} مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم، وكمدا لمقاصدهم، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده. وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا من لطائف القرآن.

{ **أُذُنُ خَيْرٍ** } أنّه يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم، ويسمع معاذيركم ويقبلها منكم، فقبوله ما يسمعه ينفعكم ولا يضرّكم فهذا أذن في الخير، أي في سماعه والمعاملة به وليس أذنا في الشر.

{ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** } فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو، والصفح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، وبأن لا يؤاخذ أحد إلّا ببينة، فالنّاس في أمن من جانبه فيما يبلغ إليه، لأنّه لا يعامل إلا بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنّة والتهمة.

{ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**} تصديقهم في ما يخبرونه، يقال: آمن لفلان بمعنى صدّقه، ولذلك عدي بـ (اللام) دون الباء كما في قوله تعالى {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف:17] فتصديقه إيّاهم لأنّهم صادقون لا يكذبون، لأن الإيمان وازع لهم عن أن يخبروه الكذب. فكما أن الرّسول لا يؤاخذ أحدا بخبر الكاذب فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين. فهذا ثناء عليه.

{ **وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** } كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتّى يتمكّن من الإيمان من وفّقه الله للإيمان منهم، ولو آخذهم بحالهم دون مهل لكان من سبق السيف العذل، فالمراد من الإيمان الإيمان بالفعل، لا التظاهر بالإيمان.

{ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا. وفي ذكر النبيء بوصف {رَسُولَ اللَّهِ} إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم.

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ } .[62]

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لإعلام الرسول ﷺ والمؤمنين بأنّ المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة، فلا تغرّهم أيمانهم، فضمير يحلفون عائد إلى الذين يؤذون النبيء.

فكاف الخطاب للمسلمين، وذلك يدل على أن المنافقين يحلفون على التبرّئي، ممّا يبلغ المسلمين من أقوالهم المؤذية للرسول ﷺ، وذلك يغيظ المسلمين وينكرهم عليهم، والنبيء ﷺ يغضي عن ذلك.

{ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ** } أي أحقّ منكم بأن يرضوهما، وسيأتي تعليل أحقيّة الله ورسوله بأن يرضوهما في الآية التي بعدها، فإرضاء الله بالإيمان به وبرسوله وتعظيم رسوله، وإرضاء الرسول بتصديقه ومحبّته وإكرامه.

{ **أَنْ يُرْضُوهُ** } أفرد الضمير مع أنّ المعاد اثنان، لأنّه أريد عود الضمير إلى أوّل الاسمين، واعتبار العطف من عطف الجمل، بتقدير، والله أحقّ أن يرضوه ورسوله كذلك، فيكون الكلام جملتين ثانيتهما كالاحتراس وحذف الخبر إيجاز. ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاءين.

{ **إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ** }، شرط مستعمل للحثّ والتوقّع لإيمانهم، لأن ما حكي عنهم من الأحوال لا يبقى معه احتمال في إيمانهم، فاستعمل الشرط للتوقّع وللحثّ على الإيمان. وفيه أيضا تسجيل عليهم، إن أعادوا مثل صنيعهم، بأنّهم كافرون بالله ورسوله، وفيه تعليم للمؤمنين وتحذير من غضب الله ورسوله.

{ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ** }[63]

الاستفهام مستعمل في الإنكار والتشنيع، لأنّ عدم علمهم بذلك محقّق بضرورة أنّهم كافرون بالرّسول، وبأنّ رضى الله عند رضاه، ولكن لمّا كان عدم علمهم بذلك غريبا لوجود الدلائل المقتضية أنّه ممّا يحق أن يعلموه، كان حال عدم العلم به حالا منكرا. وقد كثر استعمال هذا ونحوه في الإعلام بأمر مهم، كقوله { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [104] وقوله {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} [78].

المحادّة، المعاداة والمخالفة. وفكّ الدالان لأنّه وقع مجزوما فجاز فيه الفك والإدغام، والفكّ أشهر وأكثر في القرآن، وهو لغة أهل الحجاز.

{ **جَهَنَّمَ** } تقدم ذكرها عند قوله تعالى {فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة:206].

{ **الْخِزْيُ** } الذلّ والهوان، وتقدّم عند قوله تعالى {فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [البقرة:85].

{ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** }[64]

وظاهر الكلام أنّ الحذر صادر منهم وهذا الظاهر ينافي كونهم لا يصدّقون بأنّ نزول القرآن من الله وأنّ خبره صدق فلذلك تردّد المفسّرون في تأويل هذه الآية. وأحسن ما قيل في ذلك قول أبي مسلم الأصفهاني : " هو حذر يظهره المنافقون على وجه الاستهزاء. فأخبر الله رسوله بذلك وأمره أنّ يعلمهم بأنّه يُظهر سرّهم

الذي حذروا ظهوره ". و { قُلْ اسْتَهْزِئُوا } دلالة على ما ذكرناه، أي هم يظهرون ذلك يريدون به إيهام المسلمين بصدق إيمانهم وما هم إلّا مستهزئون بالمسلمين فيما بينهم.

{ **يَحْذَرُ** } أطلق على التظاهر بالحذر، فإنّ المنافقين لمّا كانوا مبطنين الكفر لم يكن من شأنهم الحذر من نزول القرآن بكشف ما في ضمائرهم، لأنّهم لا يصدقون بذلك فتعيّن صرف فعل {يَحْذَرُ} إلى معنى يتظاهرون بالحذر وعلى هذا القول يكون إطلاق الفعل على التظاهر بمدلوله من غرائب المجاز.

وتأول الزجّاج الآية بأنّ {يَحْذَرُ} خبر مستعمل في الأمر، أي ليحذر. وعلى تأويله تكون جملة {قُلْ اسْتَهْزِئُوا} استئنافا ابتدائيا لا علاقة لها بجملة {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ} .

{ **عَلَيْهِمْ** } بمعنى لام التعليل أي تنزّل لأجل أحوالهم كقوله {وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} [البقرة:185].

{ **تُنَبِّئُهُمْ** } أي تنبّئ عنهم، أي تنبئ الرّسول بما في قلوبهم.

ويجوز أن يكون تاء {تُنَبِّئُهُمْ} تاء الخطاب، والخطاب للرّسول ﷺ، أي تنبئهم أنت بما في قلوبهم.

السورة، طائفة معيّنة من آيات القرآن، ذات مبدأ ونهاية وقد تقدّم بيانها عند تفسير طالعة سورة الفاتحة.

التنبئة، الإخبار والإعلام مصدر نبّأ الخبرَ، وتقدّم في قوله {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}[الأنعام:34]

الاستهزاء، تقدّم في قوله {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة:14]

{ **إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** } الإخراج، مستعمل في الإظهار مجازا. والمعنى، أنّ الله مظهر ما في قلوبكم بإنزال السور، مثل سورة المنافقين، وهذه سورة براءة، التي من أسمائها الفاضحة.

والمعنى، إظهار سرائرهم، وكونه في سورة تنزّل، وهو أنكى لهم، ففيه إيجاز بديع كقوله تعالى {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ} [مريم:80] بعد قوله { وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا } [مريم:77] أي نرثه ماله وولده.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ }[65]

روي أنّ المقصود من هذه الآية، أنّ ركبا من المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك نفاقا، منهم: وديعة بن ثابت العَوْفي، ومخشي بن حُمَيِّر الأشجعي، حليف بني سلمة، وقفوا على عقبة في الطريق ينظرون جيش المسلمين فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام، هيهات هيهات. فسألهم النبيء ﷺ عن مناجاتهم فأجابوا: " إنّما كنّا نخوض ونلعب ".

وعندي أنّ هذا لا يتجه، لأنّ صيغة الشرط مستقبلة، فالآية نزلت فيما هو أعمّ، مما يسألون عنه في المستقبل، إخبارا بما سيجيبون، فهم يسألون عمّا يتحدّثون في مجالسهم ونواديهم، التي ذكرها الله تعالى في قوله { وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة:14]، لأنّهم كانوا كثيري الانفراد عن مجالس المسلمين. والتقدير: ولئن سألتهم عن حديثهم في خلواتهم.

الخوض، تقدّم في قوله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [الأنعام:58]
اللعب، تقدّم في قوله {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [الأنعام:32].
{ **قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ** } لمّا كان اعتذارهم مبهما ردّ عليهم ذلك، إذ أمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم جواب الموقن بحالهم بعد أن أعلمه بما سيعتذرون به.
والاستفهام إنكاري توبيخي. وتقديم المعمول وهو {أَبِاللَّهِ} على فعله العامل فيه لقصد قصر التعيين لأنّهم لمّا أتوا في اعتذارهم بصيغة قصر تعيين جيء في الرد عليهم بصيغة قصر تعيين لإبطال مغالطتهم في الجواب، فأعلمهم بأنّ لعبهم الذي اعترفوا به ما كان إلّا استهزاء بالله وآياته ورسوله لا بغير أولئك.

{ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}[66]

{ **لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } لمّا كشف الله أمر استهزائهم، أردفه بإظهار قلّة جدوى اعتذارهم، إذ قد تلبّسوا بما هو أشنع وأكبر ممّا اعتذروا عنه، وهو التباسهم بالكفر بعد إظهار الإيمان. فإنّ الله لما أظهر نفاقهم كان ما يصدر عنهم من الاستهزاء أهون.
{ **لاَ تَعْتَذِرُوا** } من جملة القول الذي أمر الرّسول أن يقوله، فهي متضمّنة توكيدا لمضمون جملة { أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [65]، مع زيادة ارتقاء في التوبيخ وارتقاء في مثالبهم بأنّهم تلبّسوا بما هو أشدّ وهو الكفر، فلذلك قطعت الجملة عن التي قبلها، فالمعنى لا حاجة بكم للاعتذار عن التناجي فإنّكم قد عُرفتم بما هو أعظم وأشنع. والنهي مستعمل في التسوية وعدم الجدوى.
{ **قَدْ كَفَرْتُمْ** } يدل على وقوع الكفر في الماضي، أي قبل الاستهزاء، وذلك أنّه قد عرف كفرهم من قبل.
{ **بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } المراد إظهار الإيمان، لا وقوع حقيقته. وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإيمان إلى ضميرهم دون تعريف الإيمان باللام المفيدة للحقيقة، أي بعد إيمان هو من شأنكم، وهذا تعريض بأنّه الإيمان الصوري غير الحقّ ، ونظيره قوله تعالى {وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ} [74] وهذا من لطائف القرآن.
{ **إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } جاءت هذه الجملة على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالتبشير للراغب في التوبة تذكيرا له بإمكان تدارك حاله.
ولمّا كان حال المنافقين عجيبا كانت البشارة لهم مخلوطة ببقيّة النذارة، فأنبأهم أنّ طائفة منهم قد يعفى عنها إذا طلبت سبب العفو، وهو إخلاص الإيمان، وأنّ طائفة تبقى في حالة العذاب. والآيات الواردة بعد هذه تزيد ما دلّ عليه المقام وضوحا من قوله {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ - إلى قوله - عَذَابٌ مُقِيمٌ} [67 ،68]. وقوله بعد ذلك {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [74].

وقد آمن بعض المنافقين بعد نزول هذه الآية، وذكر المفسّرون من هذه الطائفة (مخشيّا بن حُمَيِّر الأشجعي)، لمّا سمع هذه الآية تاب من النفاق، وحسن إسلامه، فعدّ من الصحابة، وقد جاهد يوم اليمامة واستشهد فيه.
وقد قيل: إنّه المقصود (بالطائفة) دون غيره، فيكون من باب إطلاق لفظ الجماعة على الواحد في مقام الإخفاء والتعمية.
{ **بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } الباء للسببية، والمجرم الكافر.

{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [67]

يظهر أنّ تكون هذه الآية احتراسا عن أن يظنّ المنافقون أنّ العفو المفروض لطائفة منهم هو عفو ينال فريقا منهم باقين على نفاقهم، فعقّب ذلك ببيان أنّ النفاق حالة واحدة وأنّ أصحابه سواء، ليعلم بذلك أن افتراق أحوالهم بين عفو وعذاب لا يكون إلّا إذا اختلفت أحوالهم بالإيمان والبقاء على النفاق.
{ **وَالْمُنَافِقَاتُ** } تنصيص على تسوية الأحكام لجميع المتصفين بالنفاق، ذكورهم وإناثهم، كيلا يخطر بالبال أنّ العفو يصادف نساءهم، والمؤاخذة خاصة بذكرانهم، ليعلم النّاس أن لنساء المنافقين حظا من مشاركة رجالهن في النفاق فيحذروهن.
{ **بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** } شمل جميع المنافقين والمنافقات، لأنّ كل فرد هو بعض من الجميع، فإذا كان كل بعض متصلا ببعض آخر، علم أنهم سواء في الأحوال.
{ **يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ** } مبيّنة لمعنى الاتصال والاستواء في الأحوال.
المنكر، المعاصي لأنّها ينكرها الإسلام. و**المعروف**، ضدّها، لأنّ الدين يعرفه، أي يرضاه، وقد تقدّما في قوله تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:104].
قبض الأيدي، كناية عن الشحّ، وهو وصف ذمّ لدلالته على القسوة، لأنّ المراد الشحّ على الفقراء.
{ **نَسُوا اللَّهَ** } النسيان مستعار للإشراك بالله، أو للإعراض عن ابتغاء مرضاته وامتثال ما أمر به، لأنّ الإهمال والإعراض يشبه نسيان المعرض عنه.
{ **فَنَسِيَهُمْ** } نسيان الله إيّاهم مشاكلة، أي حرمانه إيّاهم مما أعد للمؤمنين، لأنّ ذلك يشبه النسيان عند قسمة الحظوظ.
{ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } فذلكة للتي قبلها فلذلك فصلت لأنها كالبيان الجامع. وصيغة القصر، قصر ادعائي للمبالغة، لأنّهم لمّا بلغوا النهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق.

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ } [68]

هذه الجملة إمّا استئناف بياني ناشئي عن قوله {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [67]، وإمّا مبيّنة لجملة {فَنَسِيَهُمْ} [67]. لأنّ الخلود في جهنّم واللعن بيان للمراد من نسيان الله إيّاهم.

الوعد، أعم من الوعيد، فهو يطلق على الإخبار بالتزام المخبِر للمخبَر بشيء في المستقبل نافع أو ضار أو لا نفع فيه ولا ضر. {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ} [يس:52]. والوعيد خاص بالضّار.

والماضي هنا، إشعار بأنّه وعيد لا يتخلّف مثل العقد والالتزام.

{ **الْكُفَّارَ** } للدلالة على أنّ المنافقين ليسوا بأهون حالا من المشركين إذ قد جمع الكفر الفريقين.

{ **هِيَ حَسْبُهُمْ** } أنّها ملازمة لهم. وأصل حسب أنّه بمعنى الكافي، ولمّا كان الكافي يلازمه المكفي كني به هنا عن الملازمة، ويجوز أن يكون {حَسِبَ} على أصله ويكون ذكره في هذا المقام تهكّما بهم، كأنّهم طلبوا النعيم، فقيل: حسبهم نار جهنم.

اللعن، الإبعاد عن الرحمة والتحقير والغضب.

العذاب المقيم، إن كان المراد به عذاب جهنم فهو تأكيد لقوله {خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ} لدفع احتمال إطلاق الخلود على طول المدة، وتأكيد للكناية في قوله {هِيَ حَسْبُهُمْ}، وإن كان المراد به عذابا آخر تعيّن أنّه عذاب في الدنيا وهو عذاب الخزي والمذلة بين الناس.

{ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ } [69]

قيل هذا الخطاب التفات، عن ضمائر الغيبة الراجعة إلى المنافقين، إلى خطابهم لقصد التفريع والتهديد بالموعظة، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال، بأنّ آخر ذلك حبط الأعمال في الدنيا والآخرة، وأن يحق عليهم الخسران.

وقيل هذا من بقية المقول المأمور بأن يبلغه النبيء ﷺ إيّاهم من قوله { قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [65]. فضمير الخطاب لهم جار على مقتضى الظاهر بدون التفات، والكلام مسوق لتشبيه حالهم في مصيرهم إلى النّار.

{ **كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ** } معناه أقوى، والقوة هنا القدرة على الأعمال

الصعبة. أو يراد بها العزّة وعدّة الغلب باستكمال العَدد والعُدد.

كثرة الأموال لها أسباب كثيرة، منها طيب الأرض للزرع والغرس، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع الموطن ومنها اشتمال الأرض على الخيرات.

كثرة الأولاد، تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس، ومن الخصب المؤثّر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان، ومن حسن المناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة، ومن الثروة بكثرة الأزواج.

الاستمتاع، التمتّع، والسين والتاء فيه للمبالغة في قوة التمتع .وهو نوال أحد المتاع الذي به التذاذ الإنسان. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف:24].

الخلاق، الحظّ من الخير، و تقدّم عند قوله تعالى { فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [البقرة:200]

{ **فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ** } قصد الموعظة بالفريقين، المشبَّه بهم، والمشبهين، في إعراض كليهما عن أخذ العدّة للحياة الدائمة وفي انصبابهما على التمتّع العاجل فلم يكتف في الكلام بالاقتصارعلى حال أحد الفريقين قصدا، للاعتناء بكليهما، فذلك الذي اقتضى هذا الإطناب.

{ **كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ** } تأكيد للتشبيه، وللتنبيه على أنّ ذلك الجزء بخصوصه، من بين الحالة المشبهة والحالة المشبه بها، هو محلّ الموعظة والتذكير، فلا يغرّهم ما هم فيه من نعمة الإمهال والاستدراج.

{ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** } تشبيه لخوض المنافقين بخوض أولئك، وهو الخوض الذي حكي عنهم في قوله {لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} [65]. أي وخضتم في الكفر والاستهزاء بآيات الله ورسوله كالخوض الذي خاضوه في ذلك، فأنتم وهم سواء، فيوشك أن يحيق بكم ما حاق بهم. وكلامنا في هذين التشبيهين أدقّ ما كتب فيهما.

{ **أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** }

الحبط، الزوال والبطلان. تقدّم في قوله تعالى {فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [البقرة:217]

أعمالهم، ما كانوا يعملونه ويكدحون فيه، من معالجة الأموال والعيال والانكباب عليهما.

وفي هذا كلّه تذكرة للنبيء ﷺ والمؤمنين بأن لا يظنّوا أنّ الله لمّا أمهل المنافقين قد عفا عنهم.

{ **وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ** } قصرا مقصودا به المبالغة. وإعادة اسم الإشارة للاهتمام بتمييز المتحدث عنهم لزيادة تقرير أحوالهم في ذهن السامع.

{ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }[70]

عاد الكلام على المنافقين، والاستفهام موجّه للمخاطب تقريرا عنهم، بحيث يكون كالاستشهاد عليهم بأنّهم أتاهم نبأ الذين من قبلهم.

الإتيان، مستعمل في بلوغ الخبر كقوله تعالى {يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ} [المائدة:41]، شبّه حصول الخبر عند المخبر بإتيان الشخص.

النبأ، الخبر وتقدّم في قوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام:34]

قوم نوح، تقدّم الكلام عليهم عند قوله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [الأعراف:59]

نوح، تقدّم ذكره عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا} [آل عمران:33]

عاد و**ثمود**، تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [الأعراف:65]

قوم إبراهيم، هم الكلدانيون، وتقدّم الكلام على إبراهيم وعليهم عند قوله تعالى {وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} [البقرة:124]

{ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ } باعتبار إطلاق اسم مدين على الأرض التي كان يقطنها بنو مدين، فكما أنّ مدين اسم للقبيلة كما في قوله تعالى {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [الأعرف:85]. كذلك هو اسم لموطن تلك القبيلة. وقد تقدّم ذكر مدين عند قوله {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [الأعراف:85]

{ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ }، وهو جمع مؤتفكة، اسم فاعل من الائتفاك وهو الانقلاب. أي القرى التي انقلبت، والمراد بها قرى صغيرة كانت مساكن قوم لوط وهي (**سدوم** و**عمورة** و**أدمة** و**صبويم**)، وكانت قرى متجاورة فخسف بها وصار عاليها سافلها. وكانت في جهات الأردن حول البحر الميت، ونبأ هؤلاء مشهور معلوم، وهو خبر هلاكهم واستئصالهم بحوادث مهولة.

{ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ } أي أتتهم رسلهم بدلائل الصدق والحق.

{ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } تفريع على جملة {أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ}، لأنّ الذي تفرّع على إتيان الرسل أنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد، والمكابرة، والتكذيب للرسل، وصمّ الآذان عن الحقّ، فأخذهم الله بذلك، ولكن نظم الكلام على هذا الأسلوب البديع إذ ابتدئ فيه بنفي أن يكون الله ظلمهم اهتماما بذلك لفرط التسجيل عليهم بسوء صنعهم حتّى جعل ذلك كأنّه هو المفرّع وجعل المفرّع بحسب المعنى في صورة الاستدراك. ونفي الظلم عن الله تعالى بأبلغ وجه، وهو النفي المقترن بلام الجحود، بعد فعل الكون المنفي، وقد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ} [المائدة:6]

وأثبت ظلمهم أنفسهم لهم بأبلغ وجه إذ أسند إليهم بصيغة الكون الماضي، الدال على تمكن الظلم منهم منذ

زمان مضى، وصيغ الظلم الكائن في ذلك الزمان بصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والتكرّر، أي على تكرير ظلمهم أنفسهم في الأزمنة الماضية.

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[71]

هذه تقابل قوله {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} [67] لبيان أن الطائفة التي ينالها العفو هي الملتحقة بالمؤمنين.

{ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } مقابل قوله في المنافقين {بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ}، وعبّر في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنّهم (أولياء بعض)، للإشارة إلى أنّ اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء، ليس واحد منهم مقلدا للآخر ولا تابعا له على غير بصيرة، لمّا في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر بخلاف المنافقين فكأنّ بعضهم ناشئ من بعض في مذامهم.

{ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ** } زيد في وصف المؤمنين تنويها بأنّ الصلاة هي أعظم المعروف.

{ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** } مقابل قوله في المنافقين {وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ}.

{ **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } مقابل قوله في المنافقين {نَسُوا اللَّهَ}، لأنّ الطاعة تقتضي مراقبة المطاع فهي ضدّ النسيان.

{ **أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ** } مقابل قوله في المنافقين {فَنَسِيَهُمْ}. والسين لتأكيد حصول الرحمة في المستقبل. فحرف الاستقبال يفيد مع المضارع ما تفيد (قد) مع الماضي.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تعليل لجملة {سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ}، أي أنّه تعالى لعزّته ينفع أولياءه، وأنّه لحكمته يضع الجزاء لمستحقّه.

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[72]

هذه كموقع جملة {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ} [68]. وهي أيضا كالاستئناف البياني الناشئ عن قوله {أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} [71]

{ **وَعَدَ اللَّهُ** } فعل الماضي إمّا لأنّه إخبار عن وعد تقدّم في آي القرآن، قصد من الإخبار به التذكير به

لتحقيقه. وإمّا أن يكون قد صيغ هذا الوعد بلفظ الماضي على طريقة صيغ العقود مثل بعت وتصدّقت، لكون تلك الصيغة معهودة في الالتزام الذي لا يتخلّف.

والإظهار في مقام الإضمار، دون أن يقال: (وعدهم الله)، لتقريرهم في ذهن السامع ليتمكّن تعلّق الفعل بهم أفضل تمكّن في ذهن السامع.

{ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** } تقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى {وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [البقرة:25].

{ **وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ** } للدلالة على أنّ لهم في الجنّات قصورا. وطيّبة، أي ليس فيها شيء من خبث مساكن الدنيا.

(**العدن**) الخلد والاستقرار المستمّر، فجنّات عدن هي الجنات المذكورة قبل، فذكرها بهذا اللفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التفنّن في التعبير والتنويه بالجنّات.

{ **وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ** } **الرضوان** (بكسر الراء ويجوز ضمها. وكسر الراء لغة أهل الحجاز، وضمها لغة تميم). وهو مصدر كالرضى، وزيادة الألف والنون فيه تدل على قوته، كالغفران والشكران.

والتنكير للتنويع، يدل على جنس الرضوان، وإنّما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليتوسل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم فإن رضوان الله تعالى عظيم.

{ **أَكْبَرُ** } تفضيل لم يذكر معه المفضّل عليه لظهوره من المقام، أي أكبر من الجنّات، لأنّ رضوان الله أصل لجميع الخيرات. وفيه دليل على أنّ السعادات الروحانية أعلى وأشرف من الجثمانية.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } قصر حقيقي باعتبار وصف الفوز بعظيم.

{ يَا أَيُّهَا النبيء جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }[73]

بعد أن أنذرهم الله بذلك فلم يرتدعوا ومضى عليهم من المدّة ما كشفت فيه دخيلتهم بما تكرّر منهم من بوادر الكفر والكيد للمسلمين، أنجز الله ما أنذرهم به بأن أمر رسوله ﷺ بجهادهم.

الجهاد، القتال لنصر الدين، وتقدّم في قوله {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ} [المائدة:54]

{ **الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ** } قُرن المنافقون هنا بالكفار، تنبيها على أنّ سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقّق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، ولأنّ الله قرنهم في الوعيد بعذاب الآخرة {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ} [68].

والجهاد المأمور للفريقين مختلف، واللفظ مستعمل في حقيقته ومجازه. وفائدة القرن بين الكفار والمنافقين في الجهاد، إلقاء الرعب في قلوبهم لأنّ جهادهم بالفعل متعذّر، لأنهم غير مظهرين الكفر، ولذلك تأوّل أكثر

المفسرين الجهاد بالنسبة إلى المنافقين بالمقاومة بالحجّة وإقامة الحدود عند ظهور ما يقتضيها، وكان غالب من أقيم عليه الحدّ في عهد النبوءة من المنافقين. وقال بعض السلف جهادهم ينتهي إلى الكشر في وجوههم.
وهذه الآية إيذان للمنافقين بأن النفاق يوجب جهادهم، قطعا لشافتهم من بين المسلمين.
وكان رسول الله ﷺ يعلمهم ويعرّفهم لحذيفة بن اليمان، وكان المسلمون يعرفون منهم من تكررت بوادر أحواله، وفلتات مقاله. وإنما كان النبيء ممسكا عن قتلهم سدا لذريعة دخول الشك في الأمان على الداخلين في الإسلام، كما قال لعمر: " لا يتحدث النّاس أنّ محمدا يقتل أصحابه ". لأنّ العامة والغائبين عن المدينة لا يبلغون بعلمهم إلى معرفة حقائق الأمور الجارية بالمدينة، فيستطيع دعاة الفتنة أن يشوّهوا الأعمال النافعة بما فيها من صورة بشيعة عند من لا يعلم الحقيقة.
{ **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** } أمر بأن يكون غليظا معهم. وإنّما وجه هذا الأمر إلى الرّسول ﷺ لأنّه جبل على الرحمة فأمر بأن يتخلّى عن جبلّته في حق الكفار والمنافقين، وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل.
وهذه الآية تقتضي نسخ إعطاء الكفار المؤلفة قلوبهم على الإسلام وإنّما يبقى ذلك للداخلين في الإسلام حديثا.
{ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تذييل. وتقدم نظيره مرّات.
المأوى، ما يأوي إليه المرء من المكان، أي يرجع إليه.
المصير، المكان الذي يصير إليه المرء، أي يرجع، فالاختلاف بينه وبين المأوى بالاعتبار، والجمع بينهما هنا تفنن.

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }[74]

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ }
لما كان معظم ما أخذ على المنافقين هو كلمات دالة على الطعن في الرسول ﷺ ونحو ذلك من دلائل الكفر، وكانوا إذا نقل ذلك عنهم تنصّلوا منه بالأيمان الكاذبة، عقّبت آية الأمر بجهادهم بالتنبيه على أن ما يتنصّلون به تنصّل كاذب وأن لا ثقة بحلفهم، وعلى إثبات أنّهم قالوا ما هو صريح في كفرهم.
{ **يَحْلِفُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا يثيره الأمر بجهادهم، وقد تكون الجملة في محل التعليل للأمر بالجهاد إن اعتبر المقصود منها قوله {وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ} وما بعده.
{ **وَلَقَدْ قَالُوا** } أكّد صدور كلمة الكفر منهم، في مقابلة تأكيدهم نفي صدورها بصيغة القسم، ليكون تكذيب

قولهم مساويا لقولهم في التأكيد.
{ **كَلِمَةَ الْكُفْرِ** } الكلام الدال عليه، فكلمة الكفر جنس لكلّ كلام فيه تكذيب النبيء ﷺ. كما أطلقت كلمة الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.
وقيل المراد كلمة صدرت من بعض المنافقين تدل على تكذيب النبيء ﷺ، فعن عروة بن الزبير، ومجاهد، وابن إسحاق أن الجَلَاس (بضم الجيم وتخفيف اللام) بن سويد بن الصامت قال: " لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن أشر من حميرنا هذه التي نحن عليها "، فأخبر عنه ربيبه النبيء فدعاه النبيء وسأله عن مقالته، فحلف بالله ما قال ذلك.
وقيل: بل نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول لقوله الذي حكاه الله عنه بقوله {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [المنافقون:8]، فسعى به رجل من المسلمين، فأرسل إليه رسول الله فسأله فجعل يحلف بالله ما قال ذلك.
فعلى هذه الروايات يكون إسناد القول إلى ضمير جمع كناية عن إخفاء اسم القائل، أو باعتبار قول واحد وسماع البقية فجعلوا مشاركين في التبعة.
{ **بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ** } بعد أن أظهروا الإسلام في الصورة، ولذلك أضيف الإسلام إليهم كما تقدّم في قوله تعالى {لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة:66]
الهمّ، نية الفعل سواء فعل أم لم يفعل.
نوال، الشيء حصوله، أي همّوا بشيء لم يحصّلوه. والذي همّوا به هو الفتك برسول الله ﷺ عند مرجعه من تبوك، حيث تواثق خمسة عشر منهم على أن يترصّدوا له في عقبة بالطريق تحتها واد، فإذا اعتلاها ليلا يدفعونه عن راحلته إلى الوادي. وكان رسول الله ﷺ سائرا وقد أخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها. وكان حذيفة بن اليمان يسوقها فأحس حذيفة بهم فصاح بهم فهربوا.
{ **وَمَا نَقَمُوا** } عطف على {وَلَقَدْ قَالُوا} أي والحال أنّهم ما ينقمون على النبيء ﷺ ولا على دخول الإسلام المدينة شيئا يدعوهم إلى ما يصنعونه من آثار الكراهية والعداوة.
النقم، الامتعاض من الشيء واستنكاره وتقدّم في قوله {وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا} [الأعراف:126]
{ **إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ** } استثناء تهكمي، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.
وإنّما أغناهم الله ورسوله بما جلبه حلول النبيء ﷺ بينهم من أسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين وبوفرة الغنائم في الغزوات وبالأمن الذي أدخله الإسلام فيهم، إذ جعل المؤمنين إخوة فانتفت الضغائن بينهم والثارات، وقد كان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء وكانت بينهم حروب تفانوا فيها قبيل الهجرة وهي حروب بُعاث.

الفضل، الزيادة في البذل والسخاء. وفي جعل الإغناء من الفضل كناية عن وفرة الشيء المغني به لأنّ ذا الفضل يعطي الجزل. وعطف الرسول على اسم الجلالة في فعل الإغناء لأنّه السبب الظاهر المباشر.

{ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }

التفريع على قوله {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [73] على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس، فلمّا أمر بجهادهم والغلظة عليهم وتوعّدهم بالمصير إلى النّار، فرّع على ذلك الإخبار بأنّ التوبة مفتوحة لهم وأنّ تدارك أمرهم في مكنتهم، لأنّ المقصود من الأمر بجهادهم قطع شافة مضرّتهم أو أن يصلح حالهم.

التوبة، هي إخلاصهم الأيمان.

التولّي، الإعراض، والمراد به الإعراض عن التوبة.

العذاب في الدنيا، عذاب الجهاد والأسر، و**في الآخرة،** عذاب النّار.

{ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } عطف على {يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ}، فتكون جوابا ثانيا للشرط، والمعنى، أنّهم إن تولوا لم يجدوا من ينصرهم من القبائل، إذ لم يبق من العرب من لم يدخل في الإسلام إلّا من لا يعبأ بهم عَددا وعُددا. والمراد نفي الوليّ النافع كما هو مفهوم الولي.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ [75] فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [76] فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [77]

قيل نزلت في ثعلبة بن حاطب من المنافقين سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له بسعة الرزق فدعا له فأثرى إثراء كثيرا فلما جاءه المصدّقون ليعطي زكاة أنعامه امتنع من ذلك ثم ندم فجاء بصدقته فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها منه. وذكروا من قصّته أنّه تاب ولكن لم تقبل صدقته في زمن النبيء ولا في زمن الخلفاء الثلاثة بعده عقوبة له وإظهار للاستغناء عنه حتّى مات في خلافة عثمان. وقيل إن قائل ذلك هو معتِّب بن قشير.

{ لَنَصَّدَّقَنَّ } بيان لجملة {عَاهَدَ اللَّهَ} والفعل أصله لنتصدّقنّ فأدغم للتخفيف.

الإعراض، إعراضهم عن عهدهم وعن شكر نعمة ربهم.

{ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا } والضمير المستتر في (أعقبهم) للمذكور من أحوالهم، أو للبخل المأخوذ من بخلوا، فإسناد الإعقاب مجاز عقلي. أو يعود إلى اسم الله تعالى في قوله {مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ} أي جعل فعلهم ذلك سببا في بقاء النفاق في قلوبهم إلى موتهم، وذلك جزاء تمردّهم على النفاق.

{ **إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ** } إلى يوم الحشر، لأنّه يوم لقاء الله للحساب، أو إلى يوم الموت لأنّ الموت لقاء الله كما في الحديث: " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ".

{ **كَانُوا يَكْذِبُونَ** } للدلالة على أنّ الكذب كائن فيهم ومتمكّن منهم، و المضارع على تكرّره وتجدّده.

وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة، فإنها تفسد الأخلاق الصالحة ويزداد الفساد تمكنا من النفس بطبيعة التولد الذي هو ناموس الوجود.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }[78]

استئناف لأجل التقرير، لأنّ كونهم عالمين بذلك معروف لدى كل سامع.

السر، ما يخفيه المرء من كلام وما يضمر في نفسه فلا يطلع عليه النّاس، وتقدّم في قوله تعالى {سِرًّا وَعَلاَنِيَةً} [البقرة:274]

النجوى، المحادثة بخفاء. أي يعلم ما يضمرونه في أنفسهم وما يتحادثون به حديث سرّ.

وإنّما عطفت النجوى على السرّ مع أنّه أعم منها لينبئهم باطلاعه على ما يتناجون به من الكيد والطعن.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** } تعميم، أي قوي علمه لجميع الغيوب.

الغيوب، جمع غيب وهو ما خفي وغاب عن العيان. وتقدم في قوله {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة:3]

{ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [79]

استئناف ابتدائي، نزلت بسبب حادث حدث في مدة نزول السورة. ذلك أنّ النبيء ﷺ حثّ النّاس على الصدقة فجاء عبد الرحمان بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عدي بأوسق كثيرة من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمان وعاصم إلّا رياء، وأحبّ أبو عقيل أن يذكّر بنفسه ليُعطى من الصدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

اللمز، الطعن. وتقدم في هذه السورة في قوله {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [58].

{ **الْمُطَّوِّعِينَ** } أصله المتطوّعين، أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما.

{ **وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ** } عُطف على المطّوّعين وهم منهم، اهتماما بشأنهم.

الجُهد (بضم الجيم) الطاقة. وأطلقت الطاقة على مسبّبها الناشئ عنها.

والمراد، لا يجدون سبيلا إلى إيجاد ما يتصدقون به إلا طاقتهم، أي جهد أبدانهم. وفيه ثناء على قوة البدن والعمل وأنّها تقوم مقام المال. وهذا أصل عظيم في اعتبار أصول الثروة العامة والتنويه بشأن العامل.

السخرية، الاستهزاء. يقال: سخر منه، أي حصلت السخرية له من كذا.
واختير المضارع في يلمزون ويسخرون للدلالة على التكرّر.
{ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** } على سبيل المجاز الذي حسّنته المشاكلة لفعلهم، والمعنى أن الله عاملهم معاملة تشبه سخرية الساخر، على طريقة التمثيل، وذلك في أن أمر نبيه بإجراء أحكام المسلمين على ظاهرهم زمنا ثم أمره بفضحهم. ويجوز أن يكون إطلاق سخر الله منهم على طريقة المجاز المرسل، أي احتقرهم ولعنهم.
{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } عطف على الخبر، أي سخر منهم وقضى عليهم بالعذاب في الآخرة.

{ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [80]

روى المفسّرون عن ابن عباس أنّه لمّا نزلت بعض الآيات السابقة في أحوالهم إلى قوله {سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [79]. قال فريق منهم: استغفر لنا يا رسول الله، فوعدهم النبيء ﷺ بأن يستغفر للذين سألوه.
وقال الحسن: كانوا يأتون رسول الله فيعتذرون إليه، ويقولون: إن أردنا إلا الحسنى.
وعن الشعبي، وعروة، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة أنّ عبد الله ابن أبي ابن سلول مرض فسأل ابنه عبد الله بن عبد الله النبيء ﷺ أن يستغفر له ففعل. فنزلت.
والذي يظهر لي أنّ رسول الله ﷺ لمّا أوحي إليه بآية سورة المنافقين، وفيه أن استغفاره وعدمه سواء في حقّهم. تأوّل ذلك على الاستغفار غير المؤكد، وبعثته رحمته بالنّاس وحرصه على هداهم وتكدّره من اعتراضهم عن الإيمان أن يستغفر للمنافقين استغفارا مكرّرا مؤكدا عسى أن يغفر الله لهم ويزول عنهم غضبه تعالى فيهديهم إلى الإيمان الحق. بما أن مخالطتهم لأحوال الإيمان ولو في ظاهر الحال قد يجر إلى تعلق هديه بقلوبهم بأقل سبب، فيكون نزول هذه الآية تأييسا من رضى الله عنهم، أي عن البقية الباقية منهم تأييسا لهم ولمن كان على شاكلتهم ممن أطّلع على دخائلهم.
{ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ**} صيغة الأمر مستعملة في معنى التسوية المراد منها لازمها وهو عدم الحذر من الأمر المباح، وعد علماء أصول الفقه في معاني صيغة الأمر معنى التسوية ومثلوه بقوله تعالى: {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا} [الطور:16]
{ **أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** } يجوزأن تكون صيغة النهي استعملت لمعنى التسوية لأنّها قارنت الأمر الدال على إرادة التسوية، ويكون المعنى: أمرك بالاستغفار لهم ونهيك عنه سواء، وذلك كناية عن كون الآمر والناهي ليس بمغير مراده فيهم سواء فعل المأمور أو فعل المنهي.
{ **سَبْعِينَ مَرَّةً** } غير مراد به المقدار من العدد، بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تستعمل في معنى الكثرة.

وكان النبيء ﷺ يصلّي صلاة الجنازة على من مات من المنافقين لأنّ صلاة الجنازة من الاستغفار. ولمّا مات عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد نزول هذه الآية وسأل ابنه عبد الله بن عبد الله النبيء ﷺ أن يصلي عليه، فصلى عليه كرامة لابنه، وقال عمر للنبيء ﷺ قد نهاك ربّك أن تصلي عليه، قال له على سبيل الرد " إنما خيرني الله " ، أي ليس في هذه الآية نهي عن الاستغفار، فكان لصلاته عليهم واستغفاره لهم حكمة غير حصول المغفرة بل لمصالح أخرى، ولعلّ النبيء ﷺ أخذ بأضعف الاحتمالين في صيغة {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ} وكذلك في لفظ عدد {سَبْعِينَ مَرَّةً} استقصاء لمظنة الرحمة على نحو ما أصّلناه في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا** } وكفرهم بالله هو الشرك. وكفرهم برسوله جحدهم رسالته ﷺ.

وفي هذه الآية دليل على أنّ جاحد نبوءة محمد ﷺ يطلق عليه كافر.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } بسبب بعدهم عن التأمّل في أدلّة النبوءة، وعن الإنصاف في الاعتراف بالحق. فمن كان ذلك ديدنه طُبع على قلبه فلا يقبل الهدى.

{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } [81]

هذه الآية تشير إلى ما حصل للمنافقين عند الاستنفار لغزوة تبوك فيكون المراد بالمخلّفين خصوص من تخلّف عن غزوة تبوك من المنافقين. ومناسبة وقوعها في هذا الموضع أن فرحهم بتخلّفهم قد قوي لمّا استغفر لهم النبيء ﷺ وظنّوا أنّهم استغفلوه فقضوا مأربهم ثم حصّلوا الاستغفار، ظنّا منهم بأنّ معاملة الله إيّاهم تجري على ظواهر الأمور.

فالمخلّفون هم الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك استأذنوا النبيء ﷺ فأذن لهم وكانوا من المنافقين فلذلك أطلق عليهم في الآية وصف المخلّفين بصيغة اسم المفعول لأنّ النبيء خلّفهم، وفيه إيماء إلى أنّه ما أذن لهم في التخلف إلّا لعلمه بفساد قلوبهم وأنّهم لا يغنون عن المسلمين شيئا كما قال تعالى { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [47]. وذكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنّهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلف نكدا عليهم ونغصا كما وقع للثلاثة الذين خلّفوا فتاب الله عليهم.

{ **بِمَقْعَدِهِمْ** } مصدر ميمي أي بقعودهم.

{ **خِلاَفَ** } لغة في خلف. يقال: أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم. ومن نكتة اختيار لفظ خلاف دون خلف أنّه يشير إلى أنّ قعودهم كان مخالفة لإرادة رسول الله حين استنفر النّاس كلهم للغزو، ولذلك جعله بعض المفسّرين منصوبا على المفعول له، أي بمقعدهم لمخالفة أمر الرسول.

{ **وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } خصلة أخرى من خصال النفاق، لأنّ الله أمر بذلك في الآية المتقدّمة {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [41].

{ **وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ** } خطاب بعضهم بعضا وكانت غزوة تبوك في وقت الحر حين طابت الظلال.

{ **قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا** } مستأنفة ابتدائية خطاب للنبيء ﷺ والمقصود قرع أسماعهم بهذا الكلام، والتذكير بما هو معلوم، تعريضا بتجهيلهم لأنّهم حذروا من حرّ قليل وأقحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حرّ أشدّ.

{ **لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** } تتميم، للتجهيل والتذكير، أي يقال لهم ذلك لو كانوا يفقهون الذكرى، ولكنهم لا يفقهون، فلا تجدي فيهم الذكرى والموعظة.

{ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [82]

تفريع كلام على الكلام السابق من ذكر فرحهم، ومن إفادة قوله { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا }[81] من التعريض بأنّهم أهلها وصائرون إليها.

الضحك، هنا كناية عن الفرح، أو أريد ضحكهم فرحا لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النبيء ﷺ إذ أذن لهم بالتخلف. و**البكاء**، كناية عن حزنهم في الآخرة.

فالأمر بالضحك وبالبكاء مستعمل في الإخبار بحصولهما قطعا إذ جعلا من أمر الله. والمعنى أن فرحهم زائل وأن بكاءهم دائم.

{ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } حال من ضميرهم، أي جزاء لهم عن أعمال نفاقهم، واختير الموصول في التعبير عنه لأنه أشمل مع الإيجاز.

{ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ }[83]

فرّع على الغضب عليهم وتهديدهم عقاب آخر لهم، بإبعادهم عن مشاركة المسلمين في غزواتهم.

{ **فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ** }، وفعل (رجع) يكون قاصرا ومتعدّيا مرادفا لأرجع. وهو هنا متعدّ، أي أرجعك الله.

وليس المراد الإرجاع الحقيقي كما جرت عليه عبارات أكثر المفسّرين وجعلوه الإرجاع من سفر تبوك، مع أنّ السورة كلّها نزلت بعد غزوة تبوك، بل المراد المجازي، أي تكرر الخوض معهم مرة أخرى.

الطائفة، الجماعة وتقدّمت في قوله تعالى {يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ} [آل عمران:154].

والمراد بالطائفة هنا جماعة من المخلّفين، أي إلى طائفة منهم يبتغون الخروج للغزو، فيجوز أن تكون هذه

الطائفة من المنافقين أرادوا الخروج للغزو طمعا في الغنيمة أو نحو ذلك. ويجوز أن يكون طائفة من المخلّفين تابوا وأسلموا فاستأذنوا للخروج للغزو. وعلى الوجهين يحتمل أنّ منعهم من الخروج للخوف من غدرهم إن كانوا منافقين أو لمجرد التأديب لهم إن كانوا قد تابوا و آمنوا.

والجمع بين النفي بـ {لَنْ} وبين كلمة {أَبَدًا} تأكيد لمعنى انتفاء خروجهم في المستقبل إلى الغزو مع المسلمين.

{ **إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } مستأنفة للتعداد عليهم والتوبيخ، أي أنّكم تحبّون القعود وترضون به.

{ **أَوَّلَ مَرَّةٍ** } هي غزوة تبوك التي تخلّفوا عنها.

{ **فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** } أي لمّا اخترتم القعود لأنفسكم فاقعدوا الآن لأنّكم تحبون التخلّف.

{ **الْخَالِفِينَ** } جمع خالف وهو الذي يخلف الغازي في أهله وكانوا يتركون لذلك من لا غناء له في الحرب. فكونهم مع الخالفين تعيير لهم.

{ **وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** } [84]

سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري والترمذي من حديث عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قال: " لمّا مات عبد الله بن أبي بن سلول دعي له رسول الله ليصلّي عليه، فلمّا قام رسول الله وثبتُ إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا، كذا وكذا، أعدّد عليه قوله، فتبسّم رسول الله وقال: "أخر عني يا عمر" فلمّا أكثرت عليه قال: " إني خيّرت فاخترت، لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ". قال: فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلّا يسيرا حتّى نزلت الآيتان من براءة {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا - إلى قوله - وَهُمْ فَاسِقُونَ}، قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله واللهُ ورسوله أعلم ".

وفي رواية أخرى فلم يصل رسول الله على أحد منهم بعد هذه الآية حتّى قبض ﷺ، وإنّما صلّى عليه وأعطاه قميصه ليكفّن فيه إكراما لابنه عبد الله وتأليفا للخزرج.

{ **وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ** } لا تقف عليه عند دفنه لأنّ المشاركة في دفن المسلم حقّ على المسلم على الكفاية كالصلاة عليه، فترك النبيء ﷺ الصلاة عليهم وحضور دفنهم إعلان بكفر من ترك ذلك له.

{ **إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } تعليلية، ولذلك لم تعطف وقد أغنى وجود (إنّ) في أوّلها عن فاء التفريع كما هو الاستعمال.

{ **وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** } الفسق مراد به الكفر فالتعبير ب {فَاسِقُونَ} عوض (كَافِرُونَ) مجرد تفنّن. والأحسن أن يفسر الفسق هنا بالخروج عن الإيمان بعد التلبّس به، أي بصورة الإيمان فيكون المراد من

الفسق معنى أشنع من الكفر.

{ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }[85]

الخطاب للنبي ﷺ والمقصود به المسلمون. والجملة معطوفة على جملة النهي عن الصلاة عليهم.

أعلم الله المسلمين أن تلك الأموال والأولاد وإن كانت في صورة النعمة فهي لهم نقمة وعذاب، وأن الله عذبهم بها في الدنيا بأن سلبهم طمأنينة البال عليها لأنهم لما اكتسبوا عداوة الرسول والمسلمين كانوا يحذرون أن يغري الله رسوله بهم فيستأصلهم.

وقد تقدّم نظير هذه الآية في هذه السورة عند ذكر شحهم بالنفقة في قوله {قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} [53] الآيتين، فأفيد هنالك عدم انتفاعهم بأموالهم وأنّها عذاب عليهم في الدنيا، ثم أعيدت الآية بغالب ألفاظها هنا تأكيدا للمعنى الذي اشتملت عليه إبلاغا في نفي الفتنة والحيرة عن الناس.

ولكن هذه الآية خالفت السابقة بأمور:

أحدها، أنّ هذه جاء العطف في أوّلها بالواو والأخرى عطفت بالفاء. ومناسبة التفريع هنالك تقدم بيانها، ومناسبة عدم التفريع هنا أنّ معنى هذه الآية ليس مفرّعا على معنى الجملة المعطوف عليها ولكن بينهما مناسبة فقط.

ثانيهما، أن هذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت (لا) النافية، ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذم أموالهم إذ لم ينتفعوا بها فلمّا كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيها بالأمر المستقل فأعيد حرف النفي في عطفه، بخلاف مقام هذه الآية فإنّ أموالهم وأولادهم معا مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين.

ثالثهما، أنّه جاء هنا قوله {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ} بإظهار {أَنْ} دون لام، وفي الآية السالفة {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ} [55] بذكر لام التعليل وحذف (أَنْ) بعدها.

رابعها: أنّه جاء في هذه الآية {أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} وجاء في الآية السالفة {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [55]، ونكتة ذلك أنّ الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فكانت الحاجة إلى ذكر الحياة. وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [84] فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم.

وبقية تفسير هذه الآية كتفسير سالفتها.

{ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا

نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ }[86]

هذا عطف غرض على غرض قصد به الانتقال إلى تقسيم فرق المتخلّفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول. دعا إليه الإغلاظ في تقريع المتخلّفين عن الجهاد نفاقا وتخذيلا للمسلمين، ابتداء من قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} [38] ثم قوله {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} [42] وكل ذلك مقصود به المنافقون.

{ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ } لأجل كون هذه الآية غرضا جديدا ابتدئت بذكر نزول سورة داعية إلى الإيمان والجهاد. والمراد بها سورة براءة، وإطلاق اسم السورة عليها في أثنائها قبل إكمالها مجاز متسع فيه، كإطلاق الكتاب على القرآن في أثناء نزوله في نحو قوله {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [البقرة:2]، فهذا الوصف وصف مقدّر شبيه بالحال المقدّرة.

{ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ } ولماّ كانت السورة ألفاظا وأقوالا صح بيانها ببعض ما حوته وهو الأمر بالإيمان والجهاد، فقوله {أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ} تفسير للسورة. وليس المراد لفظ {آمِنُوا} وما عطف عليه بل ما يراد فهما مثل قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [38] وقوله {لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ} [44].

{ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ } ابتدئي بذكر المتخلّفين من المنافقين.

الطول، السعة في المال، قال تعالى {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} [النساء:25]. والاقتصار على الطول يدلّ على أنّ المراد بهم هنا من له قدرة على الجهاد بصحة البدن. فبوجود الطول انتفى عذرهم، إذ من لم يكن قادرا ببدنه لا ينظر إلى كونه ذا مال.

{ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } بيان ما استأذنوا فيه وهو القعود. وفي نظمه إيذان بتلفيق معذرتهم وأنّ الحقيقة هي رغبتهم في القعود.

{ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ }[87]

استئناف قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلّة رجلتهم بأنّهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعا للنساء. وفي اختيار فعل {رَضُوا} إشعار بأنّ ما تلبّسوا به من الحال من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله.

الخوالف، جمع خالفة وهي المرأة التي تتخلّف في البيت بعد سفر زوجها فإن سافرت معه فهي الظعينة.

الطبع، تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم. والطبع مرادف الختم.

{ **فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ** } انعدام علمهم بالأمور التي يختصّ بعلمها أهل الأفهام، وهو العلم المعبّر عنه بالفقه، أي إدراك الأشياء الخفيّة. وجيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمسند الفعلي للدلالة على تقوّي الخبر وتحقيق نسبته إلى المخبر عنهم وتمكنه منهم.

{ لَكِنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }[88]

حرف الاستدراك يؤذن بأنّ مضمون هذا الكلام نقيض مضمون الكلام الذي قبله أصلا وتفريعا.
فلمّا كان قعود المنافقين عن الجهاد مسبّبا على كفرهم بالرسول ﷺ، كان المؤمنون على الضدّ من ذلك.
وابتدئ وصف أحوالهم بوصف حال الرّسول لأنّ تعلّقهم به واتّباعهم إيّاه هو أصل كمالهم وخيرهم.
{ **بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** } مقابل قوله { اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ } [86]
{ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ** } مقابل قوله { وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ } [87].
وقد مضى الكلام على الجهاد بالأموال عند قوله {انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [41]
{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** } تعريض بأنّ الذين لم يجاهدوا دون عذر ليسوا بمؤمنين.
{ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ** } خبر عن الذين آمنوا، أي على أنّها من أوصافهم وأحوالهم. والإتيان باسم الإشارة لإفادة أن استحقاقهم الخيرات والفلاح كان لأجل جهادهم.

{ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [89]

استئناف بياني {وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ} [88]
الإعداد، التهيئة. وفيه إشعار بالعناية والتهمّم بشأنهم. وتقدّم القول في نظير هذه الآية في قوله قبل { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً} [72].

{ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[90]

المراد بالمعذّرين فريق من المؤمنين الصادقين من الأعراب، كما تدّل عليه المقابلة بقوله {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}. وعلى هذا المعنى فسّر ابن عباس، ومجاهد، وكثير. وجعلوا من هؤلاء غِفَارا، وخالفهم قتادة فجعلهم المعتذرين كذبا وهم بنو عامر رهط عامر بن الطفيل، قالوا للنبيء ﷺ إن خرجنا معك أغارت أعراب طيء على بيوتنا. ومن المعذّرين الكاذبين أسد، وغطفان.

{ **الْمَعَذِّرُونَ** } وعلى الوجهين في التفسير يختلف التقدير، فإن كانوا المحقّين في العذر فالتقدير أنّ أصله **المعتذرون**. وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فالتقدير، أنه اسم فاعل من عذر بمعنى **تكلّف العذر**.

ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذّرين من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

الأعراب، اسم جمع يقال في الواحد أعرابي (بياء النسب)، وهم سكّان البادية.

{ **وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } وهذا فريق آخر من الأعراب، {كَذَبُوا} بالتخفيف، أي كانوا كاذبين. والمراد أنهم كذبوا في الإيمان الذي أظهروه من قبل، ويحتمل أنّهم كذبوا في وعدهم النصر ثم قعدوا دون اعتذار بحيث لم يكن تخلفهم مترقّبا، لأنّ الذين اعتذروا قد علم النبيء ﷺ أنّهم غير خارجين معه بخلاف الآخرين فكانوا محسوبين في جملة الجيش. وتخلّفهم أشد إضرار لأنّه قد يفلّ من حدّة كثير من الغزاة.

{ **سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } مستأنفة لابتداء وعيد. وضمير {مِنْهُمْ} يعود إلى المذكورين فهو شامل للذين كذبوا الله ورسوله ولمن كان عذره ناشئا عن نفاق وكذب. وتنكير (عذاب) للتهويل، والمراد به عذاب جهنم.

{ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[91]

استيفاء لأقسام المخلّفين، من ملوم ومعذور من الأعراب أو من غيرهم.

وإعادة حرف النفي في عطف الضعفاء والمرضى لتوكيد نفي المؤاخذة عن كل فريق بخصوصه.

الضعفاء، جمع ضعيف، وهو وهن القوّة البدنية من غير مرض.

المرضى، جمع مريض. والمرض تغيّر النظام المعتاد بالبدن بسبب اختلال يطرأ في بعض أجزاء المزاج.

الحرج، الضيق ويراد به ضيق التكليف، أي النهي.

النصح، العمل النافع للمنصوح، وتقدّم عند قوله {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [الأعراف :79] وأطلق هنا على الإيمان والسعي في مرضاة الله ورسوله، والامتثال والسعي لما ينفع المسلمين، فإنّ ذلك يشبه فعل الموالي الناصح لمنصوحه.

{ **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ** } واقعة موقع التعليل لنفي الحرج عنهم وهذه الجملة نظمت نظم الأمثال. والمعنى، ليس على الضعفاء ولا على من عطف عليهم حرج إذا نصحوا لله ورسوله، لأنّهم محسنون غير مسيئين. وما على المحسنين من سبيل، أي مؤاخذة أو معاقبة. والمحسنون الذين فعلوا الإحسان وهو ما فيه النفع التام.

السبيل، أصله الطريق، ويطلق على وسائل وأسباب المؤاخذة باللوم والعقاب، ونظيره قوله تعالى {فَإِنْ

أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً} [النساء:34] وقوله {فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} [النساء:90].

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل والواو اعتراضية، أي شديد المغفرة ومن مغفرته أن لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد. شديد الرحمة بالنّاس ومن رحمته أن لم يكلّف أهل الإعذار ما يشقّ عليهم.

{ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ }[92]

عطف على {الضُّعَفَاءِ} و{الْمَرْضَى} . وإعادة حرف النفي بعد العاطف للنكتة المتقدّمة هنالك.

الحمل، يطلق على إعطاء ما يُحمل عليه، أي ما يركبونه ويحملون عليه سلاحهم ومؤنهم من الإبل.

{ **لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ** } إمّا حال من ضمير المخاطب في {أَتَوْكَ} وإمّا بدل اشتمال من فعل {أَتَوْكَ} لأنّ إتيانهم لأجل الحمل يشتمل على إجابة، وعلى منع.

{ **تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** } جواب {إِذَا}، والمجموع صلة الذين.

التولّي، الرجوع. وتقدّم عند قوله تعالى {مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ} [البقرة:142].

الفيض والفيضان، خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه، ويسند إلى المائع حقيقة. يقال: فاض الوادي، وفاض الإناء. ومنه فاضت العين دمعا وهو أبلغ من فاض دمعهما، لأنّ العين جعلت كأنّها كلها دمع فائض. وقد تقدّم في قوله تعالى {تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ} [المائدة:83].

{ **حَزَنًا** } نصب على المفعول لأجله.

{ **أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** } مجرور بلام جرّ محذوف، أي حزنوا لأنّهم لا يجدون ما ينفقون.

والآية نزلت في نفر من الأنصار سبعة، وقيل: فيهم من غير الأنصار، واختلف أيضا في أسمائهم بما لا حاجة إلى ذكره، ولقّبوا بالبكّائين لأنّهم بكوا لمّا لم يجدوا عند رسول الله ﷺ الحُملان.

وقيل: نزلت في أبي موسى الأشعري ورهط من الأشعريين أتوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك يستحملونه فلم يجد لهم حمولة وصادفوا ساعة غضب من النبيء ﷺ فحلف أن لا يحملهم، ثم جاءه نهب إبل فدعاهم وحملهم وقالوا: استغفلنا رسولَ الله يمينَه لا نفلح أبدا، فرجعوا وأخبروه فقال: " ما أنا حملتكم ولكنّ الله حملكم، وإنّي والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلّا كفّرت عن يميني وفعلت الذي هو خير". والظاهر أن هؤلاء غير المعنيين في هذه الآية لأن الأشعريين قد حملهم النبيء ﷺ.

{ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }[93]

لمّا نفت الآيتان أن يكون سبيل على المؤمنين الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون والذين لم يجدوا حمولة، حصرت هذه الآية السبيل في كونه على الذين يستأذنون في التخلف وهم أغنياء، وهو انتقال بالتخلّص إلى العودة إلى أحوال المنافقين.

وفي هذا الحصر تأكيد للنفي السابق، أي لا سبيل عقاب إلّا على الذين يستأذنونك وهم أغنياء. والمراد بهم المنافقون بالمدينة الذين يكرهون الجهاد، إذ لا يؤمنون بما وعد الله عليه من الخيرات وهم أولو الطول.

{ إِنَّمَا السَّبِيلُ }، السبيل حقيقته الطريق. ومرّ في قوله {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [91]، مستعار لمعنى المؤاخذة بالتبعة، شبّه المؤاخذة بالطريق. والمعنى، ليست التبعة والمؤاخذة إلّا على الذين يستأذنوك وهم أغنياء، الذين أرادوا أن يتخلّفوا عن غزوة تبوك ولا عذر لهم.

{ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ } أي بعثهم على ذلك رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء. وقد تقدّم القول في نظيره آنفا.

{ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } وأسند الطبع على قلوبهم إلى الله في هذه الآية بخلاف ما في الآية السابقة {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [87] لعلّه للإشارة إلى أنهّ طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطبع الأصلي وزادهم عماية.

{ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } لنفي أصل العلم عنهم، أي يكادون أن يساووا العجماوات.

{ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [94]

استئناف ابتدائي، وضمير {يَعْتَذِرُونَ} عائد إلى أقرب معاد وهو قوله {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [90] فإنّهم فريق من المنافقين، فهم الذين اعتذروا بعد رجوع النّاس من غزوة تبوك وجعل المسند فعلا مضارعا لإفادة التجدّد والتكرير.

والخطاب للمسلمين لأنّ المنافقين يقصدون بأعذارهم إلى النبيء ﷺ ويعيدونها مع جماعات المسلمين.

{ لاَ تَعْتَذِرُوا } النهي مستعمل في التأييس.

{ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ } في موضع التعليل للنهي عن الاعتذار لعدم جدوى الاعتذار. يقال: آمن له إذا صدّقه. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } [61]

{ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ } تعليل لنفي تصديقهم، أي قد نبّأنا الله من أخباركم بما يقتضي تكذيبكم.

{ مِنْ } اسم بمعنى بعض، أو هي صفة لمحذوف، تقديره، قد نبأنا الله اليقين من أخباركم.

{ **وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** } أي لا فائدة في اعتذاركم فإن خشيتم المؤاخذة فاعملوا الخير للمستقبل فسيرى الله عملكم ورسوله إن أحسنتم. فالمقصود فتح باب التوبة لهم، والتنبيه إلى المكنة من استدراك أمرهم. وفي ذلك تهديد بالوعيد إن لم يتوبوا.

{ **ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } ، أي تصيرون بعد الموت إلى الله.

الردّ، بمعنى الإرجاع، كما في قوله تعالى {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمْ الْحَقِّ} [الأنعام:62]. والمراد به هنا مصير النفوس إلى عالم الخلد الذي لا تصرّف فيه لغير الله. تشبيها بردّ شيء إلى مقرّه أو إرجاعه إلى مالكه.

الغيب، ما غاب عن علم النّاس. و**الشهادة**، المشاهدة.

والعدول عن أن يقال: ثمّ تردون إليه، لما في الإظهار من التنبيه على أنّه لا يعزب عنه شيء من أعمالهم، زيادة في الترغيب والترهيب، ليعلموا أنّه لا يخفى على الله شيء.

{ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } الإنباء: الإخبار. وما كنتم تعملون: علم كل عمل عملوه. واستعمل في لازم معناه، وهو المجازاة على كل ما عملوه، أي فتجدونه عالما بكل ما عملتموه. وهو كناية، لأنّ ذكر المجازاة في مقام الإجرام والجناية لازم لعموم علم ملك يوم الدين بكل ما عملوه.

{ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }[95]

الجملة مستأنفة ابتدائية تعداد لأحوالهم. ومعناها ناشئ عن مضمون جملة {لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} [94] تنبيها على أنهم لا يرعوون عن الكذب ومخادعة المسلمين، فإذا قيل لهم {لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} [94] حلفوا على أنّهم صادقون ترويجا لخداعهم. وهذا إخبار بما سيلاقي به المنافقون المسلمين قبل وقوعه وبعد رجوع المسلمين من الغزو.

الانقلاب، الرجوع، وتقدّم في قوله {انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران:144]

{ **لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ** } صرّح بعلّة الحلف هنا، أنّه لقصد إعراض المسلمين عنهم، أي عن عتابهم وتقريعهم، للإشارة إلى أنّهم لا يقصدون تطييب خواطر المسلمين ولكن أرادوا التملّص من مسبّة العتاب ولذعه. ولذلك قال في الآيتين الأخريين {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ }[62] و{يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ} [96]، لأنّ ذلك كان قبل الخروج إلى الغزو فلمّا فات الأمر وعلموا أنّ حلفهم لم يصدّقه المسلمون صاروا يحلفون لقصد أن يعرض المسلمون عنهم.

{ **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ** } ، أي فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماماً.

وهذا ضرب من التفريع فيه إطماع للمغضوب عليه الطالب، بأنّه أجيبت طلبته، حتّى إذا تأمل وجد ما طمع

فيه قد انقلب عكس المطلوب فصار يأسا، لأنّهم أرادوا الإعراض عن المعاتبة بالإمساك عنها واستدامة معاملتهم معاملة المسلمين، فإذا بهم يواجهون بالإعراض عن مكالمتهم ومخالطتهم.

{ **إِنَّهُمْ رِجْسٌ** } تعليل للأمر بالإعراض.

الرجس، الخبث. والمراد تشبيههم بالرجس في الدناءة ودنس النفوس. فهو رجس معنوي.

{ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** }

المأوى، المصير والمرجع. و {**جَزَاءً**} حال من { **جَهَنَّمُ** } ، أي مجازاة لهم على ما كانوا يعملون.

{ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [96]

بدل اشتمال من جملة {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ} [95] لأنّهم إذا حلفوا لأجل أن يعرض عنهم المسلمون فلا يلومونهم، فإنّ ذلك يتضمن طلبهم رضى المسلمين.

وقد فرّع الله على ذلك أنّه إن رضي المسلمون عنهم وأعرضوا عن لومهم فإنّ الله لا يرضى عن المنافقين.

وهذا تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين بطريق الكناية إذ قد علم المسلمون أنّ ما لا يرضي الله لا يكون للمسلمين أن يرضوا به.

{ **الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** } هم هؤلاء المنافقون. والعدول عن الإتيان بضمير (هم) إلى التعبير بصفتهم للدلالة على ذمّهم وتعليل عدم الرضى عنهم.

{ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[97]

استئناف ابتدائي رجع به الكلام إلى أحوال المعذّرين من الأعراب والذين كذبوا الله ورسوله منهم، وما بين ذلك استطراد دعا إليه قرن الذين كذبوا الله ورسوله في الذكر مع الأعراب. فلمّا تقضّى الكلام على أولئك تخلّص إلى بقية أحوال الأعراب. ومن وراء ذلك تنبيه المسلمين لأحوال الأعراب لأنّهم لبعدهم عن الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنّون بجميعهم خيرا.

(**أشد**) و(**أجدر**)، اسما تفضيل ولم يذكر معهما ما يدل على مفضّل عليه.

فيجوز أن يكونا على ظاهرهما فيكون المفضل عليه أهل الحضر، أي كفّار ومنافقي المدينة. وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين.

وازديادهم في الكفر والنفاق هو بالنسبة لكفّار ومنافقي المدينة. ومنافقوهم أشدّ نفاقا من منافقي المدينة.

وذلك أن غلظ القلوب وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشة ونفورا. فإنّ الأعراب لنشأتهم في البادية

كانوا بعداء عن مخالطة أهل العقول المستقيمة وكانت أذهانهم أبعد عن معرفة الحقائق وأملأ بالأوهام، وهم لبعدهم عن مشاهدة أنوار النبيء ﷺ وأخلاقه وآدابه وعن تلقي الهدى صباح مساء، أجهل بأمور الديانة وما به تهذيب النفوس. ولذلك قال عثمان لأبي ذر لمّا عزم على سكنى الربذة:" تعهّد المدينة كيلا ترتد أعرابيا ". فأمّا في الأخلاق التي تحمد فيها الخشونة والغلظة والاستخفاف بالعظائم، مثل الشجاعة والصراحة وإباء الضيم والكرم فإنّها تكون أقوى في الأعراب بالجبلّة، ولذلك يكونون أقرب إلى الخير إذا اعتقدوه وآمنوا به. ويجوز أن يكون **{أَشَدُّ}** و **{أَجْدَرُ}** مسلوبي المفاضلة مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفين بهما. فالمعنى أنّ كفرهم شديد التمكّن من نفوسهم ونفاقهم كذلك، من غير إرادة أنّهم أشد كفرا ونفاقا من كفّار أهل المدينة ومنافقيها.

الأجدر، الأحق. والجدارة، الأولوية. وإنما كانوا أجدر بعدم العلم بالشريعة لأنّهم يبعدون عن مجالس التذكير ومنازل الوحي، ولقلة مخالطتهم أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ.

الحدود، المقادير والفواصل بين الأشياء. والمعنى أنّهم لا يعلمون فواصل الأحكام وضوابط تمييز متشابهها. وفي هذا الوصف يظهر تفاوت أهل العلم والمعرفة. وهو المعبّر عنه في اصطلاح العلماء بالتحقيق أو بالحكمة، المفسّرة بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، فزيادة قيد (على ما هي عليه) للدلالة على التمييز بين المختلطات والمتشابهات والخفيّات.

{ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } تذييل لهذا الإفصاح عن دخيلة الأعراب وخلقهم، أي عليم بهم وبغيرهم، وحكيم في تمييز مراتبهم.

{ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[98]

هذا فريق من الأعراب يظهر الإيمان وينفق في سبيل الله. وإنّما يفعلون ذلك تقيّة وخوفا من الغزو، أو حبّا للمَحْمدة وسلوكا في مسلك الجماعة، وهم يبطنون الكفر وينتظرون الفرصة التي تمكّنهم من الانقلاب على أعقابهم. وهؤلاء وإن كانوا من جملة منافقي الأعراب فتخصيصهم بالتقسيم هنا منظور فيه إلى ما اختصّوا به من أحوال النفاق.

{ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا } ومعنى **{يَتَّخِذُ}** يعدّ ويجعل.

المغرم، ما يدفع من المال قهرا وظلما، فهؤلاء يؤتون الزكاة وينفقون في سبيل الله ويعدّون ذلك كالاتاوات المالية والرزايا يدفعونها تقيّة. ومن هؤلاء من امتنعوا من إعطاء الزكاة بعد وفاة الرّسول ﷺ.

التربص، الانتظار. و**الدوائر**، جمع دائرة وهي تغيّر الحالة من استقامة إلى اختلال. وتقدّم الكلام عليها عند

قوله تعالى { يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ } [المائدة:52].
فالمعنى أنّهم ينتظرون ضعفكم وهزيمتكم، أو ينتظرون وفاة نبيّكم فيظهرون ما هو كامن فيهم من الكفر. وقد أنبأ الله بحالهم التي ظهرت عقب وفاة النبيء ﷺ، وهم أهل الردّة من العرب.
{ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** } دعاء عليهم وتحقير، ولذلك فصلت. والدعاء من الله على خلقه تكوين وتقدير مشوب بإهانة، لأنّه لا يعجزه شيء، فلا يحتاج إلى تمنّي ما يريده.
وقد كانت على الأعراب دائرة السوء إذ قاتلهم المسلمون في خلافة أبي بكر عام الردّة وهزموهم فرجعوا خائبين.
وإضافة {دَائِرَةُ} إلى {السَّوْءِ} من الإضافة إلى الوصف اللازم. إذ الدائرة لا تكون إلّا في السوء.
{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل، أي سميع ما يتناجون به وما يدبرونه من الترصّد، عليم بما يبطنونه ويقصدون إخفاءه.

{ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [99]

هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وقّاهم الله حقّهم من الثناء عليهم، وهم أضداد الفريقين الآخرين المذكورين في قوله { الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا } [97] وقوله { وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا } [98].
قيل هم (**بنو مُقَرّن من مزينة**) الذين نزل فيهم قوله تعالى {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ} [92] كما تقدّم. ومن هؤلاء عبد الله ذو البجادين المزَني (ابن مغفل).
{ **قُرُبَاتٍ** } (بضم القاف وضم الراء) جمع قرْبة (بسكون الراء). وهي تطلق بمعنى المصدر، أي القرب وهو المراد هنا، أي يتخذون ما ينفقون تقرّبا عند الله. وجمع قربات باعتبار تعدد الإنفاق. قال تعالى {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [الإسراء:57]. فـ {قُرُبَاتٍ} هنا مجاز مستعمل في رضى الله ورفع الدرجات في الجنة، فلذلك وصفت ب {عِنْدَ} الدالة على مكان الدنو.
{ **عِنْدَ اللَّهِ** } مجاز في التشريف والعناية، فإنّ الجنة تشبه بدار الكرامة عند الله.
{ **وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ** } دعواته. وأصل الصلاة الدعاء. وكان النبيء ﷺ يصلّي على كل من يأتيه بصدقته وإنفاقه امتثالا لما أمره الله به {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [103]. وجاء في حديث ابن أبي أوفى أنّه لما جاء بصدقته قال رسول الله ﷺ: " اللّهم صل على آل أبي أوفى ".
{ **أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ** } مستأنفة، مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه.
{ **سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ** } واقعة موقع البيان لجملة {إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} ، لأنّ القربة عند الله هي الدرجات العلى ورضوانه، وذلك من الرحمة. والقربة عند صلوات الرسول ﷺ إجابة صلاته. والصلاة التي يدعو لهم

طلب الرحمة، فمآل الأمرين هو إدخال الله إيّاهم في رحمته. وأوثر فعل (**الإدخال**) هنا لأنّه المناسب للكون في الجنّة.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل مناسب لما رجوه وما استجيب لهم. أي غفور لما مضى من كفرهم، رحيم بهم يفيض النعم عليهم.

{ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[100]

عقّب ذكر الفرق المتلبّسة بالنقائص على تفاوت بينها في ذلك، بذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل في الإيمان والفضائل والنصرة في سبيل الله، ليحتذي متطلّب الصلاح حذوهم، ولئلّا يخلو تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحواليها وبواديها، عن ذكر أفضل الأقسام، تنويها به. وبهذا تم استقراء الفرق وأحوالها.

{ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ** } المقصود بالسبق، السبق في الإيمان، لأنّ سياق الآيات قبلها في تمييز أحوال المؤمنين الخالصين، والكفّار الصرحاء، والكفار المنافقين، فتعيّن أن يراد الذين سبقوا غيرهم من صنفهم، فالسابقون من المهاجرين هم الذين سبقوا بالإيمان قبل أن يهاجر النبيء ﷺ إلى المدينة، والسابقون من الأنصار هم الذين سبقوا قومهم بالإيمان، وهم أهل العقبتين الأولى والثانية.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المدّة التي عندها ينتهي وصف السابقين من المهاجرين والأنصار معا، فقال أبو موسى وابن المسيّب وابن سيرين وقتادة: من صلى القبلتين. وقال عطاء: من شهد بدرا. وقال الشعبي: من أدركوا بيعة الرضوان. وهذه الأقوال الثلاثة تعتبر الواو في قوله {وَالأَنصَارِ} للجمع في وصف السبق لأنّه متّحد بالنسبة إلى الفريقين. وفي (أحكام ابن العربي) ما يشبه أن رأيه أنّ السابقين أصحاب العقبتين، وذلك يخصّ الأنصار. وعن الجبائي: أن السابقين من أسلموا قبل هجرة النبيء ﷺ إلى المدينة.

الأنصار، جمع نصير، وهو الناصر. والأنصار بهذا الجمع اسم غلب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبيء ﷺ في حياته أو بعد وفاته وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان. دعاهم النبيء ﷺ بهذا الوصف، فيطلق على أولاد المنافقين منهم الذين نشأوا في الإسلام كولد ابن صيّاد.

وقرأ يعقوب {وَالأَنصَارُ} بالرفع، فيكون عطفا على وصف {وَالسَّابِقُونَ} ويكون المقسم إلى سابقين وغيرهم خصوص المهاجرين.

{ **وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ** } بقيّة المهاجرين وبقيّة الأنصار، اتّبعوهم إلى الايمان. ممّن آمنوا بعد فتح مكّة ومن آمنوا من المنافقين بعد مدّة.

الإحسان، هو العمل الصالح. والباء للملابسة. وإنّما قيد هذا الفريق خاصة لأنّ السابقين الأولين ما بعثهم

على الإيمان إلّا الإخلاص، فهم محسنون، وأمّا الذين اتبعوهم فمن بينهم من آمن اعتزازا بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة. ومنهم من آمن وفي إيمانه ضعف وتردّد، مثل المؤلفة قلوبهم، فربّما نزل بهم إلى النفاق وربما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الأحزاب:60] فإذا بلغوا رتبة الإحسان دخلوا في وعد الرضى من الله وإعداد الجنات.

{ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } رضى الله عنهم، عنايته بهم وإكرامه إيّاهم ودفاعه أعداءهم، وأمّا رضاهم عنه فهو كناية عن كثرة إحسانه إليهم حتّى رضيت نفوسهم لما أعطاهم ربّهم.

{ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

الإعداد، التهيئة. وفيه إشعار بالعناية والكرامة. وتقدم القول في معنى جري الأنهار.

وقد خالفت هذه الآية عند معظم القراء أخواتها فلم تذكر فيها (من) مع (تحتها) في غالب المصاحف وفي رواية جمهور القراء، فتكون خالية من التأكيد إذ ليس لحرف (من) معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد. ويكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، ومن فعل (أعدّ) المؤذن بكمال العناية فلا يكون المُعدّ إلّا أكمل نوعه.

وثبتت (من) في مصحف مكّة، وهي قراءة ابن كثير المكي، فتكون مشتملة على زيادة مؤكدين.

{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } [101]

كانت الأعراب الذين حول المدينة قد خلصوا للنبي ﷺ وأطاعوه وهم: (جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية)، فأعلم الله نبيّه ﷺ أنّ في هؤلاء منافقين لئلا يغتر بكلّ من يُظهر له المودّة.

وكانت المدينة قد خلُص أهلها للنبيء ﷺ وأطاعوه فأعلمه الله أنّ فيهم بقيّة مردوا على النفاق لأنّه تأصل فيهم من وقت دخول الإسلام بينهم.

{ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } تقديره، ومن أهل المدينة جماعة مردوا.

مرد، على الأمر مرن عليه ودرب به، ومنه الشيطان المارد، أي في الشيطنة.

{ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ } أشيرإلى أنّ هذا الفلّ الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستيثار بعلمه ولم يطلع عليهم رسوله ﷺ كما أطلعه على كثير من المنافقين من قبل. وإنّما أعلمه بوجودهم على الإجمال لئلّا يغترّ بهم المسلمون. والخبر مستعمل في الوعيد، كقوله {وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} [94].

{ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ } والعذاب الموصوف بمرّتين عذاب في الدنيا لقوله بعده { ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ }.

وقد تحيّر المفسّرون في تعيين المراد من المرّتين. وحملوه كلهم على حقيقة العدد. وذكروا وجوها لا ينشرح لها الصدر. والظاهر عندي أنّ العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد، كقوله { ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} [الملك:4]، أي تأمل تأملا متكرّرا. ومنه قول العرب: لبيك وسعديك، فأسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ. والمعنى، سنعذبهم عذابا شديدا متكرّرا مضاعفا، كقوله {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}[الأحزاب:30].
{ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } هو عذاب جهنم في الآخرة.

{ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [102]

الأظهر أنّ {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا} عطف على {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ} [101]، أي وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة آخرون أذنبوا بالتخلّف فاعترفوا بذنوبهم بالتقصير.
{ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ } إيجاز لأنّه يدلّ على أنّهم أذنبوا واعترفوا بذنوبهم ولم يكونوا منافقين، لأنّ التعبير بالذنوب بصيغة الجمع يقتضي أنّها أعمال سيئة في حالة الإيمان، وكذلك التعبير عن ارتكاب الذنوب بخلط العمل الصالح بالسيئ.
وكان من هؤلاء جماعة منهم (الجِد بن قيس، وكردم، وأرس بن ثعلبة، ووديعة ابن حزام، ومرداس، وأبو قيس، وأبو لُبابة) في عشرة نفر اعترفوا بذنبهم في التخلّف عن غزوة تبوك وتابوا إلى الله وربطوا أنفسهم في سواري المسجد النبوي أيامّا حتّى نزلت هذه الآية في توبة الله عليهم.
الاعتراف، افتعال من عرف. وهو للمبالغة في المعرفة، ولذلك صار بمعنى الإقرار بالشيء وترك إنكاره، فالاعتراف بالذنب كناية عن التوبة منه، لأنّ الإقرار بالذنب الفائت إنّما يكون عند الندم والعزم على عدم العود إليه.
{ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا } يقال: خلط كذا بكذا على اعتبار أحد الشيئين المختلطين متلابسين بالخلط. هو خلطهم حسنات أعمالهم بسيئات التخلّف عن الغزو وعدم الإنفاق على الجيش.
عسى، فعل رجاء. وهي من كلام الله تعالى المخاطب به النبيء ﷺ، فهي كناية عن وقوع المرجو، وأنّ الله قد تاب عليهم. وذكر فعل الرجاء يستتبع معنى اختيار المتكلم في وقوع الشيء وعدم وقوعه.
{ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } أي يقبل توبتهم، وتقدّم عند قوله تعالى {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ} [البقرة:37]
{ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } تذييل مناسب للمقام.

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [103]

لمّا كان من شرط التوبة تدارك ما يمكن تداركه ممّا فات، وكان التخلّف عن الغزو مشتملا على أمرين هما عدم المشاركة في الجهاد، وعدم إنفاق المال في الجهاد، جاء في هذه الآية إرشاد لطريق تداركهم ما يمكن تداركه مما فات وهو نفع المسلمين بالمال، فالأنفاق العظيم على غزوة تبوك استنفد المال المعدّ لنوائب المسلمين، فإذا أخذ من المخلفين شيء من المال انجبر به بعض الثلم الذي حلّ بمال المسلمين.

وقد روي أنّ الذين اعترفوا بذنوبهم قالوا للنبي ﷺ: هذه أموالنا التي بسببها تخلّفنا عنك، خذها فتصدّق بها وطهّرنا واستغفر لنا، فقال لهم: لم أؤمر بأن آخذ من أموالكم. حتّى نزلت هذه الآية فأخذ منهم النبيء صلى الله عليه وسلم صدقاتهم، فالضمير عائد على آخرين اعترفوا بذنوبهم.

التزكية، جعل الشيء زكيا، أي كثير الخيرات. فقوله { تُطَهِّرُهُمْ } إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله { تُزَكِّيهِمْ } إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات. ولا جرم أنّ التخلية مقدّمة على التحلية. فالمعنى أنّ هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم.

{ **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ** } الدعاء لهم. وقد كان النبيء ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا جاءه أحد بصدقته يقول: اللهم صل على آل فلان. والصلاة من الله الرحمة، ومن النبيء الدعاء.

{ **إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** } تعليل للأمر بالصلاة عليهم، أي خير. فإطلاق السكن على هذا الدعاء مجاز مرسل.

السَكَن، (بفتحتين) ما يسكن إليه، أي يطمأن إليه ويرتاح به. وهو مشتقّ من السكون بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي سلامتها من الخوف ونحوه، لأنّ الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنّها غير مستقرّة، ولذلك سمّي ذلك قلقا لأنّ القلق كثرة التحرك.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم. والمراد بالسميع هنا، المجيب للدعاء. ففيه إيماء إلى التنويه بدعائه ﷺ. وذكر العليم إيماء إلى أنّه ما أمره بالدعاء لهم إلّا لأنّ في دعائه لهم خيرا عظيما.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[104]

إن كان الذين اعترفوا بذنوبهم وعرضوا أموالهم للصدقة قد بقي في نفوسهم اضطراب من خوف أن لا تكون توبتهم مقبولة وأن لا يكون الرّسول ﷺ قد رضي عنهم، كان الاستفهام تقريرا مشوبا بتعجيب من تردّدهم في قبول توبتهم.

وإن كان الذين اعترفوا بذنوبهم لم يخطر ببالهم شك في قبول توبتهم، فهو استطراد لترغيب أمثال أولئك في التوبة ممن تأخّروا عنها.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } تنبيه على أنّه كما يجب العلم بأن الله يفعل ذلك يجب العلم بأن من صفاته العُلى أنّه التّواب الرحيم.

{ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[105]

أمروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم ، لإنّ التوبة إنّما ترفع المؤاخذة بما مضى. فوجب على المؤمن الراغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصالحة ليجبر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقة بأن يعمرها بالحسنات.

{ **فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ** } زيادة في التحضيض. وتذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات. وهذا كقول النبيء ﷺ في بيان الإحسان: " هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".

{ **وَرَسُولُهُ** } عُطف على اسم الجلالة لأنّه ﷺ المبلّغ عن الله وهو الذي يتولّى معاملتهم على حسب أعمالهم.

{ **وَالْمُؤْمِنُونَ** } لأنّهم شهداء الله في أرضه، ولأنّ هؤلاء لمّا تابوا قد رجعوا إلى حضيرة جماعة الصحابة فإن عملوا مثلهم كانوا بمحلّ الكرامة منهم، وإلّا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار.

{ **وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } وعد ووعيد معا على حسب الأعمال.

{ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } تقدّم القول في نظيره آنفا.

{ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [106]

هذا فريق آخر عطف خبره على خبر الفرق الآخرين. والمراد بهؤلاء من بقي من المخلّفين لم يتب الله عليه، وكان أمرهم موقوفا إلى أن يقضي الله بما يشاء. وهؤلاء نفر ثلاثة هم: (**كعب بن مالك**، و**هِلال بن أمية**، و**مُرارة بن الربيع**)، وثلاثتهم قد تخلّفوا عن غزوة تبوك. ولم يكن تخلّفهم نفاقا ولا كراهية للجهاد ولكنّهم شغلوا عند خروج الجيش وهم يحسبون أنّهم يلحقونه وانقضت الأيام وأيسوا من اللحاق. وسأل عنهم النبيء ﷺ وهو في تبوك. فلمّا رجع النبيء ﷺ أتوه وصدقوه، فلم يكلّمهم، ونهى المسلمين عن كلامهم ومخالطتهم، وأمرهم باعتزال نسائهم، فامتثلوا وبقوا كذلك خمسين ليلة، فهم في تلك المدّة مرجون لأمر الله. وأنزل فيهم

قوله { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيء وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ - إلى قوله - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [117- 119]
وعن كعب ابن مالك في قصّته هذه حديث طويل أغر في صحيح البخاري على التوبة والتنبيه إلى فتح بابها.
{ **مُرْجَوْنَ ِلأَمْرِ اللهِ** }، أي مؤخرون لأجل أمر الله في شأنهم. وفيه حذف مضاف تقديره، لأجل انتظار أمر الله في شأنهم لأنّ التأخير مشعر بانتظار شيء.
{ **إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ** } بيان لجملة {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ} باعتبار متعلق خبرها وهو {لِأَمْرِ اللَّهِ} ، أي أمر الله الذي هو إمّا تعذيبهم، وإما توبته عليهم. ويفهم من قوله {يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} أنّهم تابوا.
{ **وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل مناسب لإبهام أمرهم على النّاس، أي والله عليم بما يليق بهم من الأمرين، محكم تقديره حين تتعلق به إرادته.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [107] لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ } [108]

أشارت الآية إلى قصّة اتخاذ المنافقين مسجدا قرب مسجد قباء لقصد الضرار، وهم طائفة من (بني غُنْم بن عَوف وبني سالم بن عوف من أهل العوالي). كانوا اثني عشر رجلا سماهم ابن عطيّة. وكان سبب بنائهم إيّاه أنّ أبا عامر واسمه عبد عمرو، ويلقّب بالراهب من بني غُنْم بن عَوف كان قد تنصّر في الجاهلية فلمّا جاء الإسلام كان من المنافقين. ثم جاهر بالعداوة وخرج في جماعة من المنافقين فحزّب الأحزاب التي حاصرت المدينة في وقعة الخندق فلمّا هزمهم الله أقام أبو عامر بمكّة. ولمّا فتحت مكّة هرب إلى الطائف، فلمّا فتحت الطائف وأسلمت ثقيف خرج أبو عامر إلى الشام يستنصر بقيصر، وكتب إلى المنافقين من قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجدا ليخلصوا فيه بأنفسهم، ويعدهم أنّه سيأتي في جيش من الروم ويخرج المسلمين من المدينة. فانتدب لذلك اثنا عشر رجلا من المنافقين بعضهم من بني عمرو بن عوف وبعضهم من أحلافهم من بني ضبيعة بن زيد وغيرهم، فبنوه بجانب مسجد قباء، وذلك قبيل مخرج رسول الله ﷺ إلى تبوك. وأتوا النبيء ﷺ وقالوا: بنينا مسجدا لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة، ونحن نحب أن تصلّي لنا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ "إنّي على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلّينا فيه ". فلمّا قفل من غزوة تبوك سألوه أن يأتي مسجدهم فأنزل الله هذه الآية، وحلفوا أنّهم ما أرادوا به إلّا خيرا.
الضرار، مصدر ضار مبالغة في ضرّ، أي ضرارا لأهل الإسلام.

التفريق بين المؤمنين هو ما قصدوه من صرف بني غنم وبني سالم عن قباء.
الإرصاد، التهيئة.
{ **لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ** } المراد به (أبو عامر الراهب)، لأنّه حارب رسول الله ﷺ مع الأحزاب وحاربه مع ثقيف وهوازن.
الحسنى، الخير.
{ **لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا** } المراد بالقيام الصلاة، لأنّ، أولها قيام.
ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبيء ﷺ فيه تكسبه يمنا وبركة، وبذلك يحصل غرض المنافقين من وضعه للتفريق بين جماعة المسلمين. وهذا النهي يعم جميع المسلمين، ولذلك أمر رسول الله ﷺ (**عمار بن ياسر**، و**وحشيا مولى المطعم بن عدي**، و**مالك بن الدخشم**، و**معن بن عدي**) فقال: " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه"، ففعلوا. وتحريقه تحريق الأعواد التي يتخذ منها السقف، والجذوع التي تجعل له أعمدة.
{ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** } أمره الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار، أن يصلّي في مسجده أو في مسجد قباء، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان، أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم. وفيه أيضا دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول ﷺ بأّه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع.
وثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري أنّ النبيء ﷺ سئل عن المراد من المسجد الذي أسّس على التقوى في هذه الآية فقال: " هو مسجدكم هذا ". يعني المسجد النبوي بالمدينة. وثبت في الصحيح أيضا أنّ النبيء ﷺ بيّن (الرجال الذين يحبون أن يتطهروا) بأنّهم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء. وذلك يقتضي أنّ المسجد الذي أسس على التقوى من أوّل يوم هو مسجدهم، لقوله {فِيهِ رِجَالٌ}
ووجه الجمع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} المسجد الذي هذه صفته، لا مسجدا واحدا معينا، فيكون هذا الوصف كلّيا انحصر في فردين، المسجد النبوي ومسجد قباء، فأيّهما صلى فيه رسول الله ﷺ في الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار كان ذلك أحقّ وأجدر، فيحصل النجاء من حظ الشيطان في الامتناع من الصلاة في مسجدهم، ومن مطاعنهم أيضا.
ويحصل الجمع بين الحديثين الصحيحين. وقد كان قيام الرسول في المسجد النبوي هو دأبه.
{ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا** } ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلّون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قباء. وقد كان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء كما دلّ عليه حديث رواه الدارقطني عن أبي أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ في هذه الآية { فِيهِ رِجَالٌ

يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} فقال: " يا معشر الأنصار إنّ الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم؟ قالوا: إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء. قال: هو ذلك فعليكموه" ، فهذا يعم الأنصار كلّهم. ولا يعارضه حديث أبي داود أن رسول الله ﷺ سأل أهل قباء عن طهارتهم لأنّ أهل قباء هم أيضا من الأنصار، فسؤاله إياهم لتحقق اطراد هذا التطهر في قبائل الأنصار.

{ **يُحِبُّونَ** } قصد التنويه بهم بأنّهم يتطهرون تقربا إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم إيّاها، بحيث صارت الطهارة خلقا لهم فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.

{ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** } تذييل. وفيه إشارة إلى أنّ نفوسهم وافقت خلقا يحبّه الله تعالى. وكفى بذلك تنويها بزكاء أنفسهم.

{ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[109]

زيادة بيان أحقيّة المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه.

{ **أَفَمَنْ أَسَّسَ** } الفاء مؤخرة عن همزة الاستفهام لأحقيّة حرف الاستفهام بالتصدير. والاستفهام تقريري.

التأسيس، بناء الأساس، وهو قاعدة الجدار المبني من حجر وطين أو جص.

البنيان، اسم لإقامة البيت ووضعه سواء كان البيت من أثواب أم من أدم أم كان من حجر وطين، فكل ذلك بناء. ويطلق البنيان على المبني من الحجر والطين خاصة.

{ **عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ** } لما كان من شأن الأساس أن تطلب له صلابة الأرض لدوامه جعلت التقوى في القصد الذي بني له أحد المسجدين، فشبّهت التقوى بما يرتكز عليه الأساس على طريقة المكنية.

{ **أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** } تشبيه الضدّ بما أسّس على شفا جرف هار، وذلك بأنّ شبّه المقصد الفاسد بالبناء بجرف منهار، في عدم ثبات ما يقام عليه من الأساس بله البناء، على طريقة الاستعارة التصريحيّة.

والمقصود أنّ البنيان الأوّل حصل منه غرض بانيه، لأنّ غرض الباني دوام ما بناه. فهم لمّا بنوه لقصد التقوى ورضى الله تعالى، ولم يذكر ما يقتضي خيبتهم فيه كما ذكر في مقابله، علم أنّهم قد اتقوا الله بذلك وأرضوه ففازوا بالجنّة، كما دلت عليه المقابلة. وأنّ البنيان الثاني لم يحصل غرض بانيه، وهو الضرار والتفريق فخابوا فيما قصدوه فلم يثبت المقصد، وكان عدم ثباته مفضيا بهم إلى النّار كما يفضي البناء المنهار بساكنه إلى الهلاك.

الشَّفا، (بفتح الشين وبالقصر) حرف البئر وحرف الحفرة.

الجُرُف، (بضمتين) جانب الوادي وجانب الهوّة.
هار، اسم مشتق من هار البناء إذا تصدع.
{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل، وهو عام يشمل هؤلاء الظالمين الذين بنوا مسجد الضرار وغيرهم.

{ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [110]

{ **لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ** } يجوز أن تكون مستأنفة لتعداد مساوي مسجد الضرار بذكر سوء عواقبه بعد أن ذكر سوء الباعث عليه، وبعد أن ذكر سوء وقعه في الإسلام بأن نهي الله رسوله عن الصلاة فيه وأمره بهدمه، لأنّه لما نهاه عن الصلاة فيه فقد صار المسلمون كلهم منهيين عن الصلاة فيه، فسلب عنه حكم المساجد، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بهدمه. ويرجّح هذا الوجه أنه لم يؤت بضمير المسجد أو البنيان بل جيء باسمه الظاهر. والمعنى، أنّ ذلك المسجد لمّا بنوه لغرض فاسد فقد جعله الله سببا لبقاء النفاق في قلوبهم ما دامت قلوبهم في أجسادهم.
{ **رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ** } مبالغة، كالوصف بالمصدر. والمعنى أنّه سبب للريبة في قلوبهم.
الريبة، الشكّ، فإنّ النفاق شك في الدين، لأنّ أصحابه يتردّدون بين موالاة المسلمين والإخلاص للكافرين.
{ **إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** } استثناء تهكّمي. وهو من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه كقوله تعالى {وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف:40]، أي يبقى ريبة أبدا إلّا أن تقطع قلوبهم منهم وما هي بمقطّعة.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل مناسب لهذا الجعل العجيب والإحكام الرشيق. وهو أن يكون ذلك البناء سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة.

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[111]

استئناف ابتدائي للتنويه بأهل غزوة تبوك وهم جيش العسرة، ليكون توطئة وتمهيدا لذكر التوبة على الذين تخلّفوا عن الغزوة وكانوا صادقين في أيمانهم، وإنباء الذين أضمروا الكفر نفاقا بأنّهم لا يتوب الله عليهم ولا يستغفر لهم رسوله ﷺ. والمناسبة ما تقدّم من ذكر أحوال المنافقين الذين تسلسل الكلام عليهم.
{ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ** } افتتحت الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر.

الاشتراء، مستعار للوعد بالجزاء عن الجهاد. والمراد بالمؤمنين في الأظهر أن يكون مؤمني هذه الأمة.
{ **بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** } لمّا كان شأن الباء أن تدخل على الثمن في صيغ الاشتراء أدخلت هنا لمشابهة هذا الوعد الثمن. وليس في هذا التركيب تمثيل إذ ليس ثمة هيئة مشبهة وأخرى مشبه بها.
{ **لَهُمُ الْجَنَّةَ** } اللام للملك والاستحقاق. والمجرور مصدر، والتقدير: بتحقيق تملّكهم الجنّة.
{ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ اشتراء الأنفس والأموال لغرابته في الظاهر يثير سؤال من يقول: كيف يبذلون أنفسهم وأموالهم؟ فكان جوابه { يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }.
{ **فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** } تفريع، لأنّ حال المقاتل لا تخلو من أحد هذين الأمرين.
{ **وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا** } قال الطيبي: " أتي بالأمر في صورة الخبر ثم ألزم الله البيع من جانبه وضمن إيصال الثمن إليهم، أي لا إقالة ولا استقالة من حضرة العزّة. ثم ما اكتفى بذلك بل عين الصكوك المثبت فيها هذه المبايعة وهي التوراة والإنجيل والقرآن".
{ **فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** } حال من {وَعْدًا} . والظرفية ظرفية الكتاب للمكتوب، أي مكتوبا في التوراة والإنجيل والقرآن.
{ **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ** } في موضع الحال، أي وعدا حقّا عليه، ولا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.
{ **أَوْفَى** } اسم تفضيل من وفّى بالعهد إذا فعل ما عاهد على فعله.
العهد، الوعد بحلف والوعد الموكّد، والبيعة عهد، والوصية عهد.
{ **فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ** } تفرع على كون الوعد حقّا على الله، وعلى أن الله أوفى بعهده من كل واعد، أن يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا، فالخطاب للمؤمنين من هذه الأمة. وأضيف البيع إلى ضميرهم إظهارا لاغتباطهم به.
{ **وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } تذييل جامع، فإن اسم الإشارة الواقع في أوّله جامع لصفات ذلك البيع بعوضيه. وأكّد بضمير الفصل وبالجملة الاسمية وبالوصف بـ { الْعَظِيمُ } المفيد للأهمية.

{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ } [112]

أسماء الفاعلين هنا أوصاف للمؤمنين من قوله {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} [111] فكان أصلها الجرّ، ولكنّها قطعت عن الوصفية وجعلت أخبارا لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع، اهتماما بهذه النعوت اهتماما أخرجها عن الوصفية إلى الخبريّة، ويسمى هذا الاستعمال نعتا مقطوعا، وما هو بنعت اصطلاحي ولكنه نعت في المعنى.

{ **التَّائِبُونَ** } مراد منه أنّهم مفارقون للذنوب سواء كان ذلك من غير اقتراف ذنب يقتضي التوبة، أم كان بعد اقترافه. وأوّل التوبة الإيمان لأنّه إقلاع عن الشرك، ثم يدخل منهم من كان له ذنب مع الإيمان وتاب منه.

{ **الْعَابِدُونَ** } المؤدّون لما أوجب الله عليهم.

{ **الْحَامِدُونَ** } المعترفون لله تعالى بنعمه عليهم الشاكرون له.

{ **السَّائِحُونَ** } مشتق من السياحة. وهي السير في الأرض. والمراد به سير خاص محمود شرعا. وهو السفر الذي فيه قربة لله وامتثال لأمره، مثل سفر الهجرة من دار الكفر أو السفر للحجّ أو السفر للجهاد. وحمله هنا على السفر للجهاد أنسب بالمقام.

{ **الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ** } أي المصلّون، إذ الصلاة المفروضة لا تخلو من الركوع والسجود.

{ **الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ** } الذين يدعون النّاس إلى الهدى والرشاد وينهونهم عما ينكره الشرع ويأباه. وإنّما ذكر الناهون عن المنكر بحرف العطف دون بقية الصفات، وإن كان العطف وتركه في الأخبار ونحوها جائزين، إلّا أنّ المناسبة أنّ الصفات المذكورة قبل قوله {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} ظاهرة في استقلال بعضها عن بعض. ثم لما ذكر {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} علم أن المراد الجامعون بينهما، أي المصلون بالنسبة إلى المسلمين. ولما جاء بعده {الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ} وكانا صفتين مستقلتين عطفتا بالواو لئلا يتوهم اعتبار الجمع بينهما كالوصفين اللذين قبلهما.

وقال جمع من العلماء: إن الواو في قوله {وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ} واو يكثر وقوعها في كلام العرب عند ذكر معدود ثامن، وسموها واو الثمانية.

{ **وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** } صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية عند توجّهها. وحقيقة الحفظ توخي بقاء الشيء في المكان الذي يراد كونه فيه. ويطلق مجازا شائعا على ملازمة العمل بما يؤمر به. أي غير المضيّعين لشيء من حدود الله.

الحدود، مجاز على الوصايا والأوامر. فالحدود تشمل العبادات والمعاملات. ولذلك ختمت بها هذه الأوصاف. وعطفت بالواو لئلا يوهم ترك العطف أنّها مع التي قبلها صفتان متلازمتان معدودتان بعد صفة الأمر بالمعروف.

{ **وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ** } عطف على جملة {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} [111] عطف إنشاء على خبر. والبشارة تقدمت مرارا.

{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }[113]

استئناف نسخ به التخيير الواقع في قوله تعالى {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [80].

ولعلّ الغرض الذي لأجله أبقي التخيير في الاستغفار لهم قد ضعف ما فيه من المصلحة ورجح ما فيه من المفسدة بانقراض من هم أهل لحسن القول وغلبة الدهماء من المنافقين الذين يحسبون أنّ استغفار النبيء ﷺ لهم يغفر لهم ذنوبهم فيصبحوا فرحين بأنّهم ربحوا الصفقتين وأرضوا الفريقين.

ولعلّ المسلمين لمّا سمعوا تخيير النبيء في الاستغفار للمشركين ذهبوا يستغفرون لأهليهم وأصحابهم من المشركين، فأصبح ذلك ذريعة إلى اعتقاد مساواة المشركين للمؤمنين في المغفرة فينتفي التفاضل الباعث على الرغبة في الإيمان، فنهى الله النبيء ﷺ والمؤمنين معا عن الاستغفار للمشركين.

وأمّا ما روي في أسباب النزول أنّ هذه الآية نزلت في استغفار النبيء ﷺ لأبي طالب، أو أنّها نزلت في سؤاله ربّه أن يستغفر لأمّه آمنة حين زار قبرها بالأبواء. فهما خبران واهيان، لأنّ هذه السورة نزلت بعد ذلك بزمن طويل.

{ مَا كَانَ } جاءت صيغة النهي بطريق نفي الكون مع لام الجحود مبالغة في التنزه عن هذا الاستغفار، كما تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } [المائدة:116]

{ لِلْمُشْرِكِينَ } ويدخل في المشركين المنافقون الذين علم النبيء ﷺ نفاقهم والذين علم المسلمون نفاقهم بتحقق الصفات التي أعلنت عليهم في هذه السورة وغيرها.

{ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى } زيادة للمبالغة في استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة. وهذه المبالغة لقطع المعذرة عن المخالف.

{ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [114]

معطوفة على جملة {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ} [113]. وهي من تمام الآية باعتبار ما فيها من قوله {وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى} إذ كان شأن ما لا ينبغي لنبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام أن لا ينبغي لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنّ معظم أحكامهم متّحدة إلّا ما خصّ به نبيّنا من زيادة الفضل.

الموعدة، اسم للوعد. والوعد صدر من أبي إبراهيم لا محالة. فالتفسير الصحيح أنّ أبا إبراهيم وعد إبراهيم بالإيمان، فكان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له لأنّه ظنّه متردّدا في عبادة الأصنام. فسأل الله له المغفرة.

{ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ** } إمّا بالوحي بأن نهاه الله عن الاستغفار له، وإمّا بعد أن مات على الشرك.
التبرؤ، تفعّل من بريء من كذا إذا تنزّه عنه، فالتبرّؤ مبالغة في البراءة.
{ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** } استئناف ثناء على إبراهيم.
{ **أَوَّاهٌ** } فسّر بمعان ترجع إلى الشفقة، إمّا على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإمّا على النّاس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم.
الحليم، صاحب الحلم. والحِلم (بكسر الحاء) صفة في النفس وهي رجاحة العقل وثباتة ورصانة وتباعد عن العدوان. أي عدم القسوة.

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[115]

عطف على الآية السابقة، لاعتذار عن النبيء وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - في استغفارهما لمن استغفرا لهما من أولي القربى كأبي طالب وآزر، ومن الأمّة كعبد الله بن أبي بن سلول، بأنّ فعلهما ذلك ما كان إلّا رجاء منهما هدى من استغفرا له، وإعانة له إن كان الله يريده، فلمّا تبيّن لهما الثابتُ على كفره إمّا بموته عليه أو باليأس من إيمانه، تركا الاستغفار له، وذلك كلّه بعد أن أبلغا الرسالة ونصحا لمن استغفرا له.
{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا** } لفظ الآية صالح لإفادة معنى أنّ الله لا يؤاخذ النبيء ﷺ ولا إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين باستغفارهم لمن استغفروا له من قبل ورود النهي وظهور دليل اليأس من المغفرة، لأنّ الله لا يؤاخذ قوما هداهم إلى الحق فيكتبهم ضُلالا بالمعاصي حتّى يبيّن لهم أنّ ما عملوه معصية، فموقع هذه الآية بعد جميع الكلام المتقدّم صيّرها كلاما جامعا تذييلا.
{ **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل مناسب للجملة السابقة، ووقوع {إِنَّ} في أولها يفيد معنى التفريع.

{ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}[116]

تذييل ثان في قوة التأكيد لقوله {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [115]، ولذلك فصل بدون عطف لأنّ ثبوت ملك السماوات والأرض لله تعالى يقتضي أن يكون عليما بكل شيء، لأنّ تخلّف العلم عن التعلّق ببعض المتملكات يفضي إلى إضاعة شؤونها.
الملك، التصرف والتدبير. وقد تقدّم عند قوله تعالى {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:4].
{ **يُحْيِ وَيُمِيتُ** } زيادة لتصوير معنى الملك في أتمّ مظاهره المحسوسة.
{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ** } لتأييد المسلمين بأنّهم منصورون في سائر الأحوال، لأنّ الله

وليّهم فهو نصير لهم، ولإعلامهم بأنّهم لا يخشون الكفار لأنّ الكافرين لا مولى لهم لأنّ الله غاضب عليهم. وذلك مناسب لغرض الكلام المتعلّق باستغفارهم للمشركين بأنه لا يفيدهم.

الولي، تقدّم معناه عند قوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا} [الأنعام:14]

النصير، الناصر.

{ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيء وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }[117]

انتقال من التحريض على الجهاد والتحذير من التقاعس والتوبيخ على التخلّف، وما طرأ على ذلك التحريض من بيان أحوال النّاس تجاه ذلك التحريض وما عقّبه من أعمال المنافقين والضعفاء والجبناء، إلى بيان فضيلة الذين انتدبوا للغزو واقتحموا شدائده، فالجملة استئناف ابتدائي.

ومن المحسّنات، افتتاح هذا الكلام بما يؤذن بالبشارة لرضى الله على المؤمنين الذين غزوا تبوك.

وتقديم النبيء ﷺ في تعلّق فعل التوبة بالغزاة للتنويه بشأن هذه التوبة وإتيانها على جميع الذنوب، إذ قد علم المسلمون كلّهم أنّ النبيء ﷺ قد غفر الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

فمعنى التوبة على النبيء والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه، أنّ الله لا يؤاخذهم بما قد يحسبون أنّه يسبّب مؤاخذة، كقول النبيء ﷺ: " لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ".

المهاجرون والأنصار، هم مجموع أهل المدينة، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكّة، ولكنّهم خصّوا بالثناء لأنّهم لم يتردّدوا ولم يتثاقلوا ولا شحّوا بأموالهم، فكانوا إسوة لمن اتّسى بهم من غيرهم من القبائل.

{ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } وصف المهاجرون والأنصار، للإيماء إلى أنّ لصلة الموصول تسبُّبا في هذه المغفرة.

{ اتَّبَعُوهُ } أطاعوه ولم يخالفوا عليه، فالاتباع مجازي.

الساعة، الحصة من الزمن.

العسرة، اسم العسر، زيدت فيه التاء للمبالغة وهي الشدّة.

وساعة العسرة هي زمن استنفار النبيء ﷺ النّاس إلى غزوة تبوك. فالذين انتدبوا وتأهبوا وخرجوا هم الذين اتّبعوه، فأمّا ما بعد الخروج إلى الغزو فذلك ليس هو الاتباع ولكنّه الجهاد.

{ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ } اي من المهاجرين والأنصار، فإنّه متعلق بـ {اتَّبَعُوهُ} أي اتّبعوا أمره بعد أن خامر فريقا منهم خاطر التثاقل والقعود والمعصية بحيث يشبهون المنافقين، فانّ ذلك لا يتصور وقوعه بعد الخروج، وهذا الزيغ لم يقع ولكنه قارب الوقوع.

{ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** } عطف على {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ} أي تاب على غير هذا الفريق مطلقا، وتاب على هذا الفريق بعد ما كادت قلوبهم تزيغ، فتكون {ثُمَّ} على أصلها من المهلة.

{ **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** } تعليل لما قبلها.

{ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [118]

{ **الثَّلاثَةِ** } تعريف العهد فإنّهم كانوا معروفين بين النّاس، وهم (**كعب ابن مالك** من بني سلمة، و**مُرارة بن الربيع العمري** من بني عمرو بن عوف، و**هلال بن أمية الواقفي** من بني واقف)، كلّهم من الأنصار تخلّفوا عن غزوة تبوك بدون عذر. ولما رجع النبيء ﷺ من غزوة تبوك سألهم عن تخلّفهم فلم يكذبوه بالعذر ولكنّهم اعتذروا بذنبهم وحزنوا. ونهى رسول الله ﷺ النّاس عن كلامهم، وأمرهم بأن يعتزلوا نساءهم. ثم عفا الله عنهم بعد خمسين ليلة. وحديث كعب بن مالك في قصته هذه مع الآخرين في صحيح البخاري وصحيح مسلم طويل أغر.

{ **خُلِّفُوا** } بتشديد اللام مضاعف خَلَفَ المخفف الذي هو فعل قاصر، معناه أنّه وراء غيره.

تخليف مجازي استعير لتأخير البت في شأنهم، أي الذين خلّفوا عن القضاء في شأنهم فلم يعذرهم رسول الله ﷺ ولا أيسهم من التوبة كما أيس المنافقين. فالتخليف هنا بمعنى **الإرجاء**. وبهذا التفسير فسّره كعب بن مالك في حديثه المروي في (الصحيح) فقال: " وليس الذي ذكر الله مما خلّفنا عن الغزو وإنما تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه ".

{ **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** }

ضيق الأرض، استعارة، أي حتّى كانت الأرض كالضيقة عليهم، أي عندهم. وذلك التشبيه كناية عن غمّهم وتنكّر المسلمين لهم.

{ **بِمَا رَحُبَتْ** } حال من {الأَرْضُ} . والباء للملابسة، أي تخيلوا الأرض ضيّقة وهي الأرض الموصوفة بسعتها المعروفة.

ضيق أنفسهم، استعارة للغمّ والحزن، لأنّ الغمّ يكون في النفس بمنزلة الضيق. ولذلك يقال للمحزون: ضاق صدره، وللمسرور: شُرح صدره.

{ **وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ** }

الظن، مستعمل هنا في اليقين والجزم، وهو من معانيه الحقيقية. و تقدّم عند قوله تعالى {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ} [البقرة:46]، أي وأيقنوا أنّ أمر التوبة عليهم موكول إلى الله دون غيره بما يوحي به إلى

رسوله، أي التجأوا إلى الله دون غيره. وهذا كناية عن أنّهم تابوا إلى الله وانتظروا عفوه.
{ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** } عطف على ضاقت عليهم الأرض وما بعده، أي حتّى وقع ذلك كلّه ثم تاب عليهم بعده.
و{ثُمَّ} هنا للمهلة والتراخي الزمني وليست للتراخي الرتبي.
{ **لِيَتُوبُوا** } للتعليل، أي تاب عليهم لأجل أن يكفّوا عن المخالفة ويتنزهوا عن الذنب، أي ليدوموا على التوبة. فالفعل مستعمل في معنى الدوام على التلبس بالمصدر لا على إحداث المصدر.
{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } تذييل مفيد للامتنان.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [119]

الظاهر أن هذه الآية خاتمة للآي السابقة وليست فاتحة غرض جديد. ففي صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك حين تخلّف عن غزوة تبوك أنه قال: " فوالله ما أعلم أحدا.. أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني ما تعمّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا وانزل الله على رسوله {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيء وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ- إلى قوله - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [117- 119].
فهذه الآية بمنزلة التذييل للقصّة، فإن القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذبا فغضب الله عليهم، وقوم تخلّفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلمّا كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلّها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة.
{ **كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } الأمر أبلغ في التخلّق بالصدق من نحو: اصدقوا.

{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [120]

استئناف ابتدائي لإيجاب الغزو على أهل المدينة ومن حولهم من أهل باديتها الحافين بالمدينة إذا خرج النبيء ﷺ للغزو. فهذا وجوب عيني على هؤلاء شرّفهم الله بأن جعلهم جند النبيء ﷺ وحرس ذاته.
{ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ** } خبر مستعمل في إنشاء الأمر على طريق المبالغة، إذ جعل التخلّف ليس مما ثبت لهم، فهم براء منه، فيثبت لهم ضدّه وهو الخروج مع النبيء ﷺ إذا غزا.

{ **وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ** } هم: مزينة، وأشجع، وغفار، وجهينة، وأسلم.
فيه ثناء على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لما قاموا به من غزو تبوك، فهو يقتضي تحريضهم على ذلك. وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب.
قال قتادة وجماعة: هذا الحكم خاص بخروج النبيء ﷺ دون غيره من الخلفاء والأمراء فهو محكم غير منسوخ. وبذلك جزم ابن بطال من المالكية. قال زيد بن أسلم وجابر ابن زيد: كان هذا حكما عاما في قلة الإسلام واحتياجه إلى كثرة الغزاة ثم نسخ لما قوي الإسلام بقوله تعالى {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [122] فصار وجوب الجهاد على الكفاية. وقال ابن عطية: هذا حكم من استنفرهم الإمام بالتعيين، لأنّه لو جاز لهؤلاء التخلف لتعطل الخروج. واختاره فخر الدين.
التخلّف، البقاء في المكان بعد الغير ممن كان معه فيه، وقد تقدم عند قوله {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} [81]
الرغبة، تُعدّى بحرف (في) فتفيد معنى مودّة تحصيل الشيء والحرص فيه، وتعدى بحرف (عن) فتفيد معنى المجافاة للشيء. وهي هنا معداة بـ (عن). أريد برغبتهم عن نفسه محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرّسول. وهذا نهي بليغ وتوبيخ لهم، وتهييج لمتابعته بأنفة وحميّة.
الظمأ، العطش، و**النصب**، التعب، و**المخصمة**، الجوع.
{ **وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ** } مصدر ميمي للوطء، الدوس بالأرجل. والوطء في سبيل الله هو الدوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل وأرجل الغزاة في أرض العدو، فإنّه الذي يغيظ العدو ويغضبه، لأنّه يأنف من وطء أرضه بالجيش. ويجوز أن يكون الوطء هنا مستعارا لإذلال العدو وغلبته وإبادته.
النيل، مصدر ينالون. يقال: نال منه إذا أصابه برزء.
{ **إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** } الاستثناء مفرغ من عموم الأحوال. والمعنى، أن يكتب لهم بكل شيء من أنواع تلك الأعمال عمل صالح، أي جعل الله كل عمل من تلك الأعمال عملا صالحا وإن لم يقصد به عاملوه تقربا إلى الله، فإنّ تلك الأعمال تصدر عن أصحابها وهم ذاهلون في غالب الأزمان أو جميعها عن الغاية منها فليست لهم نيّات بالتقرّب بها إلى الله ولكن الله تعالى بفضله جعلها لهم قربات باعتبار شرف الغاية منها. وذلك بأن جعل لهم عليها ثوابا كما جعل للأعمال المقصود بها القربة، كما ورد أن نوم الصائم عبادة.
{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } دلّ هذا التذييل على أنّهم كانوا بتلك الأعمال محسنين.

{ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[121]

انتقال من عداد الكُلف التي تصدر عنهم بلا قصد في سبيل الله إلى بعض الكُلف التي لا تخلو عن استشعار من تحلّ بهم بأنّهم لقوها في سبيل الله. فالنفقة في سبيل الله لا تكون إلّا عن قصد، والنفقة الكبيرة أدخل في القصد. وكان هذا الإطناب في عد مناقبهم في الغزو لتصوير ما بذلوه في سبيل الله.

قطع الوادي، هو اجتيازه على وجه الاستعارة.

{ **إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ** } أي كتب الله لهم صالحا ليجزيهم عن أحسن أعمالهم.

{ **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } ولمّا كان هذا جزاء عن عملهم المذكور علم أنّ عملهم هذا من أحسن أعمالهم. أي عن أحسن ما كانوا يعملون أو بأحسن ما كانوا يعملون.

{ **كَانُوا** } والإتيان بخبرها مضارعا { **يَعْمَلُونَ** } إفادة أنّ مثل هذا العمل كان ديدنهم.

{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }[122]

كان غالب ما تقدّم من هذه السورة تحريضا على الجهاد وتنديدا على المقصّرين في شأنه، وانتهى الكلام قبل هذا بتبرئة أهل المدينة والذين حولهم من التخلّف عن رسول الله ﷺ، فلا جرم كانت قوّة الكلام مؤذنة بوجوب تمحضّ المسلمين للغزو.

وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بثّ علومه وآدابه بين الأمّة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقّب التحريض على الجهاد بما يبيّن أن ليس من المصلحة تمحضّ المسلمين كلّهم لأن يكونوا غزاة أو جندا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث أنّ كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسّع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه. فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان.

{ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** } من محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم إذ افتتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ}[120]، وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك.

{ **لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** } الخروج إلى الغزو المأخوذ من قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} [38]، أي وما كان المؤمنون لينفروا ذلك النفر كلّهم.

{ **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** } المراد ليتفقه منهم طائفة وهي الطائفة التي لم تنفر.

والإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفي، وهو خبر مستعمل في النهي فتأكيده يفيد تأكيد النهي، أي كونه نهيا جازما يقتضي التحريم. وذلك أنّه كما كان النفر للغزو واجبا لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة، كذلك كان تركه متعينا على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم.

الفرقة، الجماعة من النّاس الذين تفرّقوا عن غيرهم في المواطن. فالقبيلة فرقة، وأهل البلاد الواحدة فرقة.

الطائفة، الجماعة، ولا تتقيّد بعدد. وتقدم عند قوله {فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ} [النساء:102]

التفقّه، تكلّف الفقاهة، وهي مشتقة من فقِه (بكسر القاف) إذا فهم ما يدق فهمه فهو فاقه. فالفقه أخص من العلم، ولذلك نجد في القرآن استعمال الفقه فيما يخفى علمه كقوله {لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء:44].

ويجيء منه فقُه (بضم القاف) إذا صار الفقه سجيته، فقاهة فهو فقيه.

ولما كان مصير الفقه سجيّة لا يحصل إلا بمزاولة ما يبلّغ إلى ذلك كانت صيغة التفعل المؤذنة بالتكلّف. وفي هذا إيماء إلى أنّ فهم الدين أمر دقيق المسلك لا يحصل بسهولة. ولذلك جاء في الحديث الصحيح: " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين". ولذلك جزم العلماء بأنّ الفقه أفضل العلوم.

وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنّه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد.

الإنذار، الإخبار بما يُتوقع منه شر. والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة. ومنه النذير. فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه لأنّه أهم. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ.

{ **لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** } حذف المفعول للتعميم، أي يحذرون ما يُحذر، وهو فعل المحرمات وترك الواجبات.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [123]

كان جميع بلاد العرب خلص للإسلام قبل حجّة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم، فكانت غزوة تبوك أوّل غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وضعت الجزية على(**أَيْلَةَ** و **بُصرى**)، وكانت تلك الغزوة إرهابا للنصارى، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصيّة بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } في توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبيء إيماء إلى أنّ النبيء عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك وأنّ أجله الشريف قد اقترب. ولعلّ في قوله {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم عليه الصلاة والسلام.

الغِلظة، (بكسر الغين) الشدّة الحسية والخشونة، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة. والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتّى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين.

وإنّما وقعت هذه المبالغة لما عليه العدو من القوّة، فإنّ المقصود من الكفّار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم الروم، وهم أصحاب عَدد وعُدد، فلا يجدون الشدة من المؤمنين إلّا إذا كانت شدة عظيمة.

ومن وراء صريح هذا الكلام تعريض بالتهديد للمنافقين، إذ قد ظهر على كفرهم وهم أشدّ قربا من المؤمنين في المدينة.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } تأييد وتشجيع ووعد بالنصر إن اتقوا بامتثال الأمر بالجهاد. وافتتحت الجملة بـ {اعْلَمُوا} للاهتمام بما يراد العلم به.

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [124] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [125]

عطف على قوله {وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [86] وهذا عود إلى بيان أحوال المنافقين وما بينهما اعتراضات.

وهذه الآية زيدت فيها (ما) عقب (إذا) وزيادتها للتأكيد، أي لتأكيد معنى (إذا) وهو الشرط، لأنّ هذا الخبر لغرابته كان خليقا بالتأكيد، ولأنّ المنافقين ينكرون صدوره منهم بخلاف الآية السابقة لأنّ مضمونها حكاية استيذانهم وهم لا ينكرونه.

{ **فَمِنْهُمْ** } عائد إلى المنافقين للعلم بالمعاد من المقام، فالمنافقون خاطرون بذهن السامع فيكون الإتيان بضمير يعود عليهم تقوية لذلك التعريض.

{ **أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً** } خطاب بعضهم لبعض على سبيل التهكّم بالمؤمنين وبالقرآن، لأنّ بعض آيات القرآن مصرّحة بأنّ القرآن يزيد المؤمنين إيمانا قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً} [الأنفال: 2].

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } للتفريع على حكاية استفهامهم بحمله على ظاهر حاله وصرفه عن مقصدهم منه. وتلك طريقة الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقّب، بحمل كلامه

على خلاف مراده لنكتة، وهي هنا إبطال ما قصدوه من نفي أن تكون السورة تزيد أحدا إيمانا قياسا على أحوال قلوبهم فأجيب استفهامهم بهذا التفصيل المتفرّع عليه، فأثبت أن للسورة زيادة في إيمان بعض النّاس وأكثر من الزيادة، وهو حصول البشر لهم.

{ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } ارتقي في الجواب عن مقصدهم من الإنكار بأنّ السورة ليست منفيا عنها زيادة في إيمان بعض النّاس فقط بل الأمر أشد إذ هي زائدة في كفرهم، فالقسم الأول المؤمنون زادتهم إيمانا وأكتسبتهم بشرى فحصل من السورة لهم نفعان عظيمان، والقسم الثاني الذين في قلوبهم مرض زادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون.

فالوجه أن تكون {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} معطوفة على {فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً} وأن تكون {وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} معطوفة على {فَزَادَتْهُمْ رِجْساً} لأن مضمون كلتا الجملتين مما أثرته السورة. أما جملة{وَهُمْ كَافِرُونَ} فهي حال من ضمير {مَاتُوا }.

وقوبل قوله {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} في جانب المؤمنين بقوله {وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} في جانب المنافقين تحسينا بالازدواج، بحيث كانت للسورة فائدتان للمؤمنين ومصيبتان على المنافقين، فجعل موتهم على الكفر المتسبب على زيادة السورة في كفرهم بمنزلة مصيبة أخرى غير الأولى وإن كانت في الحقيقة زيادة في المصيبة الأولى.

هذا وجه نظم الآية على هذا النسج من البلاغة والبديع، وقد أغفل فيما رأيت من التفاسير، فمنها ما سكت عن بيانه. ومنها ما نشرت فيه معاني المفردات وترك جانب نظم الكلام.

الاستبشار، أثر البشرى في النفس، فالسين والتاء للتأكيد، وتقدم في قوله تعالى: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ} [آل عمران:171].

الرجس، هنا الكفر. وأصله الشيء الخبيث.

والمراد بزيادة الإيمان وبزيادة الرجس الرسوخ والتمكن من النفس.

المرض في القلوب، تقدم في قوله تعالى {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة:10]

{ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ }[126]

عطف على {فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ} [125] فهي من تمام التفصيل. وقدّمت همزة الاستفهام على حرف العطف على طريقة تصدير أدوات الاستفهام. والتصدير للتنبيه على أنّ الجملة في غرض الاستفهام.

والاستفهام هنا إنكار وتعجيب لعدم رؤيتهم فتنتهم فلا تعقبها توبتهم ولا تذكّرهم أمر ربّهم. والغرض من هذا الإنكار هو الاستدلال على ما تقدّم من ازدياد كفر المنافقين وتمكّنه كلّما نزلت سورة من القرآن بإيراد دليل

واضح ينزل منزلة المحسوس المرئي حتّى يتوجّه الإنكار على من لا يراه.
الفتنة، اختلال نظام الحالة المعتادة للنّاس واضطراب أمرهم، مثل التقاتل، واستمرار الخوف والأمراض.
وقد تقدم ذكرها عند قوله {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:191].
{ **أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ** } أنّ الله يسلّط عليهم المصائب والمضار تنال جماعتهم ممّا لا يعتاد تكرّر أمثاله في حياة الأمم بحيث يدل تكرّر ذلك على أنّه مراد منه إيقاظ الله النّاس إلى سوء سيرتهم في جانب الله تعالى، بعدم اهتدائهم إلى الإقلاع عما هم فيه من العناد للنبيء ﷺ فإنهم لو رزقوا التوفيق لأفاقوا من غفلتهم، فعلموا أنّ ما يحلّ بهم كل عام ما طرأ عليهم إلّا من وقت تلبسهم بالنفاق.
ولا شك أن الفتنة التي أشارت إليها الآية كانت خاصة بأهل النفاق من أمراض تحلّ بهم، أو متالف تصيب أموالهم، أو جوائح تصيب ثمارهم، أو نقص من أنفسهم ومواليدهم، فإذا حصل شيئان من ذلك في السنة كانت الفتنة مرتين.
{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي لأن المعطوف بها هو زائد في رتبة التعجيب من شأنه على المعطوف عليه، فإن حصول الفتنة في ذاته عجيب، وعدم اهتدائهم للتدارك بالتوبة والتذكر أعجب.
{ **وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** } ولم يقل: ولا يذكّرون، قصدا لإفادة التقوّي، أي انتفاء تذكرهم محقّق.

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [127]

عطف على {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً} [124].
ونظر بعضهم إلى بعض عند نزول السورة يدلّ على أنّهم كانوا حينئذ في مجلس النبيء ﷺ لأنّ نظر بعضهم إلى بعض تعلقت به أداة الظرفية، وهي (إذا). ويدلّ لذلك أيضا قوله { ثُمَّ انْصَرَفُوا}، أي عن ذلك المجلس.
ويدلّ أيضا على أن السورة مشتملة على كشف أسرارهم وفضح مكرهم لأنّ نظر بعضهم إلى بعض هو نظر تعجّب واستفهام. ويدلّ أيضا على أنّهم كاتمون تعجّبهم من ظهور أحوالهم خشية الاعتراف بما نسب إليهم ولذلك اجتزوا بالتناظر دون الكلام. فالنظر هنا نظر دال على ما في ضمير الناظر من التعجب والاستفهام.
{ **هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ** } بيان لجملة {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}. والتقدير، وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أمرهم نظر بعضهم إلى بعض بخائنة الأعين مستفهمين متعجبين من اطلاع النبيء ﷺ على أسرارهم، أي هل يراكم من أحد إذا خلوتم ودبّرتم أموركم، لأنّهم بكفرهم لا يعتقدون أنّ الله أطلع نبيه ﷺ على دخيلتهم.
{ **ثُمَّ انْصَرَفُوا** } لإفادة أنّهم لم يكتسبوا من نزول السورة التي أطلعت المؤمنين على أسرارهم عبرة ولا قربا من الإيمان، بل كان قصارى أمرهم التعجّب والشك في أن يكون قد اطّلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثم

انصرفوا كأن لم تكن عبرة. وهذا من جملة الفتن التي تحلّ بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون.

{ **صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** } مستأنفة استئنافيا بيانيا. وكان ذلك عقابا لهم بسبب أنهم {قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} ، أي لا يفهمون الدلائل، بمعنى لا يتطلّبون الهدى بالتدبر فيفهموا.

وجعل جماعة من المفسرين قوله {صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} دعاء عليهم، ولا داعي إليه، لأنّ دعاء الله على مخلوقاته تكوين كما تقدّم، ولأنّه يأباه تسبيبه بقوله { **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** }

{ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** [128] **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** } [129]

كانت هذه السورة سورة شدّة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصّرين في شأنه. وتخلل ذلك تنويه بالمتّصفين بضدّ ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسرة.

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنّة ببعثة محمد ﷺ والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصّها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أنّ ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلّا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله ﷺ بقوله {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدّة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدّة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفّقه الله إليها.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة.

{ **جَاءَكُمْ** } وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام.

وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما (**لام - قد**) مع كون مضمونها ممّا لا يتطرّق إليه الإنكار، لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره.

المجيء، مستعمل مجازا في الخطاب بالدعوة إلى الدين. وهو استعمال شائع في القرآن.

الأنفس، جمع نفس، وهي الذات. أي هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق. يقال: هو قريشي من أنفسهم، فمعنى {مِنْ أَنْفُسِكُمْ} من صميم نسبكم. وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم، وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناواته، وأنّ الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف: 44] أي يبقي منه لكم ذكر حسن.

العزيز، الغالب. والعزّة: الغلبة. يقال عزّه إذا غلبه. ومنه {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} [ص: 23]، فإذا عدّي بـ (على) دلّ على معنى الثقل والشدّة على النفس.

{ **عَنِتُّمْ** } : تعبتم. والعنت: التعب، أي شاق عليه حزنكم وشقاؤكم. وهذا كقوله {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 3] وذكر هذا في صفة الرسول عليه السلام يفيد أن هذا خلق له، فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمّة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة. ومن آثار ذلك شفاعته للنّاس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب. ثم إنّ ذلك يومي إلى أنّ شرعه جاء مناسبا لخلقه فانتفى عنه الحرج والعسر قال تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185].

الرؤوف: الشديد الرأفة. و**الرحيم**: الشديد الرحمة، لأنهما صيغتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرور المتعلّق بهما وهو { بِالْمُؤْمِنِينَ }. وبينهما عموم وخصوص مطلق، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة.

الرأفة، رقة تنشأ عند حدوث ضرّ بالمرءوف به.

الرحمة، رقّة تقتضي الإحسان للمرحوم.

{ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** }، تقديم المتعلق على عامليه المتنازعينه، للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم. وأمّا رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبيياء:107] فهي رحمة مشوبة بشدّة على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** } **التولّي**، الإعراض والإدبار: وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد. والفاء للتفريع على إرسال النبيء ﷺ صاحب هذه الصفات إليهم فإنّ صفاته المذكورة تقتضي من كل ذي عقل سليم من العرب الإيمان به واتّباعه لأنّه من أنفسهم، ومحبّ لخيرهم رؤوف رحيم بمن يتّبعه منهم، فتفرّع عليه أنّهم محقوقون بالإيمان به، فإن آمنوا فذاك وان لم يؤمنوا فإنّ الله حسيبه وكافيه.

وبعد التفريع التفت الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبيء ﷺ بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتمادا على قرينة حرف التفريع فقيل له.

{ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** }. والتقدير: فإن توليتم عنه فحسبه الله. فجيء بهذا النظم البديع الإيجاز مع ما فيه من براعة الإيماء إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم.

الحسب، الكافي، أي كافيك شرّ إعراضهم، لأنّهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق. وتلك حالة مظنّة السعي في الكيد والأذى.

{ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ** } أن يقول ذلك قولا ناشئا عن عقد القلب عليه، أي فاعلم أن حسبك الله وقل حسبي الله، لأنّ

القول يؤكد المعلوم ويرسّخه في نفس العالم به، ولأنّ في هذا القول إبلاغا للمعرضين عنه بأنّ الله كافيه إياهم.

التوكّل، التفويض. وهو مبالغة في وكّل.

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة لأنّه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها ولم يؤمر بمجرد التوكّل كما أمر في قوله {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [النمل: 79]. ولا أخبر بأنّ الله حسبه مجرّد إخبار كما في قوله {فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ} [الأنفال: 62]

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } مستأنفة للثناء، أو في موضع الحال وهي ثناء بالوحدانيّة.

{ **وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** } للثناء بعظيم القدرة لأنّ من كان ربا للعرش العظيم ثبت أنّه قدير، لأنّه قد اشتهر أنّ العرش أعظم المخلوقات، ولذلك وصف بالعظيم.

وفي هاتين الآيتين إشعار بالإيداع والأعذار للنّاس، وتنبيه إلى المبادرة باغتنام وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم ليتشرّفوا بالإيمان به وهم يشاهدونه ويقتبسون من أنوار هديه، لأنّ الاهتداء بمشاهدته والتلقّي منه أرجى لحصول كمال الإيمان والانتفاع بقليل من الزمان لتحصيل وافر الخير الذي لا يحصل مثله في أضعاف ذلك الزمان.

وفيهما أيضا إيماء إلى اقتراب أجل النبيء ﷺ لأنّ التذكير بقوله { لَقَدْ جَاءَكُمْ } يؤذن بأنّ هذا المجيء الذي مضى عليه زمن طويل يوشك أن ينقضي، لأنّ لكل وارد قفولا، ولكل طالع أفولا. وقد روي عن أبي بن كعب وقتادة أن هاتين الآيتين هما أحدث القرآن عهدا بالله عز وجل، أي آخر ما نزل من القرآن. وقيل: إن آخر القرآن نزولا آية الكلالة خاتمة سورة النساء. وقيل آخره نزولا قوله: {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} [البقرة:281]

في صحيح البخاري من طريق شعيب عن الزهري عن ابن السباق عن زيد بن ثابت في حديث جمع القرآن في زمن أبي بكر رضي الله عنه قال زيد: " حتىّ وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري أو أبي خزيمة، لم أجدهما مع أحد غيره {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} إلى آخرهما". ومعنى ذلك أنّه بحث عن هاتين الآيتين في ما هو مكتوب من القرآن فلم يجدهما وهو يعلم أن في آخر سورة التوبة آيتين خاتمتين أو هو يحفظهما (فإن زيدا اعتنى في جمع القرآن بحفظه وبتتبع ما هو مكتوب بإملاء النبيء ﷺ وبقراءة حفاظ القرآن غيره) فوجد خزيمة أو أبا خزيمة يحفظهما. فلما أملاهما عليه تذكر زيد لفظهما وتذكرهما من سمعهما من الصحابة حين قرأوهما. كيف وقد قال أبي بن كعب: إنّهما آخر ما أنزل، فلفظهما ثابت بالإجماع، وتواترهما حاصل إذ لم يشك فيهما أحد وليس إثباتهما قاصرا على إخبار خزيمة أو أبي خزيمة.